تاريخ الموارنة ومسيحيي الشرق عبر العصور

الجزء الأول

من الألف الرابع قبل الميلاد إلى الألف الأول بعده

تأليف

عبدالله ابي عبدالله

دار ملفات

تاريخ الموارنة ومسيحيّي الشرق
عبر العصور

تاليف
عبد الله ابي عبد الله

تاريخ الموارنة ومسيحيي الشرق عبر العصور

الجزء الأول

من الألف الرابع قبل الميلاد إلى الألف الأول بعده

تأليف
عبد الله ابي عبد الله

الطبعة الأولى

١٩٩٧

محتوى الجزء الأول

الصفحة

مقدمة

منذ أربعة آلاف سنة قبل الميلاد انبثقت من هذه الجبال المطلة على الحوض الشرقي للبحر الابيض المتوسط حضارة شرقية رائدة كان لها الفضل الاول في نقل ما أبدعه الفكر اللبناني الخلاّق الى الغرب المتلهّف للبحث والمعرفة، فنشأ عن هذا التزاوج الفكري حضارة عالمية، نواتها فلسفة اليونان وعبقرية فينيقيا، فساهمت الاولى بالفعلة المتحفّزين للخلق، والثانية بتقديم الاداة والمواد، فارتفع بفضل هذا التعاون الخلاّق صرح حضاري عالمي فريد، مدّ العالم، ولأجيال طويلة، بالطاقة اللازمة لإستمرار التقدّم والازدهار.

وما أن أطلّ القرن الميلادي الاول، حتى قيّض لهذا الشرق أن يشهد ولادة رسالة سماوية خارقة نقلت الانسان الشرقي من وثنيته الى عالم المعرفة بحقيقة الخلق والوجود. وفي الوقت الذي شهدت فيه هذه الارض ولادة هذا النور الالهي الباهر هبّت الايدي لوأد هذه الظاهرة المقلقة، وخنقها في المهد، فتصدّى للعابثين بالحرمات والاقداس، نساك لبنانيون من أبناء هذا الجبل المقدّس، وهبّوا يحوّلون هذه الشعلة الى منارة إنطاكية ترسل إشعاعها المهدي الى اطراف الكون. ويوم قاست الجماعة الرسولية الأولى في الأرض التي شهدت مولد النور محاولة خنق الرسالة في مهدها، فتحت هذه الجبال اللبنانية صدرها ملاذاً للهاربين من الظلم والاضطهاد. وكانت، بفضل نساكها وآبائها الموارنة الأوائل، همزة الوصل، وجسر العبور، بين الشرق والغرب. ونقولها بكل تواضع لولا البيعة الانطاكية التي صمدت بوجه الغزاة والطامعين لما ارتفعت على الصخرة الرومانية البيعة المقدسة. ولولا

الفعلة الانطاكيون الذين استشهدوا بين هياكل روما لما ارتفعت القبب المسيحية عاليةً تحمي بظلها القبب التي أخذت تتشامخ في أرجاء الكون الرحيب. وكان وما يزال لليد المارونية الفضل الأول في وقد مشعل الايمان من فوق قمم هذه الجبال الشرقية المعرّضة للعواصف ورياح التغيير، في الوقت الذي كادت فيه تنطفئ آخر الشعل التي اتّقدت في أرض الجليل والقدس الشريف.

واشتد الصراع بين أعداء المسيحية من الوثنيين الخارجيين والمحليين، بالاضافة الى أعدائها المنظّرين والمبدعين من داخل المجتمع المسيحي، وبين هذا الناسك الماروني الأعزل الحامل كتابه والصليب على شظف من العيش وفقر؛ فقاوم بعناد، وجابه بصمود، واستقرّ في صومعته ناشراً عبق بخوره وصدى ترانيمه الى البعيد البعيد، غير عابئ بتألّب الاعداء من حوله لسلبه نعمة الايمان، وطهارة القلب، وقوة العقيدة، بشتى الوسائل والمغريات.

وهكذا قُدّر لهذه الجماعة المارونية المؤمنة أن تثبت وجودها، وتركّز استقلاليتها وسيادتها، في هذا الشرق الدائم الاضطراب، والشديد التعصّب، رغم كونها أقلّية مسيحية في وسط اسلامي يشمل معظم أنحاء الشرق، وذلك بفضل صلابة إيمانها بالحرية، وانفتاحها على الشرق والغرب معاً لتستمدّ منها الدعم والقوة، وليجد كلاهما في ربوعها ملاذاً لكل مضطّهد الى أية جنسية أو دين أو حزب انتمى.

وبفضل قيادة البطريرك الواعية والمخلصة لهذه الجماعة استطاعت ان "تكون وردةً بين الأشواك" حسبما وصفها أحبار روما.

فالمارونية ليست إذن "طائفة سياسية" متقوقعة على ذاتها، منغلقة على ما عداها، كما يحاول البعض وصمها، إنما، على العكس من ذلك هي واحة حريات وانفتاح، وملاذ كل مضطهد في هذاالشرق، وطالب حرية، وناشد استقلال، من أي مذهب كان. حتى الحكم العثماني شهد لها بهذا الأمر، ووصف الحاكم التركي اسماعيل حقي بك جبل لبنان بأنه "معقل الطرداء وموئل الحريات".

وفي مجموعتنا الخماسية هذه سنعالج احداث وتاريخ الطائفة المارونية

ومسيحيّي الشرق المرتبطة جذرياً بأحداث هذا الوطن حتى بدا وجوده من وجودها، وسيادته واستقلاله من سيادتها واستقلالها. ففي الجزء الاول الذي يمتد منذ أربعة آلاف عام قبل الميلاد، حتى الألف الأول بعد الميلاد حديث عن استقلال ماروني وعصر ذهبي مدنياً وروحياً. وفي الجزء الثاني نتحدث عن الدخول الصليبي والصراع الذي نشب مع المماليك الذين انتصروا في النهاية وقضوا على سيادة واستقلال هذه البلاد. وفي الجزء الثالث نلقي الضوء على حكم امراء لبنان في عهد بني عثمان وبروز كيان الوطن اللبناني من جديد. وفي الجزء الرابع الذي يمتد من بداية عهد القائمقاميتين الى أيامنا الحاضرة، بدأ المخاض المؤلم لولادة الوطن اللبناني الكبير الذي أفسح فيه الموارنة رقعة الجبل لتستوعب كل أبناء الوطن اللبناني الواحد المتعدّد المذاهب والاجناس والاتنيات. اما الجزء الخامس فخصص للمؤسسات المارونية من الرهبان إلى الاساقفة والمجامع، ثم الطوائف المسيحية في الشرق.

وفي الختام لم نحاول ان نكتب تاريخاً طائفياً، رغم أن موضوعنا طائفي محض، بل بذلنا الجهد الكبير للخروج من المنحى الطائفي الى المنحى الوطني حتى ونحن نكتب التاريخ الماروني، لأن واقع هذا التاريخ لم يكتب يوماً بصيغته الوطنية السياسية بقدر ما كتب وللأسف بأقلام رجال دين، بصيغته الطائفية التي بدت كالثوب الضيّق الذي لا يستوعب القامة اللبنانية الهيفاء. فالمارونية، ولا ضير إن وصفت بالسياسية، لأنها عملت من خلال تعزيز سياسة الطائفة لتعزيز الكيان، هي محاولة لخلع الثوب الطائفي وارتداء الثوب الوطني الذي به وحده يحيا ويزدهر لبنان. وفّقنا الله فيما نرمي اليه والسلام.

عبد الله ابي عبد الله

جران في ١٩٩٥/٩/١٥

الفصل الأول

نشوء المسيحية وانتشارها
في الشرق

١ ـ لبنان مهد الأساطير وأرض الآلهة والأديان

لبنان في التوراة على لسان الأنبياء والمؤرخين

لبنان الذي ورد إسمه عشرات المرات في التوراة أشير إليه باعتباره "أرض الله"، و"بحره"، و"حديقته"، و"بستانه"، و"وجهه"، و"جنة عدن"... و"لبنان"... وكلّها ألقاب مقدّسة تشير بوضوح إلى أن هذه الأرض اختارها الله لتكون "أرضه المختارة" و"جنته" المقدسة...

وقبل التوراة تحدّثت عن لبنان ملاحم اوغاريت الفينيقية، وجاء ذكره في الرسائل المتبادلة بين ملوك جبيل وفراعنة مصر باعتباره "ارض ايل" او الله.

والله، كما يشير النبي حزقيال في نشيد الاناشيد، اختار عروسته من لبنان، وخاطبها بقوله: "هلّمي معي من لبنان أيتها العروس..." (١). وفي مكان آخر من الكتاب المقدّس نقرأ: "قرعت الرب على لبنان... قاطعاً أرفع أرزه..." (٢).

والشاعر البيروتي الفينيقي الكبير سَنْكُنْ يَتَنَ في ملاحمه ذكر نسر لبنان "فينيكس" الذي عُرف باسم كنعان، وهو الإسم الذي أعطي للبنان في الألف الثالث قبل الميلاد، (٣) وهو الذي حسبما يروي فلاسفة اليونان نقلاً عن الفينيقيين، تنفّض من رماده، وقام من الموت، فاعترف العالم كله نقلاً عن المعتقدات الفينيقية، بالقيامة بعد الموت، وتوّجوا بهذه القناعة شرائعهم ومعتقداتهم، وروّجوا حولها الأساطير.

التسمية الفينيقية

هذه الجبال المقدسة كانت معروفة باسم "لبنان" قبل التسمية "الفينيقية" بأجيال. وما الاسم الفينيقي سوى لقب للشعب اللبناني أطلقه اليونانيون بسبب تعاطي تجار صور بتجارة الأرجوان المستخرج من صدفة "الفينيكس"، أو بسبب كثرة أشجار النخيل المعروفة "بالفينيكس" في اللغة اليونانية، والتي تزيّن مداخل المدن الكبرى. أما الأشوريون قبلهم، فقد أطلقوا على الأرض اللبنانية إسم "لبنانو"، والعبرانيون "لبنون" ومثلهم الآراميون، وكلّها ألفاظ تشير الى البياض الذي يكلل جبال لبنان، أو البخّور العابق من صنوبره وأرزه. وعندما تخلّص اللبنانيون من حكم اليونان، ودخله الرومان، عاد الاسم اللبناني الأصيل للتداول، واستمر مع دخول العرب والروم والعثمانيين. ونقول للذين تزعجهم التسمية الفينيقية: إطمئنوا فليست هذه التسمية للدلالة على شعب غريب لا يمتّ بصلة إلى هذه المنطقة، كما يتوهمون، بل هو الشعب اللبناني الأصيل الذي سكن هذه الأرض المقدّسة، أرض الآلهة والأساطير، منذ آلاف السنين قبل الهجرة السامية التي تحدّث عنها هيرودوت، وعنه نقل معظم المؤرخين الآخرين. وعلى كل حال هذا الشعب الأصيل ليس بغريب ابداً عن ارضه ومحيطه.

لبنان "أرض الميعاد" وحلم الغزاة

هذه الأرض اللبنانية المقدسة التي أطلق عليها كلّ هذه التسميات والنعوت، كانت ولا تزال حلم الغزاة والفاتحين على مرّ الأجيال. ورغم وعد الله ـ كما تقول التوراة، ويدّعي الصهاينة ـ لابراهيم، ومن بعده لموسى، و"شعبهما المختار"، بدخولها وامتلاكها، ظلّت بعيداً عن متناولهم وعن متناول الغزاة والطامعين، ولم تتحقق امنيتهم بامتلاكها، ولو استطاع بعضهم بسط سلطانهم على قسم منها في مراحل مختلفة من الزمن. وسرعان ما كان شعبها الأبيّ ينتفض ويستعيد سيادته عليها واستقلاله الكامل فوقها. ولم يقم شعبٌ، ولا امبراطورية قادرة في الشرق أو الغرب، إلا وداهمت هذه الأرض و اغتصبتها لحين من شعبها الأصيل، ولكن هذه الشعوب، وتلك الامبراطوريات، كلها اندحرت، وبقيت هذه الأرض عزيزة منيعة لأصحابها الأصيلين.

قال الرب لابراهيم، كما جاء في التوراة: "لنسلك أعطي هذه الأرض، من نهر مصر (النيل) الى النهر الكبير، نهر الفرات" (٤). تلك هي حسب زعم اسرائيل "أرض الميعاد". وقال الرب أيضاً لموسى: "من البحر الكبير (البحرالميت او بحيرة الحوله) الى جبل هور، ومن جبل هور تخطون الى مداخل حماه، ويكون منفذ الحدّ الى صدد. ثم ينفذ الى زمرون، وينتهي الى حصر عينان. هذا يكون حدكم الشمالي..."، ولبنان هو من ضمن هذا التحديد أيضاً. ويشوع بن نون القائد اليهودي الآخر جعل حدود "أرض الموعد" عند "مدخل حماه في التحديد الاخيرالموحى إليه من عند الله" (٥).وفي أوامره إلى الشعب اليهودي توجّه موسى قائلاً: "تحوّلوا، وادخلوا أرض الكنعانيين ولبنان، إلى النهر الكبير، نهر الفرات. أنظروا إنّي قد جعلت الأرض بين أيديكم، فادخلوا واملكوا الأرض..." (٦) . وفي هذا الكلام اعتراف صريح "بلبنان"، و"بأرض للكنعانيين"؛ وهذا يعطي اليهود صفة المحتل، لا صفة صاحب الأرض، ولو أن الصهاينة اليوم اعتماداً على هذه الكتابات، مدّوا حدودهم من "النيل إلى الفرات" مروراً بلبنان، عملاً بشعارهم المرفوع في الكنيست "أرضك يا إسرائيل من الفرات إلى النيل".

ومع هذه الادّعاءات كلّها، لم ينجح، إبراهيم، ولا موسى ولا يشوع، من بعده، في ضمّ هذه الأرض اللبنانية إلى فلسطين، وكل ما استطاعوه هو "ضمّ سبطين فقط من الجنوب... ولم يدخل لبنان مطلقاً بجملته في ملكهم" (٧). وهذا لا يعطي إسرائيل الموجودة اليوم في الجنوب بصورة غير شرعية اي حق تاريخي في الاحتلال والوجود.

وليست اسرائيل وحدها التي تطمع بلبنان، بل كثيرة هي الدول والامبراطوريات الشرقية والغربية التي طمعت باغتصاب لبنان، من المصريين إلى الاشوريين والكلدان والبابليين والحثيين والفرس واليونان والرومان والعرب، والفرنج، وغيرهم من شعوب الارض؛ بعضهم دخل محتلاً، والبعض الآخر كحلفاء، والجميع حاولوا التسلّط وابتزاز هذا الشعب العريق، واستخدامه لمصالحهم الخاصة، لكن اللبناني الاصيل بوطنيته، وبنزعته الديمقراطية، وشغفه بالحرية، أبى الخضوع للاستعباد، فعاش يقاوم الاحتلال، ويبذل الغالي والنفيس دفاعاً عن

سيادته واستقلاله.

ولعلّ أبرز ما قدّمه اللبنانيون للعالم، بالاضافة إلى الحروف الابجدية التي كانت الأساس لتطوّر البشرية وانتقالها من الجهل والتخلّف إلى عالم الحضارة، هو تعريفهم بالله "رب الأرباب"، و"بخلود النفس" و"القيامة من الموت"، وبمبدأ "التثليث" الذي تبنتّه الديانات السماوية فيما بعد، وهو يرتكز على ثالوثية الالوهة المعبّر عنها عند الفينيقيين بكلمة "إيتو بعل" المركبة من إيل "رب الأرباب"، ثور نائبه، وبعل إله المدينة. وواحدهم يمثل الآخر ويندمج فيه، باعتبار القداسة لا تتجزأ، تماماً كما الآب والابن والروح القدس. هذه الميتولوجيا العريقة في جذورها، وعمقها الفكري، مدّ الفكر اللبناني بها العالم القديم، وتبنّاها الفكر اليوناني، ونقلها إلى الغرب وكأنها من إبداعه، بعدما ألبسها الثوب اليوناني، ومثله أيضاً فعل المصريون، والرومان. والاسكندر المقدوني كبير قادة اليونان، عندما افتتح الشرق، استقدم معه معلّميه، ومفكرّي اليونان، لأنه كان يهدف إلى امتلاك الفكر الشرقي وليس البلاد وخيراتها فحسب. وقد عاد اليونانيون، بعد تلك الغزوة بما لم يعد به فاتح إلى بلاده. وهل أعظم من أن يغنم المحتل تراثاً حضارياً عريقاً يكشف أسرار الكون فتعترف بفضله، ولأول مرّة، شعوب الغرب الهمجية، وأن في الكون آلهةً تسهر على مصير الامم والشعوب، وهذا ما جعل مؤرخي العالم يجمعون أن فلاسفة اليونان هم "ناقلو الحضارة المشرقية، وعلى الاخص الفينيقية، إلى الغرب"، ولم يأتوا بشيء من عندهم على الاطلاق (٨).

بناء المدن وغزو البحار

وفي الملاحم الاوغاريتية الفينيقية يقول فيلون المؤرخ الجبيلي نقلاً عن العالم البيروني سِنْكُنْ يَتَنَ أنه "وُلد من ذرية الانسانين الأولَين، وهما أيون (أي الخُلد والعالم والدهر أو الزمن)، وبروتوعون (أي البكر والمولود الأول) أولاد مائتون مثلهما، فسموّهم النور والنار واللهيب... وقد وُلد لهؤلاء أولاد ضخام الاجسام، طوال القامات، وسُميّت الجبال التي ملكوها بأسمائهم، وهي قاسيون (جبل الشيخ)، ولبنان، وأنتي ليبان وبراثي... (٩). وفي عهد الكبيرين (الجبابرة) وُلد عليون المسمّى هبست وزوجته المسمّاة بيروت، وأقاما في نواحي مدينة جبل (جبيل)... أما

أبوهما عليون فهلك في معاركه مع الوحوش الضارية... ولما خلف شميم (السماء) اباه، تزوّج بأخته غايا (الأرض - وقد تغيّرت الاسماء لدى اليونان وبقي المعنى). فولدت له أربعة أولاد: إيل (الذي أصبح كبير الآلهة ورب الأرباب أي الله) أو كرون (أي العالي والقدير)، وبيت إيل، وداجون أوسيتون، وعَتَلْ...". وتمضي الاسطورة في الحديث عن ايل، كبير آلهة الفينيقيين، وبالاصح اللبنانيين، فتنسب إليه بناء "مدينة جبل، أول مدينة فينيقية"، و" أول ممالك الأرض ومدنها الحجرية" حسب العالم الأثري الذي اكتشف كنوزها، العلاّمة الفرنسي دينان (١٠). ولم يطل الأمر حتى أصبحت جبل او "جبيل" كما نسمّيها اليوم، عاصمةً لمئات المدن التي بناها إيل في مختلف أنحاء الشرق والغرب، وولّى عليها حسب سنكن يتن، والمخطوطات التي اكتشفت في اوغاريت "عشتروت الكبيرة، وبعل دامور، وهدد ملك الآلهة، وكاتم أسراره توت... "وغيرهم. ومات إيل حسب الرواية المذكورة، متقمّصاً الكوكب زُحَلْ، ودُفن في جزيرة صقلية. وبعد موته عمد كاتم اسراره "توت" إلى نشر تعاليمه، ورسالته الحضارية في أرجاء هذه المملكة الواسعة التي أسسها في العالم، إبتداءً من جبيل وصولاً إلى اليونان، والجزر الايطالية، ومعظم أنحاء البحر المتوسط الذي كان في وقت من الاوقات بحيرةً فينيقية معقودة اللواء للسفن اللبنانية دون مزاحم. وقد اعتمد توت في نقله هذا الارث التاريخي والفلسفي والميثولوجي الكبير الذي خلّفه سيده على "الحروف المقدّسة"، أو "الرموز الالهية"، كما سمّاها البحاثة بعد اكتشافها في صحراء سيناء، ونسب بعضهم اختراعها إلى المصريين، وقد اعتبرت "اول كتابة عرفها العالم". ومما رواه توت أيضاً، ونقله سنكن يتن عن لسانه، أن عشتروت ملكة قبرص، أحبّت أدوني (أدونيس) أو تموز ملك جبل الذي قتله خنزير برّي على ضفاف النهر المسمّى باسمه (نهر ادونيس) وهو الذي يعرف اليوم بنهر إبراهيم جنوبي جبيل، فراح الفينيقيون يقيمون احتفالات النحيب إحياءً لذكرى موته في نيسان من كل عام، في الوقت الذي تعتكر فيه مياه النهر بدماء أدونيس حسب اعتقادهم؛ ثم يحيون عيد قيامته في حزيران عندما تصفو مياه النهر. وقد شارك الامبراطور الروماني ادريانوس شعب جبيل بهذه الاحتفالات لدى زيارته هذه البلاد إبّان حكمه للامبراطورية الرومانية.

و"جبل" أو جبيل هذه، هي التي أعطت إسمها "بيبل أو بيبلوس" لمجموعة الكتب المقدّسة المعروفة بالتوراة، وهي أيضاً "نقلت حضارة سومر (في بلاد ما بين النهرين) إلى مصر، واعطت أول أبجدية حديثة"(١١).

ويحمل إيل عدة أسماء منها: أدون وتموز وكرونوس واوزيريس. وكذلك عشتروت التي عُرفت بالزهرة ومينرفا وفينوس، وافروديت، وايزيس، وزوس، وغيرها من الأسماء. وعرف ايل بعدة ألقاب في مختلف دول العالم، بينها "رب الأرباب" و"إيل الجبيلي" و"هليوس" أي الشمس، و"كرونوس" أي العالي، و"ساتورن" أي القدير، او "أبو الآلهة"، و"ملك الملوك"، وغيرها... وقد تغيرت بعض الشيء هذه الأساطير التي تروي قصتهما نظراً لتغيّر الحضارات والعادات واللغات وتفنّن الشعراء والكتاب في مختلف أنحاء الكون، ولكنها احتفظت بالأساس الذي يتحدّث عن "الموت والقيامة"، وهي الأساس الذي اعتمدته الميثولوجيا اللبنانية وأطلقته في العالم فآمنت به شعوبه. وقد عُرفت عدة قرى وملوك ومدن في العالم، وفي لبنان، بأسماء مشتقّة من أسماء أبطال هذه الاسطورة اللبنانية، ولا سيما من إسم إيل، ومنها: مرسيليا الفرنسية التي يعتقد أنها "مرسى إيل"، والبرازيل أي "مدينة إيل" وإيطاليا "من عتليا" إحدى بطلات هذه الاسطورة، وغيرها من الأسماء العالمية. إلى جانب العشرات من القرى اللبنانية ومنها" إيليج، وحصرايل، وجدّايل، وقرنايل، وبرقايل..." وغيرها.

وبعد جبيل، كان لا بدّ من تعمير هذا الشاطئ الذي انطلقت منه الحضارة والفنون إلى الغرب، فبنى إيل مدينة "بيريت" أو بيروت، وجعلها مملكةً لزوجته، وجعل إلهها "أشمون" إله الطب، أو اسكولاب كما سمّاه اليونان. وقد "وُلدت قبل جميع الأرض"، وتقدّمت فايتون (أي الشمس) كما يقول المؤرخ اليوناني مون ديونيس (٤١: ٦٧ ـ و٩١)، ووهبها للإله "بو زيدون أو بوصيدون" (وهو الاله نبتون عند اليونان) ولأولاده "الديوسقورس" (الجبابرة) أي "الكبيرون"... ثم وُلد من ذريّة إيل: "كنعان"، أو "فينيكس"، كما سمّاه اليونان، وهو الذي بنى صيدون "بكر كنعان"، أي أول مدن الكنعانيين، ولعبت دوراً كبيراً لا سيما في مجال الفنون والصناعات، في حين لعبت جبيل دور المرجعية الدينية. وبعد صيدا تمّ بناء صور التي كان لها الدور

الأول في التجارة ونشر المستعمرات في أرجاء الكون، وأكبر تلك المستعمرات "قرطاجة" أي القرية الحديثة التي بنتها ملكة صور اليسار في تونس. ويعتقد بعض علماء اللغة أن لفظة صيدون مشتقة من الصيد نظراً لعمل أبنائها الاوائل. وتتابع الاسطورة أنه "وَلَدَتْ صيدون التي تحوّلت إلى إله، لبعلها الأول إبنين: الأول أجبت (Egypt) الذي سُمّيت مصر باسمه، والثاني دنا (أو دان - أي الأردن) ملك أرج المشهور الذي كان أول ملك على هذه المدينة من سلالة البعلين" (١٢). وأجينور إبن بوصيدون إله البحر، أخو بعل "صار ملكاً على فينيقية وتزوّج صور، فولّدتْ له أبناء كثيرون مشهورين، وهم قُدُسْ (أو قدموس) حامل الحروف الأبجدية إلى الغرب تحت ستار البحث عن شقيقته المخطوفة "اوروبا" التي أعطت للقارة الاوروبية إسمها، وكان قد اختطفها كما تقول الاسطورة ثور على شاطئ صور. و"فينيق" الذي تنتسب إليه فينيقيا، و"قيليق" الذي تنتسب إليه "قيليقيا" أو سوريا الثانية، و"سور" الذي تنسب إليه سوريا الأولى و"تاس" و"سيبول"، و"فيني"،و "بُريال"، و"هلاّن" (الذي تنسب إليه الحضارة الهلّينية)، و"اوروبة" (التي أشرنا إلى نسبة اوروبا إليها سابقاً)..." (١٣). كما ينتسب إلى "بعل" بناء "بابل والزواج من أنقينوه إبنة النيل..." أما "دنا" (او دان) فقد تملّك ليبيا واليونان، و"أجبت" تولّت مصر وسُمّيت باسمها. وكان البابليون والفرس يُسَمّون كيفيّين...(١٤).

بناء صور

أما صور فينسب بناؤها إلى "صور" زوجة أجينور إله، او ملك صيدون. لكن المؤرخ اليوناني ديونيس فيزعم أن الذين سكنوا جزيرة صور، وبنوا المدينة البرية، هم قوم "وطنيون من النسل المقدّس الخارج من هذه الأرض الطاهرة بعد خراب صيدون على يد الأشوريين". وأول ملوكها، حسب سنكن يتن، هو بعل. ولما كانت عشتروت تتجوّل في الدنيا (وهكذا نجد من سياق الخبر أن امراء لبنان هؤلاء كانوا عالميين وزيارة رعاياهم للعالم هي عمل عادي) وجدت دامور النجم الساقط من السماء فكرّسته في جزيرة صور المقدّسة... وقد وُلد من "دامور بن غوس" (وهنا إشارة إلى مدينة الدامور القريبة من صور التي ربما بناها هذا الملك) والأرض (غايا) "ملك قرت" أي ملك القرية والمدينة، الذي يسمّى أيضاً "هركل" (والمعروف ايضاً باسم

ملكارت، او ملقارت الذي اشتهر هيكله في صور البحرية). وإلى هذا الاله كانت تقدّم نذور قرطاجة التي بنتها "ديدون"، أو أليسار إبنة ملك صور وزوجة كبير كهنتها، على الشاطئ الافريقي قرب مدينة تونس الحالية، بعد هروبها على أثر صراع زوجها وأخيها "بغماليون" على الحكم. وأصبحت قرطاجة سيدة البحار في عهد ملكها "هملقار برقه" من عرقه اللبنانية، وابنه "هنيبعل" القائد العظيم الذي حاصر الرومان في أوج مجدهم وفي عاصمتهم روما، واضطرّ لفك الحصار والانتقال للدفاع عن عاصمته قرطاجة التي كان قد سبقه إليها "شيبيون" قائد الرومان ودمّرها، وأنهى سيادةً فينيقية على البحار المعروفة قديماً دامت عدة قرون. وتروي الأساطير أن هركل هذا، قد غزا معظم أقطار آسيا واوروبا وصولاً إلى بلاد ما بين النهرين، والجزيرة العربية، وافريقيا، والهند، وعُرف بين شعوبها بأسماء متعدّدة، منها "ديونيس"و"بكخ" و"اوربال" و"سندان" وغيرها. وكلّها تشير إلى بطولته وعظمته. وقد اعتبر في الغرب إبن الاله المشتري، باني مدينة "آكوّ" (أي عكا) (١٥).

بناء عمريت

ولم يكتف الملوك والالهة الفينيقيون ببناء المستعمرات خلف البحار، والمدن الساحلية اللبنانية، بل وصلوا بواسطة بعثاتهم البحرية إلى اطراف العالم المعروف، وحتى غير المعروف أيضاً. وقبل الحديث عن عبور المحيطات نشير إلى أن آخر الممالك التي بناها هؤلاء على الشاطئ اللبناني كانت عمريت التي اشتهرت برسائل تلّ العمارنة التي اكتشفت في مصر، والمتبادلة بين ملك جبيل "رب عدي" و"إخناتون" فرعون مصر، والتي اعتبرت الشاهد على ظهور أول أبجدية فينيقية، وكتابة عالمية تعتمد على الصوت لا الصورة، بعد الحروف التصويرية الاولى المكتشفة في بلاد ما بين النهرين ومصر، والمعروفة بالمسمارية والهيروغليفية.

ولا مجال لذكر كل المستعمرات الفينيقية، والمدن التي بناها هؤلاء "الجبابرة" و"الكبيرون"، كما سمّتهم الاساطير، ونكتفي بما ذكرنا، بالاضافة إلى كتابة اكتشفت في البرازيل. وتشير إلى وصول "المتعشرت" وبحّارته، بعد جولة قام بها انطلاقاً من مرفأ "عصيون جابر" أي ايلات أو العقبة، على متن عشر سفن، ودامت سنتين "حول أرض حام" (أي افريقيا)، كما ذكر في هذه الكتابة، ووصل منها

سفينتان إلى البرازيل، فدوّنت وقائع الرحلة على صخرة في باراهيبا، قبل وصول مكتشف أميركا نفسه، كريستوف كولومبس بنحو ٢٥٠٠ عام (١٦).

الميثولوجيا العبرانية

ونظراً لتشابك المعتقدات المشرقية ببعضها البعض، لا بُدّ من الاشارة ونحن في معرض الحديث عن الميثولوجيا الفينيقية، إلى الميثولوجيا العبرانية او اليهودية التي تعتمد في الكثير من معتقداتها على كتاب التوراة وكتاب التلمود اليهودي، وهي تعد بحلول أو بظهور إبن الله، خالق السموات والأرض، بين الشعوب السامية التي غادرت مراعيها في قوافل متتابعة من الجزيرة العربية إلى فلسطين. وكان قد سبقهم إليها الكنعانيون المنتشرون في لبنان جنوبياً وشمالاً حتى بلاد ما بين النهرين. ولنا أكثر من تعليق واعتراض على هذه الهجرة التي تعود فقط إلى اربعة آلاف سنة، والتي اعتبرها هيرودوت مؤرخ اليونان المصدر الوحيد للشعب الكنعاني الذي توطّن هذه الأرض وجعلها وطناً لشعبه، وكأنها كانت خالية من السكان قبل مجيء هذه الهجرة. ويكفي دحضاً لهذا الزعم، كون بقايا إنسان إنطلياس، المكتشف شمالي بيروت، يعود إلى خمسين ألف سنة. ومن الأكيد أن انساناً سبقه وسكن هذه الأرض التي تعتبر أخصب أراضي الشرق وأغزرها مياهاً بآلاف السنين، وبالتالي لا يُعقل أن يصل إليها سكان البوادي قبل أن يكتشفها أي بحار آخر، وهي في هذه النقطة الستراتيجية الخصبة من العالم. وسنأتي على ذكر هذا الموضوع لاحقاً، ونعالجه بما يلزم من ادلة وتوسّع. ونعود الآن إلى موضوعنا الأساسي، وهو الميثولوجيا العبرانية بسبب ما نتج عنها، لاصطدامها بالميثولوجيا الفينيقية، من صراعات عقائدية وسياسية في آن معاً. فكتاب الناموس الذي ضمّنه اليهود خلاصة تراثهم الديني والسياسي، هو نفسه جزء من الكتب المقدّسة التي أطلق عليها إسم "التوراة" في عهدها القديم. وتتحدّث هذه الكتب عن فرار إبراهيم جدّ العبرانيين (وهو نفسه جدّ العرب المسلمين والمسيحيين) من أُور عاصمة الأشوريين إلى أرض الكنعانيين، خوفاً من قومه الذين هددوه بالقتل لأنه نهاهم عن عبادة الأوثان والآلهة التي عرّفهم بها البابليون، والحضارات الشرقية المتفاعلة بين الفينيقيين والمصريين، وحضارة ما بين النهرين السومرية.

ومن فلسطين انتقل إبراهيم الخليل بعد ما لاحقه أخصامه وأرباب الوثنية فيها إلى مصر، بجماعة من أتباعه. ثم عاد إلى الجليل حاملاً الهدايا والذهب (١٧). وهو أول من عرّف شعبه بوجود الله خالق السماء والأرض، وجابه التعاليم الوثنية، والملاحم الاسطورية التي تناقلها الشرق والغرب مدى أجيال قبله.

ومن نسل ابراهيم يوسف بن داود الذي باعه إخوته إلى قافلة متجهة إلى مصر حيث أصبح وزيراً للتموين بفضل تفسيره حلماً للفرعون بحلول سبع سنوات عجاف، وبعدها تأتي سبع سنوات سمان، وتحقّق الحلم بعدما احتاط رجال الدولة للأمر، فكوفئ يوسف بجعله وزيراً للتموين. عندها استدعى أقرباءه وعشائرهم إلى مصر فتخلصوا من الجوع بسبب الجفاف الذي أصاب أرضهم. ثم استولوا على الحكم، وعُرفوا بالملوك الرعاة او "الهكسوس"؛ وكان خروجهم منها بدايةً لقيامة إسرائيل.

فرار موسى بشعبه إلى مصر

وبعد موت يوسف ووالده يعقوب بأربعة قرون، أخذ الفراعنة يضيّقون على نسل إبراهيم حتى اضطرّوهم للرحيل بعدما حكموا مصر زهاء ٤٣٠ عاماً (١٨). وغادروا البلاد بما خفّ وزنه وغلا ثمنه من المتاع والجواهر والآنية، بقيادة زعيمهم موسى الذي "شقّ البحر بعصاه"، كما جاء في التوراة، وانغلق موقفاً اعداءه عن ملاحقة شعبه الذي نهب البلاد ورحل. وسُمّوا "عبرانيين" إما نسبة إلى عابر أخي آرام جدّهم الذي ينتسبون إليه، أو بسبب عبورهم البحر الاحمر إبّان هجرتهم وعودتهم إلى "أرض الميعاد". وبعد عبورهم المياه في إحدى نقاط البرزخ المؤدي إلى سيناء، استمر موسى تائهاً مع شعبه في صحراء سيناء زهاء أربعين عاماً، وكاد شعبه يكفر به وبتعاليمه؛ فاعتزل الجماعة وتسلّق "طور سيناء" فترةً من الزمن، ثم ظهر فجاةً فوجد شعبه قد جمع الجواهر والحلى المسلوبة وصبّها وثناً على هيئة ثور، وعاد لعباداته الوثنية القديمة، فثار ثائره، وألقى بالصنم أرضاً، ورفع مكانه لوح وصاياه العشر الذي وُضع في تابوت عُرف "بتابوت العهد"، وجُعل كمذبح متنقل يحمل أسرار الدين اليهودي الجديد الذي اعتنقه الشعب العبراني بأكثريته الساحقة، إلى جانب أقلية معارضة حافظت على وثنيتها، ثم تخلّت عنها منتميةً

إلى المسيحية والاسلام. وفي إحصاء أجراه موسى لمن كان معه بلغ الرجال من سن العشرين وصاعداً "ست مئة ألف ومئة وثلاثين رجلاً. واللاويون الوثنيون (نسبة إلى لاوي بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم) من ابن شهر فصاعداً ثلاثة وعشرين ألفاً" (١٩).

وقبل أن يفارق الحياة، صعد موسى الى جبل "نو"، وصحب معه القائد يشوع بن نون، كما تذكر التوراة، وأشار إلى فلسطين داعياً إياها "أرض الميعاد"، وطلب إليه دخولها بالقوة لتكون وطن "شعب الله المختار"، بالتعاون مع اللاويين الذين برفقته، ويظهر أنهم لم يكونوا قد آمنوا بعد بالله، بل أصرّوا على التمسك بتقاليدهم الوثنية، ولو شكّلوا أقليةً لا تصل نسبتها كما رأينا إلى ثلاثة في المئة. ثم اشترط عليه أن يوزّع هذه الأرض على القيادات أو "الأسباط" حسب التنظيم الذي اعتمده موسى لشعبه إستناداً إلى عشائرهم، وذلك عن طريق القرعة.

وأنشد نشيد "أنصتي أيتها السموات"، ثم مات، بعد أن أمر يشوع بأن يرغم العبرانيين على حفظه غيباً.

يشوع بن نون يتابع الرسالة بعد موسى

وتابع يشوع بن نون، القائد الجديد للشعب العبراني رسالة موسى، ووضع "سفر التلمود" الذي يتضمّن اوامر الله القاضية بعبور الأردن إلى أرض الميعاد "من البرية ولبنان إلى نهر الفرات"(٢٠). وقد حرّف الاسرائيليون هذه الاوامر فيما بعد لتخدم مصالحهم وأطماعهم التوسّعية. وبعد وعد الله لموسى، ويشوع بن نون من بعده، جاء وعد بلفور، وزير الخارجية البريطاني ١٩١٦، ليغتصب أرضاً فلسطينية من شعبها ويعطيها للعابرين الجدد تاركاً صراعاً سياسياً ودينياً سيُغرق الشرق بالدماء أجيالاً طويلة. وكان لا بُدّ من نشوء صراع مرير فوق هذه الأرض المقدّسة التي نزل فيها إبراهيم موحّداً شعوبها، ليأتي خلفاؤه من بعده فيمعنوا بتمزيقها، وتفتيتها، وابتلاع أرضها، بحجّة أنها جزء من "أرض الميعاد". وإذا "شعب الله المختار"، وهو المفروض أن يكون على غرار المعلّم الأول إبراهيم، رائد الوفاق، والمحبة، والسلام، ووحدة المشاعر والعقائد؛ إذا به أكثر الشعوب تعنّتاً، وتعصّباً،

إلى حدّ التزمّت، والظلم، والقهر، بنزعته الدينية والعرقية، وبأسفاره وكتبه المقدسة، ومعتقداته التي ترفض التعايش الأخوي، والتعددية المذهبية والعرقية، رغم الدرجة العالية التي بلغها هذا الشعب في مجال التعلّم والثروة والقوة.

وعبر يشوع بن نون ملبّياً أوامر موسى، نهر الاردن الذي جفّت مياهه لتسمح بمرور "الشعب المختار" تماماً كما حدث لموسى عند عبوره البحر الأحمر. وربما بسبب هذين العبورين معاً عُرف هذا الشعب بالشعب العبراني. ولما كانت أجزاء من فلسطين والجنوب تحت حكم الكنعانيين، فقد جرت عدة صدامات بينهم وبين العبرانيين الطامعين بهذه الأرض، وكانت الغلبة، كما في كلّ مرّة، للمحتلّ، فتمّ ترحيل الفينيقيين عن الجليل، وبعض مناطق الجنوب تاركين كتابةً تقول: "نحن الذين فرّوا من سطو يشوع بن نون"(٢١). وكأنه كتب على هذا الشعب المسالم أن يدوّن على صخوره صكوك التنازل للغزاة عن أجزاء غالية من أرضه جزاء اعتباره أنه مرسل إلى هذه الأرض لينشر رسالة المحبة، لا ليحمي بالسيف معالمها والتراث.

ومن المعجزات التي تنسبها "التوراة" إلى يشوع بن نون، أنّه كلّم الرب على مسمع من بني قومه، لمّا كادت الشمس تغيب قبل إتمام فتوحاته، قائلاً: "يا شمسُ قفي على "جعيون"، ويا قمر أُثبتْ على وادي "يالون"..." فتوقفت الشمس، وثبت القمر، يوماً واحداً، حتى أتمّ فتوحاته. "ولم يُسمع بمثل ذلك اليوم، ولا قبله، ولا بعده، كما سمع الربّ لصوت إنسان"، كما جاء في "سفر التكوين" (٢٢). وعملاً بوصية موسى، وزّع يشوع بن نوّن "أرض الميعاد"، وطبعاً بما أمره به الرب أيضاً، على رئيس الآحبار، ورؤساء الأسباط الإثني عشر(٢٣). وآخر الوصايا التي تركها يشوع لشعبه قبل موته "عدم الاختلاط أو مصاهرة الامم الأخرى" حفاظاً على العرق وتعاليم موسى، و"كي يهزم الواحد منكم ألفاً"، على حدّ ما ذكرت "التوراة" في عهدها القديم.

شرائع عاموس والانشقاق اليهودي

وككل شعب، بعد موت قادته الكبار، يصاب بالشرذمة والانحطاط. وعبثاً حاول أحد مفكّري الشعب العبراني المدعو "عاموس" منع هذا الانشقاق أو

الصراع المؤذي بين أبناء الشعب الواحد، ورغم كتاباته العديدة، ونداءاته المتواصلة، ومع أنه "أول داعية ومصلح اجتماعي في آسيا" كما اعتبره جايمس برستد أحد المستشرقين الاميركان الذي كتب تاريخ المشرق في عصوره القديمة، متناسياً حمورابي وشرائعه الشهيرة التي ظلّت دستوراً تعمل به شعوب المنطقة بكاملها بعد موته بألف عام. ورغم كل محاولات الجمع والتوفيق، احتدم الصراع داخل البيت اليهودي الواحد، فانشق وانقسم على نفسه إلى بيتين، أحدهما يهودي، والثاني إسرائيلي؛ وكأنه كُتب على هذا الشعب لميل فطري في نفسه التشاحن والصراع، أن يعيش دائماً على بركان من الاحقاد والفتن والصراعات الفئوية والطبقية والعرقية والمذهبية، وغيرها من أسباب الفتنة والانقسام التي تمنع السلام أن يستتب حيث يستقرّ هذا الشعب. والشواهد كثيرة على الاضطهادات التي لاحقت فلول هذا الشعب من آسيا إلى اوروبا إلى افريقيا، وصولاً إلى كل بلد يلتجئون إليه. فللشعوب، كما للأفراد، أقدارها، وعبثاً تحاول تغيير مجرى الاحداث المرسومة لها، والتاريخ المكتوب لأبنائها.

الوثنية في عصرها الذهبي

ورغم تلاحق الدعوات باسم الله الواحد الأحد في هذه المنطقة من العالم، ظلّت الوثنية تعيش في عصرها الذهبي حتى بعد ظهور المسيح، واجتهاد الرسل في بثّ الدعوة المسيحية في أرجاء العالم. ويكفي ازدهاراً لها أن الفينيقيين أسياد البحار، واليونان أساطين المعارف والفنون، قد تجنّدوا لها، وشمّروا عن سواعدهم لحمل تراثها وأساطيرها إلى كل بلد حطّت رحالهم فيه. وهكذا أصبح إيل وأدونيس وملقارت وعشتروت بالاسم الفينيقي، وبالالقاب والأسماء الغربية، على كل شفة ولسان في بلدان الشرق والغرب. وارتفعت الهياكل باسم هؤلاء الآلهة على التلال وفي السهول والمدن. وعرفت بلادنا "مكّة" فينيقية في جبيل، وكعبةً "رومانية" في بعلبك. وأصبحت الطريق الواصلة بينهما والعابرة في العاقورة، من الطرق الدولية التي تشهد قوافل التجار والمؤمنين والسوّاح، من كافة طبقات الشعب، ومن مختلف البلدان، وبينهم الملوك والامراء والقادة والكتّاب وغيرهم. وفي منتصف الطريق بين العاصمتين الدينيتين قامت هياكل أفقا بكل انواع العبادات والشعوذات

حتّى بالمراسم الاباحية والجنسية منها، تحت ستار الدين، ككلّ المرافق التي تقوم على الطرق السياحية والتجارية في العالم. وسرت في أطراف الشرق وحواضره أخبار أساطير "ادابا"، وملحمة "جلجميش" الشبيهة بأخبار طوفان نوح وبرج بابل الذي "تبلبلت" فيه الألسن، وكثرت اللغات بغضب من الرب الذي هدّم البرج، وشتّت الشعب البابلي بما فيه سبايا هذا الشعب وأسراه من اليهود؛ فأصابت هذا "الشعب المختار" هجرات، وتشريد جديد، بحثاً عن موطئ قدم بعيداً عن وخز الشوك ونزف الدماء. وعبثاً حاول حمورابي ردّ شعبه البابلي الخارج عن طاعة الرب إلى السراط المستقيم. وحل "مردوخ" السامي، محل "إنليل" الاله السومري القديم الشبيه بإيل الفينيقي بعظمته. ولم ينس هذا الشعب رغم تقدّمه الحضاري، في عهد الرومان، اسطورة ادونيس وعشتروت التي وصلته على أيدي أرباب التجارة الفينيقية التي ربطت الشرق الاقصى عن طريق الهند والجزيرة العربية، بالغرب القابع ما وراء البحار، حيث بنى إمبراطورهم أدريانوس الذي زار بلادنا وأعجب بالعبادة الأدونيسية، هيكلاً لعشتروت في قلب روما. وكان للشمس المقام الاول في عبادات الفراعنة المصريين التي عرّفوا عنها باسم "رع" وجعلوها في جذر أسماء فراعنتهم، ولا سيما أسرة رعمسيس المعروفة، وفي عبادات الأشوريين التي جعلت "الشمس المجنّحة" شعاراً للسلطة والالوهية. والكلدانيون أحلّوا البعل في المقام الأول لعباداتهم التي توزّعت هياكلها في بلاد ما بين النهرين، وعلى الارض اللبنانية بعد احتلالها، وفي سوريا التي حكمها الآراميون، وفي ايران التي حكمها الميديون والفرس، وظلت امبراطوريتهم متواصلةً في حكمها حتى أواخر القرن العشرين مع شاه ايران الذي أسقطه الخميني لمصلحة الجمهورية الاسلامية. ثم بعدما انتصر "الله" على الوثنية في العالم، وانهارت هياكلها إبتداءً من مطلع القرن السادس، ليقوم على أنقاضها كنائس وجوامع تدعو لعبادة الله الواحد الأحد، سيّد الأكوان، وخالق السماء والأرض. وقد اختلفت العبادة في بلاد الفرس عن غيرها من بلدان العالم إذ اعتنقت مبادئ "زرادشت" او "زورواستر" الداعية لعبادة "أهورمزدا" أي "درب الحكمة" أو "الله" المتمثل "بروح الخير"، والابتعاد عن "أهريمان" المتمثل "بروح الشر" او "الشيطان".

وهكذا نرى أن تعاليم "إيل" والميثولوجيا اللبنانية أثمرت نظاماً دينياً عالمياً استمر آلاف السنين حتى ظهرت المسيحية في هذه الأرض المقدّسة بالذات التي عاينت ظهور الوثنية وانتصرت عليها، وقفزت بشعوب هذه المنطقة قفزة عملاقة إلى الدعوة للسلام، ومحبة الانسان لأخيه الانسان، محاولة القضاء على روح الصراع، والنزعة التعصبية التي احكمت قبضتها من خلال تعدد الالهة، وشعائر الوثنية، على رقاب الشعوب، واوقفت عجلة التقدّم فيها، والحضارة والعمران.

ولم تلبث المسيحية، مع مطلع القرن الرابع، وبفضل الملك قسطنطين العظيم، أن انتصرت على الوثنية، وقامت في روما عاصمة الوثنية في العالم، بيعة رسولية مقدّسة مدّت سلطانها إلى الغرب والشرق، رغم صراعها مع القوى البيزنطية التي حاولت الحد من نفوذها عن طريق ترويج الارثوذكسية المعترضة على سلطانها، والقوى الغربية المتوسّلة عن طريق المبادئ الانجيلية او البروتستانتية إبقاء القيادة خارج أسوار روما وكرسيّها البابوي الذي تنامى نفوذه حتّى صار الفاتيكان الذي إليه يرجع سلطان قيادة المسيحية في مجمل مذاهبها عبر أنحاء العالم. وكان للماروني في هذا المشرق شرف حمل رسالة التواصل بين الشرق والغرب عن طريق توطيد التلاحم بين الكرسي الرسولي والكرسي الانطاكي والمقر القسطنطيني الحاكم. وليس من المبالغة القول أن "بكركي" هي بمثابة "فاتيكان الشرق" الذي بفضل دوره المميّز في حماية المسيحية إبّان الشدائد، وتقديم العون لها كلّما تعرّضت للقهر والاضطهاد في أي بقعة من بقاع هذا الشرق المتقلّب، قد حافظت على الوجود المسيحي، وعلى حسن الجوار والتعايش، مع كافة الاديان الأخرى.

الإرث الحضاري اللبناني الباقي والمنهوب

وفي ختام هذا الفصل الذي حاولنا فيه العبور بسرعة من مرحلة الازدهار الوثني، إلى العصر المسيحي، لا بُد من كلمة ولو موجزة عن ضياع الارث الميثولوجي الفينيقي واللبناني، وخاصةً الجديد فيه والمعروف بالتراث السرياني، من جرّاء همجية الغزاة وعبث المتطفلين، وعاديات الزمان، ولا سيما زلازل أواسط القرن السادس التي ضربت الساحل اللبناني وهدمت حواضره ومدنه الزاهرة، وحوّلت مكتباته وتراثه المخطوط والمنحوت ركاماً تحت الأرض ومياه البحر. ولولا بعض هواة

التنقيب عن التحف الأثرية، والكنوز العالمية، وهم في غالبيتهم من المستشرقين الغربيين، الذين نفضوا الغبار عن الارث الكبير الذي تختزنه هذه الأرض، لفاتنا الكثير من عظمة هؤلاء الجدود الكبار الذين يرجع إليهم فضل تمدين الشعوب وترقية بلدان كثيرة في هذا العالم. وتكفي جولة صغيرة بين متاحف اسطنبول ولندن وباريس وواشنطن وبرلين، وغيرها من متاحف الشرق والغرب، لنعرف مدى عدم اكتراث حكامنا وشعوبنا بما تركه لنا الاجداد من إرث أصبح عرضةً للنهب من قبل تجار التحف، وقادة الدول العظمى التي تحكّمت بهذه الأرض ووضعت يدها على كنوزها كلّها، الدفين منها والماثل للعيان. ورغم هذا النهب الكبير للارث الحضاري اللبناني، تحفاً كان أم مخطوطات، ورغم عاديات الزمان، لا يزال بعض كنوزنا مدفوناً تحت التراب بانتظار اليد التي ستكشف عنه الغبار، وتعيد لهذا الشعب العريق وهج أساطيره، وتوقظ في ذاكرة الوطن سيرة الرجال العظام الذين كانوا روّاد النهضة، ورسل الحضارة، التاركين في كل أرض، وتحت كل سماء، بصماتهم الحضارية الباهرة. وإن لم يعمل اللبناني كغيره من شعوب الأرض لاستعمار الشعوب، واستغلال ثرواتها، فقد شهر القلم، بدل السيف، فاستعمر الفكر ولبنن العقائد والنظم. ويوم تخلّت شعوب هذه المنطقة عن مشاعل الايمان والفكر التي بزغت في بلدانهم، تلقفتها الايدي اللبنانية، وطافت بها في أرجاء الكون لتكون منارة تهدي كل حالم يتوق للخروج من نفق الجاهلية والتخلّف. وكأن قدر هذه الأرض أن تكون المنائر التي يهتدي بها الضالون إلى السبل القويمة، والقلاع التي يلتجئ إليها الناشدون للحرية والأمن والسلام. وبين "جبيل" مكّة الفينيقيين و"بعلبك" كعبة الرومان، كانت وتبقى بكركي "فاتيكان الشرق" تواصلاً لهذا التراث العظيم الذي لن يضيع مهما اشتدت عليه نوائب الدهر وقبضة الطامعين والغزاة.

٢ـ الرومان والانتشار المسيحي في الشرق والغرب

الفتح الروماني

انتقل الصراع اليوناني ـ الروماني من القارة الاوروبية إلى الشرق. وما أن اعتلى العرش الروماني أحد قوّاد عامة الشعب، ويدعى بومبيوس، حتى صمّم على بسط نفوذه على حوض البحر المتوسط وقطع دابر القراصنة. وزحف نحو آسيا الصغرى فاحتلها، واتّجه نحو الساحل اللبناني، مفتاح الشرق بكامله، في العام ٦٤ قبل الميلاد. وكانت الممالك الآسيوية قد دبّ الضعف فيها بسبب الصراعات التي دارت بين خلفاء الاسكندر، والمجادلات الفلسفية التي انصرفت إليها مدارس اليونان بعدما اختلست التراث الفكري الشرقي وراحت تتخبّط في أسراره ورموزه. كما شغلتها الحروب التي قامت ضد الغزاة المحتلين، وراحت تحاول تمتين سيطرتها على الدول المستعمرة. وهنا لا بدّ من التنويه بالدور اليوناني الكبير في الانصراف الى سبر أغوار هذه المدنيّة الجديدة التي أطّلعوا عليها وحملوها من الشرق، ولم يكتفوا بها، رغم انشغالهم في الحروب، وتهدئة الاوضاع الامنية المضطربة، فراحوا يطوّرونها ويُسبغون عليها طابعهم الغربي ويطعّمونها بفكرهم اليوناني، حتى ظهروا وكأنهم قد استنبطوا حضارة فريدة وجديدة أُطلق عليها اسم "الحضارة الهلينّية". وقد أدّى ذلك إلى تقدّم كبير تمّ في حقول الطب والفلك والرياضيات والفلسفة والآداب، وغيرها من الفنون التي سمحت للمدارس العلمية والفكرية أن تنتشر في جميع أنحاء الامبراطورية اليونانية.

وإزاء هذا الوضع المضطرب، لم تواجه بومبيوس صعوبات تستحق الذكر

عند احتلاله الساحل اللبناني سوى ما اعترضه من مقاومة عند حدود جيغرتا (حنوش حالياً شمالي البترون او حامات، ووجه الحجر، وصولاً الى عبرين)، عند جبل الشقعة، حيث كان يقيم قوم من الأيطوريين "الاوباش" كما وصفهم مؤرخو ذلك العصر، ومنهم الجغرافي سترابون الذي قال: "في أعالي سنّان وبوروما (ربما هي سلعاتا وكبّا) حيث يسكن قوم من اللصوص وقطّاع الطرق. وإن هؤلاء الأوباش يملكون على البترون وجيغرتا، ويسكنون الكهوف المشرفة على البحر، وحصن الشقعة" (١). وقد حاول ملك الايطوريين التصدّي للقائد بومبيوس، ولكنه فشل في إيقافه، فتقدّم "وأخذ قلعة جيغرتا فأخربها، حسب قول الأب لامنس ناقل هذا الخبر، وهدم قلعة وجه الحجر، وقوّض أبنية بترون لحلول أصحاب الجنايات فيها..." (٢). ووقع ديونيسيوس قائد الايطوريين أسيراً بيد بومبيوس، فقطع رأسه، وخرّب القلاع التي تحصّن بها. ولما وصل الى جبيل "مثّل بملكها كنيراس، كما فعل بصاحب حلب، ونفّس كربة أهلها، وجعل مدينتهم مستقلّةً تحت حمى الرومان..." (٣).

وتابع بومبيوس زحفه فاحتل كامل الساحل اللبناني دون مقاومة، لأن أهله الاصليين استقبلوه بالترحيب كرهاً بالقبائل الغريبة التي كانت تفرض سيطرتها بالقوة على السكان. وبالاضافة الى الشريط الساحلي، فقد احتل الرومان الجبال المواجهة لهذا الساحل التي بدأت تعمر بالسكان ولأول مرة منذ الاحتلال اليوناني. كما أخضع بومبيوس بقية المناطق المتاخمة للبنان وصولاً الى الجزيرة العربية ومصر.

المتوسط بحيرة رومانية

ولأول مرة، في التاريخ يتحوّل البحر المتوسط والدول المحيطة به الى امبراطورية واحدة سيطر عليها الرومان. وقد شملت هذه الامبراطورية معظم دول القارة الاوروبية والافريقية، وامتدّت الى أطراف آسيا. وتحقّق بدون عناء كبير يذكر حلمٌ طالما راود كبار القادة في التاريخ، وهو جعل البحر المتوسط بحيرة خاضعة لسيادتهم، وهذا ما فشل في تحقيقه نابليون وهتلر لاحقاً، والاسكندر سابقاً.

وفي مثل هذه الأجواء العابقة بالاساطير والعادات والتقاليد الوثنية المتأصّلة في النفوس دخل الرومان الشرق، وضمّوه الى امبراطوريتهم الواسعة الأرجاء، ناشرين في ربوعه الأمن والاستقرار. وكسلفائهم اليونان، لم يسطوا على ممتلكات الشرق وثروته المادية فحسب، بل وجّهوا أنظارهم الى تراثه الحضاري وثروته الفكرية، وأقاموا في ربوعه الهياكل والمدارس، ونقلوا الى اصقاعهم المتخلّفة هذا النتاج الفكري المتقدّم متيحين لأبناء البلاد فرصة الانصهار بهم واستلام المراكز الرفيعة، فكان من حظّ لبنان وبعض أسره، أن تبوّأت السدّة الامبراطورية، وعادت بالخير العميم على هذه الأرض وشعبها، فانتصبت في بعلبك وأفقا وجبيل وغيرها من الاماكن، أرقى الهياكل والقلاع وأتقنها. وفي بيروت التي أحبّها الرومان كثيراً وأعطاها أحد أباطرتهم إسم ابنته جوليا، ارتفع صرح فريدٌ في عظمته في علم الحقوق والفقه، فأتيح للبنانيين فرصة إبراز مواهبهم العلمية الخارقة من خلال أساتذة وعلماء كبار جعلوا مدرسة الحقوق البيروتية أهم صرح علميّ في عصره.

تعمير القرى الجبلية

وما أن هدأت ضوضاء الحرب، واستتبّ الأمن في بلدان الشرق، ومنها لبنان، حتى هبّ اللبنانيون لتعمير القرى في الجبال المتاخمة للبحر، وصولاً الى أعلى القمم، بعدما كان السكن محصوراً في السابق بالسواحل والسفوح المطلّة عليها (٤). وبانتقال المواطنين الى هذه القرى الجبلية، تمّ نقل العبادات والهياكل الوثنية اليها، فانتشرت المعابد حتى غطّت الجبال والسهول. وعادت الوثنية لتزدهر من جديد بفضل دعم الاباطرة للكهنة ورجال الدين، وتقاسم السلطة والنفوذ وإيّاهم. وعبثاً حاول بعض اليهود، والمؤمنين بالله، الوقوف بوجه عبادة الاصنام، حتى ظهر رجلٌ مختار وجريء في اورشليم، فراح يناهض رجال الدين وحكام الرومان داعياً الى نبذ الاصنام وعبادة الله، فلقب بالمسيح والمخلّص والمعلّم.

مولد المسيح

في مزود للبقر، وعلى فراش من القشّ والتبن، في قرية بيت لحم الفلسطينية، في العام ٧٤٩ للرومان الموافقة للسنة الرابعة او السادسة قبل الميلاد، في عهد

الامبراطور الروماني اوغسطس قيصر، ولد عيسى بن داود من بلدة الناصرة الجليلية. و "الكنيسة حسب الأب فيكورو الذي نقل عنه المطران يوسف الدبس، لا تعتمد تاريخاً قاطعاً بهذا الخصوص" (٥). أما التاريخ المعترف به كاثوليكياً ففي السنة الاولى للميلاد تمّت ولادة السيد المسيح.

وقد حاول حاكم اورشليم هيرودوس (٤٠ق.م - ٤ ب.م) أن يتخلّص من هذا "الطفل الالهي" الذي حدّثه عنه المجوس القادمون من بلاد الفرس بهدي نجمة الميلاد، لتقديم الطاعة له والهدايا، باعتباره المولود الذي سيتمّ على يديه خلاص البشرية، كما تحدّثت التوراة ونبوءات الأنبياء. ومع انه سيكون ملك اليهود أو "الماسيا" أي المسيح المنتظر، لم يفرح قادتهم لظهوره، وطالبوا بقتله، فأعطى هيرودوس أوامره بقتل كل اطفال بيت لحم للقضاء عليه خوفاً على عرشه المهدّد.ولكنه فشل في الوصول اليه لأن ملاكاً من عند الله كان قد أنذر أمّه مريم وأباه يوسف، ففرّا به الى مصر. وعبثاً يحاول الطغاة وقف مسيرة الشعوب، فقد ظهرت على الفتى عيسى ملامح الالوهية، وهو لا يزال صغير السنّ، فراح يجادل العلماء ورجال الدين في الهيكل داعياً لنقض المفاهيم اليهودية والوثنية، والممارسات التي يقوم بها رجال الدين، مشدّداً على فضيلة المحبّة والتسامح. عندها انقسم الشعب بين مؤمن بتعاليمه، معترف بألوهيته، ورافض لهما باعتبار هذه الافكار مخالفة للناموس اليهودي والمعتقدات الوثنية في أن واحد. فالمخلّص أو المسيح المنتظر عند اليهود، كما صوّرته كتبهم، هو قاهر الاعداء ببطشه، والباني عرشه على أنقاض الامم وجثث الشعوب التي سيخضعها لحكم اليهود. وهل هذا الذي يدعو الناس للتسامح ويطلب الى الذي "ضُرب على الخدّ الايسر ان يدير الأيمن" هو القادر على بناء مملكة اليهود؟ لا سيما وهو القائل "إن مملكتي ليست من هذا العالم"، وهم قاسوا ما قاسوه من ظلم الأمم، وعلّلوا النفس باستعادة زمام الملك في أرضهم، وطرد كل الامم الطامعة بهم، والراغبة في تشتيتهم.

وما أن بلغ الثلاثين من العمر حتى أعلن نفسه "ابن الله" الذي خلق السموات والأرض، وأنه مرسل من عنده لخلاص البشر من الخطيئة الاصلية التي اوقعهم بها آدم وحواء. وراح يكرز ويعظ باللغة الآرامية ولهجتها السريانية، وهي

اللغة التي كانت متداولة أنذاك في فلسطين وسوريا ولبنان وبلاد ما بين النهرين والجزيرة العربية. ولما كانت دعوته هذه مناقضة للمفاهيم الرائجة عند الرومان واليهود معاً، فكان من الطبيعي أن يتّفق الفريقان ضدّه كي لا تهدّد تعاليمه الوثنية الرائجة أنذاك، بالاضافة إلى الخطر الذي تلحقه بمصالح الحكام ورجال الدين، فكان لا بدّ من ملاحقته ووقف نشاطه. واخذ المؤمنون به يتضاعفون يوماً بعد يوم وتألبت حوله الجماهير مقتفية أثره من مكان الى أخر حتى بات من الصعب جداً النيل منه دون إثارة هذه الاعداد الكبيرة التي انضمّت اليه. ولم يكتف بالوعظ والارشاد والتبشير، بل راح يجترح العجائب، ويقيم الموتى، ويشفي المرضى، ويطرد الشياطين، حتى عمّت أخباره العالم القديم بأسره. عندها صدرت الاوامر العلية بوضع حدّ لهذه الظاهرة قبل أن يستفحل أمرها فيتعذّر عندها تلافي خطرها، لا سيما وقد أصبحت هذه التعاليم تهدّد الوثنية بالذات وهي التي شملها الاباطرة بعطفهم وحمايتهم لأنها الحامي للامبراطورية وعروشهم من الانهيار، وباب الرزق لمعاونيهم من كبار رجال الدين. فاضطر السيد المسيح الى الابتعاد عن اورشليم والتنقّل بين لبنان والجليل بسرية تامة، والاعتماد على تلاميذه في نشر أفكاره الجديدة بعيداً عن أعين السلطة وحلفائها واعوانها. وسرعان ما انضمّ الى "المعلم"، وهو الاسم الذي أطلقه عليه أتباعه الأوائل وتلاميذه، الكُثُر، وكان الأقرب إليه منهم أثنا عشر تلميذاً من أصل مئة وعشرين تلميذاً تتلمذوا على يديه في سبر حقائق الايمان وكشف أسرار الكون وتلمّس سبل خلاص النفس البشرية الخالدة.

مرور السيد المسيح في الأراضي المقدّسة

ولما كانت حدود اورشليم تشمل الجليل حتى طبريّة وعكا ساحلاً، اضطرّ السيد المسيح لتخطّي هذه المنطقة، الى توسيع حلقة إتّصالاته، ونشر دعوته بعيداً عن متناول أعدائه، لأن ساعته لم تكن قد أتت بعد. واختار أن يتجوّل بين العواصم العشر التي كانت عند تخوم مملكة اورشليم لجهة الشمال حيث تعيش الجماعات الكنعانية في جنوب لبنان، وهي المرة الاولى والأخيرة التي غادر فيها السيد المسيح فلسطين.

وقد بدأ رحلته الاولى والاخيرة بصور "حاضرة فينيقيا" حيث قابل تجارها،

خارطة
لرحلة السيد المسيح
الى فينيقية والمدن العشر

خارطة رحلة السيد المسيح إلى فينيقية فالمدن العشر فبحر الجليل كما رسمها الأب دوران .

وصيادي السمك، وتحلّقت حوله جماهير حاشدة للاستماع الى تعاليمه. ثم انتقل الى صيدا "بكر كنعان" ومنها، توجّه الى النبطية، في حين تشير بعض المصادر إلى وصوله الى بيروت، على حدّ ما زعم المؤرخ كوارزميوس، مضيفاً أنه ألقى عظة في مدرستها الشهيرة (٦). وكان قد ترك والدته في احدى مغاور عدلون التي تحولّت لاحقاً الى كنيسة للعذراء تخليداً لتلك الزيارة. ولكن هذه الزيارة لبيروت تدحض نفسها بنفسها، ذلك لأنه يستحيل إلقاء موعظة في مدرسة الحقوق البيروتية وهي لم تقم قبل اواخر القرن الثاني للميلاد.

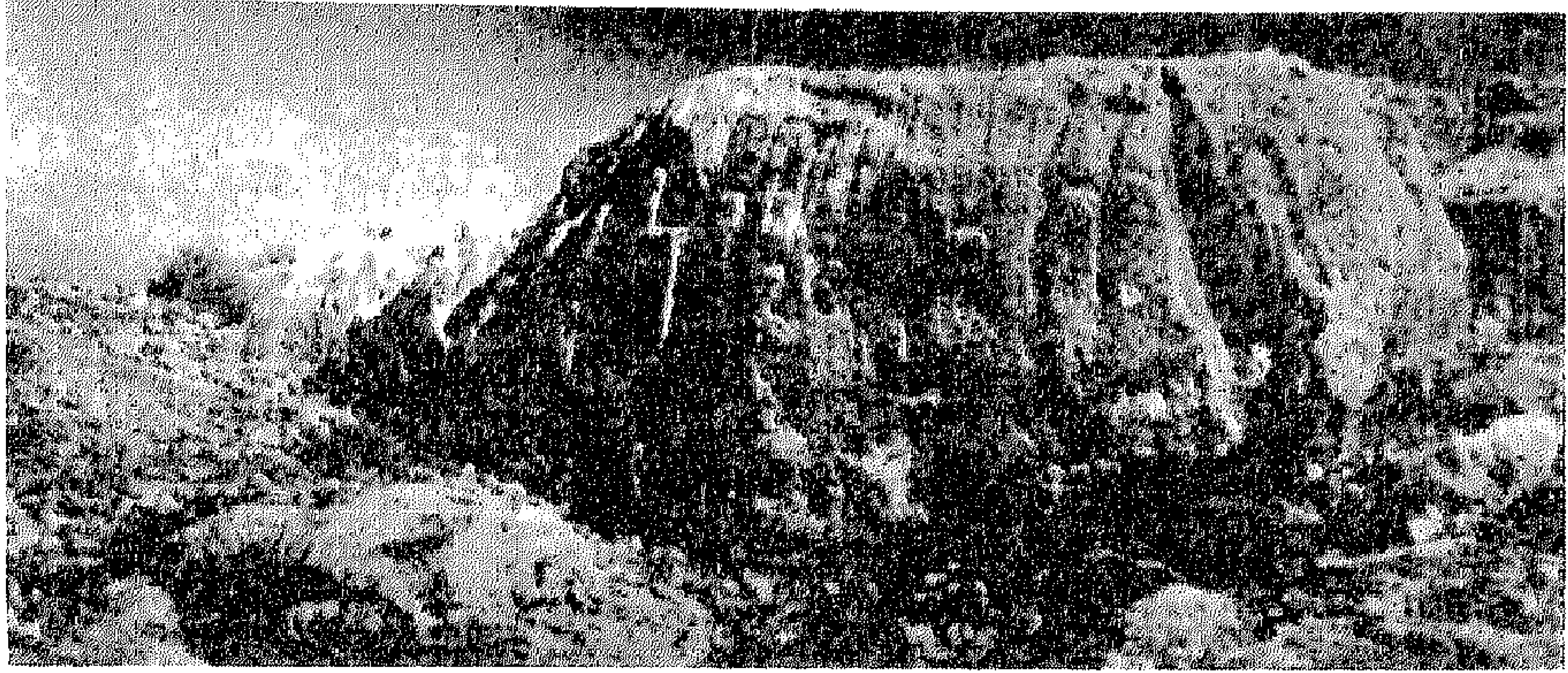
والثابت أن المسيح بعد زيارته صيدا اتّجه شرقاً نحو النبطية ومرّ بقانا الجليل كما يذكر الكتاب المقدّس، وحضر عرساً هناك، واجترح اعجوبة تحويل الماء الى خمر. كما كان قد شفى امرأة مجنونة في صيدا، و"تبعه جمع كثير من حول صور وصيدا" حسبما جاء على لسان متى (٧). ثم اجتاز بلاد بشارة عن طريق النبطية وصولاً الى جسر القعقعية، حيث عبر الجنوب الكنعاني أو بلاد بشارة الى منطقة الجليل (٨). و"كان كلما دخل بيتاً لم يرد أن يكلّم أحداً، فلم يقدر أن يستتر"، كما يقول الرسول مرقس في إنجيله حول هذه الزيارة (٩). وتابع سيره الى القدس مصمّماً أن يواجه أعداءه فيها مهما كان الثمن، لأن ساعته كانت قد أتت.

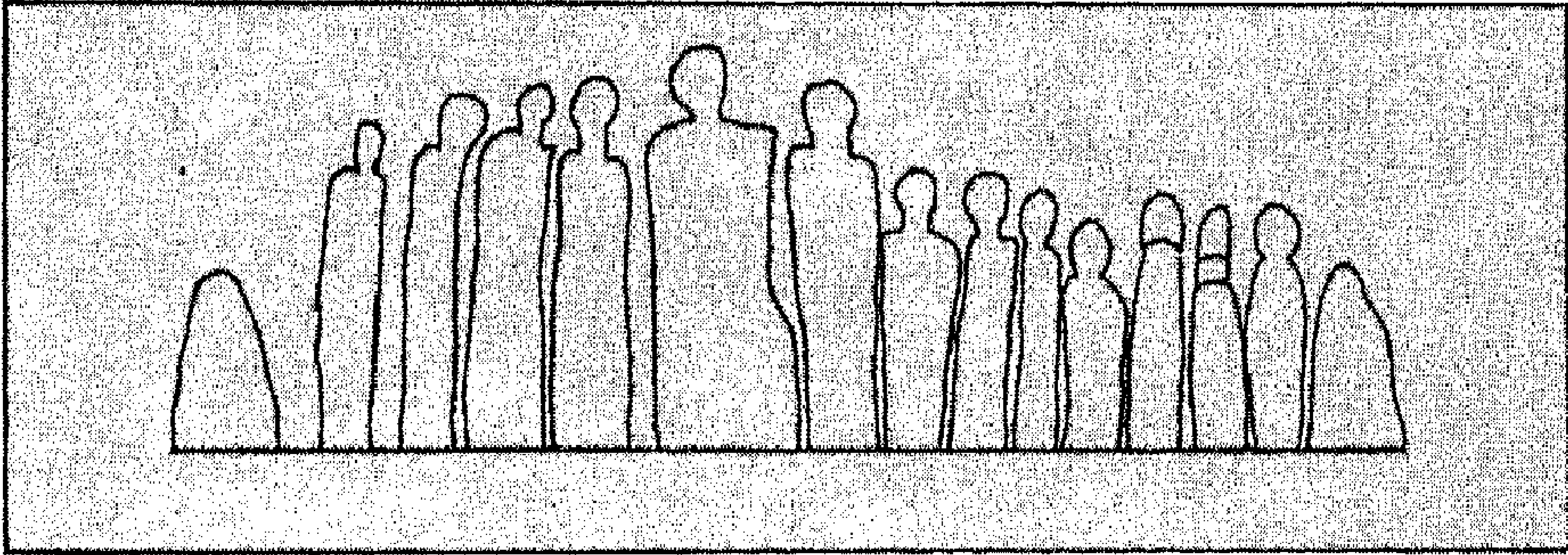
وسرعان ما انتشر خبر وصول السيد المسيح الى القدس فواكبته الجماهير الى الهيكل حيث راح يناظر العلماء وكبار الكهنة اليهود ويفحمهم. وكانت أخبار العجائب التي اجترحها في الجنوب قد ترددت اصداؤها في بيت المقدس وبيت لحم والناصرة وكافة أنحاء مملكة اورشليم، فاحتشد حوله الجموع تطلب شفاعته لابرائها من أمراضها، فاهتاج اعداؤه وواصلوا اجتماعاتهم لمواجهة هذه الظاهرة المقلقة. وفي النهاية أجمعوا على وجوب التخلّص منه بأسرع وقت ممكن.

العشاء السري والصلب

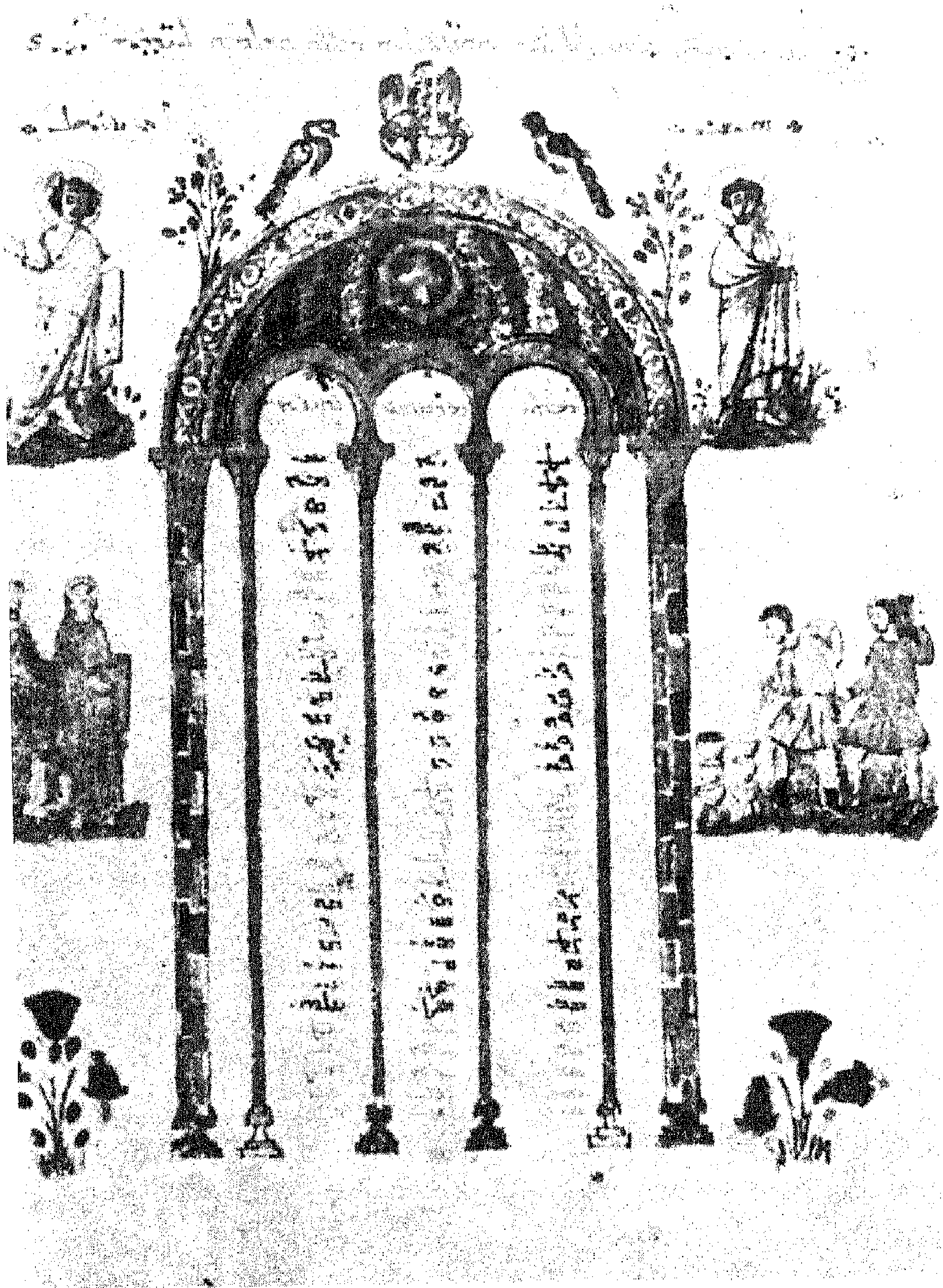
وأمام هذا الموقف الصعب، ودنو ساعة الأجل المكتوب، كان لا بدّ من الاختلاء بالمقربين والتداول في الأمر. فانطلق السيد مع أقرب تلاميذه إليه، الإثني عشر الذين لازموه في مسيرته نحو الجبل المشرف على مدينة القدس حيث أقام وإيّاهم







تماثيل حُفرت في الصخر في وادي قانا لبنان تمثل على ما يبدو المسيح ورسله الاثني عشر. وهي حسب العلامة الاب رونزفال اليسوعي من القرن الاول الميلادي . هي اذا اول رسم في التاريخ ظهر الى الآن يمثل المسيح ورسله. والرسم متخذ من مجلة متحف بيروت [١] .



عرس قانا الجليل حسب انجيل رابولا

"العشاء السرّي" الأخير، فكسر الخبز وأطعمهم قائلاً: "هذا هو جسدي خذوا فكلوه". ثم سكب الخمر في كؤوسهم وأضاف: "وهذا هو دمي فاشربوه، وهو يهرق من أجلكم لخلاص البشرية". وألمح اليهم بعد العشاء أن أحداً منهم سيسلّمه الى أعدائه، وآخر سينكره قبل صياح الديك، ورغم تعجّب واستهجان التلميذين الموصى إليهما لأنهما كانا يجهلان ذلك، باعتبار أن هذه الاحداث كانت مرسومة لتتمّ على هذه الصورة، قام تلميذه يهوذا بقبض "الثلاثين من الفضة" ثمناً لتسليم السيد المسيح، وانكر بطرس معرفته به لما سأله المحققون عن علاقته بالمعلم. فتمّ الحكم على الناصري بالصلب، واقتيد الى الجلجلة يحيط به المريمات الثلاث ويوحنا الحبيب وسمعان وجموع من أتباع الدولة الصارخين: أصلبوه... أصلبوه... وصُلب المخلّص، وجلد، وطعن بالحربة حتى الموت. ثم طلب الماء فأسقي الخلّ إمعاناً في تعذيبه وتمتّ الرسالة كما تنبّأ بها أنبياء التوراة ليبدأ "عهد جديد". وبعد ثلاثة أيام زحزح الحجر عن القبر الذي ضمّ جسد المسيح، و"قام من بين الأموات، وصعد الى السماء وجلس عن يمين الأب"، تاركاً بعده مئة وعشرين تلميذاً أخذوا على عاتقهم نشر الرسالة المسيحية في العالم (١٠). ولكن الذين أسهموا فعلياً في قيام الكنيسة المسيحية الاولى لم يتعدّوا الإثنين والسبعين تلميذاً. وأول الذين آمنوا وساروا في ركاب الرسل الاوائل كانوا "ثلاثة آلاف من يهود الشتات" (١١). وربما لبعدهم، في أطراف المملكة، عن أعين الرقباء وانصار الحكام الذين شدّدوا التحذير، وهددّوا بالموت كل من يأتي على ذكر المسيح وتعاليمه. وبعد هذه الطليعة المسيحية الاولى، انضمّ الى المسيرة "خمسة آلاف من الرجال والنساء والمؤمنات..." (١٢).

ظهور المسيح من جديد واضطهاد الرسل

وبعد أيام من قيامته من الموت، ظهر السيد المسيح على بعض تلاميذه، وجسده لم يزل يحمل آثار الطعن، والتعذيب، فآمن به أحدهم وهو توما بعدما وضع إصبعه في جرح خاصرته وتبعه الآخرون فاظهر يسوع امتعاضه وقال لهم: "طوبى للذين آمنوا ولم يروا"، ودعاهم ليعملوا حسب مشيئة الرب القائل: "لا تبرحوا اورشليم، بل انتظروا موعد الآب، وستنالون قوة بحلول الروح القدس عليكم، وتكونون شهوداً في اورشيم، وفي كل اليهودية والسامرة، وحتى الى اقاصي

الأرض" (١٣).

وبالفعل بعد أيام معدودة حلّ الروح القدس على المعتقلين من تلاميذه في أحد سجون اورشليم، فغادروا دون أن يدري بهم أحد، وبقيت الأبواب مقفلة، وكان هذا الظهور العمل العجائبي الأول يتبلّغه أركان السلطة، بعد موت المسيح، فقضّ مضاجعهم. وأقسموا أن يبيدوا كل القائلين بتعاليمه. وكانت الأعجوبة المذهلة الثانية لما سمعوا بعض تلاميذ المسيح المعروفين بأميّتهم يكرزون بين الناس بكل اللغات المعروفة في تلك الأيام، باليونانية، والآرامية السريانية، والرومانية، وكان ذلك كافياً لإفهام هؤلاء الاعداء أن ما كتب قد كتب ولا قوة قادرة على وقف مسيرة الشعوب المؤمنة بقضاياها. وأخذت قوافل المؤمنين تتكاثر وتمتد حتى غطّت كامل المنطقة الواقعة بين اورشليم وانطاكية التي نقل اليها الرسل نشاطهم بعدما تكاثر اضطهادهم في القدس وتم طردهم منها بالقوة. ولكن يد الرب لم تتخلّ عن هؤلاء الجنود الشرفاء الذين استبسلوا في نقل الرسالة التي إئتمنوا عليها رغم العديد من الشهداء الذين سقطوا على طريق النضال، فانتصروا على اعدائهم.

إنتشار المسيحية شرقاً وغرباً.

مات الرسول، ولم يتعدّ الثالثة والثلاثين من عمره، ولم يكن قد مضى على إعلان نفسه "إبناً لله" أكثر من ثلاث سنوات، فيها أطلق دعوته المرتكزة على التسامح، والمحبة، ورفض العنف وعبادة المال والأوثان. وكانت هذه المدّة كافية لبناء عقيدة مضى عليها حتى اليوم ألفا عام، وهي تزداد تألّقاً وانتشاراً سنة بعد سنة: فالرسالات الكبرى تتغذى بقيمها ومبادئها لتنطلق أقوى وأشمل وأسرع بعد غياب أصحابها، ولا شيء يزكي أجيجها واضطرامها أكثر من اضطهاد أعدائها للعاملين على رواجها وانتشارها. فالقوة والظلم والاضطهاد هي الحوافز الأقوى لانتصار الرسالات، وتثبيت المواقف، وشدّ اللحمة بين اصحاب الخط الواحد. ومن الخطأ بمكان أن يقتصّ الحكام من أخصامهم ومناوئيهم، أفراداً كانوا أم مؤسسات، واحزاباً، وجماعات؛ لأن الانتقام والمواجهة هما الطاقة التي تعطي أصحاب القضية حافزاً جديداً لمتابعة الجهاد، ومضاعفة المؤمنين بهذه القضية، ويفرص انتصارها.

وهكذا بالنسبة الى الدعوة المسيحية التي أطلقها السيد المسيح، وحاول اليهود والوثنيون خنقها في مهدها، فكان أن تحولّت تيّاراً جارفاً تخطّى كل العقبات والحواجز، وأدى الى قيام "كنيسة جامعة مقدّسة رسولية"يشكل أتباعها اليوم نحو نصف سكان العالم، ويعتبر دورها الأقوى والأهم، حتى سياسيّاً، بين شعوب الأرض وأممها.

إيل "الوثني" والله "التوراتي" يتعايشان على الأرض اللبنانية

وفي الوقت الذي عمّت فيه العبادة الوثنية انحاء العالم القديم انطلاقاً من الأرض اللبنانية على أيدي كتّاب اليونان وقادتهم، وبعدهم على يد أباطرة الرومان، انطلق رسل المسيحية أيضاً، بعد موت المعلم، عبر الأرض اللبنانية التي فتحت لهم صدرها والمنازل، الى أقاصي الشرق والغرب، سرّاً في البداية، ثم جهراً فيما بعد. وكم من مدينة لبنانية تقاسم فيها السكان البيوت الواحدة فجعلوا غرفة منها معبداً وثنياً، واخرى كنيساً يهودياً، وثالثة كنيسة مسيحية، وفيما بعد التصق بها جامع للاسلام. وهذه صور وصيدا وبيروت وجبيل وطرابلس، تقاسم أحياءها اليهود والوثنيون المسيحيون والعرب المسلمون، وتعايشوا بمحبة وأمن وسلام، وإن عانى الجميع من جور واضطهاد بسبب إيمانه إنما كان على يد الحكام وليس على ايدي الجيران والمواطنين. واللبنانيون الذين اكتشفوا إيل وجعلوه "رب الأرباب" فخرّت له شعوب العالم راكعة، هم نفسهم نادوا بالمسيحية رسالة وديناً وبشّروا بها في الشرق والغرب، وزرعوا جبالهم والسهول صوامع وكنائس للتعبّد والصلاة، وفيما بعد عمّروا بحجارة المعابد الوثنية نفسها كنائسهم، وعلى انقاضها عندما انصرف عنها المؤمنون، وكأن قدر هذه الأرض ان تحتضن الديانات السماوية، وتندب حكماءها لترويج العقائد والرسالات، ليتمّ ما قيل فيها في الكتب المقدّسة واشتهرت به، باعتبارها "أرض الله" و"بستانه" و"حدائقه" كما وصفها كتاب التوراة المقدّس. وقد اختلطت فوق ترابها المقدّس اناشيد المرتّلين والمؤذّنين ببخور المجامر، كما لم تلتق في أي بقعة من بقاع الأرض. فمنذ أن كان لبنان عاشت فوق أرضه جماعات مختلفة الاجناس والمشارب والمذاهب بمحبة واحترام وتآلف. وكوننا حملة الفكر الديني والحضاري الى العالم علينا أن نوفّر المناخ الحرّ والانفتاح المطلوب لتفاعل

الفكر البشري، ونموّ العقائد، فوق هذه الأرض المدعوّة لتكون أرض اللقاء والحوار. وساعة تسقط هذه الميزة، تفقد هذا الدور التاريخي الفريد، ولا يعود هناك مبرّر لوجودها وهذا ما يعمل للوصول إليه المتآمرون القلقون من الدور اللبناني والحصن الذي وفّر الملجأ الآمن لكل الأحرار والمضطهدين عبر الاجيال والعصور.

و "إيل" الذي تبنّته معظم دول العالم، ودبّجت حوله الاساطير المختلفة، وحرّفت اسمه وألقابه، هو نفسه الذي دعاه الأشوريون "إيلو"، والكنعانيون "عليون"، أو "إيلون"، والعبرانيون والمسيحيون والمسلمون أو العرب "ألله". والمسيح عندما علّق على الصليب خاطب أباه قائلاً: "إيْلي، ايْلي، لماذا شبقتني" أي: الهي إلهي لماذا تركتني؟ (١٤). وكما إيل، كذلك أدونيس وعشتروت، وملقارت، وبعل وغيرهم من آلهة الفينيقيين الذين نُسجت حول سيرتهم الأساطير، تبنّاهم العالم وخرّ خاشعاً أمام مذابحهم، وقدّم لهم الغالي والنفيس، ولم يوفر حتى الدم والروح والبنين لنيل رضاهم. والكتاب المقدّس نفسه، المعروف بكتاب "التوراة" معظم اخباره ونبوءات أنبيائه تشير إلى اماكن لبنانية من "جنة عدن" الاهدنية، الى "قبرقايين" البقاعي المجاور لقبر نوح في جبل حرمون، وصولاً الى الأرز المعروف "بأرز الرب". وقد أمّ جبيل "مكّة الوثنيين"، وبعلبك "أورشليم الرومان" للصلاة، كل شعوب العالم القديمة ومعظم حكامه، كما يؤم اليوم المسلمون مكّة المكرّمة. وقد أشرنا سابقاً الى التشابه الكبير بين الميثولوجية الفينيقية واللاهوت المسيحي، إذ كلاهما يعترف بقدسية الثالوث الذي أطلقه الفينيقيون، جاعلاً لكل مدينة ثلاثة آلهة، والثالوث الأقدس صهر فيه المسيحيون الآب والابن والروح القدس في جوهر واحد، تماماً كما ثالوث "إيتوبعل" يمثّل وحدة أقنومية انصهر في جوهرها إيل وثور وبعل آلهة المدن والضواحي الثلاثية التي أطلقت تيمّناً على ملوكهم نوّاب الآلهة على الأرض حتى صاروا هم نفسهم آلهة بنظر الشعب.

ولما دعا ابراهيم إبنه اسحق لعبادة "الله" وترك "العبد" كان أول من آمن به ملوك الفينيقيين، وفي طليعتهم "ملكي صادق (ملك جبيل) وبمليك، وغيرهما" (١٥). ولفظة "بعلي" التي تطلقها الامرأة على زوجها فينيقية المصدر، وقد ردّدها النبي هوشع في التوراة واعطى شهادة أنه أول من أنصف المرأة وجعلها بمساواة الرجل

إذ قال لزوجته: لا تدعينني رجلي، ولا تدعينني بعلي (أي سيّدي وإلهي) [١٦]. وهكذا كانت، ولا تزال هذه الأرض هي السبّاقة بمعرفة "الله" وحفظ وصاياه. إذ ما أن انتهت مرحلة عبادة البعول و"البعليم"، حتى انطلقت في هذه الأرض عبادة "الله" في الوقت الذي رفضت الاعتراف به الأرض التي شهدت مولده العظيم.

٣ - الصراع بين الوثنية والمسيحية في الشرق

البعد الميثولوجي بين الفكر الوثني والفكر المسيحي

كان لا بُدّ، بعد تطوّر الفكر الديني الوثني الفينيقي الملقّح بالفلسفة اليونانية، من نقلة نوعية من النظرة المادية التي اعتمدتها معظم شعوب العالم القديم، الى نظرة جديدة روحانية اطلقتها التوراة في بحثها عما وراء الحياة، وعملية الخلق، وهي وإن انطلقت من مفهوم جديد للكون، فلها جذورها في التراث الفينيقي نفسه. وفي مقارنة صغيرة لما جاء في ملحمة سنكن يتن حول الخلق، وما جاء في التوراة، يتّضح مدى التوافق والتشابه، حتى في اختيار الكلمات. يقول سنكن يتن: "في البدء كان الهواء مظلماً مضطرباً بواسطة الروح، او بالحري لم يكن شيء إلاّ روح الهواء المظلم، والخلاء المختلط الشديد القتام...". وجاء في التوراة حول قصة الخلق: "في البدء خلق الله السماوات والأرض. وكانت الأرض "شوهو بوهو" (واللفظة سريانية تعني خاوية خالية)، وعلى وجه القمر ظلام، وروح الله يرفّ على وجه المياه...". ويتابع سنكن يتن: "وكان الخلاء لا نهاية له. وفي مدة قرون طويلة لم يُبرز شيئاً من المعلومات. ولما أحبّ الروح (وهنا الروح تحلّ محل كلمة الله في التوراة) مبادئه، حدث امتزاج، ودعي هذا الاتحاد شوقاً، وكان الشوق (وهو وجه آخر من وجوه الله) علّة لوجود كل شيء". غير أن الروح لم يعرف ما أوجده، (وهنا إشارة إلى تساؤل العلماء الباقي حتى اليوم والقائل بأنه في حال أن الله خلق كل شيء، فمن الذي خلقه؟) (١).

وهكذا أعطى العبرانيون في التوراة إسم "الله" للروح، أي "الشوق" الذي

عبّر عنه الفينيقيون في ملحمة سنكن يتن، ونسبوا إليه علّة الوجود، وإن لم يعرف من أوجده. ويتابع الفيلسوف الفينيقي سرده لقصة الخلق فيقول: "امتزج الروح والفضاء فولد منهما موط. (ويترجمه بعضهم بالطين، او اختلاط واختمار وحلي) ومن موط هذا خرج أصل كل ولادة، وتناسل كل شيء (فوجدت حيوانات معدومة الحس) (Bactéries, Parasites, Virus)، وقد أبرزت موجودات فاهمة فسموّها "صفاسيم" أي ناظرة الى السماوات (وربما المقصود بها، أو منها البشر). وكانت هيئتها كهيئة بيضة... وعند ذلك سطع موط والشمس والقمر والنجوم والكواكب العظيمة..." (٢). وهذه المقاطع الأخيرة يقابلها في التوراة: "إن الله خلق في اليوم الأول النور، وفي اليوم الثاني فصل بين المياه العليا والمياه السفلى. وفي اليوم الثالث خلق النبات والاعشاب والأشجار. وفي اليوم الرابع الشمس والقمر والكواكب. وفي اليوم الخامس الأسماك والطيور. وفي اليوم السادس خلق الدبّابات (الحيوانات الدّابة والزاحفة) والبهائم، ثم الانسان على صورته ومثاله ذكراً وأنثى. وفرغ من عمله واستراح في اليوم السابع..."(٣). والطين الذي أشار إليه سنكن يتن هو المادة نفسها التي قالت التوراة بأن الله نفخ فيها نسمة حياة فصار الانسان نفساً حيّة، وأوقع سباتاً على آدم فنام، واستلّ إحدى أضلاعه وجعلها امرأة، وأتاه بها فقال آدم: "هذه المرأة عظم من عظامي، ولحم من لحمي...". وسمّى كتاب التوراة المرأة "حواء" أي الحياة، أو واهبة الحياة، وآدم هو أبو البشر الذي عاش "تسعماية وثلاثين سنة ومات"، كما جاء في سفر التكوين (فصل ٥ عدد ٤ و٥)، بعد أن ولد له ولحواء بنون وبنات لم يذكر أسماءهم الكتاب المقدس المعروف بالتوراة.

واستناداً الى مبدأ الخلق الناتج عن تفاعل الحرارة تحت تأثير أشعة الشمس، يصف سنكن يتن بطريقة علمية نشوء الأمة الفينيقية بالقول: "ولد جنّ وجنيّة فسكنا في فينيقيا. ولما اشتدت حرارة الشمس رفعا أيديهما الى السماء ظنّاً منهما أنها ملكة، أو ربّة السماء، وسمّياها "بعل شميم" أي "ربّ السماء". "في حين سمّاها اليونان "زوس" حسب إشارة سنكن يتن في ملحمته. والفيلسوف طال، الفينيقي الأصل، حسبما أوضح الأب مارتين اليسوعي، رأى "أن الاعتقاد بإله واحد

روحي لم يكن قد انطفأ نوره في فينيقية، لأنه يعلّم أن الخلاء (الكون) قد دُبّر بواسطة وجود فاهم، فأخذ عنه فلاسفة اليونان وشرعوا يعلّمون من بعده هذه الحقيقة بموجب التقليدات الفينيقية". وموخ أو مخ، الفيلسوف الصيدوني، وبيتاغورس جامع تعاليم الفينيقيين، والقديس أتناسيوس، ومعظم المعاصرين والمستشرقين يشهدون لهذا الفينيقي، اللبناني الاصل، بأنه لم يضع الحجر الاول لبناء حضارة كونية فحسب، بل قد عرّف الانسان إلى خالقه قبل أن يأتي ذكر الله على ألسنة الأنبياء والرسل، ولو بأسماء أخرى، وصفات متعدّدة، أقلّها أنه "رب الأرباب" و"السيد العالي القدير" و"الثالوث الأقدس". وحده الفينيقي اللبناني هذا، وفي العام ألفين قبل الميلاد اكتشف عالم الغيب والماورائيات، وتفاعل المادة والحرارة، وتزاوج الروح والجسد، وأدرك بحسّه الفطري المبدع أن الجسد فان والروح خالدة لا تموت، وانه لا بدّ لهذه الروح من القيامة بعد الموت. وهذه كلّها ثوابت تؤمن بها، وبالله الذي هو "رب الأرباب" و"سيّد الكون" و"خالق الارض والسماء" كل الديانات السماوية المعاصرة. وعلى هذا الاساس، وباعتبار المسيحية تتكامل والتراث الفينيقي، كان الفينيقيون أول من آمن بها، ووجدوا في معتقداتهم جذوراً لها ضاربةً في أعماقهم، فحملوا رسالتها الى الأقطار الأخرى، وفتحوا أذرعهم لاستقبال المؤمنين بها، فغدت صخور جبالهم ومغاورهم صوامع للتعبد والنسك. ولما نشأ الدين الاسلامي عرف ايضاً أتباعاً له فوق هذه الأرض في بداية عهده. وهكذا كان، وسيبقى هذا الجبل المقدس مهد الرسالات، وملاذ الأنبياء، والرسل، المناضلين في سبيل المبادئ والقيم.

العمل الرسولي وبناء الكنائس

منذ اليوم الأول لدخول المسيحية الى لبنان وتعاليمها، من فم السيد المسيح صاحب الدعوة بالذات، أو من رسله من بعده، قامت الكنائس سريّة في البدء، ثم علنيةً في نهاية القرن الأول. ورغم اضطهاد الحكام، وقادة الوثنية وكهنتها، للمبشرين بتعاليم المسيح، حوّل بعض اللبنانيين اقبيتهم الى اماكن للاجتماع وللصلاة، خالية من الشعارات. وأول كنيسة جاهر بها اللبنانيون وزيّنوا جدرانها بالرسوم والشعارات ورفعوا الصلبان فوق أعتابها، قامت في قانا الجليل

(الجنوبية حيث اجترح المسيح أعجوبة تحويل الماء الى خمر حيث لا تزال رسوم الرسل الاثني عشر يحيطون بالسيد منحوتة على صخورها حتى اليوم). ففي تلك المغارة بالذات كانت تقام المراسم الدينية المسيحية الاولى في العلن؛ وبعدها تحولّت احدى مغاور عدلون، حيث انتظرت السيدة العذراء عودة المسيح من صيدا، الى كنيسة على إسم السيدة العذراء، بعدما كان هذا المقرّ معبداً للالهة عشتروت (٤). وحتى الآن نشاهد على صخور تلك المغاور التي تقع جنوبي صيدا آثار الصلبان المحفورة منذ القدم.

ولما كان السيد المسيح قد سلك في رحلته الاولى والأخيرة خارج فلسطين كما ذكرنا، "طريق النبطية جنوبي شرقي صيدا، وعبر الليطاني عند القعقعية، وصولاً إلى بلاد بشارة"، على حدّ ما جاء على لسان المستشرق الأب دوران (٥)، فمن البديهي أن تكون تلك المناطق شاهدت الجماعات المسيحية الاولى التي كانت تجتمع في بيوت سريّة، ثم تظاهرت بعبادتها بعد القرن الثالث بعدما أطلق الامبراطور الروماني قسطنطين حرية المعتقد، واعترف بالمسيحية ديناً رسمياً للدولة، فإذا الكنائس تعمّ معظم المدن الساحلية، وترتفع فوقها الصلبان والاجراس الخشبية في البدء، ثم النحاسية لاحقاً. ويعود الفضل في نشر المسيحية وإقامة الكنائس الاولى، لتلاميذ المسيح بالذات، ولا سيما في السواحل اللبنانية التي شهدت مرور القديسين بطرس وبولس ويوحنا وغيرهم. وكانت صور وجبيل وبيروت وطرابلس اولى الحواضر اللبنانية التي قامت فيها جماعات مسيحية. وبالرغم من حرية المعتقد التي اطلقها قسطنطين فقد نقضها خلفاؤه، وعادوا لاضطهاد الذين حملوا كلمة المسيح معرّضين حياتهم للخطر، غير عابئين بالضحايا العديدة التي سقطت شهيدة على مذابح الايمان لتعميم الرسالة السماوية، وفي طليعة هؤلاء القديسان بطرس وبولس، والقديس اسطفانوس، وغيرهم.

الرسول بطرس أول السائرين على خطى المسيح

ولما كان لا بدّ من صخرة تبنى عليها البيعة المسيحية، فكان الرسول الفلسطيني بطرس، تلميذ السيد المسيح الذي انكر سيده قبل صياح الديك ثم عاد فآمن، وهو الصخرة التي تحولّت في روما الى "فاتيكان" يرجع إليه مسيحيو العالم

في شؤونهم الدينية وحتى المدنية أيضاً.

وقد باشر كبيرالرسل بطرس، رسالته وأعماله التبشيرية في فلسطين أولاً، لاسيّما في اورشليم رغم اوامر حكامها الصارمة بخروجه وكل الرسل من تلاميذ المسيح منها في حال إصرارهم على الشهادة للمعلم. ومضى بطرس مبشراً بالمسيح، غير عابئ بالوعيد والتهديد، وبالسجن والاضطهاد. ثم غادر القدس وراح يجوب المدن، مدينة بعد مدينة، زارعاً تلك الحقول المتعطّشة الى بزور الايمان، إبتداءً من صور التي رسم فيها اسقفاً يدعى كاسيوس حسبما أشار المؤرخ بياجيوس في كتابه "سوريا المقدسة". وبعدها انتقل الى صيدا والمدن العشر في الجليل متّبعاً الطريق التي مشاها السيد المسيح. ثم عاد الى بيروت التي وافق دخوله اليها وجود المبتدع سيمون الساحر فيها. وصادف أيضا حدوث زلزلة ضربت المدينة فنسب الساحر سيمون ذلك الى غضب الرب بسبب دخول الرسول بطرس. ولكن الرسول العظيم أثبت للناس خداع هذا المشعوذ وجماعته، و"اضطرهم للفرار بعدما أوسعهم الاهالي ضرباً" (٦). وأجرى الله على يد بطرس بعض العجائب فكثر اتباع المسيحية مما جعله يقيم عليهم اسقفاً يدعى كوارتس من رفقائه (٧). وقد أصبح هذا الاسقف قديساً، كما ذكر تاوفانوس في كتابه "أعمال الآباء البولنديين" في ٣ تشرين الثاني (مجلد ٦١ صفحة ٥٨٥)، وأضاف ان السنكسارات اليونانية واللاتينية توجب التقديس والتكريم للقديس كوارتس. كما ذكر هنري موندر "أنه كان في إحدى كنائس بيروت خطوط ناطقة باسم كوارتس أول اسقف على بيروت" (٨). وبعدها غادر القديس بطرس بيروت الى جبيل حيث أقام فيها اسقفا يدعى يوحنا مرقس الانجيلي، أحد أقرباء القديس برنابا الذي لجأ الى بيته القديس بطرس هرباً من هيرودوس كما جاء في أعمال الرسل (٢:١٢)، ثم رافقه في رحلته هذه الى إنطاكية. وكانت البترون آنذاك تابعة لمدينة جبيل حتى قيام الامبراطور ديوقلسيان الذي قدّمها على كراسي إنطاكية كلّها (المشرق ٣: ١١٠٣)، فمرّ بها ومنها انتقل بطرس ورفاقه الى طرابلس التي قاومت دخوله فاحتلّها بالقوة وأقام فيها، حسبما يذكر القديس اقليموس، اسقفاً يدعى ماروتس أو مارون، والقول للأب لامنس في كتابه "تسريح الابصار..." (جزء اول صفحة ١٠٠)، وهي المرة الاولى التي يستخدم

فيها الرسل القوة. وتابع سيره نحو بانياس فأقام اسقفاً في قيصريتها يدعى فيليب أرست، كما أشار بعض مؤرخي اليونان، وأسقفاً آخر في قيصرية فلسطين يدعى زكي ذكره المؤرخ بياجيوس في كتابه "سوريا المقدسة"، وأسقفاً في اللاذقية يدعى لوقيوس ورد ذكره في رسالة بطرس الى الرومانيين (٢١:١٦)، واسقفاً في سلوقية سوريه ذكره لكويان في كتابه "المشرق المسيحي" (مجلد ٣ صفحة ٨٢١). هذا بالاضافة الى تعيينه اسقفاً في دمشق يدعى حنانيا، واسقفاً في اللّد يدعى زيناس، واسقفاً آخر في سلوقية سوريه يدعى دوستنيانوس (١). وهكذا انتظمت الأمور في الساحل اللبناني من صور إلى عرقه، وبعض مدن الداخل والساحل السوريين، وكانت المحطة الكبرى والأهمّ في إنطاكية كبيرة المدن المشرقية التي فيها تلتقي الجاليات من جميع أنحاء العالم، وبينها اليهود والفرس والرومان والعرب واللبنانيون. واليها كانت تصله أخبار الاسقفيات التي تركها وراءه فجعلها مقراً لمسيحيّي الشرق وأسّس فيها أبرشية تولاها نفسه في العام ٤٢ بعد الميلاد. وبعد ما اطمأنت نفسه الى حسن سير الامور فيها سلّمها من بعده للرسول بولس، وانتقل الى روما ليؤسس "البيعة" التي دعاه لقيادتها السيد المسيح نفسه. ولما كانت روما عاصمة الامبراطورية الرومانية الحاكمة في الشرق والغرب، كان لا بدّ من أن تقوم فيها أكبر الابرشيات، فاختارها مقرّاً نهائياً له ليدير منها الابرشيات والاسقفيات التي خلّفها وراءه أثناء مسيرته الطويلة من اورشليم الى روما. وبذلك أصبح أول باباوات الكرسي الرسولي الروماني، واصبحت روما "فاتيكاناً" للمسيحية في العالم يعود اليه المؤمنون التابعون للكنيسة الرسولية المقدسة في أنحاء العالم لتدبير شؤونهم الدينية، وتأمين مصالحهم الدنيوية أيضا. وغدا القديس بطرس، بعد توليه هذه المسؤولية، أول بطاركة إنطاكية التي حمل فيها المسيحيون لأول مرة التسمية "المسيحية"، وأول باباوات روما أيضاً.

وبفضل ازدهار المسيحية في إنطاكية والشرق دعيت انطاكية "مدينة الله"، وباليونانية الرائجة آنذاك "تيوبولس Théopolis".ولم يمض قرنان من الزمن حتى عمّت المسيحية كافة أنحاء الشرق، وبعض مدن الغرب، بفضل نشاط الرسل القديسين، أمثال بطرس وبولس ويوحنا ومتى ومرقس وسمعان ولوقا والقديس

اغناطيوس وموستينوس وغيرهم. وانتقل المؤمنون من ظلمات الكهوف التي كانوا يجتمعون فيها خفية، الى التلال العالية والساحات العامرة، فبنوا "البيع التي لم تقو عليها أبالسة الجحيم" محقّقة نبوّة السيد المسيح والكتب المقدّسة، فارتاحت نفس الرسول الأكبر بطرس لهذا الانتصار العظيم وللوفاء بالدعوة التي كلّف بها لتأسيس كنيسة المسيح، فكان الصخرة التي عليها قامت الكنيسة، الجامعة المقدّسة الرسولية، وقضى كغيره من الرسل الاوائل شهيداً في روما التي شهد منها تألّق نجم المسيحية في العالم، وشهد فيها للمسيح الذي بذل النفس لخلاص البشرية، وعلى غراره استشهد وقضى تاركاً المشعل في ايدي الرسل والقديسين الشرفاء تلاميذ السيد المسيح، ورعاة خرافه الاوائل.

بولس الرسول يتابع الرسالة بعد بطرس

القديس بولس، يهودي من طرطوس عرف باسم شاوول. بدأ حياته كأحد قادة الرومان المكلّفين بملاحقة المسيحيين الاوائل والقضاء عليهم. وذات يوم صادف وجوده على رأس قافلة منهم اقتادها مكبّلة نحو دمشق لإعدامها، وحدثت معه أعجوبة غيّرت تفكيره. وقد شاء الرب أن يتحوّل هذا القائد الوثني المتعصّب، الى مسيحي متصلب في الدفاع عن حق المسيحيين في التعبّد والأمن والسلام، فطلب من الرسول حنانيا الدعم لمتابعة مسيرته الجديدة، كما جاء في أعمال الرسل (٩:١ - ١٨ و ٢٢: ٢٦، و١٥ - ١٨). ولما رأى حكام الرومان تبدّله، ودعمه الحار للمسيحيين، ذهلوا وتآمروا لاغتياله، واضطرّوه للفرار، واللجوء الى القديس برنابا في العام ٣٧ بعد الميلاد الذي ضمّه الى الجماعة المسيحية الاولى، وعرّفه على الرسل في اورشليم فاقتبلوه بينهم باسم بولس.

وبدأ نجم الرسول بولس يلمع في سماء القدس، فتتّجه إليه الانظار، ولا سيما أنظار أعداء المسيحية، فتقرّر الخلاص منه ووقف نشاطه. عندها فرّ خلسة الى مسقط رأسه طرطوس حيث ضاعف جهده ونشاطه، متنقّلاً بين المدن والقرى المجاورة، معمّداً، راسماً الكهنة، بلمسة من يده، خلافاً للعادات اليهودية السارية في تلك المرحلة الزمنية، مستعيناً بالرسولين برنابا ويوحنا مرقس الانجيلي. وفي نهاية المطاف كان لا بدّ من تلبية دعوة كبير الرسل بطرس لاستلام بطريركية إنطاكية

مركز الاشعاع والاستقطاب الشرقي الأول. ولم يترك بولس الرسول جهة لم يقصدها مبشّراً وهادياً، من آسيا إلى أفريقيا، وصولاً الى الغرب وروما بالذات عاصمة الوثنية في العالم التي سبقه إليها الرسول بطرس.

وبعد جولة له في مصر وأفريقيا، عاد بولس الرسول الى صور التي أحبه شعبها كثيراً حتى العبادة، فاستقبل بمظاهر التكريم والترحيب، ولما ودّع أهلها للانتقال الى اورشليم "قاتلة الأنبياء والرسل" جثا على قدميه الصوريون راجيينه عدم الذهاب خوفاً على حياته، ولكنّه أصرّ على مواجهة أعداء المسيحية الذين ردّوا كثيراً من الخراف المؤمنة الى حظيرتهم الوثنية. وكان اعداؤه له بالمرصاد، فما أن وطئت قدماه أرض اورشليم حتى تمّ اعتقاله وسجنه. ثم بدأت محاكمته فأدرك ما يُبيّت له فطلب نقل محاكمته الى العاصمة الرومانية، بصفته أحد قادة الرومان ولا يجوز محاكمته إلاّ من قبل حكامها مباشرة. واستجيب طلبه رغبة في التخلّص من الهيجان وردّة الفعل القوية التي قابلت اعتقاله. وفي روما استطاع تبرئة نفسه من التهم التي نسبت اليه فأطلق سراحه كي لا تتهم السلطة بالقضاء عليه، ثم أوعز باغتياله، فغدر به ليلاً بعد إطلاقه بساعات معدودة. وحاول القديس بطرس أن ينتقم من قتلته بتشديد القبضة المسيحية على روما، إلاّ أنه دفع هو الآخر ثمن الاستشهاد فألحق بالرسول بولس، وتحولّت دماؤهما الى "فاتيكان" شامخ الأركان يحجّ إليه المؤمنون وغير المؤمنين من كافة أقطار العالم الذي يشكّل المسيحيون فيه اليوم نحو نصف سكانه بفضل الرسل والرواد المسيحيين الأوائل.

البطريركيات والكنائس الاولى وكرادلة الشرق

أسس القديس بطرس الرسول البطريركية المسيحية الاولى في انطاكية في اواسط القرن الميلادي الأول، وفيها أخذ المسيحيون إسم "مسيحيين" بعدما كانوا يعرفون بتلاميذ المسيح او أتباع المسيح. ومنها انتقل الى روما لتأسيس الكنيسة الرسولية الجامعة، تاركاً القيادة فيها للبطريرك الانطاكي الاول بعده، الرسول بولس.

وفي مجمع نيقيا الذي عقد سنة ٣٢٥ تقرر اعتماد قانون ايمان مسيحي،

وإنشــاء ثلاث بطريركـيـات: الاولى في رومـا علـى إسم القـديس بطرس الرسـول. والثانية في الاسكندرية على إسم القديس لوقا الرسول. والثالثة في انطاكية على اسم القديس بولس الرسول. وقد تراجعت إنطاكية عن موقعها الاول نظراً لموقع روما والاسكندرية في الحكم الروماني.

البطريركيات والكرادلة

وفي العام ٣٨١ تأسست البطريركية الرابعة في القسطنطينية بقرار من المجمع القسطنطيني، وأعطيت المركز الثاني بعد روما باعتبارها مركز الامبراطورية البيزنطية.

وفي المجمع الخلقيدوني الشهير الذي انعقد سنة ٤٥١ في خليقيدونيا فصلت عن البطريركية الرابعة المنشأة في الاسنكدرية، بطريركية أورشليم الخامسة على اسم القديس اوربانوس.

إن رؤيا يوحنا تشير إلى كلام وجّهه السيّد المسيح إلى الكنائس المسيحية الشرقية السبع التي كان قد فتر إيمان بعضها، بل أكثرها، فيما بقيت إحداها، وهي كنيسة فيلادلفيا، محافظة على إيمانها الحيّ، فحذّرها من عدم اليقظة كي "تمسك جيّداً بما لديها لئلا يخطف أحد إكليلها". اما هذه الكنائس فهي التالية:

١. كنيسة أُفْسُسْ.

٢. كنيسة أزمير.

٣. كنيسة برغامس.

٤. كنيسة طياطيره.

٥. كنيسة سرديس.

٦. كنيسة اللاذقية.

٧. كنيسة فيلادلفيا.

ولكن هذه الكنائس انضمّت إلى بطريركيات كما تقدّم، بعد العام ٣٢٥ فكانت

اولاها: انطاكية ـ والثانية روما ـ والثالثة الاسكندرية ـ وإن اعتبرت الاولى من حيث المقام روما، والثانية الاسكندرية باعتبار أن مؤسسها هو الرسول لوقا، والرسول بطرس هو المؤسس الأول لبطريركية روما.

أما انطاكية فقد تراجعت عن مركزها الاول بسبب موقع روما والاسكندرية من مركز الحكم الروماني، ولم تلبث البطريركية الرابعة التي أُسست سنة ٣٨١ في القسطنطينية أن تبوّأت المركز الثاني الذي كان للاسكندرية بسبب قربها من المقرّ الشرقي للامبراطورية البيزنطية التي انفصلت عن روما. ثم اعتبرت بطريركية اورشليم هي الخامسة إذ تأسست كما أشرنا بعد البطريركيات المذكورة في العام ٤٥١ بعدما تمّ فصلها عن الاسكندرية.

كنائس آسيا المسيحية السبع

ورغم هذا التقسيم الذي يراعي أهمية المركز من حيث قربه أو بعده عن قصر السلطة الحاكمة ومركز القرار، تبقى بطريركية انطاكية الأهم باعتبار انها كانت المنطلق الأول لنشر المسيحية شرقاً وغرباً، ومنها تمّ الوصول الى الهند شرقاً، والى مصر وافريقيا غرباً. ومن رجالاتها العظام القديس يوحنا فم الذهب صديق القديس مارون كبير رهبان دير مارون الكبير الذي بفضله انتشرت المارونية في سوريا ولبنان واوصلت في العام ٦٨٥ أحد رهبانه البارزين يوحنا مارون الى السدّة البطريركية الانطاكية في الوقت الذي كان قد شغر فيه هذا المركز منذ العام ٦٠٩ بسبب الغزو العربي، والهزات والزلازل. ولكن إنطاكية بعد هذا الاجتياح أخذت تفقد منزلتها الاولى وتتحول الى مركز ثانوي أمام روما وريثة الكرسي البطرسي التي تعتبر الصخرة التي أوصى المسيح نفسه ببناء بيعته عليها. واشتد الخلاف بين الكنائس الشرقية والغربية حول صلاحيات خلفاء بطرس الذين تبوأوا السدّة الرسولية واختيروا من بين الكرادلة المنتمين الى كبار أساقفة الكنيسة وبطاركتها البارزين اجتماعياً وعلمياً ورعوياً.

وأصبح عدد الكرادلة في الفاتيكان اليوم ١٦٧ كردينالاً بينهم ٤٧ لا يحق لهم الانتخاب منهم البطريرك الماروني نصر الله صفير الذي تم تعيينه كردينالاً في

٢٦ تشرين الثاني ١٩٩٤، فاعتبر عميد الدورة التي شملت تعيين ٤٧ كردينالاً جديداً، فألقى خطبته باسم الكرادلة الجدد إبان الاحتفال بتنصيبهم فكان الماروني الثالث بعد المعوشي وخريش اللذين حملا هذا اللقب من بين بطاركة الموارنة، والكاثوليكي السابع إذ كان قد سبقه بعض كرادلة تابعين لكنائس شرقية كاثوليكية هم: تبوني اللاتيني، وأغاجانيان الارمني الكاثوليكي، وسيداروس القبطي، وفليبي الاوكراني.

بناء الكنائس والصراع العقائدي والمذهبي.

واخذت الكنائس المسيحية ترتفع على انقاض الهياكل والمعابد الوثنية في معظم أنحاء الشرق وأرجاء العالم. وحيث كان "يغادر الرسل والمبشّرون، كان يغادر وراءهم، حسبما جاء في سيرة القديس بولس، جماعة قادها الايمان فتؤلف صفاً طويلاً من اورشليم الى روما" (٩). وانتشرت الكنائس التي اخذت اسمها من لفظة Eglisia التي تعني المجامع الشعبية باللغة اليونانية، وهي المجامع التي كان يعقدها العامة في اليونان، في سائر انحاء الشرق والغرب (١٠).

وفي انطاكية، عاصمة المسيحية الشرقية الأولى، كانت تعيش جاليات يهودية لها كتبها المقدّسة كالتوراة والتلمود وغيرها، واخرى وثنية لا سيما من اليونان لها أيضاً هياكلها ومعابدها وأخصّها فينوس والزهرة والمشتري، وغيرها. هذا الى جانب كنائس يؤمها المسيحيون الاوائل حيث يلتقي في باحاتها والساحات العامة من المدينة رجال الفكر وكهنة الدين من كل المذاهب، فيتجادلون ويتناظرون. ولم تخلُ تلك المناظرات من الشعب الذي أودى بحياة الكثيرين في شوارع المدينة العظيمة "مدينة الله" إنطاكية.

واشتهرت في العاصمة البيزنطية "القسطنطينية"، جارة إنطاكية، المدارس اللاهوتية التابعة للجاليات الطائفية، وقد ضُرب المثل بمجادلاتها البيزنطية حول جنس الملائكة إن كانت من الذكور أو الإناث، وعلى الله كونه إنساناً أم إلهاً، والعذراء كونها أمّاً وقدّيسة أم لا؟ وغيرها من أمور الدين ولا سيما المتعلّق منها بالاسرار المقدسة. ثم خطفت الضوء مدينة لبنانية اشتهرت على الساحل الفينيقي بعلومها الجامعية، ولا سيما بعد إنشاء مدرسة الحقوق فيها، وهي مدينة بيروت ام

الشرائع التي غدا معلموها الكونيون مرجعاً للفقه والقانون في العالم، وأمّها الطلاب في نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث من كل أنحاء الشرق والغرب. كما كان لبعلبك شهرة كبيرة بهياكلها الوثنية التي ضمّت بين انقاضها، بعد اواسط القرن السادس الذي دمّر قسماً منها زلزال عظيم، كنيسة للعذراء مريم بجانب هيكلي باخوس وجوبتر الوثنيين.

وكان للجماعة التي تبعت الراهب مارون، أحد رهبان جبل قورش، دور هام في تلك المجادلات اللاهوتية التي أدّت الى تحكيم حكام اجانب لا ينتمون الى المذاهب المسيحية المتصارعة فيما بينها حول مشيئتي المسيح الانسانية والالهية وطبعه، وغيرها من الامور اللاهوتية، ومنهم الخليفة معاوية الذي حكم للموارنة المتناظرين مع اليعاقبة. وقد أمر بحرمان اليعاقبة من كنائسهم وممتلكاتهم و"بالزامهم الصمت"، وحولّها الى الموارنة. كما ظهر فرقاء آخرون يتزعّمهم بطاركة وأساقفة إنشقّوا عن المذهب الارثوذكسي القويم وتبعوا خطاً مميّزاً ولاهوتاً خاصاً بهم، مما استتبع بناء كنائس خاصة بهم. وهكذا في قلب المسيحية والكنيسة الجامعة نشأت كنائس جديدة الى جانب معابد أنشأها العرب والمسلمون الذين تجاوروا مع المسيحيين واليهود في كافة المدن الشرقية.

٤ ـ النسّاك والقديسون الاوائل

انتشار المسيحية في ربوع لبنان والصراعات المذهبية

انتشرت المسيحية بسرعة بعد موت السيد المسيح بين طبقة الوجهاء والاثرياء في البداية، وربما لأن هذه الطبقة كانت تملك سلاحين للتخلص من غطرسة رجال الدين وسيطرتهم: الجرأة والمال. اما في الأرياف فقد بقيت متعثّرة، وتأخّر وصولها الى تلك المناطق بعض الشيء بسبب تعدّد الهياكل، وسطوة القائمين عليها، ووقوعهم فريسةً للابتزاز. وأهالي القرى عادة هم أكثر تمسكاً بالتقاليد والقيم من أهل المدن حيث تتقدّم العلاقات والمصلحة التجارية على ما عداها من الروابط، هذا بالاضافة الى قيام الجماعات المسيحية الاولى في المدن بفضل مرور الرسل فيها، ولإمكانية التخفّي فيها وممارسة الطقوس بعيداً عن أعين الرقباء. ولم يطل الأمر حتى أخذت تتهاوى تلك الهياكل الوثنية ليبنى على أنقاضها وبحجارتها كنائس مسيحية، لا سيما بعد زلازل العام ٥٥٥التي حدّت من إمكانية إعادة بناء تلك العمائر التي صرف الوثنيون الاوائل الجهد والمال الكثيرين لتعميرها شبيهة بالقلاع المنيعة والمزخرفة. ولكي تؤمن الدولة الرومانية تأييد اليهود والمسيحيين لها بعدما عصفت بها رياح الانقسامات بين العاصمتين الشرقية والغربية بعد القرن الأول، عمد الامبراطور ساويروس اللبناني الاصل، ابن عرقا الشمالية، الى إعطاء أوامره بوضع صورة إبراهيم الخليل والمسيح في الهياكل الوثنية بحيث يشعرون أنها بيوت للّه، ولا حاجة الى معابد خاصة بهم. وقد روى المؤرخ اوسابيوس في كتابه "التاريخ الكنسي" أو "الكرونيكون"، تاريخ سنة ٢٤٦م، أن أول أباطرة الرومان الذين اعتنقوا المسيحية هو فيليبس السوري الأصل. وأكثر الاضطهادات وقعت في السنة التاسعة عشرة لحكم ديوكليتيانوس الذي أمر في شهر نيسان لذلك العام

بهدم الكنائس وحرق الكتب المقدسة، وزجّ كبار رجال الدين في السجون إذا رفضوا تقديم الذبائح للأوثان. وقد استشهد بسبب الاضطهادات البابوات: فابيانوس، وكورنيليوس، واسطفانوس، وسيستوس، عدا الكثير من الكهنة والعامة. ولم تنته المعاناة المسيحية إلاّ بعد اعتلاء الملك قسطنطين العرش وإعلانه المسيحية ديناً رسمياً للدولة سنة ٣١٢، وتحريم الذبائح، والامر بتهديم المعابد الوثنية.

الدور الماروني في نشر المسيحية في الشرق.

اما في الشرق تحديداً، فكان الانتصار الحاسم للمسيحية بفضل أتباع الناسك مارون الذين عُرفوا "بجماعة مارون"، قبل تسميتهم بالموارنة على يد مؤسس الكنيسة المارونية في اواخر القرن السابع، القديس والبطريرك الأول يوحنا مارون. ومنذ مطلع القرن الخامس، وبفضل نشاط الرهبان والنسّاك القديسين أمثال يوحنا فم الذهب، والقديس مارون، والقديس سمعان العمودي وتلاميذهم، أخذت الجموع المؤمنة تحتشد لسماع مواعظ الكهنة الذين راحوا يكرزون بالتعاليم التي نشرها بينهم منذ مطلع القرن الرابع، من ذكرنا، في سوريا الثانية وفينيقيا، بالاضافة الى مجموعات كانت تعيش في مدن الساحل وصلتها المسيحية عن طريق الرسل الاوائل والاساقفة والكهنة الذين ساموهم وهم في طريقهم الى انطاكية في اواسط القرن الاول الميلادي.

وعبثاً حاول الامبراطور يوليانوس الجاحد المتولّي سنة ٣٦١ ضرب المسيحيين من جديد، عملاً بمشورة الآريوسيين الذين اثارهم نجاح القديس مارون ويوحنا فم الذهب والقديس سمعان في تأليب الجماهير حولهم. وقد حاول اليهود في عهده إعادة بناء هيكل سليمان المهدوم في اورشليم، إلاّ أن ألسنة اللهب كما روى مرافق هذا الامبراطور، كانت تخرج من الأساسات وتلتهم العمّال والاعمال معاً. وأخيراً يئس اليهود والوثنيون من إتمام هذا الهيكل و"غادروا خازين متفرّقين" (١).

المذابح والزلازل

ونظراً لمصالحهم المشتركة، توافق اليهود والوثنيون على ضرب المسيحيين واضطهادهم، فكان أول ضحايا المسيحيين البطريرك الانطاكي انسطاس الذي

جرّت جثته في شوارع إنطاكية لتكون عبرة لأتباع المسيحية. وكان اليهود قد حرّضوا الفرس الذين هاجموا إنطاكية ومنطقة سوريا الثانية حيث يكثر المسيحيون لضرب المسيحيين، فتمّ قتل نحو ثمانين ألفاً (٢). وفي عهد تاودوسيوس البطريرك الكاثوليكي ثار وثنيّو سوريا وبعلبك، بسبب منعهم من إرتكاب أعمال الفحش، وتقديم بناتهم فريسة للكهنة والعابرين بالهياكل الوثنية، حيث كانت تجري الاعمال المشينة إرضاءً لآلهة الزهرة وجوبيتر وباخوس، وقتلوا اسقف مدينة بعلبك القديس مرسال، وألقوا جثته في النار، فعمّ الهياج المدينة، وأدّت هذه الأعمال إلى تمكّن المسيحيين في النهاية من طرد الوثنيين من المدينة فلجأوا الى الجبال حيث كان لا يزال للوثنية فيها جيوب يحميها أهالي القرى، ولا سيما في أفقا القريبة من العاقورة حيث ظلّت تمارس تلك الاعمال القبيحة في معبدها الشهير حتى أمر أباطرة الرومان بهدمه في اواسط القرن السادس. وما قصّر عن هدمه المسيحيون والأباطرة، هدمته الزلازل في تلك الفترة بالذات، فاعتبر الأهالي ولا سيما المسيحيين منهم، حصول ذلك أصدق تعبير عن غضب الله على ممارسات اولئك الكهنة الذين حولّوا تلك المعابد الى أوكار للدعارة والابتزاز. وكان ذلك كافياً لإنهاء الوجود الوثني، وازدهار المسيحية في تلك القرى الشديدة التمسّك بالقيم والاخلاق والايمان.

دور الملك قسطنطين في دعم المسيحية وبناء الكنائس

وفي الوقت الذي كان فيه اليهود يمثّلون الطبقة الثرية والحاكمة في بداية الانتشار المسيحي، كان المسيحيون يمثّلون الطبقة الفقيرة والعاملة في المجتمع. وشاءت الصدف أن يتولى الحكم الملك قسطنطين الذي كانت والدته تعجب بالايمان المسيحي، وتتحدّث مع إبنها عن هذا الميل الشديد الذي يشدّ بها لاعتناق المذهب الجديد. وذات يوم رأى الامبراطور، وهو يتأمّل غروب الشمس، إشارة صليب كتب عليه: "بهذه العلامة تنتصر". ولم يكن وحده من رأى هذه العلامة، بل رآها أيضاً جنوده ومرافقوه. فتعجّب من هذا الأمر وشكّ بحقيقة ما يرى. لكنّ هذا المشهد ظهر له من جديد للمرة الثانية في الحلم في نفس الليلة، ورافق هذا الظهور صوت يصرخ به لاعتماد هذا الرسم شعاراً له وعلماً لبلاده، حسبما روى المؤرخ المعروف

اوسابيوس القيصري في تاريخه. عندها أمر مساعده ديوقليتيانوس في العام ٣١١ بإصدار قرار يعلن فيه الدين المسيحي ديناً رسمياً للدولة الرومانية على كافة الاراضي التابعة لها. كما أمر ببناء كنيسة القيامة في القدس، وكنيسة المهد في بيت لحم، ومزار الآباء في الخليل، والكاتدرائية المثمّنة الذهبية الشهيرة في إنطاكية، وكنيسة الرسل في القسطنطينية، وكنيسة مار بطرس في روما، وغيرها من الكنائس. ولم يكتف بذلك، بل أمر بعقد المجمع المسكوني الاول في نيقيا سنة ٣٢٥ تأكيداً لالوهية السيد المسيح. ثمّ أمر بهدم هيكل الزهرة، أخر الهياكل الوثنية في أفقا. ثم نقل عاصمة ملكه في العام ٣٢٦ من روما إلى بيزنطية التي دعيت نسبة اليه بالقسطنطينية (٣). ويعد هذه الأعمال الباهرة دعاه المؤرخون المسيحيون "بقسطنطين الكبير"، واستفاد أساقفة المسيحيين من هذا الدعم الامبراطوري لتعزيز وجودهم شرقاً وغرباً، لا سيما في إنطاكية عاصمة المسيحية في الشرق، وبعدها في القسطنطينية عاصمة القسم البيزنطي من الامبراطورية الرومانية العظيمة.

وعبثاً حاول خلفاء قسطنطين، ولا سيما يوليانوس الجاحد، وقف المسيرة المسيحية عن طريق الاضطهاد والمذابح، وكل ما استطاع إنجازه هو المساهمة في تقسيم الكنيسة الى كنيستين شرقية وغربية. ولم يلبث القسم الغربي نفسه أن انقسم إلى كنيستين يونانية ارثوذكسية شرقية، وكاثوليكية لاتينية غربية في روما. ولم تلبث الكنيسة اليونانية الشرقية ان جعلت مقرّها في القسطنطينية محتمية بأباطرتها، ومدّعية بتساوي بطاركتها في العظمة والسلطة، في حين جعلت الكنيسة الكاثوليكية الغربية مقرّها في روما معتبرةً البابا، سيد الكرسي الرسولي، رأس الكنيسة المسيحية، وممثّل السيد المسيح، وخليفة القديس بطرس أول بطاركة وبابوات روما.

صراع المسيحية واليهود في لبنان

لم يكفِ المسيحية في بداية انطلاقها ما عانته من صراع مع الوثنية، بل كان عليها أن تحارب اليهود ايضاً، وحتى بعض المسيحيين أنفسهم. وقد "وجد اليهود، والقول للجغرافي سترابون، سبيلاً الى كل مدينة، حتى أنه ليصعب وجود مكان في المسكونة لم يتطرّقوا إليه، ويتسلّطوا عليه..." (٤). وذلك بفضل إمساكهم بالعصب

الاساسي، وهو المال. ولما حاصر كسرى ملك الفرس القسطنطينية تخلّى الرومان عن البلاد السورية واللبنانية. وكان في صور آنذاك أربعة الاف يهودي، فاتفقوا مع يهود فلسطين ودمشق وقبرص على التنكيل بمسيحيّي المدينة في ليلة عيد الفصح. وأدرك المسيحيون بالمؤامرة، فأمر بطريركهم بإغلاق أبواب المدينة في وجه اليهود الغرباء. وزحف المهاجمون وراحوا يدمّرون الكنائس التي تقع في طريقهم. ولما وصلوا الى صور عجزوا عن اختراق اسوارها، "وكانوا كلما هدموا كنيسة أخرج أهل صور اليهود وقتلوهم، ورموا برؤوسهم خارج الأسوار. ولما بلغ العدد ألفي رأس انهزم اليهود وتراجعوا عن اسوار المدينة" (٥).

الوثنية في لبنان والقديس يوحنا فم الذهب

يقول القنصل الايطالي في بيروت غوبرناس: "إن لبنان بقي على الوثنية حتى عهد تاودوسيوس الثاني. وظلّت الهياكل الى زمن تراقيانوس، وكان يؤمها الناس باحتفال عظيم" (٦). وفي أيام القديس يوحنا فم الذهب او يوحنا الفم الذهبي (٣٩٨ ـ ٤٠٧)، يوم تولّى بطريركية "إنطاكية وسائر المشرق"، كما جاء على لسانه "كثرت شرور فينيقيا، وتجدّد شرارها، وزاد كيد الوثنيين.." فأرسل رهباناً لكي "يقتلعوا جذور الفساد من لبنان، ولأن يستأصلوا الشرك لدى اللبنانيين، بين المسيحية والوثنية. وأقام هؤلاء أعياداً نصرانية، فعدل السكان عن الاحتفالات الوثنية" (٧).

وكان يوحنا فم الذهب يتبادل الرسائل بهذا الخصوص، مع راهب قديس، يعيش متنسكاً في جبل قورش في منطقة سوريا الثانية يدعى مارون، ومع رفيق له الناسك المقيم بجواره في جبل سمعان نسبة إليه، سمعان العمودي. وهما ركنا المارونية، وركيزتاها الاساسيّتان، فتعاون القديسون الثلاثة للقضاء التام على الوثنية في لبنان، ونشر التعاليم المسيحية، وتأسيس الرهبانيات، وإطلاق الحياة النسكية فيه على غرار نسّاك جبل قورش. هذا مع العلم، كما أشرنا سابقاً، الى أن بصيصاً من نور الوثنية ظلّ متأججاً في افقا حتى اواسط القرن السادس، رغم محاولات الامبراطور قسطنطين ومن جاء بعده لوقف الممارسات الوثنية الشائنة التي كانت تجري هناك. ويؤكد المؤرخ سوزيمان أن "سوريا المجوّفة (البقاع)، والقسم الآخر الذي فوقه (سوريا الثانية موطن الموارنة الاوائل) تأخّر ارتدادهما الى

الدين المسيحي" (٨).

وقد أشار العلاّمة اللبناني يوسف سمعان السمعاني الحصروني إلى "أن الدين المسيحي بدأ يدخل لبنان بهمّة البطريرك يوحنا فم الذهب الذي بقي مدة نفيه مجدّاً في إتمام هذا العمل المحمود. ولكن النتيجة لم تتمّ، بل اقتضت رسالة خاصة في سنة ٤٥٢ مسيحية. فإن مكسيم بطريرك إنطاكية أرسل في تلك السنة الاسقف نتوس الى بعلبك ووكل إليه خاصةً إرجاع اللبنانيين" (٩).

قيام المناسك الاولى في لبنان

أول النسّاك الشرقيين حسب القديس ايرونيموس هو "هيلاريون الذي لم يعرف أهل الشام ناسكاً قبله"(١٠). أما اول المناسك التي قامت في لبنان، فهي تلك التي عرفتها وادي قنّوبين. وإسم "قنوبين" هو نفسه مشتق من كلمة "قينوبيون" Koinnobion اليونانية التي تعني "المنتدى والمجتمع" حسب الأب لامنس، و"الدير ومكان التنسّك" حسب الدكتور أنيس فريحه في كتابه "معجم أسماء المدن والقرى اللبنانية" مكتبة لبنان طبعة ١٩٧٢ صفحة ١٤٢. بالاضافة الى ذلك، من المعروف أن لفظة قاديشا التي تطلق على الوادي الذي تقوم فيه صوامع ومناسك قنوبين هي أيضاً لفظة سريانية تعني "المقدّس". ولا عجب اذا اختار هؤلاء النسّاك المتقدّمون ذلك الوادي الشامخ الصخور، والصعب المسالك، والغنيّ بمغاوره، ملاذاً لهم للتعبّد والصلاة، في وقت كان من يرفع صوته في ذكر الله يقود نفسه الى الهلاك. ودير قزحيا القائم على سفح وادي قاديشا يعود بناؤه الى أيام الملك تاودوسيوس الكبير الذي "كان هو الآخر أحد آباء الطريقة النسكية" (١١). وهذا ما أكدّه البطريرك الدويهي ايضاً (١٢). أمّا المركز الثاني للتنسّك والعبادة في لبنان، فكان جبل المنيطرة والتسمية هذه مأخوذة من كلمة "المندره" أي مكان النذر، وبالفرنسية "Monastére" التي تعني "الدير" او "مكان النسك"، والبعض اليوم يسمّيها "المحبسة" واللفظة عربية. والاستاذ أنيس فريحه، وهو أحد المراجع الأهم في هذا المجال، يشير الى أن "المندرا هو تحريف للفظ إغريقي معناه حظيرة الغنم، او مكان تنسّك ورهبنة... ولكننا نميل الى اعتباره تحريفاً للفظة Menaddra المنذور والموقوف والموهوب نذراً من جذر نذر"(١٣). وهكذا امتدّت الصوامع من قاديشا الى قانا

الجليل لتشهد للمسيح إنساناً والهاً.

وقد تعالت الدعاءات وعبقت رائحة البخور من آلاف الحناجر الضارعة الى الله في جنبات وادي قنوبين المقدّس بمختلف اللغات اليونانية والسريانية والرومانية التي كانت سارية في القرون الاولى للمسيحية، وخاصةً بعد القرن الثالث الميلادي الذي شهد نموّاً مضطرداً للحركة النسكية بفضل نسّاك جبل قورش السوريين، وفي طليعتهم الناسك مارون، ابو الموارنة، والقديس سمعان العمودي، وبفضل كتابات القديس يوحنا فم الذهب وتشجيعه هو الآخر، بصفته بطريركاً إنطاكياً، حياة النسك والتقشّف. وامتدّت المناسك الى كافة أنحاء جبل لبنان حتى دعاه المؤرخون "جبل النسّاك". ووصلت المناسك الى جهات دير القمر والتسمية كما هو واضح لها صلة وثيقة بدير قديم قام حيث تقوم سيدة التلّة، اليوم وعلى إحدى اعتابها نقش صليب قديم يعود الى الدير المذكور، ويثبت وصول المسيحية الى تلك المنطقة من لبنان. كما يشير بعض المؤرخين الى أن مغاور عدلون الواقعة جنوبي صيدا كانت هي الأخرى مناسك عاش فيها كثير من المنقطعين عن العالم والمتعبّدين لله في العصور الأولى للمسيحية. وما تشابه الأسماء بين قرى منطقة دير القمر وقرى جبل قورش والنواحي الأخرى من سوريا الثانية الذي أشار إليه وتوسّع فيه الأب بطرس ضو في موسوعته "تاريخ الموارنة"، إلاّ خير دليل على امتداد الحياة النسكية من جهات انطاكية الى جهات لبنان، خاصة بعد الاضطهاد الذي عاناه موارنة تلك المناطق على يد اليعاقبة والبيزنطيين، وتخريب أديارهم، وقتل رهبانهم، مما دفعهم للإنتقال الى مكان أكثر أمناً، فاختاروا جبال لبنان العاصية مقرّاً لهم. وكثيرة هي المغاور التي نشاهدها محفورة في صخور لبنان من الشمال الى الجنوب، وقلّما تخلو منطقة منها، ولا سيّما في جهات نهر الجوز، ونهر ابراهيم، والعاصي، حيث آثار الصلبان المحطّمة والدخان من جرّاء الاضطهاد لا تزال ماثلة فيها حتى اليوم.

وقد ذكر المؤرخ تاوفانوس في كتابه "أعمال الآباء البولنديين" المعروف "بالكرونيكون" والذي يعتبر اعظم المراجع في هذا الموضوع، إن الناسك ارسمس الانطاكي الاصل، الهارب من ظلم الامبراطور ديوقلسيان في مطلع القرن الثاني

الميلادي، مكث في لبنان سبع سنوات. ثم غادر الى ايطاليا حيث استشهد هناك[١٤]. والمؤرخ تاودوريطس، يروي هو الآخر أن القديس يوحنا الفم الذهبي أرسل بعثةً "ليرشدوا اللبنانيين الى الهدى بعدما تفاقم شرّ الوثنيين" [١٥].

ويروى أيضاً أن "إبنة الملك الروماني، صاحب قصر حردين (المعروف اليوم بمعبد مرقوريوس (Mercure)... آمنت بالمسيح وبتعاليمه، فأحبته، وانتقلت للعيش في مغارة تقع وسط الشير المطلّ على بلدتي كفور العربي ونيحا (في بلاد البترون)، بعد أن تهدّم قصر والدها الوثني الذي دحض وجود الله عندما قالت له إبنته أن نجاح مشروعه في جرّ المياه الى القصر من نبع نيحا كان بفضل الله وعنايته، فصرخ في وجهها قائلاً: إن الفضل في ذلك يعود إليه والى رجاله، فحلّ غضب الطبيعة وحدث زلزال عظيم تهدّم القصر من جرّائه. وكان من نتائج تلك الحادثة أن تحوّل سكان حردين، وتلك النواحي الى المسيحية، ونبذوا الوثنية في ما بين القرن الخامس والسادس للميلاد"[١٦].

وبعد ذلك لم نسمع عن أسماء معيّنة لنسّاك اعتصموا بجبال لبنان واوديته، رغم وفرة الذين أمّوا المناسك والمغاور الباقية حتى اليوم، حتى وصول الناسك ابراهيم القورشي الى جهات يانوح "الغنية بالجوز والينابيع" حسبما وصفها تاودوريطس في حديثه عن هذا الناسك الذي انتقل الى العاقورة وجعلها مقرّه، وهدى شعبها الى الايمان المسيحي كما سنرى لاحقاً. ولفظة "يانوح" السريانية تعني "بيت الراحة". والعاقورة تعني "المياه الباردة". وهذه المنطقة اشتهرت بأنها استضافت أعداداً كبيرة من النازحين الهاربين من الاضطهادات البيزنطية التي قام بها الملك يوستنيانوس الأخرم بتحريض من اليعاقبة للأديار والرهبان الموارنة في سوريا الشمالية ووادي العاصي، حيث استراحوا بقرب تلك الينابيع الباردة المياه.

ويروي المؤرخ تاودوريطس ان هذا القورشي المدعو ابراهيم قد اوصد ابواب البيت الذي لجأ اليه في جهات العاقورة وراح يتعبّد لله. ولما علم به الوثنيون رافقوا الرقيب المسؤول لإرغام هذا الناسك على الخروج. ولكنه كان يركع، ومن معه من المسيحيين من أبناء الجوار فيصلّون، ولا يرفّ لهم جفن، أو يكفّون عن الصلاة. وصادف يوماً أن دخل جنود السلطة الى هذه المحلّة التي يعتقد من الوصف الذي

أعطاه تاودوريطس لها أنها العاقورة، وراحوا يتظلّمون سكانها، وبينهم بعض الذين اعتدوا على ابراهيم المذكور، فهبّ للدفاع عنهم متناسياً ما فعلوا به. ثم تبرّع بالضريبة المطلوبة من السكان من ماله الخاص، ليكفّوا تعدياتهم، فأكبر المواطنون عمله، وطلبوا منه الصفح. وأخذ اتباع المسيحية يتكاثرون بفضل أحاديثه، وطلبوا إليه أن يكون مقدّماً عليهم، فاشترط لقبول هذا التكليف أن يبنوا في البلدة كنيسة للرب، ففعلوا، وغادرهم بعد ثلاث سنوات، تاركاً مكانه كاهناً يرعى شؤونهم، وانصرف الى التقشّف والنسك في إحدى مغاور ضفاف نهر أدونيس القريبة، فعرف هذا النهر باسم "نهر ابراهيم" نسبة اليه. ووصلت أخبار هذا الناسك العظيم الى بطريرك إنطاكية فسامه أسقفاً وطلب إليه الانتقال الى حرّان لهداية البدو في الجزيرة العربيّة وبلاد ما بين النهرين، لأن الوثنيين هناك كانوا قد بالغوا بالكفر والفساد. ونجح الاسقف ابراهيم في جعل البدو يتخلّون عن وثنيتهم ويتبعون السيد المسيح.

كنيسة صور وتقدّمها على كنائس المنطقة

خضعت المنطقة الفينيقية الساحلية الى التقسيم بحيث اصبحت كنيستين:

١ ـ كنيسة "فينيقية لبنان" وفقاً لتقسيمات الملك ديوقليسيان (المشرق ١١٠٣:٣)، وتشمل الجبل الشرقي والبقاع.

٢ ـ كنيسة "فينيقيا الساحلية"، وحاضرتها صور. واعطيت صور السلطة على جميع كنائس الولاية فدعيت "بالكرسي الاول في بطريركية انطاكية". وقد ضمّت عدة اسقفيات وهي : صيدا ـ بورفيريون (الجيّه والنبي يونس)، وتدعى أيضاً برجا، وجبيل او بيبلوس، والبترون أو بوتريس، غيغرتا او جيغرتا (اعتبرها بعض المؤرخين زغرتا، ولكن حسبما حدّدها المؤرخون فهي تدلّ على منطقة حنوش ـ حامات ـ وجه الحجر)، وترياريس أي أنفه ـ وطرابلس او تريبولي ـ وعرقا ـ واورتوسياس أي البارد.

أما بيروت فقد بقيت كنيسة مستقلة بادارة أسقفها، ولو ضمن كنيسة صور، او بطريركية صور إذا صحّ التعبير باعتبارها تضم عدة أسقفيات. وبقية البلدات

الهامة، لا سيما في الجبل، مثل بشري وإهدن واميون، كان لها رؤساؤها الروحيون من درجة "الخورفسقفوس" أي "الخوراسقف" كما نسمّيه اليوم (١٧).

قديسو لبنان الاوائل والطقوس الليتورجية

أول القديسين الذين عرفهم اللبنانيون يوحنا الفم الذهبي الذي أتينا على ذكر بعثته لهدي اللبنانيين وردّهم الى المسيحية بعدما عاد قسم منهم الى الوثنية، والقديس باسيليوس الكبير. وقد اهتما بوضع الطقوس الليتورجية والرتب الكنسية على اختلافها والخاصة باقامة القداديس، ومراسم الزواج والاعتماد والدفن وغيرها. وهي الطقوس التي درج عليها أيضاً رهبان وقديسو سوريا الثانية أمثال يعقوب، ومارون، وسمعان العمودي، وتلاميذهم. كما كان لتأثير الرسل الاوائل دوره في صياغة تلك الطقوس والرسائل المرفقة بها، ولا سيما إنجيل متى ومرقس ويوحنا ويطرس وبولس، وغيرهم.

ومن القديسين الذين بنوا الكنائس والاديار، ورعوا الحياة النسكية في لبنان، ولا تزال رسومه وايقوناته معتمدة في كتب الموارنة، ولا سيما الرهبانية منها، القديس رابولا الذي قدم بيروت وعُرف بالسَميساطي في أيام القيصر زينون نيروري (٤٧٤ ـ ٤٩١)، وتعبّد لله في جبال لبنان. ثم شيّد بمساعدة هذا القيصر، وحاكم بيروت يوحنا، ديراً في وسط الجبل كان يعيش فيه مع رهبانه الذين كانوا "يتسكّعون في ظلمة الوثنية، ففنّد حججهم، وناقشهم في اعتقاد عاداتهم، واجتذبهم الى الدين القويم، إلاّ نفراً منهم..."(١٨). ويقول الأب مارتين اليسوعي "إن هذا الدير الذي بناه الراهب رابولا هو دير القمر" (١٩). ويعتقد آخرون أن الدير المشار إليه ربما كان دير الراعي الصالح التابع اليوم للروم الكاثوليك في جهات صيدا. وكم من كنيسة وكتاب ماروني قديم وأيقونة تحمل رسوماً دارسة من إنجيل رابولا الذي اكتشفت نسخة منه في دير سيدة ايليج بميفوق في القرن الثاني عشر، وبينها كنائس إدة البترون (مار سابا)، وسيدة ايليج، وسيدة قنوبين... وغيرها من كنائس العصور الاولى والحديثة.

وبالاضافة الى هؤلاء تعرّف اللبنانيون الى القديس نوهرا الفارسي الاصل،

الذي غادر بلاده هرباً من النكبة التي حلّت بأتباع المجمع الخلقيدوني في عام ٤٥١. وأثناء مروره على الساحل اللبناني هاجمه أهالي البترون اليعاقبة ففرّ الى صمار جبيل (وكتابتها بالصاد أقوم من السين لأن الصمار تعني الصخرة او القلعة وهذا ينطبق على البلدة وموقعها تماماً باعتبارها إحدى قلاع او قصور مملكة جبيل الفينيقية). ومن ثم أمسكوا به وألقوه في إحدى ابار القلعة التي غدت مزاراً مقدّساً يقصدها المتعبّدون لمعاينة هذا القديس العائش في مياه هذه البئر، فيلقون النقود الحجرية التي تحرّك الماء فيظهر القديس مستجيباً لطلبات المؤمنين شرط ألا يكونوا من البترون، حسبما تروي التقاليد المحلية. ولا تزال هذه البئر مقصودة حتى أيامنا هذه لهذه الغاية. وقد زرناها وألقينا بقطع نقدية فيها فظهرت لنا انوار تتلألأ وكأنها شموع، وظلال تتمايل كأنها الراهب القديس يأتي حاملاً شموعاً، وربما كان ذلك عائداً للثقوب التي في جدار فوهة البئر التي تسمح بتسرّب النور وتشكّل تلك الرؤيا التي اعتبرها البعض لفرط ايمانهم، عجائبية. وبجوار البئر هذه تقوم كنيسة مار نوهرا الأثرية.

كما عرف اللبنانيون أيضاً القديس شربيليوس وبنوا له الكنائس في معاد وغيرها، والقديس سابا، واسطفانوس اول الشهداء، بالاضافة الى الرسل الاوائل الذين تزيّن كنائسهم، ورسومهم قرانا ومدننا اللبنانية. وفي بشري كانت المذابح على عدد أيام السنة في كنائسها واديارها العديدة. وقد بلغ عدد الكنائس والاديار في بعض قرانا القديمة مثل العاقورة وحردين ولحفد وغيرها العشرات.

ولعلّ أكثر القديسين شعبية في بلادنا بعد السيدة العذراء، هما القديسان الشهيدان مار سركيس وباخوس، إذ قلما نجد قرية تخلو من كنيسة او مزار لهما، ذلك لأن اللبناني شغوف بالبطولة والاستشهاد، ويعشق الفروسية، فيستسيغ منظر هذين البطلين المسيحيين يعتليان فرسيهما متأبطين السيف متحفزين للانقضاض لتثبيت الايمان المسيحي، وقيادة المجتمع اللبناني للانتصار على الخصوم الوثنيين، حكاماً كانوا ام مواطنين. والى جانب هذين القديسين، وبصورة أعمّ وأشمل نرى التعبّد واضحاً وعاماً للسيدة العذراء التي لا تخلو قرية من معبد او مذبح في كنيسة من رسمها. ولا يكتفي المواطن المسيحي اللبناني بإقامة عيد للعذراء على

غرار بقية القديسين، بل قد أفرد لها شهر أيار بكامله لتكون العبادة على قدر أهمية المعبود. كما توّجوا أجمل بقعة من جبالهم بتمثال لها يشرف على جونيه ومنحوه إسم "سيّدة لبنان". هذا بالاضافة الى القديس يوسف الذي يحمل اللبنانيون بغالبيتهم إسمه تيمّناً برب الاسرة الالهية الأولى، تبركاً بشفاعته، والتماساً لنعمه.

واليوم بعدما اصبح للّبنانيين قدّيسهم الخاص بهم الراهب البقاعكفري شربل، اخذت الكنائس والمزارات تشاد على إسمه في كافة المناطق والقرى اللبنانية الى جانب مزارات للطوباوية رفقا. وبين عنّايا مقرّ القديس شربل، ودير مار يوسف جربتا مقرّ الطوباوية رفقا، مواكب لا تنتهي من المؤمنين تتواصل ببعضها سيراً على الأقدام، وبعضها سيّاراً، هذا حاف ينذر لشفاء إبن أو أخ، وذاك راكع يقرع الصدر بمنتهى الخشوع والايمان ليمنحه الباران من رفقا وشربل الرحمة والشفاء.

ولا مجال لذكر كلّ القديسين الذين عرفهم اللبنانيون، لأنه قلّما تجد قديساً ليس له في لبنان كنيسة أو مزاراً على إسمه. وقلما تجد تلةً إلا ويقوم عليها معبد او دير رهباني كبير، ومعظمها لا يزال قائماً حتى اليوم لا سيما في جهات جبّة بشرّي والمنيطرة مروراً بمنطقة البترون وجبيل وكسروان، وصولاً الى أطراف الجبل اللبناني المعروف منذ اجيال "بجبل النسّاك والمتعبّدين".

وحيثما قامت جماعة مسيحية مهما كانت قليلة عمدت بالوسائل المتوافرة لديها لبناء كنيسة، وإن تعذّر عليها ذلك، اختارت قبواً، أو كهفاً، أو مغارةً. فكان نقرها في الصخر كافياً لجمع المؤمنين حولها ورسمها على إسم شفيع من هؤلاء الرهبان القديسين. شهداء القرون المسيحية الاولى ورسلها الاوائل. وحيث وُجدت بقايا هياكل وثنية حوّلت الى كنائس وبيوت لله يتوافد اليها المؤمنون في أيام الآحاد والاعياد، وكلّما دعت الحاجة أو ألمّت مصيبة. فتضاء الشموع، وتنذر الاملاك وتقدّم الأموال، شفاعة والتماساً للعون والمساعدة. وهكذا نجد الكنائس اليوم، على حدّ وصف أحد المستشرقين الذين يعود الفضل اليهم للكشف عن اسرار التاريخ اللبناني، تقوم على أنقاض معابد أفقا في المنيطرة، وبزيزا في الكورة، ومعبد المشتري في الحلوة قرب عمشيت، وفي حبوب، وإدة جبيل، وعبادات، والمشنقه،

وسواها من مواطن المسيحيين في مختلف المناطق [٢٠].

ولما خاف المسيحيون في جهات بشرّي من هجمة الوحوش الضارية عليهم، لجأوا كما يحدّثنا المؤرخون، الى القديس سمعان العامودي في جبل قورش الذي اشار عليهم برسم الصلبان على صخور المنطقة المحيطة ببشري من جهاتها الأربع، فأجفلت الضواري، وانتشرت عادة إقامة الصلبان والمزارات على الدروب وفي أعالي القمم. ولا تزال آثار تلك الصلبان ماثلة للعيان حتى اليوم[٢١].

طرق المواصلات ودورها في عمران المراكز السكنية الاولى

لعبت طرق المواصلات الدور الأهم في عمران المراكز السكنية الأولى في لبنان. وابرز تلك الطرق البرية التي سلكها الموارنة الأوائل في نزوحهم إلى لبنان منذ مطلع القرن الخامس، بعد الصراعات المذهبية في سوريا الثانية وجهات قورش حيث يكثر الموارنة، هي:

اولاً: الطريق الساحلية عبر حماه ـ حمص ، طرطوس، عرقا، طرابلس، وادي قاديشا .او الجبلية عبر حماه ـ حمص ـ وادي العاصي، عيناتا، الارز، بشري قنّوبين.

ثانياً: طريق البقاع ـ اليمونة ـ عقبة العاقورة ـ ميفوق بلاد البترون. أو يانوح ـ جاج، ترتج، لحفد وكافة أنحاء بلاد جبيل. وهي الطريق الرومانية التي كانت تربط جبيل الفينيقية ببعلبك الرومانية إبّان إزدهار الوثنية في هذين المركزين الدينيين الشهيرين.

ثالثاً: اما الطريق الثالثة، فكانت تعبر اما داخلياً في البقاع الى ضهر البيدر ومنها إلى أنحاء المتن والشوف وصولاً الى دير القمر وكسروان. وإمّا ساحلياً الى الشمال وصولاً الى الدامور ومنها إلى صيدا وصور والجنوب، أو صعوداً الى دير القمر.

فإلى هذه المراكز الثلاثة السكنية الاولى للمسيحية في لبنان، اي قاديشا والمنيطرة ودير القمر، كانت طريق داخلية من جهة البقاع، وطريق أخرى من جهة الساحل الشمالي. وعلى جانبي هاتين الطريقين عمّرت الكنائس والاديار والقلاع.

٥ ـ الشعوب الآرامية والحضارة السريانية

المنطقة الآرامية السورية وبلاد الشام

إن الشعب الأصيل الذي توطّن المنطقة الممتدة من خليج الاسكندرون وانطاكية وحلب ومنابع الفرات شمالاً، وبادية الشام شرقاً، والبحر الاحمر واطراف سيناء الشمالية جنوباً، والبحر المتوسط غرباً، أي المنطقة المعروفة ببلاد الشام، أو "الهلال الخصيب" و"سوريا الكبرى" حسب تعريف الحزب القومي السوري، هو الشعب الآرامي العريق الذي يعود بنسبه الى آرام، إبن سام وخامس أولاده الذين يعتبرهم المؤرخون أجداد الشعوب التي سكنت هذه المنطقة المشرقية من العالم.

وقد احتلّ آرام هذا، وأبناؤه من بعده، هذه البلاد، فدعيت بإسمه، وانتسبت اليه كل القبائل التي حلّت في هذه الأرض التي أطلق عليها إسم أشوريا أو أسوريا، إذ كثيراً ما استبدلت قديماً الشين بالسين مثل الشومرية التي تحوّلت الى السومرية في بابل، وغيرها، نسبة الى القبائل الأشورية التي حلّت في هذه المنطقة على اختلاف ممالكها، وكانت لغتها السريانية. لغة الآراميين والأشوريين والعبرانيين وغيرهم: وهي تعود بأصلها إلى اللغة الفينيقية.

واللغة الأم التي اعتمدتها هذه القبائل التي توزعت في البلاد الشامية كانت اللغة الفينيقية أمّ لغات الشرق المعروفة، وما تفرّع عنها من لهجات محليّة كالعبرية او العبرانية، والآرامية، والسريانية، والعربية. وحتى اللغات الغربية ذات الاصل اللاتيني فهي أيضاً في معظم ألفاظها وتبويبها تعود الى الاصل الفينيقي: الالفباء (عربي) أولاف ـ باء (سرياني) A ـ B (فرنسي) آي بي (انكليزي) ألفا ـ باتّا (لاتيني)...

وبدخول الغرباء الى هذه البلاد واحتلالها من قبل الفرس واليونان والرومان والفرنج وغيرهم، تمّ لهم التصرّف بثرواتها، وشعوبها، وحضارتها، وكذلك بلغاتها، فتغيّرت أسماء وتحرّفت أخرى، تبعاً لاختلاف الشعوب المسيطرة. وعلى هذا الأساس أُطلق على نفس المدينة او البلاد عدة تسميات متقاربة أحياناً ومتباعدة احياناً اخرى، على مثال: صور وثير، أشوريا وسوريا، صيدون وصيدا، بيبلوس وجبيل، بوتريس وبترون، طرابلس وتريبولي.. وغيرها. و"كان اليونان من أكثر المفسدين للفظ الحروف الهجائية، والقول للأديب الفرنسي شاتوبريان. ومن حيث أن آذانهم كانت تنفر من اللفظ الثقيل، وتستأنس بالرقيق، كانوا إذا نقلوا الأسماء الأجنبية الى لغتهم لم يلتفتوا الى طريقة لفظها عند أهلها، بل نطقوا بها على حسب ما تستحسنه آذانهم ويسهل على السنتهم"(١).

تسمية دمشق

اما بالنسبة الى إسم دمشق، فهو يعني حسب القديس هيرونيموس "شراب الدم" بسبب جريمة قتل قايين أخاه هابيل الواردة في سفر التكوين (٤:٨)، وما تبعها من مذابح بحق المسيحية في العاصمة الآرامية وجوارها، وفي طليعتها مقتل أول شهداء المسيحية القديس اسطفانوس على يد شاوول، اي القديس بولس الرسول، قبل تحوّله الى المسيحية بفضل الاعجوبة التي تحدّثنا عنها سابقاً. اما الاستاذ أنيس فريحه فينسب دمشق الى "الشوق" وهو جذر يفيد "الكثرة والوفر والنعم، فيكون المعنى بيت الوفر والغنى. وهذه التسمية تلائم غوطة دمشق" (٢). ولفظة شام عكس دمشق، كما يفسّرها الدكتور فريحه، إذ أنها تشتق من "شوم" او "شؤم"، ومنها أيضاً الشامة والشامات أي الخرائب والأماكن المهجورة.

تسميةلبنان

اما لبنان فقد أخذ اسمه الفينيقي القديم الذي يعني "البياض"، وذلك نظراً للثلوج التي تكسو جباله معظم أيام السنة. وهناك من يقول ان اللفظة عبرية تشتق من "اللّبان" ذات الزهر الناصع البياض والرائحة العطرية المشهورة عند الآراميين(٣).

الشعب السوري الآرامي ومملكة جبيل الآرامية

وقد شمل إسم سوريا او بلاد الشام "لبنان وسوريا" بعد انقراض الحثيين في الجيل الثامن قبل الميلاد، وعرف شعبهما بالشعب الآرامي، كما يثبت ذلك الكتاب المقدّس، ومن ثم انضمّ الى الآراميين قوم من الجبابرة (سفر التكوين فصل ١٤ عدد ٥). ولما سيطر الآراميون على سهل البقاع سمّوه "سوريا المجوّفة"، وجعلوا دمشق عاصمة سوريا التي سيطرت على معظم الممالك الآرامية الأخرى في جهات حمص وحماه وحلب والسواحل اللبنانية (٤). وآراميو الجبال هم الذين أعطوا جبيل إسمها التوراتي القديم "جبل" او "جبال"، وتبنّاه المصريون في الهيروغليفات. كما حملت التوراة إسم "بيبل" من بيبلوس أي جبيل باعتبارها مدينة الحرف والكتاب. وكانت حدود مملكة جبيل الآرامية تمتدّ من حرمون الى حماه (٥). هذا مع العلم أن "إيل" مؤسس جبيل، حسب سنكن يتن العالم الفينيقي، ومعظم الأساطير المعروفة "كان قد تسلّط نظير ملك على عالم الأقدمين بأسره"، قبل الآراميين (٦). وعلى هذا الأساس اعتبر المؤرخون القدماء اوستاك، واسطفانوس البيزنطي، وسنكن يتن البيروتي، والمحدثون أمثال رينان والأب مارتين اليسوعي، والاب لامنس، ودينان، وسواهم أن جبيل هي "أقدم المدن ـ الممالك في العالم". وفي باطن أرضها دفنت إثنتا عشرة حضارة متتابعة. وظل الآراميون، وهم أول من أسس حضارة ضربت جذورها في التراث الفينيقي، حتى حلول الكنعانيين، يسيطرون على الأراضي اللبنانية في الجنوب اللبناني إلى أواسط القرن الثالث قبل الميلاد. أي حتى دخول اليونان الى هذه البلاد والسيطرة عليها. وقد انضمّ إليهم بعض العبرانيين المنتسبين إلى عابر أخي آرام اثر خروجهم من مصر بأمر من الربّ، كما ألمحنا سابقاً. وأخذ إسم آرام يتراجع شيئاً فشيئاً، بعد انتشار المسيحية، حتى اضمحلّ نهائياً بحلول العرب في هذه البلاد.

وقد ذكر المؤرخ اليهودي يوسيفوس أن اليونانيين في أيامه كانوا يدعون سوريين، كل القوم الذين يسمّون نفسهم آراميين(٧). وبعدما فتح الاسكندر المقدوني سوريا، طغى الإسم الاشوري على الإسم الآرامي. ولما كان اليونان يستثقلون لفظ الشين، وهي أصلاً غير موجودة في لغتهم، منذ حولّوا الاسم الأشوري الى

"سوري". وهذا ما فعله المصريون أيضاً الذين اعطوا سوريا إسم "أسور" باعتبارها بلاد الأشوريين، كما أسموها بلغتهم الهيروغليفية الشعبية "روثانو". وهنا لا بدّ من التفريق بين لهجتين مختلفتين داخل اللغة السريانية، لهجة سكان شمالي الفرات، وهي تنتهي بالفتح مثلاً "نينوى" و "يهوه". بينما سكان جنوبي الفرات، بما فيهم شعب لبنان وسوريا والاردن وفلسطين، تكلّموا السريانية المضمومة، مثال على ذلك: "تشبحتو الموريوألوهو...".

أما الآثار الباقية من الشعوب الآرامية السريانية في لبنان فمعظمها في جهات فقرا، ودير القلعة، والغينة، والمشنقة، واليمونة، ونهر الكلب، وطاميش، ومنطقتي جبيل والبترون، وخاصةً جبّة بشري التي ظل المواطنون يتكلمون فيها اللغة السريانية في حياتهم اليومية حتى القرن الثامن عشر. وقلما تجد قرية من القرى اللبنانية تخلو من أسماء أمكنة فيها سريانية الأصل، مما يثبت أن جبال لبنان، خلافاً للاعتقاد بأن اللبنانيين سكنوها بعد دخول الرومان، كانت مسكونة قديماً، مع العلم أن الرومان تداولوا اللغة اليونانية في حياتهم اليومية، وجعلوا اللاتينية لغة الدواوين الرسمية واسماء القرى والمدن السريانية تدلّ بدون شك أن جبال لبنان كانت مسكونة منذ أقدم العصور، والاحتلالات اللاحقة لم تقض على الشعب الآرامي السرياني الأصيل في هذه المنطقة، بل على العكس من ذلك كانوا هم الشعب الوطني الأصيل الذي لم تضف الاحتلالات اليه سوى أقليات ضئيلة سرعان ما كانت تمتزج وتنصهر مع الشعب اللبناني العريق بحيث يصبح من الصعب التمييز بينها وبين الشعب الآرامي السرياني الأصيل.

"جنة عدن" اللبنانية و"جبيل" اول مدن العالم الحجرية، و"صيدون" بكركنعان و"ابناء الله".

ومن الأساطير التي توقّف عندها المستشرقون والمؤرخون، قديماً وحديثاً، قصة "جنة عدن" اللبنانية المذكورة في التوراة: فنرى البعض منهم ينسبها الى اهدن، والآخرون الى أماكن اخرى في الجزيرة العربية. أما المؤرخ دي لاروك (De la Roque) فيشير إلى أن "قرية بان (في جهات بشرّي) كانت تسمّى قديماً بالعربية مدينة "الرأس" وهي مبنية على ما قيل فوق أخربة أول مدينة في الدنيا" (٨). في حين

يعتبر العلاّمة دينان (Dunand) "أن جبيل هي أول ممالك العالم" (٩). والأب مارتين اليسوعي ردّد قول دينان انها "أول مدينة في الدنيا" (١٠). وحتى المؤرخون المحدثون، ومنهم الدكتور فيليب حتّي في كتابه "تاريخ لبنان"، وصف جبيل بأنها "أول مدينة حجرية في العالم"، وان اقدم الشعوب التي توطّنت شرقي البحر المتوسط "هم سكان جبيل" (دار الثقافة سنة ١٩٧٢ ـ صفحة ٧٣). وهذا يثبت قولنا السابق بأن الفينيقيين ليسوا هجرة سامية تعود الى اربعة آلاف سنة فقط قبل الميلاد، إذ أن اللبنانيين أقدم بكثير من هذه الهجرة التي إن حصلت فهي متأخرة كثيراً في الزمن، وقد لجأت إلى جبال كان قد استوطنها شعبها الأصيل بآلاف السنين قبل ذلك، كما شهدت عظام إنسان إنطلياس المكتشف حديثاً والعائد الى خمسين ألف سنة، واكتشافات عمريت الفينيقية في جوار النهر الكبير الشمالي التي اثبتت وجود مجمّع سكني هناك يعود الى مئتي ألف سنة خلت. كما أن صيدون "بكركنعان"، اي أولى مدن الكنعانيين، تعتبر هي الأخرى من أولى الممالك التي عرفها حوض البحر الابيض المتوسط، والساحل الغربي من المنطقة الآرامية الممتدّة من آسيا الصغرى شمالاً الى البحر الأحمر جنوباً. وعلى هذا الشعب الآرامي بالذات اطلقت التوراة إسم "نسل الزعيم شيت" الذي جاء بعد موت هابيل على يد أخيه قايين، وتزعّم "الاخيار الصالحين" فدعي نسله المبارك بنسل الزعيم شيت حسب سفر التكوين (٤: ٢٥ و٦: ٢٢)، و"أبناء الله" تمييزاً لهم عن نسل الخطأة والأشرار من أبناء قايين الذين سُمّوا "أبناء الناس". وقد أقام "أبناء الله" في وادي حرمون (عند جبل الشيخ)، الذي سمّي حرمون بعد الحرم الذي نال قايين لقتله اخيه هابيل، وكوّنوا نموذجاً للحياة النسكية الرهبانية التي راجت في ذلك العصر. ولما يئسوا من العودة الى الفردوس الذي أخرجتهم منه خطيئة آدم وحوّاء الاصلية، تزوّجوا من ذرية قايين وولدوا "الجبابرة" والكلام لابن العبري في "التاريخ الكنسي السرياني" صفحة ٤، و"تاريخ الدول" صفحة ٥.

قبر آدم

وفي حرمون "الجبل المحرّم" بسبب جريمة قايين، يوجد قبر لأبينا آدم، وأبناء شيت وقايين، ونمرود، وسواهم من جبابرة البشرية و "آبائها اللبنانيّي الأصل" (على

مقربة من قبر نوح الذي نجا من الطوفان باعتلائه جبل آرارات في ارمينيا) الموجود في الوادي الغربي من البقاع بالكرك، حسب المؤرخ طومسون (١١). وقد ذكر المستشرق الالماني سوشام (Suchem) الذي زار البقاع في القرن الرابع عشر أن سهل البقاع يدعى "سهل نوح"، ذلك لأن أبناءه بعد الطوفان قد "رحلوا من المشرق، فوجدوا بقعة في أرض شنعار (بابل)، فأقاموا هناك (سفر التكوين ١١:٢). والمؤرخ ابن العبري يشير في تاريخه السرياني إلى أن كنعان بن نوح تقدّم اولاده إلى سفح لبنان، وأقاموا بفينيقية". وللمزيد من المعلومات حول قداسة الأرض اللبنانية، باعتبارها المسرح الأهم لأحداث التوراة، يمكن العودة إلى الكتاب المقدّس في عهده القديم، وإلى السنكسارات المارونية التي دوّنت باللغة الآرامية السريانية القديمة، لغة السيد المسيح، وتلاميذه، وكلها تشير الى لبنان.

السريانية لغة المسيح وتلاميذه

ويخبرنا المؤرخون أنه لما حاصر سنحاريب الأشوري اورشليم اوفد ثلاثة من عظماء قومه لمفاوضة حزقيال ملك إسرائيل، فطلب إليهم رجاله ألاّ يكلّموهم باليهودية (العبرانية)، على مسمع من الشعب، ولكن "كلّمونا بالآرامية فإننا نفهمها"(١٢). وكان القصد من ذلك ان يفهموهم شروط الاستسلام والاذلال دون أن تصل الى مسمع الشعب فيحتقرهم. ورغم الفتوحات التي مرّت بهذه المنطقة، ظلّت الآرامية لغة عامة الشعب حتى بعد حلول الرومان. والعرب أنفسهم كانوا يتكلّمون لغتين: العربيّة، والآرامية السريانية، ويكتبون بالخط الكرشوني السرياني.. ويذكر القاصد الرسولي يوسف السمعاني الذي ترأس المجمع اللبناني سنة ١٧٣٦ أنه زار اقرباءه في اواسط القرن الثامن عشر في حصرون فوجدهم يتكلّمون باللغة السريانية. ويعتبر المؤرخ اللبناني بيار روفايل "أن انصراف اللبنانيين الى اللغة العربية، وتخلّيهم عن السريانية أشاح بنظرهم عن تراث لبنان وادابه، فظلّت آلاف المخطوطات منسيّة في المكتبات الاوروبية "(١٣). و"العلاّمة السمعاني "الذي أشرنا إليه، صاحب المؤلّفات الشهيرة باسم "المكتبة الشرقية" وبعضها باللغة السريانية، قد جمع بتكليف من قداسة البابا آلاف الكتب والمخطوطات السريانية من لبنان، وفهرسها ووضعها في مكتبة الفاتيكان، ويربو عددها حسبما ذكر على "ستماية

ألف كتاب، وستين ألف مخطوطة" (١٤).

والمستشرق دي لاروك عندما زار لبنان سنة ١٦٨٨، وجد عدداً كبيراً من الناس، حسب قوله، في جهات بشرّي والحدث، لا يزالون يتكلّمون اللغة السريانية. وقبله زار المستشرق الفرنسي دي شستّيو بيروت سنة ١٦٣٢، ثم انتقل الى حصرون وإهدن فوجد أهلهما يتكلّمون السريانية، حسبما أشار الدكتور فيليب حتّي (١٥). وعلى صفحات تلك الكتب السريانية القديمة الموجودة في أديار لبنان دوّن البطاركة والأساقفة وكبار رجال الدين نبذات تاريخية هي من الأهمية بمقدار، بحيث أنها لو ضاعت لغاب عنّا الكثير من تاريخ امّتنا العريقة وشعبنا الأصيل.

والأب بطرس ضو في كتابه - الجزء الثامن من المجموعة التي تتحدّث عن "تاريخ الموارنة"، والذي يحمل عنوان "كنائس السيدة العذراء في لبنان والعالم"- يقول: "إن كنيسة سيدة زغرتا من أغنى كنائس لبنان، ومن أغنى كنائسنا في إهدن وزغرتا، كتباً دينية خطيّة من مخطوطات النسّاخ الاهدنيين... إن شهرة سيدة زغرتا تخطّت حدود لبنان، فأرسل لها موارنة حلب، وسائر المسيحيين، وخاصة العائلات الاهدنية، في مدينة حلب الشهباء، مخطوطات بديعة في اللغة السريانية والكرشونية... والمؤرخ الفرنسي المعروف بوجولا الذي زار زغرتا في حزيران سنة ١٨٣١ قال: "من أجمل كنائس سوريا ولبنان كنيسة "سيدة زغرتا"، بما فيها من المدوّنات ذات القيمة التاريخية العظيمة... التي كان لها فضل كبير في الكشف عن أحداث هامة، وكانت تشكّل أحد المصادر والمراجع الموثوق بها لكتابة تاريخ صحيح يقوم على سرد الوقائع وعرض الوثائق وإذا ضاعت الوثائق ضاع التاريخ"(١٦).

التراث السرياني والارث اللبناني الضائع

وفي حديثنا عن الإرث السرياني الكبير لا بدّ من كلمة حول ضياع هذا الكنز الذي لا يقدّر بثمن. وضياع مثل هذا الإرث العظيم هو ضياع لهوية الوطن وتراثه وحضارته. ويمكننا القول، بدون مواربة، أنه عندما تخلى اللبناني طوعاً عن إرثه السرياني ليخزن في مكتبات الفاتيكان، وغيرها من المكتبات العالمية إلى جانب الكنوز اللبنانية الأخرى المنهوبة إلى متاحف لندن وانقرة واسطنبول وباريس

وواشنطن وبرلين وروما، وغيرها من بقاع العالم، إنه قد تنازل وبدون ثمن عن أهم مميّزاته وسماته الحضارية في هذه المنطقة من العالم. ولضياع هذا الإرث القيّم، والاعتماد كلياً على العربية رغم اهميتها وعلى اللغات الأجنبية بديلاً عن السريانية، أثره الكبير في التجاذب الحاصل اليوم، حول هوية هذا الشعب وكيانه الوطني. والشعب الذي يهمل اثاره الفكرية، وتراثه الحضاري، غير جدير بحمل هوية قومية تشير إلى انتسابه إلى كيان ووطن. لقد نكب الماروني اللبناني مرتين في تاريخه: الاولى عندما ضربت الزلازل ثروته الفكرية في المكتبات والأديار والكنائس عام ٥٥٥، وما تبعها من هزات أرضية، والثانية عندما تخلّى عن تراثه السرياني وأطلق رصاصة الرحمة على السريانية باعتبارها لغةً ماتت ولن يكتب لها الحياة، وكم كان جدير به أن يدرس تراث هذه اللغة ويطوّر آداءها لتواكب متطلّبات العصر، لأنه بهذا التراث الفريد وحده كان بإمكانه أن يعيد مجد الحضارة الآرامية السريانية التي كانت ذات يوم لغة أمّة امتدت من آسيا الصغرى شمالاً وبادية الشام شرقاً الى البحر الاحمر جنوباً والمتوسط غرباً، وهي لغة السيد المسيح الذي تتبعه كنيسة تضمّ نحو نصف سكان العالم. وبهذه اللغة السريانية الميتة اليوم، لولا حاول اللبناني بما عنده من مقدرة وإبداع، لتمكّن أن يجذب أنظار نصف سكان الكرة الأرضية باعتباره الوحيد الذي حافظ على اداة التخاطب المسيحي الاولى، وطوّرها، وجعل منها لغة قابلة للحياة، لها تراثها الأدبي، وجاهزة متى طوّرت لاستقبال مفردات العلم المعاصر بعد تجديد بنيتها اللغوية وحروفها بحيث يصبح الخازن لتراث عظيم يمتد من الرسل الاوائل، وصولاً الى افرام السرياني، ويوحنا فم الذهب، وابن العبري، وجبرائيل بن القلاعي، وابن نمرون، والسماعنة والصهيوني والحاقلاني، وغيرهم من أساطين الفكر السرياني العالمي.

وقد عمّت اللغة السريانية، عدا الشرق الاوسط وبلاد ما بين النهرين، أطراف آسيا وارمينيا، ولا سيما بعد الجلاء البابلي الأخير. وقد أثبت ذلك العلماء: دي فكداي في كتابه "آنية سوريا الوسطى والخطوط السامية"، وسترابون في كتابه الجغرافي لا سيما الجزء الحادي عشر والسادس عشر صفحة ٥٨. وروبنسون دوفال في كتابه "الآداب السريانية" (١٧). وغريغوريوس إبن العبري كبير المؤرخين

السرياني المعروف بابي فرج الذي يقول: "إن السريانية تقسم إلى ثلاث لغات، وأفصحها الآرامية لغة أهل الرُها وحارّان والشام الخارجية، وبعدها الفلسطينية وهي لغة أهل دمشق وجبل لبنان وباقي الشام الداخلية، واسمجها الكلدانية النبطية وهي لغة سكان جبل العراق وهواز العراق..." (١٨). اما توادوريطس أسقف قورش، فيقول: "إن لغة سوريا والامم المجاورة للفرات وفلسطين والفينيقيين هي السريانية" (١٩). وحسب الكتاب المقدّس كانت لغة العالم القديم الكلدانية، لغة ابراهيم الخليل الكلداني العبراني الأصل، أي لغة واحدة لجميع سكان العالم المعروف آنذاك قبل بناء برج بابل الذي بلبل الشعوب فتعدّدت اللغات حسبما جاء في التوراة.

أما القديس غريغوريوس، والقديس افرام السرياني، ومعظم مؤرخي الشرق، فقد اعتبروا أن السريانية هي لغة أبينا آدم. وقليمندوس الاسكندري هو الآخر قال: "إن الاحرف التي ابتدأت في العالم هي الحروف السريانية (٢٠). ولما كان العبرانيون والآراميون يتحدّرون من الكلدانيين، والعبرانيون تكلّموا العبرانية بعد ابراهيم الخليل، فهذا يعني أن الآراميين حافظوا على لغة جدودهم، أول اللغات التي تكلّمها أبناء هذه المنطقة في كافة ممالكهم".

ولما نشأت المارونية في هذه المنطقة من العالم تبنّت اللغة السريانية كمعظم مسيحيي الشرق الذين حافظوا عليها كلغة طقسية، ولغة متداولة في آن واحد، حتى حلّت اليونانية واللاتينية ثم العربية محلّها، بعد تخلّي أصحابها السريان نفسهم عنها. ومع هذا ظلّ بعض اللبنانيين وخاصة موارنة الجبة الشمالية متمسكين بها حتى اواخر القرن الثامن عشر.

العلوم والكتّاب السريان

إن أول من ألّف كتاب غرامطيق (قواعد) سرياني هو يعقوب الرّهاوي من الرُها (٢١). وأشار القديسان أوغسطينوس وايرونيموس، إلى أن الفينيقيين قد حملوا معهم لغتهم السريانية اينما حلّوا في البلاد الافريقية. وإسم عاصمتهم الافريقية بالذات "قرطاجة" لفظ سرياني يعني "قرت حدشت" أي "القرية الحديثة". ويروي

الجغرافي سترابون أن الاسكندر المقدوني نقل الى "آرابيا السعيدة (العربية السعيدة أو اليمن)جمهوراً من الصيداويين والصوريين بالقرب من بلاد الحبش فحفظوا الى الآن لغتهم السريانية" (٢٢). والمؤرخ اليهودي يوسيفس كتب في تاريخه "حرب اليهود مع الرومانيين" في سبعة كتب بالسريانية، ثمّ ترجمها إلى اليونانية، كما جاء في مقدّمة الكتاب على لسانه. و"التلمودان البابلي والاورشليمي كُتبا بالكلدانية، وتتخلّل عباراتهما جمل من لغة العامة الآرامية" (٢٣). واوسابيوس القيصري الفلسطيني كتب تاريخه الشهير "ترجمة قسطنطين" سنة ٤١٢ بالسريانية، ثم ترجمه الى اليونانية، باعتبار لغة فلسطين كانت السريانية، ولغة الدولة الرسمية اليونانية (٢٤). اما أسفار العهد القديم، فقد كتبت بالعبرانية، ونقلت عنها اسفار بالسريانية، كما يشير الى ذلك القديس ايرونيموس والسمعاني، وذلك بطلب من الملك الابجر، ملك الرها، من قبل الرسول تادي وغيره. كما أن معظم الرسل الاوائل كتبوا بالسريانية باعتبارها لغة السيد المسيح. وأول من كتب الانجيل، هو متى الرسول في السنة الثالثة بعد صعود المسيح الى السماء، وباللغة السريانية الكلدانية لغة يهود فلسطين آنذاك، حسبما جاء في حاشية مطبعة الآباء اليسوعيين في بيروت على انجيل متى سنة ١٨٩٧.وكذلك فعل بولس الرسول في رسائله الى العبرانيين، والقديس يعقوب الاورشليمي الذي كتب كتبه الكنسية واللاهوتية كلّها بالسريانية، وترجمها الرسل من بعده الى اليونانية(٢٥). وتعتبر هذه الليتورجيات اول الليتورجيات، وقد تبعها الموارنة والطوائف السريانية، واخذها عنهم اليونان.

واعظم الكتّاب السريان هو القديس يعقوب اسقف نصيبين، وتلميذه القديس افرام السرياني الذي توفي عام ٣٢٧ فاعتبر "ملفان البيعة" أي فيلسوف الكنيسة، و"كنارة الروح القدس"، و"نبي السريان" حسبما وصفه المؤرخ سوزمان نقلاً عن مؤرّخي ذلك الزمان، ولا سيما القديس ايرونيموس، في كتابه الثالث فصل ١٦. وله ١٢ ألف قصيدة عدا المواعظ، على حدّ ما زعم سوزمان في كتابه الآنف الذكر. وتلميذه زنوبيوس، والقديس باروتا اسقف تكريت، ورابولا اسقف الرُها، والقديس يوحنا الفم الذهبي، والبطريرك الماروني الاول يوحنا مارون، وكتبة الموارنة من مرهج

بن نيـرون او نمرون البـاني، الى جـبـرائيل بن القـلاعي اللحـفـدي، إلى يوسف السمعانـي الحصروني، والصـهيوني الإهدني، وابراهيم الحـاقلانـي ابن حاقل في بلاد جبيل، وسـواهم من علماء وآباء الموارنة وبطاركتـهم الأوائل... كل هؤلاء تركوا آثاراً سـريانية قيّمـة في الطب والفلك والفيـزياء، والـرياضـيات، والقـواعد، والآداب، والشعر، والتاريخ، واللاهوت، والفلسفة، وعلم المنطق والاجتماع...

وحبذا لـو يأتي يوم يعاد فيه النظر بمحتوى تلك المصنّفات العلمية، فينشر ترجمـة للمفيد منها، لأنهـا لا شك تحوي أموراً طمسـهـا يقـضـي على الكثير من المعلومـات الضـرورية لإعطاء صـورة واضـحـة عن ذلك الشـعب الآرامي الذي كـان مدى عدة أجيال، سيّد هذه المنطقة المشـرقية من العالـم، فأعطى الدين مـا لم يعطه شعب آخر، كما أعطى الدنيا إرثاً لا يستهان به.

٦ - البستان القورشي

جبل قورش او سمعان وطابعه المميّز

بين حماه وحلب، على الطريق العام، يقوم جبل قورش الذي تبلغ مساحته نحو ١٩٠ كيلومتراً مربعاً. وقد اختار النسّاك المسيحيون الاوائل هذه المنطقة التابعة لسوريا الثانية مقراً لإقامتهم، باعتبارها أقرب المناطق الجبلية إلى إنطاكية، بطريركية الشرق المسيحية الاولى من جهة، والى القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية الحاكمة من جهة ثانية، لا سيما بعدما احتضن الامبراطور البيزنطي قسطنطين ووالدته الملكة هيلانه الديانة المسيحية وجعلاها دين الدولة الرومانية الرسمي في العام ٣١٢. وبما أن الخوف من سطوة الوثنيين انذاك، كان كبيراً، فضّل هؤلاء النسّاك الاوائل عدم الابتعاد عن مركز السلطة المسيحية، واختاروا أماكن يصعب الوصول إليها بسهولة. وعندما تملّك الخوف من قلوبهم، أخذ هؤلاء النسّاك يتوجهون جنوباً باتجاه حمص، ووادي العاصي، وجبل لبنان لا سيّما وادي قاديشا، وجبّة المنيطرة، وجهات دير القمر، وجبال الجليل، وصولاً إلى اورشليم، والناصرة وبيت لحم، حيث ترعرع السيد المسيح. ولم تلبث الحياة النسكية أن تحولّت من الفردية الى العيش المشترك في أديار تضمّ عدداً كبيراً من النسّاك والرهبان، فرأينا الأديار ترتفع في سيناء، ومصر، جنوباً، وتتعدّى منطقة جبل قورش إلى آسيا الصغرى وأرمينيا شمالاً. والجدير ذكره أن الأرض التي شهدت ولادة المسيحية كادت تنتهي فيها المسيحية في حين استمرّت وتعاظمت في المناطق المتاخمة لها، ولا سيما في جبل لبنان، وجبل قورش، المشعل الأكبر للحياة النسكية في بداية انتشار المسيحية، باعتبار هذه الجبال هي حصن طبيعي يوفّر ممارسة الشعائر والطقوس بحرية بعيداً عن يد الاعداء.

المدارس النسكية الاولى

عرف العالم القديم ثلاثة مدارس نسكية، والمدرسة القورشية كانت احدى هذه المدارس الثلاث، وصاحبة الفضل الاكبر على الانتشار المسيحي في العالم.

اما المدرسة الثانية "فكانت تقوم في بلاد ما بين النهرين في اواسط القرن الرابع، ومن أبرز رموزها القديس يعقوب النصيبيني الكبير المتوفّي سنة ٣٣٨، ويوليانوس سابا المتوفي سنة ٣٦٧... ومن تلاميذها استاريوس الذي بنى دير جنداريوس الذي يبعد أربعين كيلو متراً عن إنطاكية وهو أقدم دير في إقليم إنطاكية"(١).

اما المدرسة الثالثة، وهي الأقدم، وتصنّفت الاولى من حيث تاريخ تأسيسها، وإن كانت أقلّ أهميةً من المدرسة القورشية؛ فهي مدرسة القديس انطونيوس شفيع الرهبان المصريين (٢٥٠ ـ ٣٥٦). ومن أبرز أقطابها بوخوميوس مؤسس الحياة الرهبانية في مصر (٢). وفي هذا المقرّ كان الرهبان يعيشون أفراداً مستقلّين في مناسكهم، يصرفون اهتمامهم لخلاص نفوسهم. ويعود الفضل للقديس انطونيوس، شفيع الرهبان اللبنانيين الذي جمعهم في مناسك جماعية، فاعتبر مؤسس الرهبانيات الاولى في العالم، إلى أن صدرت اوامر الكرسي الرسولي بوجوب اهتمام النسّاك بخلاص البشر أكثر من اهتمامهم بخلاص نفوسهم، عندها بدأوا يتفتحون على المؤمنين، ويقومون بالمواعظ ، وأعمال التبشير، وحلّ مشاكل الناس، ويجترح القديسون منهم العجائب؛ ممّا أدى إلى توافد الناس إلى أديارهم طلباً لشفاعة هؤلاء القديسين، واصبحت الأديار مرجعاً يؤمّه الناس كلما دعت الحاجة إلى ذلك، حتى أنه في بعض الأقطار، لا سيما في اوروبا، قد عُمّرت المدن الكبيرة بجوار الأديار المسيحية الأولى.

أبرز نسّاك جبل قورش

في هذا الجبل البعيد عن ضوضاء المدن وصخبها، توزعت المناسك المتواضعة، بعضها عبارة عن كهف لا يدخله نور الشمس، ويُدخَل إليه من باب ضيّق ومنخفض؛ وبعضها الآخر، مغاور نقرت في الصخر، وأحياناً كثيرة وقف

الناسك في العراء تلفحه الرياح القارسة ليلاً، وتلفحه أشعة الشمس المحرقة نهاراً، إمعاناً في قهر الذات وتشبهاً بالمسيح الذي قال: "دع كلّ شيء واتبعني". وقد اعتلى بعض هؤلاء النسّاك الأعمدة لينقطع كلياً عن الاتصال بالناس، مكتفياً ببعض الأعشاب او الخبز الجاف زاداً يقتات به، كما فعل الناسك القديس سمعان العمودي الذي تَسمى جبل قورش باسمه "جبل سمعان". اما الراهب الناسك مارون الذي إليه يرجع الفضل في نشوء الطائفة المارونية التي شملت معظم أرجاء سوريا الثانية وجبل لبنان، فبفضل ما تحلّى به من قداسة وحكمة أصبحت صومعته مقصداً لآلاف المؤمنين من كل حدب وصوب من الوثنيين الذين اعتنقوا المسيحية إيماناً بتعاليمه وشغفاً بمواعظه، وكثيرون منهم اختاروا الحياة النسكية تشبّهاً به، وبجاره القديس سمعان حتى غدا بفضلهما "البستان القورشي" زاهراً بالنسك والايمان كما وصفه تاودوريطس، كاتب سيرة هؤلاء الرهبان القديسين.

والشاعر المعروف إبن الرومي وصف هؤلاء النسّاك الذين أذهلته حياتهم المتقشّفة فقال:

بات يدعو الواحد الصمدا ... في ظلام الليل منفردا

خادمٌ لم تبق خدمته ... منه: لا روحاً ولا جسدا

وقد سار على منوال المعلّمَين الأولّين سمعان ومارون، نسّاك كثر من تلاميذهما، وأصبح بعضهم قدّيسين معروفين. وقد تأثّر القديسان سمعان ومارون بالمدرسة النسكية "الميزوبوتامية" التي قامت في بلاد ما بين النهرين، ولا سيما بأسقف نصيبين، القديس يعقوب الكبير. وقد وصف المؤرخ بطلر (Butler)جبل قورش الذي حمل إسم "جبل سمعان" بعد موت القديس سمعان وإعلان قداسته، بقوله: "كان جبل سمعان كثيف السكان، وأبنيته ذات طابع سرياني آرامي محلّي، في الوقت الذي يظهر الطابع اليوناني في إنطاكية والمدن الأخرى القريبة" (٣). وقد توزّعت عشرات القرى الكبيرة والصغيرة في هذا الجبل المقدّس، والكثير منها، على حدّ ما ذكر الأب بطرس ضو في كتابه "تاريخ الموارنة" يشبه ويماثل تماماً أسماء القرى والبلدات اللبنانية، خاصة في جهات دير القمر. وسنأتي على ذكر بعضها

لاحقاً. وقد بُني في المكان الذي يوجد فيه العمود الذي اعتلاه القديس سمعان المذكور، والبالغ ارتفاعه سبعة وثلاثين ذراعاً، كاتدرائية هي أكبر كنائس المنطقة "بطول مئة متر، وعرض ثمانية وثمانين متراً". وصفها الأب بول ماترن بقوله: "إننا أمام الخربة المسيحية الأعظم شأناً، والأكثر فخامة في الشرق، وربما في العالم أجمع"(٤). وقد تعمّرت هذه الكنيسة على أثر وفاة القديس سمعان في النصف الثاني من الجيل الخامس من الميلاد، وعرفت بكنيسة مار سمعان العمودي، وظلت محجّاً للمسيحيين حتى احتلها البيزنطيون في القرن العاشر، وجعلوها حصناً يحتمون به من هجمات العرب المسلمين، فعرفت عندها باسم "قلعة مار سمعان" ولم تلبث أن سقطت بيد العرب حيث قبر فيها، ويا للغرابة، الخليفة الاموي عمر بن عبد العزيز صاحب الشروط العمرية الشهيرة التي تعتبر المسيحيين في الخلافة "ذميّين" ومن مستوى أدنى من المواطنين المسلمين، مما يفرض عليهم عدم التمتّع بنفس الحقوق، "لا يحق لهم التمتّع بنفس السلطان والحقوق التي يتمتّع بها المسلم". وقد احتل الحمدانيون إنطاكية، و"قتلوا بعض رهبان الدير التابع لها، وباعوا البعض الآخرين كرقيق" (٥).

وذكر المؤرخ ياقوت الحموي في كتابه "معجم البلدان" أن دير القديس سمعان الكبير رمّم في عهد الصليبيين، واصبح "مثل دار الخلافة ببغداد، يضاف به المجتازون، وله من الارتفاق (العائدات) كل سنة قناطير من الذهب والفضة. وقيل إن دخله السنوي أربعماية ألف دينار. ومنه يُصعد إلى جبل اللكام" (٦). وقد وضع اليعاقبة يدهم عليه بعد ترحيل رهبان دير مارون منه .

وفي عهد الخليفة معاوية ضُمّ هذا الدير إلى الممتلكات المارونية بأمر منه بعد تحكيمه في الخلاف المذهبي الذي كان قائماً بين الموارنة واليعاقبة، وهذا بالاضافة الى بقية كنائس وممتلكات اليعاقبة في سوريا الثانية ولبنان، كما أشار المؤرخ اليعقوبي سعيد بن البطريق، وسواه من مؤرخي العرب والروم. ولما كان الموارنة زعماء التيار الخلقيدوني منذ انعقاد هذا المجمع سنة ٤٥١، من الطبيعي أن تكون جميع الكنائس والأديار المنضوية في هذا الفريق، تابعة لدير مار مارون الكبير، وبينها دير مار سمعان المذكور في جبل قورش او سمعان. ولذلك نجد العرائض

المدبّجة إلى ملوك بيزنطية وإلى الكرسي الرسولي تحمل توقيع "رئيس دير مارون المترئس على جميع أديار سوريا". وسنأتي على تفاصيل ذلك في حديثنا لاحقاً عن دير مارون الكبير. ولمزيد من المعلومات يمكن الاطّلاع على الجزء الثامن من مجموعة الأب بطرس ضو المخصّصة للكنائس المارونية، لا سيما في جبل سمعان وسوريا الثانية، مثل كنائس مار سمعان وبراد، وجبل باريشا، وروبحا، وبرج حيدر، وخراب شمس، وجبل ريحا، والجبل الأعلى، وغيرها من الكنائس والاديار المنتشرة في أرجاء سوريا الثانية.

نسّاك وقديسو جبل قورش او سمعان

١. القديس يعقوب

عاش القديس يعقوب، وهو من معاصري المؤرخ الاسقف الشهير تاودوريطس، المرجع الأهم لسِيَر القديسين النسّاك في جبل قورش الذي يسميه إعجاباً "البستان القورشي"، عاش في العراء فوق جبل قورش رافضاً إتّخاذ أي سقف يحميه من قساوة الطبيعة أو لباس. وبالاضافة الى ذلك قيّد جسده بالسلاسل الحديدية إمعاناً في قهر الذات. ويعتبره المؤرخ فستجيير (Festugière) مع القديس سمعان العمودي "أبرز الرهبان في سوريا، وفي طليعة المناضلين المناهضين للنسطورية وللهراطقة، وأول الداعمين لتعاليم وعقائد المجمع الأسقفي الممهّد للمجمع الخلقيدوني الذي عقد بعد عشر سنوات في العام ٤٥١"(٧)، وكان من جرائه هذا الانقسام الحاد بين مسيحيّي سوريا ولبنان.

وقد أكّد هذا المجمع الذي تبنّى توصياته القديس يعقوب والقديس مارون والقديس سمعان وتلامذتهم، الايمان بطبيعتي المسيح الالهية والانسانية، خلافاً للنظرية النسطورية القائلة أن للمسيح طبعاً واحداً إلهيّاً، وهي العقيدة التي سار عليها الاسقف القورشي والمؤرخ الكبير تاودوريطس، صاحب أخبار جبل قورش وقدّيسيه، وهذا ما يعطي أخباره مصداقية أقوى باعتباره يصف بالقداسة رهباناً ليسوا من نفس عقيدته المذهبية.

٢- القديس سمعان العمودي

عاصر القديس سمعان القديسين مارون ويعقوب، والاسقف القورشي تاودوريطس. وقد اشتهر بطريقته النسكية الخاصة به، وهي العيش في العراء فوق أعمدة متفاوتة الارتفاع، أكبرها يرتفع زهاء سبعة وثلاثين ذراعاً. ويقول الأب بول ماثرن نقلاً عن تاودوريطس: "إن العمود الذي أقام فوقه القديس سمعان، كانت تتوافد إليه جماهير لا حصر لها، آتية من كل أصقاع المعمور المسيحي" (٨). ومن بين الذين زاروه في جبل قورش، والقول للعلاّمة الحصروني يوسف السمعاني، أهالي جبّة بشرّي وطلبوا نصيحة لردّ الوحوش في قراهم، فأشار عليهم برسم صلبان على مداخل قراهم ومن جهاتها الاربع (كما أشرنا سابقاً)، واشترط عليهم قبل ذلك ان يتخلّوا عن وثنيتهم ويتقبلوا سرّ العماد. وأثناء زيارته لبنان، بصفة قاصد رسولي، رأى السمعاني بنفسه آثار تلك الصلبان لا تزال ماثلة للعيان على صخور أيطو وحصرون. واخبره الأهالي، والقول للمطران دبس ناقل هذا الخبر، ان التقاليد تتحدّث عن انقطاع الوحوش عن مهاجمة الأهالي فور تنفيذهم تلك الاوامر التي "أشار عليهم بها القديس سمعان العمودي، أحد نسّاك وقدّيسي جبل قورش الذي عاش في اواخر القرن الخامس" (٩). وقد تلقى القديس سمعان نظراً لشهرته وقداسته رسائل من الملك لاون، كغيره "ممّن تساموا في السيرة الرهبانية يسألهم فيما يرون في شأن المجمع الخلقيدوني... ومن هؤلاء برادات، ويعقوب، السريانيان" حسبما أشار المؤرخ افاغريوس وسواه. وسنوافي القراء بتفاصيل اوسع عند الحديث عن دير مار سمعان العمودي باعتباره واحداً من أديار سوريا الثانية.

٣- ابراهيم القورشي

جاء على لسان تاودوريطس أنه كان "من الاغراس التي نبتت ونمت في بستان قورش الرهباني" (١٠). والفضل، يقول مضيفاً، يعود في "إيناع هذه الاغراس في الحديقة القورشية" الى القديس مارون الذي "سهر على تنمية هذه الأغراس، واقتلع من نفوس أبنائها الأشواك الوثنية والضلال، وهداها إلى الصراط المستقيم". وقد جعل الناسك إبراهيم مقرّه، بعد قورش، في جبل المنيطرة، وقد أتينا على ذكره في حديثنا عن الانتشار المسيحي في لبنان. وبعدما ترك في لبنان جالية مسيحية

كبيرة، وارتاح إلى استقرارها وازدهارها، انصرف تلبية لنداء البطريرك الانطاكي إلى ردّ خراف جديدة إلى حظيرة الايمان في حارّان وبلاد ما بين النهرين، بعدما تمّ تعيينه اسقفاً على تلك المنطقة. واشتهر في اوساط البدو بردّه الكثيرين إلى الايمان بالله، وبالتعاليم المسيحية من ضمن الخط الذي رعاه القديس مارون كبير نسّاك وقدّيسي جبل قورش، والقديس يوحنا الفم الذهبي، وسمعان العمودي وغيرهم.

وفي أواخر أيامه استدعاه الامبراطور البيزنطي توادوسيوس الثاني (٤٠٨ - ٤٥٠)، وكرّمه، وقبّل يديه تبرّكاً بسبب قداسته وزهده. ولم يلبث أن مات، فأمر بإعادة جثمانه الى رعيته اللبنانية. وكان جثمانه يلاقى حيثما مرّ من انطاكية إلى لبنان، على طول الساحل اللبناني بكل مراسم التكريم والتقديس. وكان تاودوريطس كما أشار في سيرته، "سمع وهو في القورشية بأن بلدة لا تزال وثنيّة في لبنان، رحل إليها يهديها إلى نور المسيح مصطحباً معه رفاقاً أسّس معهم ديراً في تلك البلدة اللبنانية (ربما هو دير المنيطرة) حيث تكثر أشجار الجوز والمياه (ولم يسمّ البلدة التي يعتقد أنها يانوح أو العاقورة)" (١١). وبعض المؤرخين يربط بين معبد أفقا باعتباره آخر معقل للوثنية، وبين هذه الواقعة. ومهما يكن من أمر فتسمية نهر ادونيس باسم إبراهيم تخليداً لذكر هذا الناسك يظهر الأهمية التي له والدور الذي لعبه في تلك المرحلة الزمنية . ومن يراقب أسماء القرى في جبّة المنيطرة يلاحظ أن معظمها يعود إلى الاصل السرياني، في حين أن بعضها يماثل أسماء القرى المسيحية في سوريا الثانية، ممّا يثبت أمر تلك الهجرة التي أُرغم عليها موارنة سوريا إلى لبنان. و"استبدال الأسماء الوثنية بأسماء مسيحية سريانية كان شائعاً إذّاك في الكنيسة، كما يقول القديس اوغسطينوس، ويضيف: إننا لا نعمد الأشخاص فحسب، ولكن الأماكن أيضاً" (١٢).

٤- القديس حوشب القورشي

القديس حوشب (Eusèbe) حسب تاودوريطس كان يقضي فترة الصوم دون أن يذوق طعاماً باستثناء خمس عشرة ثمرة تين. وكان يقيم عند أطراف القورشية شمالاً، ويبعد عن صومعة القديس مارون نحو خمسين كيلومتراً. وهذا يدلّ على مدى التأثير والانتشار الماروني. ومات قبل إنجاز تاودوريطس كتابه.

٥- القديس ليمناوس اوتلاسيوس

نذر الناسك تلاسيوس او ليمناوس الصمت على غرار معلّمه طالاسيوس،بناء لرغبة القديس يعقوب النصيبيني، وتبع طريقة القديس مارون في اللجوء الى العراء دون غطاء. واستمرّ في ذلك ٣٨ عاماً. ثم انصرف الى أعمال البرّ والاحسان حتى وفاته. ويشير المطران دبس في حديثه عنه إلى أنه هو نفسه المسمّى تلاسيوس (١٣).

٦- قديسون ونسّاك آخرون تبعوا النهج الماروني

بالاضافة الى من ذكرنا، عدّد تاودوريطس عشرات النسّاك القديسين من خرّيجي النهج الماروني القورشي، وبينهم يوحنا، وموسى، وانطيوكوس، وانطونيوس، وبارادات وهو أشهرهم. وإن كان بعض هؤلاء لم يعايش القديس مارون، ولا تعرّف إليه، ولكنه اعتمد أسلوبه في التنسّك، ومبادئه الايمانية.

والقديس مارون القورشي المعروف بابي الموارنة، هو نفسه ركن من أركان البستان القورشي، وبما أن كتابنا هو حول الموارنة ومؤسساتهم، فسنفرد لسيرته فصلاً خاصاً لاحقاً. ولا بدّ هنا من الاشارة الى رفاقه اقطاب هذا البستان الذي أعجب به الأسقف تاودوريطس وافرد له الجزء الكبير من مؤلّفه "التاريخ الديني" الشهير، ولرفاق مارون النسّاك القديسون: زبينا، دميانوس، موسى، بوليكرونيوس، الذين أخذوا عن زبينا طريق تمرّسهم في الحياة النسكية، والتقشّف، وقهر الذات، واعتزال الناس، والانصراف الى الصلاة والتأمل في البراري والعراء، وقوفاً على الأرض، او فوق أعمدة على غرار "العموديين" وفي طليعتهم القديس سمعان، وارتداء المسوح والملابس الشعرية، والتقييد بالسلاسل الحديدية، واحتمال العذابات الجسدية إبتغاء لخلاص النفس، والتخلّص من عبودية الجسم، والاقتراب من الله حتى الانسحاق الكلّي في ملكوته الروحاني.

٧- الناسكات القديسات من أتباع النهج الماروني.

وقد جاء على لسان تاودوريطس انه "لم يتبع القديس مارون في طريقته نحو القداسة، الرجال فقط، ولكن النساء أيضاً، وتفوّقت عليهنّ جميعاً مارانا وكيرا في التقشّف والزهد"(١٤).

وقد سكنتا قرب مسكنهما الشريف في حلب، في حظيرة بدون سقف، صامتتين، تتحدثان فقط مع النساء، يوم أحد العنصرة. وظلتا على هذا النهج حتى وفاتهما. وقد "صرّحتا أن عشقهما لعريسهما القدّوس يفقدهما الشعور بالعذاب" حسبما أشار المؤرخ تاودوريطس. ولا يزال منزلهما والدير الذي أقيم تخليداً لهما، حسب البطريرك الدويهي، ماثلين للعيان. والناسكة القديسة المدعوة دومنينا، هي أيضاً اقتدت بالقديس مارون، وقضت حياتها في صومعة من القصب، مرتدية جلود الماعز، باكية حتى طلوع الفجر من كلّ يوم. ولفظة دومنينا تعني "السيدة". كما تعني لفظة مارون "السيد" حسب رأي الأب بطرس ضو(١٥).

وقد "ربا عدد المتعبّدات حسب تاودوريطس، من تلميذات مارون، على نحو مايتين وخمسين عابدة" (١٦).

ولما كنّا لا نستطيع ذكر جميع نسّاك القورشية، لأن البستان القورشي الماروني قد ضمّ المئات، فقد اكتفينا بذكر أبرزهم، لا سيما من تبعوا منهم الطريقة النسكية المارونية، والعمودية، وعُدّوا من تلامذة القديسيّن مارون وسمعان أقطاب النهج الماروني الذي كان له أتباعه الكثر في جبل لبنان، وكافة أنحاء سوريا الثانية ومحيط إنطاكية. وكان هؤلاء النسّاك في زمانهم مرجعاً هاماً في الامور الدينية التي شهدت نقاشات حادة تحولّت أحياناً كثيرة دموية، واستشاراتهم كانت أحكاماً قاطعة لا تقبل المراجعة. وكثيراً ما التجأ اليهم البطاركة والملوك طالبين الفتاوى في أمور كثيرة تتعلّق بالدين وبشؤون الحياة العامة. وهذا ما ذكره المؤرخون أفاغريوس، وتوافانوس، في تاريخ سنة ٤٥٢ على أثر انعقاد المجمع الخلقيدوني الشهير وما احدثه من جدل لاهوتي وشرخ بين المسيحيين، وافرام السرياني، وفوتيوس في الكتاب رقم ٢٢٨. والعلاّمة يوسف سمعان السمعاني ذكر الرسالة التي تلقّاها برادات من الامبراطور لاون حول المجمع الخلقيدوني وترقية البطريرك بطرس الالثغ في "ذيل المجمع الخلقيدوني عدد ٦١" (١٧).

مراحل التقديس ودرجات القديسين

لكي يعتبر الناسك، أو أي إنسان تقيّ قدّيساً عليه أن يمرّ في عدة مراحل

تبدأ بدراسة حياته الشخصية من قبل لجنة خاصة في الفاتيكان تعرف بلجنة نشر الايمان. وفي حال استحقاق الشخص يعلن في البداية "رجل الله" او "مكرّماً". وبعدها يحتاج الى اجتراح أعجوبة لينتقل الى مرحلة ثانية ويدعى "طوباوياً". وفي حال تجدّد العجائب على يديه تعلن قداسته من قبل "مجمع الايمان" المؤلف من الكرادلة المجتمع برئاسة قداسة البابا، ويصبح "قديساً" ترفع صوره على المذابح، وتقام الكنائس على إسمه.

والطائفة المارونية احتفلت بإعلان الطوباوي شربل مخلوف إبن بقاعكفَرا الشمالية قديساً في ٩ تشرين الأول سنة ١٩٧٧، فدُعي الدير الذي دفن فيه في بلاد جبيل، في عنّايا "دير مار شربل". كما أعلنت الاخت رفقا الريس من حملايا "طوباوية" في ١٧ تشرين الثاني سنة ١٩٨٥، والاهتمام جار لصدور براءة باعتبارها "قدّيسة". كما هناك طلبات تحت الدرس في الفاتيكان بشأن تطويب الأب نعمة الله كساب الحرديني المدفون في دير كفيفان، والذي اعتبر مكرّماً في ٧ ايلول سنة ١٩٨٩، وباعتبار الأخ اسطفان، والأباتي اغناطيوس داغر التنّوري، وهما من الرهبانية اللبنانية، مكرّمين.

هذا بالاضافة الى قدّيسين عرفهم لبنان منذ القدم، وابرزهم الشهيدة الجبيلية أكويلينا، وشهداء زحله السّابكيون، وغيرهم ممن تقام الكنائس والمزارات على أسمائهم في مختلف الربوع اللبنانية. وننتقل للحديث عن كبير نسّاك وقدّيسي البستان القورشي القديس مارون، صاحب الاغراس العديدة والشهيرة في هذا البستان المقدّس.

الفصل الثاني

القديس مارون:
عقيدة "حزب مارون" وأدياره

١ـ القديس مارون "أبو الموارنة" وأدياره وكنائسه (١)

نسّاك وقديسون حملوا إسم مارون

حمل إسم مارون الذي يعني بالعبرية "السيّد" حسب الأب ضو، كثيرون، أشهرهم أربعة نسّاك قديسين:

١ـ مارون الناسك: وهو راهب يعقوبي، قديس، عاش في جهات آمد واقفاً في جوف شجرة بلا حراك. وقد تحدّث عنه يوحنا اسقف أُفْسُسْ اليعقوبي في كتابه "سيرة القديسين". ومات حوالي العام ٥١٥.

٢ـ مارون الاياني: اشتهر بكونه شمّاساً للبطريرك فلابيانوس، بطريرك إنطاكية الذي تولّى كرسيه بين الاعوام ٤٩٨ و ٥١٢. وكان مشهوراً بتقواه.

٣ـ مارون الرهّاوي: أحد النساطرة المشهورين في مدينة الرها. عاش في أيام الملك البيزنطي موريق، والبطريرك الانطاكي انسطازيوس (٥٩٣ ـ ٥٩٨). وقد خلط المؤرخون بينه وبين مارون ابي الموارنة، وأدى هذا الالتباس الى اتّهام الموارنة بالمونوتولية، ونسب بسبب هذا الخطأ الى القديس مارون مؤسس الطائفة المارونية اعتناقه النسطورية، كما روّج لهذا الزعم زعماء اليعاقبة أمثال الاسقف نوح البقوفاني وتوما اسقف كفرطاب وسواهما.

٤ـ مارون القورشي: وهو المعروف بابي الموارنة والمؤسس للطائفة المارونية التي انتشرت في سوريا الثانية ولبنان. وقد ولد الناسك شمال سوريا، في أواخر



القديس مارون. (بريشة فيليب موراني - كاتدرائية مار جرجس المارونية ببروت).

القرن الرابع. وسيم راهباً في العام ٤٠٥، كما ورد في "المعجم التاريخي" لبوبليا. ثم استقرّ في جبل قورش داخل هيكل كفرنابو أو كفرنبو، في سوريا الثانية، في المكان الذي يعرف اليوم، حسب الأب ضو، بالنبي هوري شمال حلب. وكان هذا الهيكل معبداً وثنياً فكرسه واعتزل فيه متنسكاً. ثم هدمه بمعاونة الأهالي وبنى على أنقاضه الكنيسة المارونية الأولى.

وقد روى تاودوريطس(Théodores)، اسقف قورش، في الفصل السادس عشر من كتابه المعروف "بالتاريخ الديني"، سيرة القديس مارون، ونقل عنه العلاّمة اللبناني البطريرك الدويهي ابو التاريخ الماروني في كتابه "تاريخ الموارنة" الذي يعتبر اهم المراجع لكتابة التاريخ الماروني، وجاء في كلامه عنه: "... إني سأضع سيرة القديس مارون الذي ارتقى جبلاً شامخاً كان فيه هيكل للكفّار يعبدون فيه الشياطين، فكرّسه هيكلاً لله، وأقام فيه كوخاً حقيراً يأوي إليه نادراً. ولم يقتصر على الأعمال النسكية المعتادة، بل اخترع أعمالاً أعظم لكي يجمع غنى الحكمة الكاملة... وقد وهبه الله الجوّاد مواهب الشفاء حتى تسامع الناس بأخباره في جميع الآفاق، فتقاطروا إليه من كل صقع.. غير أن هذا المعلم انتقل من هذه الحياة بمرض يسير. وقد حدث نزاع عظيم على جسده الطاهر بين أهل التقى... فخطفوا جثمانه وحسبوه أفضل من كنز ثمين، وبنوا على جسده هيكلاً عظيماً (دير مار مارون الكبير في الرستن قرب حماه)، وهم يجلّونه بالإكرام الى يومنا هذا..."(٢).

وأثناء حياة هذا الناسك الذائع الصيت، المعروف باسم مارون القورشي، زحفت الجماهير من كل أنحاء سوريا وجبل لبنان وآسيا متلهّفة لسماع مواعظه وإرشاداته وتعاليمه المناهضة للتعاليم النسطورية التي تعترف بأن المسيح إله وليس إنساناً في حين كان يتحدّث الناسك مارون عن إبن الله المسيح الذي صار إنساناً وصلب كفارة عن البشر لتخليصهم من الخطيئة الاصلية التي انتقلت إلينا من أبينا آدم وأمّنا حوّاء. هذا بالاضافة الى تركيزه على دعوة الوثنيين لنبذ عباداتهم الاسطورية والاعتراف بوجود الله الذي أرسل إبنه المسيح ليرشد البشر الى السراط المستقيم. وبهذا الايمان الارثوذكسي السليم، باعتبار الارثوذكسية كانت التسمية الاولى للمسيحيين الذين تبنّوا تعاليم المجمع الأفسسي السابق للمجمع

الخلقيدوني والممهِّد له في اعتبار الطبيعتين الالهية والانسانية جوهر المسيحية والايمان الارثوذكسي الصحيح، بهذا الايمان الارثوذكسي المستقيم واجه القديس مارون المنشقين عن الخط الارثوذكسي الصحيح ودعاهم للرجوع عن غيّهم، مما أثار عليه آباءهم وأساقفتهم وملوك بيزنطيا الداعمين لهم.

واخذت تعاليم مارون القورشي تنتشر في كافة أنحاء القورشية وتمتد شمالاً وشرقاً حتى أطراف آسيا الصغرى، وجنوباً حتى فلسطين والاردن مروراً بلبنان، وهي تعاليم مناهضة للتعاليم النسطورية، ونابذة للوثنية، فاستجاب أكثرية سكان هذه المنطقة لدعوته في زمن كثرت فيه المجادلات اللاهوتية البيزنطية التي ضرب بها المثل، لا سيما بعد ما قامت بجوارها المدارس اليونانية والرومانية الفلسفية الباحثة في امور الدين والدنيا. وانتشرت بين الناس آنذاك إشاعات تقول بقرب نهاية العالم، وعودة المسيح إلى الأرض، تلك العودة التي تنبّأ بها الأنبياء. ووعد بها السيد المسيح نفسه، وبشّر بحدوثها الرسل. وهذا ما جعل المؤمنين الشرقيين، وفي طليعتهم اللبنانيون يؤمّون جبل قورش لسماع آراء هذا الراهب القديس، الذائع الصيت، مارون القورشي، الذي ضربت شهرته الآفاق بالمعرفة والقداسة، الى جانب نسّاك آخرين من معاصريه وتلاميذه، المنتشرة مناسكهم في ذلك الجبل المقدّس، امثال يعقوب، وسمعان العمودي، وزابينا، وباردات، وغيرهم.

وكانت تربط الناسك القديس مارون ببطريرك انطاكية يوحنا فم الذهب صداقة متينة، كما جاء في رسالة هذا الأخير، وفيها يقول: "إلى مارون القس الراهب الناسك. وبعد فإننا مرتبطون بك بعلاقة الصداقة والمودّة ونشخّصك كأنك حاضر هنا، لكون بصيرة المحبة تخترق الابعاد... ولو كنّا من حيث الجسد بعيدين عنك، فيسرّنا كثيراً أن نسمع شيئاً عن عافيتك... وإننا نسألك قبل كل شيء أن تتقدّم لله بصلوات من أجلنا" (الرسالة ٣٦ من رسائل يوحنا فم الذهب) (٣). ومن المعروف ان هذه الصداقة بين القديسين مارون ويوحنا كانت قد توطّدت على مقاعد الدراسة في إنطاكية. واستمرّت عند اشتداد الصراع والمناظرات العقائدية التي شارك فيها كلاهما، يدعم احدهما الآخر بآرائه في وجه النساطرة المخالفين لهما. وهذا ما جعل كفرنبو، حيث تقوم مناسك مارون وتلاميذه، بشهادة العلاّمة

الاميركي ليتمان، إستناداً الى كتابة وجدها في تلك المحلّة، تعود الى العام ٥٢٥، تتقبل التعاليم الخلقيدونية التي بشّر بها الناسك مارون قبل المجمع المذكور بعشرات السنين (٤).

جماعة او "حزب مارون"

ولم تلبث شهرة الناسك مارون القورشي أن عمّت أقطار الشرق كلّها فزحفت الى منسكه الجماهير ملتمسة بركته، مسترشدة بمواعظه، طالبة الشفاء ونيل النعم على يديه، وبينها صفوف طويلة من السوريين واللبنانيين تتحلّق كل يوم حوله وتعود مؤمنة بتعاليمه، نابذة وثنيتها، منضمّة الى جماعته التي شملت معظم سكان المنطقة الممتدة من جبال اللكام إلى جبال الجليل، أي من انطاكية الى اورشليم. ولم يكن القديس مارون يشفي "الأمراض الجسدية فحسب، والكلام لتاودوريطس، بل يبريء النفوس المعتلّة" (٥). وهذا ما جعل "الجماعة المارونية" او "حزب مارون" من اتباعه، يتكاثرون قبل أن يصبحوا طائفة مارونية لها كنيستها وشعائرها، ذلك لأن التسمية المارونية التصقت بهذه الجماعة بعد قيام البطريركية المارونية على يد القديس يوحنا مارون في اواخر القرن السابع.

اللجوء إلى لبنان

وعندما اشتدّ ضغط النساطرة يدعمهم ملوك بيزنطية على الجماعة المارونية، في جهات إنطاكية وقورش وجبال اللكام وحمص وحماه وحلب، العواصم العشر، كما كانت تسمى آنذاك، توجّهت قوافل من المؤمنين بتعاليم الناسك مارون إلى منابع العاصي، وصولاً الى جبل لبنان، حيث أقام بعضهم المناسك على غرار المعلم مارون، والآخرون استوطنوا بجوارهم، فنشأت قرى مارونية عديدة في وسط المجتمع الوثني الذي أخذ يتراجع أمام الجماهير المارونية الوافدة إلى البلاد، بالاضافة الى موارنة الداخل في مدن الساحل والقرى الجبلية المنتشرة على سفوح السلسلة الغربية. والدليل الواضح على هذه الهجرة التاريخية هو تسمية القرى المتشابهة بين مسقط الرأس في سوريا الثانية، ومكان النزول في لبنان، وأبرز تلك الاماكن والتسميات إطلاق إسم القديس سمعان على الطريق التي تربط بين البقاع

وجبّة المنيطرة عند العاقورة حيث تعرف "بعقبة مار سمعان" وعدد كبير من الأديار المنتشرة على ضفاف العاصي وفي جبتي بشري والمنيطرة تحمل إسم "دير مارون" وصولاً الى دمشق، ونهر ادونيس الذي اطلق عليه إسم إبراهيم نسبة الى ناسك قورشي، بالاضافة الى القرى والمدن التالية التي تحمل نفس الأسماء او أسماء متقاربة بين سوريا ولبنان وهي: كفرتي في جبل سمعان وفي كسروان. بنابيل في جهات حلب وفي المتن. عيناب في سوريا وفي الشوف. بشلّي في بلاد جبيل وفي سوريا. سرجبال في جبل سمعان والشوف. شرتون في جبل لبنان وفي سوريا. ديركوش على العاصي في سوريا الثانية وفي الشوف. عرطز في الرستن السورية وفي بلاد البترون. عمشيت السورية وعمشيت اللبنانية قرب جبيل، بالاضافة الى قرى مشمش ونيحا وسلعاتا وميّاسه والفريكي وكفرحي وعبدين وعيناتا وعينداره، وهي سورية، وتحمل قرى لبنانية أيضاً الاسم نفسه، وهي موزّعة في جميع المناطق اللبنانية، وخاصة في جهات دير القمر، مما يدعو للتساؤل حول شمولية وكثافة النزوح السوري الى لبنان الدال على مدى الاضطهاد الذي عناه موارنة تلك الجهات واضطرارهم للنزوح الى لبنان (٦). ويثبت لبنان مرة جديدة انه "موئل الحريات وملجأ الطرداء" حسبما وصفه الحاكم العثماني لجبل لبنان اسماعيل حقّي في كتابه "لبنان" الصادر إبان الحرب العالمية الاولى في بيروت سنة ١٩١٨.

موت القديس مارون وهامته

وبعدما ازدهر البستان القورشي بفضل الأغراس التي زرعها الناسك مارون، حسبما أشار تاودوريطس، وقيام "٣٠٠ صومعة" مارونية في جبال الرستن بين حمص وحماه، عدا المناسك التي انتشرت في وادي قاديشا جبّة المنيطرة وجهات دير القمر، توفي صاحب البدعة المارونية في العام ٤٣٣ حسبما يشير البعض، فيما الآخرون يحدّدون وفاته في العام ٤١٠، ووصلت أخبار وفاته الى القورشية والرستن فهبّ أتباعه ومحبّوه إلى مقرّه، وراح كل منهما يصرّ على الاحتفاظ بجثمانه المقدّس، كما روى تاودوريطس، ولكن سكان بلدة قريبة من مقرّه في جبل قورش، لم تذكر بالاسم، انتصروا على الآخرين واحتفظوا بالجثمان الطاهر. ويعتقد معظم المؤرخين أن البلدة المقصودة بكلام تاودوريطس هي القورشية

حيث توجد بقايا "واحد وعشرين كنيسة من الجيل الرابع والخامس والسادس، وهيكلان وثنيان من العهد الروماني، وأربعة عشر برجاً، وقلاع، وحمّامات، ومدافن، وبيوت، من الحقبة ذاتها..." وفي مدينة القورشية حيث أنشأ القديس مارون، يتابع الأب ضو، "بستاناً رهبانياً واسع الانتشار... ومن الأبنية الباقية في هذه المدينة من العهد المسيحي "الحي الكنسي"... وبجوارها بلدة "شيخ خورس"، منسك القديس يعقوب... ونيارا... التي فيها انقطع زابينا وتلاميذه دميانوس وبوليكرونيوس..." (٧).

في تلك البقعة التي لا تزال فيها خرائب الكنائس المسيحية والمناسك القديمة، يُعتقد أن جثمان القديس مارون دُفن مؤقّتاً، ولما اشتد الضغط والاضطهاد على موارنة تلك الجهات من النساطرة واليعاقبة المدعومين من ملوك بيزنطية خاف كبير رهبان سوريا الموارنة يوحنا مارون على قبر القديس مارون الذي تحوّل الى مزار مقدّس، أن يُخرَّب ويُعبث برفات القديس مارون، فحمل هامته، بعد حوالي قرنين ونصف القرن من موته الى دير مارون الكبير في الرستن بين حمص وحماه حيث المقرّ الماروني الأكبر في سوريا الثانية الذي جمع في وقت من الاوقات زهاء الثمانماية راهب ثم عاد بالهامة المقدّسة إلى لبنان، لما غادر تلك المنطقة نهائياً على أثر تعيينه بطريركاً على الموارنة في العام ٦٨٥، ودفنها في كفرحي، حيث شيّد فوقها دير "ريش موران" أي رأس مارون، وهو المقرّ البطريركي الماروني الأول. في حين يعطي المطران يوسف الدبس تاريخاً محدّداً هو الخامس من كانون الثاني سنة ٦٩٤، وهو اليوم الذي أمر فيه القديس يوحنا مارون بإحياء عيد مار مارون، على أثر فراره من دير مارون الكبير في الرستن من وجه جيش يوستنيانوس الاخرم سنة ٦٩٤، وبنائه ديراً باسم "ريش مارون"، أي رأس مارون، أو "راس سيدنا" (٨)، وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أن مركز الاسقف يوحنا مارون قبل ان يصير بطريركا كان في صمار جبيل من بلاد البترون، وبالقرب من هذا المقرّ بلدة تدعى راشانا، واسمها يعني في السريانية "ريش أونا" أي "رئيسنا هنا". ونتساءل هل المقصود برئيسنا يوحنا مارون، أم "رأس" القديس مارون الذي لا بدّ أن يكون الاسقف الماروني، ورئيس دير مارون الكبير، يوحنا المعيّن اسقفاً على البترون، قد حمله معه الى هذا

المكان سنة ٦٧٦ قبل رحيله نهائياً عن ديره في الرستن سنة ٦٩٤ كما يشير المطران الدبس؟

ومهما يكن من أمر، فالثابت أن موارنة سوريا رحّلوا من بيوتهم ومناسكهم في تلك المرحلة الزمنية، فلجأوا الى لبنان، وتحلّقوا حول البطريرك الجديد، قائد المسيرة المارونية الذي أسس في كفرحي مقراً بطريركياً على إسم القديس مارون، بعد استلافه مقاليد الكرسي البطريركي سنة ٦٨٥. وفي هذا المقرّ وجدت هامة القديس مارون سنة ١١٣٠، عندما زار دير مار مارون في كفرحي أحد الرهبان البنادقة التابعين لجمعية القديس مبارك، ولمّا كان "بندوقاً" واللفظة منسوبة إلى شعب البندقية، فقد استطاع، والأمر غريب جداً، أن يحصل على هامة القديس مارون ويعود بها إلى مقرّ جمعيته في مدينة فولينو بإيطاليا حيث استقبلت بحفاوة بالغة ودفنت في المدينة، فأصبح قبرها محجاً للمؤمنين، مما دفع باسقف المدينة لوقا لنقلها إلى مقرّه الخاص في العام ١١٩٤، وجعل العاشر من آذار عيداً للقديس مارون حيث يطاف برفاته المقدّسة في المدينة باحتفال كبير. ويقول المطران الدبس أنه زار مدينة فولينو سنة ١٨٨٧ وقابل اسقفها، وقال: "وحدثني في هذا الشأن، فحقّق لي أن التقليد عندهم ينطبق على ما رويته، وانه ما برح في كنيستهم شيء من هامة القديس مارون يعطون منه المؤمنين ذخائر فسألته ان يتحفني بشيء منها فأهدى إليّ خمساً منها، فكنت له شاكراً لهدية هي أثمن عندي من الذهب والجواهر" (٩).

غريب أمر هذه القصة من أولها إلى آخرها. فإننا نتساءل وبأسف:

أولاً: كيف سُمح لهذه الرفات المقدّسة أن تؤخذ من مقرّها في كفرحي إلى خارج البلاد، في الوقت الذي كان يعيش فيه الموارنة سنة ١١٣٠ عهدهم الذهبي في حماية الحكم الصليبي؟!

ثانياً: نعجب أيضاً لأمر هذا الاسقف الجليل، المطران الدبس، الذي يقارن بين الذخائر المقدّسة العائدة إلى أبي الموارنة القديس مارون، وبين الذهب والجواهر باعتبارها معياراً للمفاضلة بين المادة والمقدّسات؟!

والبطريرك الدويهي هو الآخر نقل عن لودوفيكس بن يعقوب واضع كتاب "تراجم القديسين" الموجودة ذخائرهم في مدينة فولينو بإيطاليا أنه "في العام ١١٣٠ قدم الشام أحد رهبان القديس مبارك وطاف في الاماكن المقدسة، وبعد أن أتمّ زيارته جال في لبنان وظفر بهامة القديس مارون ففرح بها فرحاً عظيماً وأخذها إلى وطنه وطفق يخبر الشعب بفضائل هذا القديس وبالمعجزات التي اجراها الله على يده، والامة المنتمية إليه، فبنى له أهل فولينو كنيسةً ووضعوا فيها هامة القديس مارون في ١٨ آب، فانتشر ذكره في تلك الاصقاع، وكثر عداد من يحجّون إلى كنيسته، وفرضوا عيداً سنوياً له، ومنح أحد الاحبار الرومانيين غفران مئتي يوم لمن زار كنيسته يوم عيده. ثم إن لوقا اسقف فولينو نقل سنة ١١٩٤ رأس القديس مارون من هذه الكنيسة إلى كنيسة الاسقفية، وعمل له المؤمنون صواناً من فضة، ويعيّدون له كل سنة في العاشر من آذار، ويطوفون به أمام الشعب بالتجلّة والاحتفاء" (١٠).

وهنا نتساءل مرةً ثانيةً حول نقل البطريرك الدويهي هذا الخبر الخطير بمنتهى البساطة، باعتبار أن الراهب "البندوق"، نسبةً إلى البندقية، قد "ظفر" بهذه "اللقيّة"، وكأنها لا أصحاب لها، ولا من يسأل عنها، فتؤخذ إلى خارج البلاد، وتبقى فيها حتى اليوم... إنه حقاً لأمر غريب... وهنا نطرح الصوت عالياً، ونطالب بطريركنا الحالي والدولة اللبنانية باستعادة هذا الذخر الثمين، وإرجاعه إلى دير مار يوحنا مارون كفرحي، باعتباره حقاً مقدّساً للموارنة خاصةً واللبنانيين عامةً.

وفي العام ١٧٣٤، احتفاءً بعقد المجمع اللبناني الشهير والاصلاحات التي أقرّت فيه صدرت براءة في ١٥ نيسان من قبل قداسة البابا كليمانت الثاني عشر، واتبعها ببراءة ثانية في ٢١ كانون الثاني سنة ١٧٤٠ بمنح غفران كامل لكلّ من يعترف بخطاياه ويتناول القربان الأقدس، ويزور إحدى كنائس الرهبان او الراهبات اللبنانيين، او رهبان القديس إشعيا، في ٩ شباط الذي يصادف عيد القديس مارون شفيع الموارنة اللبنانيين. وبعد اربع سنوات منح البابا بناديكتوس الرابع عشر غفراناً كاملاً في ١٢ آب لكل من يزور أية كنيسة كانت من كنائس الطائفة المارونية يوم عيد القديس مارون(١١).

وهنا نسجّل عميق شكرنا لالتفاتة باباوات روما إلى الشعب الماروني ومنحه

الغفرانات الكاملة عن خطاياه التي أحياناً لا تغتفر، ونسأل قداسة الحبر الحالي أن يعيرنا لفتةً كريمة ويساعدنا على استعادة الذخيرة المارونية الاقدس والأثمن، التي لا تقارن بالذهب والجواهر، ولن نطالبه بالغفران الكامل الذي قد لا نستحقه في هذه الأيام، ومنذ أن تخلينا عن مقدّساتنا وتراثنا السرياني العريق.

تلاميذ القديس مارون

لم يعش الناسك مارون في مدينة القورشية ولا في منطقتها التي تضمّ نحو ٨٠٠ كنيسة، بل عاش ومات بجوارها، مع أنه منشئ "البستان القورشي" حسب قول إسقف القورشية تاودوريطس الذي عاصره لمدة ستة وعشرين عاماً، وكان من أصدقائه. وقد قصده كثيرون من القورشية للتتلمذ على يديه، ومن كل أنحاء سوريا ولبنان، ولا سيما من منطقة الرستن التي عاش فيها وقام الدير الكبير المدعو "دير مارون الكبير" على إسمه. وقد ذكر تاودوريطس من تلاميذه القديسين: حوشب، سمعان العمودي، سمعان العتيق، مايسميان، برادات، يعقوب القورشي، دُمنينا، يوليانوس سابا، يعقوب النصيبيني، تاودورسيوس، رومانوس، ابراهيم القورشي... وغيرهم كثيرون. وقد أشار الدويهي، نقلاً عن تاودوريطس أيضاً، "أن عدد تلاميذ القديس مارون يكاد لا يحصى لكثرته، لأنهم كانوا منبثين في بلاد قورش ما بين الجبال والمدن والقرى...والبعض منهم ماتوا قبل معلمهم... وكان مقدامهم في قيامهم تحت جوّ السماء"، أي في العراء القديس يعقوب الكبير القورشي... "وقد نعمت هذه الطريقة الرهبانية النسكية، منذ البدء، بانتشار واسع، وبعدد كبير من التلامذة،انتشروا من قورش وجبل سمعان حتى لبنان مروراً بأواسط سوريه..."(١٢).

عيد القديس مارون

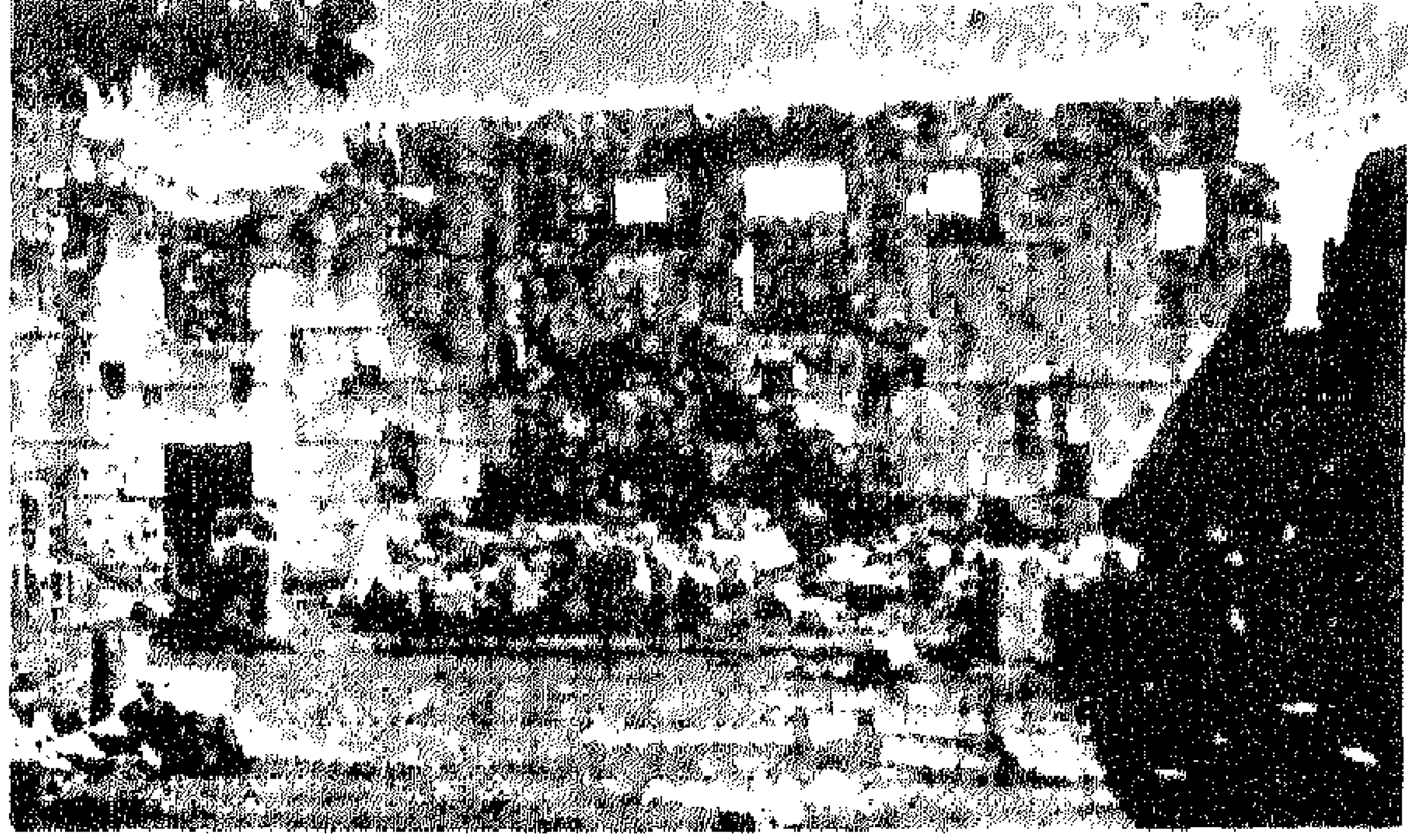
عيّن الموارنة الخامس من كانون الثاني عيداً للقديس مارون وفق ما هو مبيّن في كتاب الشحيم الكبير الذي خُطّ سنة ١٤٩٤ (١٣). وهو التاريخ الذي اعتمد في الغرب على أثر نقل هامة القديس مارون إلى فولينو في إيطاليا. ولكن البيزنطيين، والكنيسة الرومانية، يحتفلون بهذا العيد في الرابع عشر من شهر شباط (١٤).

وقد عثر الشدياق الياس بن جرجس البرديوط من بشري في جزيرة قبرص على نسخة قديمة ذكر فيها أن عيد مار مارون هو في الخامس من كانون الثاني. وأن الذي خصص هذا اليوم لعيد أبي الموارنة هو البطريرك يوحنا مارون يوم تكريس كنيسة كفرحي ووضع هامة القديس فيها، فسُمِّيَت كنيسة "ريش موران" أي رأس سيدنا حسبما اوضح البطريرك الدويهي في كتابه "الشرح المختصر" صفحة ٢٥. وفي الوقت نفسه كان الموارنة قد عيّنوا عيد القديس يوحنا مارون في التاسع من شباط بأمر من البابا اينوشنسيوس العاشر (١٦٤٤ ـ ١٦٥٥) حسب قائمة الاعياد الصادرة عام ١٦٤٧. وقد "رأى بطاركة الموارنة الذين توالوا على كرسي إنطاكية، بعد بطرس العاقوري، أن عيد القديس مارون الناسك غير مسجّل هو الآخر في القائمة السابقة، وبما أنهم لا يريدون أن يثقلوا كواهل الشعب الماروني بكثرة الاعياد المأمورة، لأن الشعب الماروني يعيش من عمل يديه وعرق جبينه، استصوبوا نقله إلى التاسع من شباط. وفعلاً نقلوه، وجعلوا العيدين (عيد مار مارون ومار يوحنا مارون) عيداً واحداً" (١٥). ثم في عهد البطريرك يوسف اسطفان الغسطاوي (١٧٦٦ ـ ١٧٩٣) نُقل عيد مار يوحنا مارون إلى الثاني من آذار ليتسنّى للموارنة الاحتفال بعيد القديسين مارون ومار يوحنا مارون بما يليق بموقعهما في الكنيسة المارونية. ونظراً للقراءات والطقوس والصلوات المختلفة التي يجب القيام بها أثناء الاحتفال بالذبيحة الالهية، تقرّر فصل العيدين عن بعضهما بحيث اصبح عيد مار مارون حالياً في ٩ شباط عيداً رسمياً يعيّد فيه الدولة والشعب ويعتبر عطلةً رسمية، في حين اعتبر عيد مار يوحنا مارون في ٢ آذار عيداً محلّياً يُحتفل به في الكنائس المشيّدة على إسم هذا القديس فقط.

ثم تواصلت العجائب بعد وفاة القديس مارون في مطلع القرن الخامس، وذاع خبرها في انحاء الشرق، فأصبحت القوافل تحجّ إلى قبره المقدّس، مما دفع بتلاميذه، وبالرهبان الذين انخرطوا في عداد رهبانيته إلى بناء الأديار والكنائس على إسمه في كافة أنحاء القورشية وسوريا الثانية وجبل لبنان، وأهمها:

١ـ دير مارون الكبير في الرستن

أُقيم هذا الدير في المكان المعروف بالرستُن من منطقة سوريا الثانية، بين



دير مار سمعان وكتابات سريانية منها كتابة هذا تعريبها : «سيدنا الانبا مارون» مما يدل على أنّ رهبان الدير كانوا يعتبرون مار مارون أباهم أي منشئهم.



كنيسة الدير الجنوبي الغربي من الداخل



الكتابة السريانية التي ترجمتها «سيدنا الانبا مارون»

حمص وحماه على العاصي، قرب الطريق العام التي تصل بين حمص وحلب. وكان تشييده على أثر الخلاف الذي جرى بعد وفاته بين أهل القورشية وأهل الرستن. وقد وضعت فيه هامة القديس مارون، وجعل مدرسةً رهبانيةً زاهرة تجاوز عدد رهبانها الثمانمئة راهب. واصبحت منارةً فكريةً ودينيةً طاول إشعاعها ليس بلاد القورشية وسوريا فحسب، بل كامل المنطقة الممتدة من القسطنطينية عاصمة بيزنطية، وإنطاكية شمالاً وصولاً إلى الجليل واورشليم جنوباً. وكان هؤلاء الرهبان بقيادة رئيسهم يشكّلون قيادة الجماعة المسيحية الخلقيدونية المؤمنة بأن في المسيح طبيعتين الهية وإنسانية، وتثبت ذلك العرائض الموجّهة إلى أباطرة بيزنطية وتحمل توقيع "رئيس دير مارون الكبير المترئس على جميع اديار سوريا الثانية"، او "يوحنا برحمة الله، سفير القديس مارون المترئس على جميع اديار الرهبان في سوريا الثانية" (١٦). كما ورد توقيع ممثلي هذا الدير في المجمع الخلقيدوني باسم "بولس الشماس ويوحنا الكاهن نواب دير مارون أول أديار سوريا الثانية" (١٧). وقد نقل لاباي والاب نو (Nau) رسالة تحمل تواقيع ٢١٠ رهبان، وعلى رأسهم "إسكندر قسيس ورئيس دير القديس مارون"، وفيها احتجاج على مقتل ٣٥٠ راهباً من رهبان دير مارون الكبير، وإحراق الأديار الأخرى بسبب النزاعات مع النسطوريين وأوطيخا. ومن المعروف أيضاً أن دير مارون الكبير في الرستن كان يحمل لقب "اكسرخوس" أي رئيس أديار مجموعها ٢٥ ديراً باعتباره المقدّم على أديار سوريا الثانية، لا سيما السريانية منها. وقد هدمه الملك البيزنطي أنسطاس بتحريض من اليعاقبة المؤمنين بالمونوتولية. ولما حاول رهبانه المقاومة قُتل منهم ٣٥٠ راهباً بشهادة المؤرخ بروكوبيوس القيصري (١٨).

أما المؤرخ اليعقوبي سعيد بن بطريق، فيشير أن الملك هرقل رمّم هذا الدير وأوقفه كثيراً من الملوك، وكان الملك يوستنيانوس الاول الكبير قد جدّد بناءه في العام ٥٢٧. ثم عاد فهدمه الملك يوستنيانوس الثاني الأخرم سنة ٦٩٤، عندما احتدم الصراع اليعقوبي الماروني في المملكة، وقتل من رهبانه حوالي الخمسماية راهب. وجعله البيزنطيين لاحقاً قلعةً لحماية حدود مملكتهم الجنوبية ولردّ غارات الامويين، فغادره رهبانه إلى الأديار الأخرى المنتشرة على جانبي العاصي، وفي معظم أرجاء

سوريا الشمالية المعروفة بسوريا الثانية. وقد أصابه من جرّاء الحملات المتبادلة بين العرب والبيزنطيين دمارٌ هائل. واعيد ترميمه فيما بعد، فاستمرّ قائماً حتى القرن التاسع. ومنه اختير بطاركة الموارنة الثلاثة الأوائل: يوحنا مارون، وقورش، وجبرائيل، الذين جعلوا مقرّهم في دير "ريش موران" كفرحي في بلاد البترون. والجدير ذكره أيضاً أن هذا الدير اشتهر أيضاً بتخريجه عدداً كبيراً من رجال الفكر الموارنة وملافنة الدين بينهم" القديس يعقوب، وليماوس أومارس، ويوحنا القورشي، وموسى الناسك، وزابينا، ودميانوس، وبرادات أوبار هدد "الذي استفتاه البابا لاون بشأن صوابية المجمع الخلقيدوني وقراراته لتعمّقه في علم اللاهوت وقداسته. هذا بالاضافة إلى الناسكات القدّيسات أمثال" مارانا، وكوره، ودمنينا". وقد ذكر المؤرخ تشالنكو أن دير مارون كان يترأس على خمسين ديراً، بينما دير باصوص اليعقوبي، كبير أديار اليعاقبة في سوريا الثانية، كان يتراس على ٧٦ ديراً رومياً، وعدّدها (١٩).

وفي دير مارون الكبير "محرّك المارونية الأول" حسب تعبير الأباتي فهد (٢٠)، كان يُنتخب بطاركة وأساقفة الكنيسة المارونية في مطلع تاريخها. وفيه "تنظمّت طقوسها"، حسبما يشير الأب ضو (٢١).

٢. دير مارون قرب دمشق

ذكر المؤرخ العربي ابن الحريري ديراً يقع قرب دمشق ويقال له دير "مُران" زاره بعض خلفاء بني أمية ونزلوا بضيافته أياماً. واعتبره الدويهي "ديراً عظيماً كما تدلّ أثاره" (٢٢). ووجود مثل هذا الدير العامر قرب العاصمة الأموية، يؤكّد أن العرب لم يعلنوا الحرب على المسيحيين، بل على العكس من ذلك فقد تحالفوا معهم واحترموا مقدّساتهم بموجب المعاهدات المعقودة مع الروم.

٣. دير مارون في القسطنطينية

وردت رهبان دير مارون عند العاصي، رسائل رهبانية موجّهة من دير ديماتيوس في القسطنطينية. وقد وقّع رئيسه توادورس القس، المجمع المسكوني الخامس، وعُرف هذا الدير باسم "دير مارونوس". ولم تتوافر معلومات اخرى عنه.

٤. دير مارون عند منبع العاصي في لبنان

عُرِف هذا الدير القائم اليوم داخل تجويف صخري عند منبع العاصي شمالي بعلبك في الأراضي اللبنانية باسم "مغارة الراهب". وقد ذكره المؤرخ ابو الفدا في كتابه "المختصر في اخبار البشر" الصادر في القاهرة سنة ١٣٢٥. وكان هذا الدير، كما يعتقد المؤرخون الموارنة، محطةً اولى للمهاجرين الموارنة من سوريا الثانية في عهد يوستنيانوس الأخرم من دير مارون الكبير. ولكن الأرجح أنه أقدم من ذلك، ويعود إلى أيام الراهب مارون الذي أقام فيه فترةً طويلة، حتى عُرِف باسمه، قبل قيامه إلى جبل قورش. والمنطق يرفض قبول الرأي القائل بأنه موئل النازحين الاوائل، إذ لا يُعقل أن يُنقر دير في الصخر، بما يتطلّبه ذلك من جهد، في الوقت الذي يطاردهم اعداؤهم. هذا مع العلم أن الاجتياح البيزنطي الذي ادّى إلى نزوح الموارنة من سوريا الثانية قد وصل إلى الكورة في لبنان بعد ما دكّ كل الأديار المارونية الواقعة على طريقه بما فيها هذا الدير الذي يبدو أثر الدخان والحريق ماثلاً على سقوفه الصخرية مما يدعو للتساؤل: هل ذاك عائد للرعاة الذين جعلوا منه حظيرة لهم يوقدون فيه النار للتدفئة، ام من آثار التخريب؟ والأرجح أنه من فعل التخريب باعتبار أن ما تبقّى قائماً من الجدران يوحي بذلك. هذا مع العلم أن القديس مارون، حسب رواية تاودوريطس كان يقيم في كفرنبو عند الاجتياح البيزنطي وليس في دير مارون على العاصي.

٥. دير "ريش موران" كفرحي

من التقاليد المتناقلة والمأخوذ بها من بعض المؤرخين أن هذا الدير قد بناه البطريرك الاول يوحنا مارون بنفسه ليكون مقراً له ولهامة القديس مارون، ولذلك سُمي بدير "ريش موران" أي "رأس مارون" أو "رأس سيدنا". ومن هذا الدير نُقلت، كما أشرنا سابقاً، هامة القديس مارون المذكورة، إلى فولينو بإيطاليا سنة ١١٣٠ على يد احد الرهبان البنادقة التابعين لجمعية القديس مبارك، حيث اقيم لها مدفن من الفضة لدى اسقف المدينة، وصار يحتفل بتكريمها بالتطواف في الشوارع بمناسبة عيد القديس مارون. ومن هذه الرُفات المُقدّسة جلب المطران الدبس بعض الذخائر في العام ١٨٨٧ لدى زيارته فولينو حسبما أشار في كتابه "تاريخ سوريا"

المجلّد الرابع ـ صفحة ٤٢٣، ونقلاً عن الدويهي في "تاريخ الموارنة"(٣٣).

وقد أقام في هذا الدير الباقي حتى أيامنا هذه عامراً، ولا شك بعد ترميمه تكرارً، ثلاثة بطاركة اوائل هم: يوحنا مارون، وقورش، وجبرائيل. وظل عامراً حتى العام ١٦٣٤ إذ تمّ تخريبه من قبل يعاقبة بقسميا القرية المتاخمة لكفرحي الذين ادّعوا أن رئيس هذا الدير يوحنا الاجبعي من أنصار فخر الدين الثاني الكبير الذي اعدمه العثمانيون لميوله الاستقلالية، فما كان من الجيش العثماني إلا أن هاجم هذا الدير واعتدى على رئيسه، وخرّبه "كما خُرّبت بقسميا نفسها التي كانت لطائفة اليعاقبة" على حدّ ما ذكر البطريرك الدويهي . ثم تجدّد بناء هذا الدير، وتمّ إصلاح ما تخرّب منه في عهد البطريرك يوسف اسطفان (١٧٦٦ ـ ١٧٩٣)، وحُوّل إسمه من دير "ريش موران" او "دير موران" إلى دير "مار يوحنا مارون" تخليداً لذكرى مؤسس الطائفة المارونية وبطريركها الأول. ثم قرّر مجمع اللويزة المنعقد في العام ١٨١١ تحويله مدرسة لتعليم أبناء الطائفة المارونية عن طريق مساهمة وجهائها لقاء حق تعليم ولدين لكل منهم مجّاناً طيلة وجود هذا المعهد. وقد استفاد جدّنا فارس طنوس أبي عبد الله من هذا العرض وشارك فيه بتقديم قطعة أرض تتضمّن مطحنة مائية، وتعرف باسم "غوش"، للدير المذكور. ومن ثم استفاد من تعليم والدنا وقريبه السياسي الشهيد خير الله، وغيرهم من أبناء بلدتنا مجاناً.

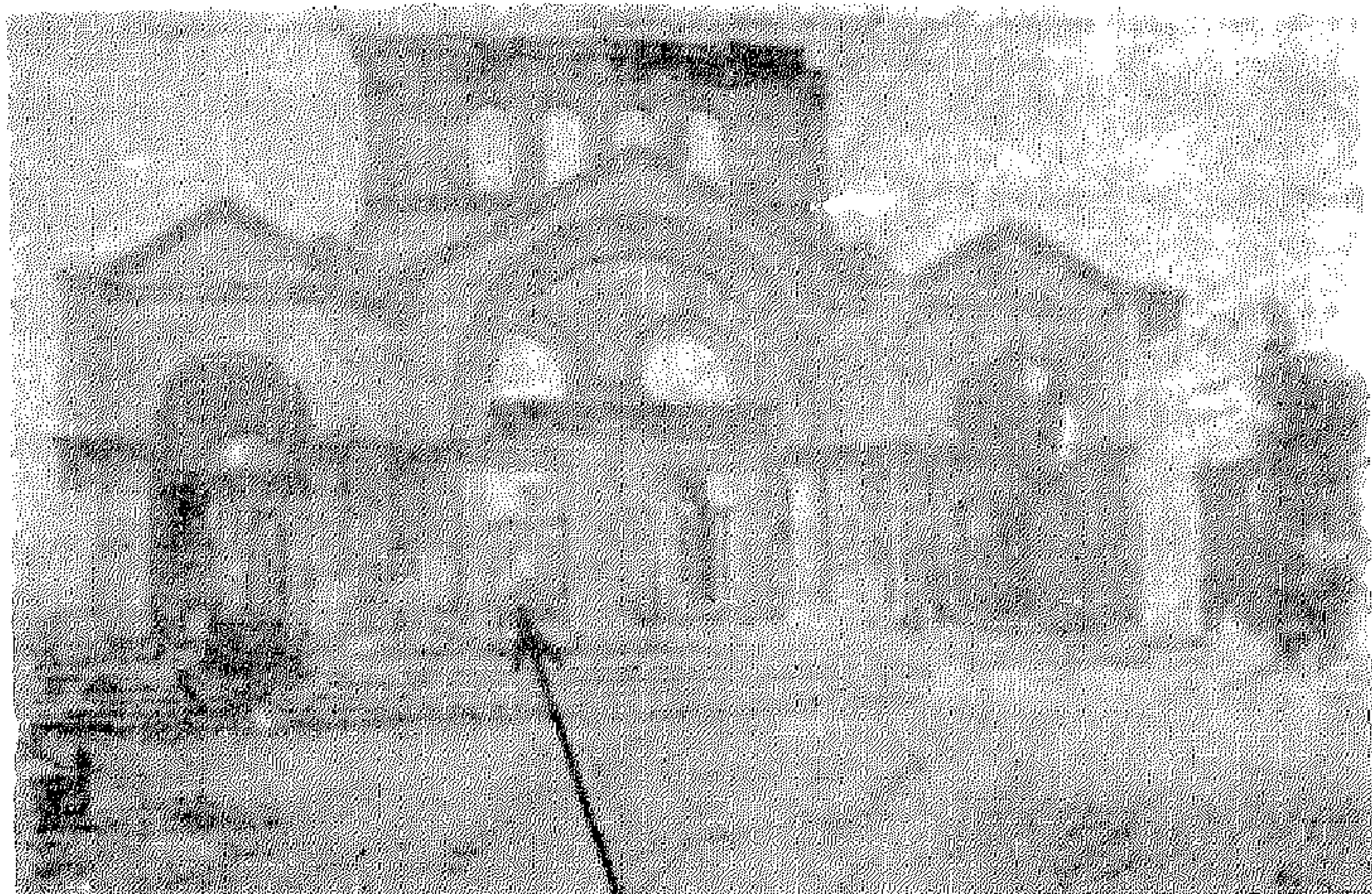
وقد تخرّج من هذا المعهد الذي اعتبر اهم معاهد الشمال في تلك الفترة كل من البطريرك الحويك، والاساقفة الياس شديد، ويوسف فريفر، والخوراسقف ارسانيوس، ومارون عبود، والخوري يوحنا طنوس، والخوري يوسف الحداد، وخير الله خير الله، وجبران خليل جبران، وغيرهم. وفي العام ١٨١٨ جُعل هذا الدير مقرّاً لاسقف بلاد البترون جرمانوس ثابت شقيق البطريرك التيان بالتبنّي، ومن أجل ذلك قضى البطريرك التيان بعد استقالته من البطريركية فترةً من الزمن يعلّم في هذا المعهد الزاهر الذي أداره الاسقف الياس شديد والخوراسقف فريفر، والخوراسقف ارسانيوس، وأصبح ثانويةً بطريركيةً زاهرة. ثم اقفلت ابوابه في مطلع الحرب العالمية الأولى ليأخذ مكانه معهد سيدة النصر في كفيفان القريبة منه. وتحوّل في العام ١٩٨٦ إلى ثانوية رسمية، ومقرّ لاسقف البترون والزاوية آميل

بولس سعاده. ومن أبرز الموجودات الباقية في هذا الدير العريق، مكتبة تضمّ مئات الكتب السريانية واللاتينية، والعربية، والمخطوطات القيّمة، التي يكاد الاهمال يقضي عليها بسبب إنسياب الماء إلى صفحاتها كما بدا لنا عند زيارتنا هذا الصرح. وما يبشر بالأمل لتخليص هذا الإرث الثمين هو أن سيادة الاسقف سعاده قد رصد للدير مبالغ طائلة لترميمه، كما قدّمت الدولة اللبنانية مبالغ محترمة من أجل هذه الغاية أيضاً.

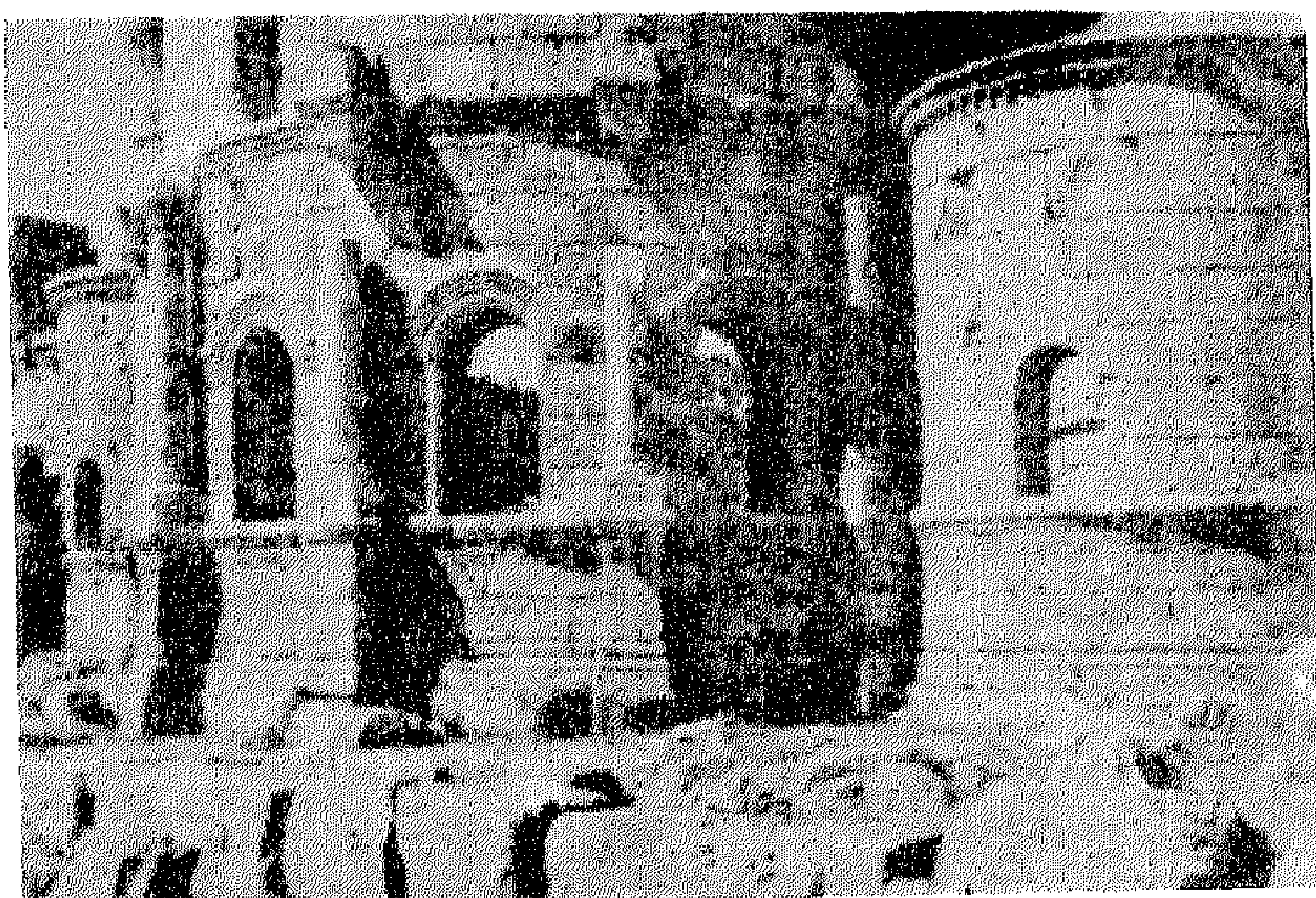
٦ـ دير مارون العاقورة

ومن الأديار التي حملت إسم القديس مارون أيضاً "دير مارون" في العاقورة، وهو عبارة عن مجموعة غرف منقورة في الصخر على غرار دير مارون عند منبع العاصي. وهذا الاسلوب من النقر في الصخر حيث يصعب الوصول إلى هذه المقرّات المقدّسة، يشير بوضوح إلى مدى الرعب الذي كان يعيشه في بدايات عهد المسيحية هؤلاء الرهبان، ومدى المعاناة التي كابدوها لممارسة طقوسهم وعبادتهم. وقد استمرّ هذا الاضطهاد زمناً طويلاً إبّان حكم البلاد من غير المسيحيين، لا سيما في عهد المماليك الذين قضوا على استقلالية الجبل اللبناني، وحكموه حكماً مباشراً أقلّ ما يقال فيه أنه حكم طاغ ومذل، وتواصل في عهد العثمانيين وحكام الشمال وملتزميه من بني حماده الشيعة.

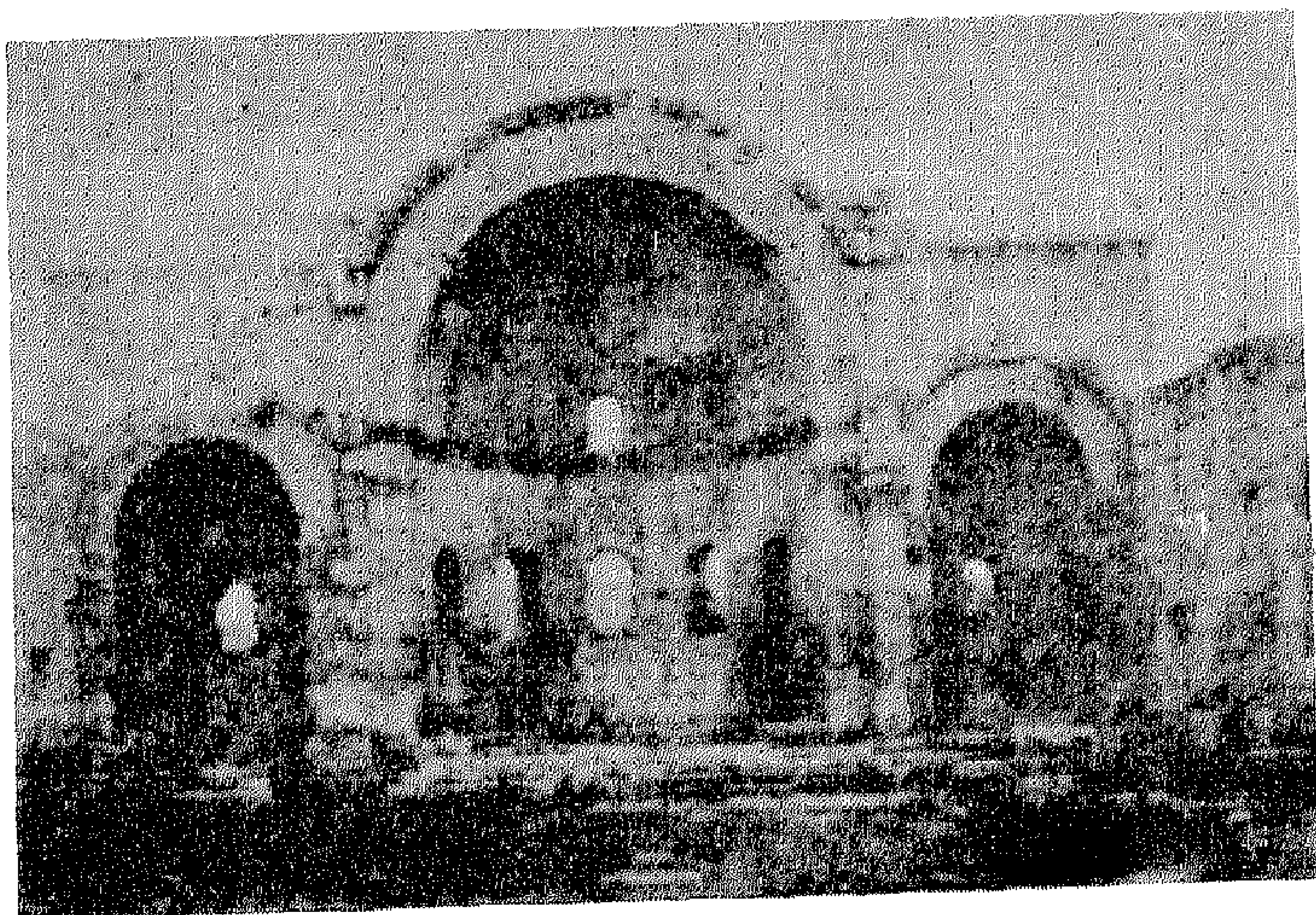
وقد أمّ الرهبان الأوائل العاقورة، والكثير من الاديار الصخرية العاصية، يوم كان الجهر بالمسيحية كافياً للموت والاضطهاد، لا سيما في هذه المنطقة التي عرفت قيام هياكل أفقا الوثنية الشهيرة التي استمرّت حتى القرن السادس معقلاً للوثنية والفساد، واعتبرت آخر المعاقل الوثنية في البلاد. ومثل هذه الأديار شهادة صارخة على ما تكبّده هذا اللبناني، وعلى اصراره العنيد على تبنّي الرسالات والمواقف التي يؤمن بها مهما كان الثمن الذي سيدفعه للحفاظ على هذه المقدّسات غالياً. ومن الأديار الصخرية الشبيهة بهذا الدير، دير سيدة البزاز في صغار، ودير كفرشليمان وحردين في بلاد البترون، وايليج في بلاد جبيل، ومغاور عدلون في الجنوب، وأديار موزّعة في اميون وكوسبا (للروم الارثوذكس) ووادي قنوبين، ولا سيما دير قزحيا، وغيرها من الأديار (المارونية) المنتشرة في كافة المناطق اللبنانية.



عمود مار سمعان.



من الخارج.



محراب الكنيسة من الداخل.

٧. دير مار سمعان العمودي

وطالما نحن بصدد الأديار المارونية الأولى، لا بدّ من الحديث عن دير مار سمعان جار دير مارون الكبير في الرستن، حيث الجبل الذي شهد قيام "٣٠٠ صومعة" وعُرف باسم سمعان تخليداً لذكر هذا القديس العظيم حيث وُجدت فيه مؤخراً كتابات تشير إلى "الأنبامارون"، وقد أفرد لها الأب بطرس ضو، وللكنائس الموجودة في تلك المنطقة والعائدة للعهد الماروني الأول، مجلّداً كاملاً، عدا الصفحات الأخرى في مجلداته الثمانية التي تؤلف "تاريخ الموارنة" الصادر سنة ١٩٧٢ عن دار النهار للنشر.

وقد أشار المؤرخون الى وضع الموارنة يدهم على هذا الدير بعد تحكيم معاوية في الخلاف العقائدي بين الموارنة واليعاقبة، ويظهر أن العرب كانوا إلى جانب الموارنة في حين تبنّى البيزنطيون في تلك المرحلة من القرن السادس والسابع اليعاقبة. كما ذُكر دير سمعان أيضاً في عداد الأديار التي يترأسّها دير مارون الكبير في العرائض الموجهة إلى ملوك بيزنطية، وإلى الكرسي الرسولي، والتي تتضمّن الشكاوى من الاضطهاد اليعقوبي. وقد أشار المؤرخون إلى انتقال رهبان دير مارون الكبير بعد تخريبه من قبل اليعاقبة، إلى دير مار سمعان العمودي. والمستشرق بول ماترن وصف خربة دير سمعان العمودي، واعتبرها "الخربة الاعظم شأناً في الشرق وربما في العالم... وإن البيزنطيين قد حوّلوها إلى حصن، وغيّروا هندسة كنيستها سنة ٩٧٩ ليتسنّى لهم إقامة الحفلات الدينية فيها حسب الطقس البيزنطي"[٢٤] . ويشير الأب بطرس ضو في سياق حديثه عن كنائس سوريا الثانية، إلى أن نور الدين زنكي، الحاكم الايوبي المسلم، قد "احتلّ دير سمعان سنة ١١٦٤ الذي فيه رهبان روم، وسلب كل الاواني والتحف التي كانت فيه، وأخذ رهبانه إلى حلب" [٢٥]. وفي السبعينات من القرن العاشر، كما أشرنا، كان البيزنطيون قد وضعوا يدهم على هذا الدير وظلّوا فيه جاعلين منه قلعةً لحماية حدودهم الجنوبية، حتى رحّلهم منه الفاطميون سنة ١٠١٧، وأصبح خراباً، خلافاً للأديار الأخرى التي بجواره، إذ بقيت مأهولةً حتى القرن الثالث عشر [٢٦]. وبانتهاء الحكم الصليبي لهذه المنطقة، في نهاية القرن الثالث عشر، سقطت معظم هذه الأديار بيد المماليك

الذين حوّلوها إلى خانات للاقامة، ومرابط للخيول، واخذت تنهار دون أن تجد من يعيد ترميمها، حتى تهدّمت كلّها، واصبحت أطلالاً تشير إلى ماض عريق لضخامتها، وزخرفة أعمدتها، ورسومها الدارسة، الباقية شاهداً يروي عظمة هذا الانسان الشرقي، والماروني، العنيد، الصلب، والصامد في الحفاظ على معتقداته وحرّياته مهما بلغ الثمن.

٨ ـ اديار مارونية لا تحمل إسم مارون

وهناك عدة أديار موزعة في كافة المناطق اللبنانية، ومعظمها صار اليوم أطلالاً دارسة، تشير عظمتها السابقة إلى المعاناة التي عاناها سكانها لمقاومة الارهاب وبعض هذه الأديار، لا زال قائماً حتى اليوم، بعد ترميمه، ومنها:

١ـ أديار قزحيا ومرت مورا وقنوبين وإهدن: في الجبّة الشمالية وفوق الصخور المشرفة على وادي قاديشا المقدّس والسحيق، وفي طيّاته، قامت عدة أديار تحضن النسّاك والموارنة الاوائل وأهمها في الجبة ثلاثة: دير قزحيا او دير مار انطونيوس الكبير المنقور في الصخر سنة ٣٢٧ على شفير وادي قنوبين، ويعتبر الأقدم بين مناسك الوادي المقدّس. وقد ذكره البابا اينوشنسيوس الثالث في رسالته إلى البطريرك إرميا العمشيتي سنة ١٢١٥، وأشار إليه باسم "مار أسيا". كما ذكره السمعاني في النسخة اللاتينية للمجمع اللبناني وأسماه (Nassaya). وتعني لفظة قزحيا "القسيس الحي" او "الكنز"(٢٧). وقد جعله الأساقفة الموارنة في القرون الوسطى مقراً لهم، ليكونوا بقرب البطاركة المقيمين في قنوبين. ثم لجأ إليه الكاثوليك الهاربون من حلب فاستضافهم البطريرك الدويهي فيه، مما ادّى إلى تخريبه من قبل والي طرابلس وهناك أديار أخرى موزّعة في إهدن وبقية قرى الجبة الشمالية.

٢ـ أديار بلاد البترون: في بلاد البترون قامت عدة اديار، بعضها منقور في الصخر مثل دير سيدة البزاز في صغار ودير سيدة نايا في كفرشليمان الذي قام على انقاض معبد وثني، ودير مار أسيافي وطى سفرنا الذي كان يضم نحو مئتي غرفة. وقد هدمه المماليك عند دخولهم لبنان إبّان معركة فتوح كسروان (٢٨). وأديار

حردين واهمها دير مار فوقا ويعود إلى القرن السادس، ودير مار سركيس القرن، ودير مار ريشا، ودير مار يوحنا، ودير مار اسطفان وغيرها. وتشير المخطوطات القديمة إلى أن حردين هي "القرية المذكورة أولاً بين الضيع" في الكتابات الدينية(٢٩).

٣ـ أديار بلاد جبيل: اهمها دير المنيطرة الذي أُقيم بالقرب من انقاض هيكل الزهرة في افقا واشتق إسمه من كلمة "مونستر(Monastére) أي المندرة او الصومعة. ويقال أن باني هذا الدير هو الناسك ابراهيم القورشي الذي أشرنا إليه. ودير مار جرجس يانوح المبني بالحجر الأزرق على إسم القديس جرجس كما اشار المؤرخ عبد الله بن الطيّب، ونقل عنه الدويهي في تاريخ الموارنة (صفحة ٦٥). وأديار العاقورة العائدة إلى بدايات الانتشار الماروني وهي اليوم خرائب إلاّ المنقور منها في الصخر واهمها دير مار سركيس وباخوس. ودير سيدة ايليج وهو الآخر منقور في الصخر قرب ميفوق واشتهر بكونه مركزاً بطريركياً على غرار كفرحي ويانوح، وقد بلغ اوجه مجده في أيام الصليبيين.

٤ـ أديار كسروان: واهمها دير كفتون جنوبي نهر ابراهيم وبعضهم يجعل مقرّه في وادي نهر الجوز قرب كفتون، ودير مارشليطا مقبس الذي يعتبر أول الأديار التي أتى على ذكرها مؤرّخو الموارنة في كسروان، وقد تحول إلى مقر بطريركي مؤقت. وقد بناه القس يوحنا محاسب من قرية غوسطا سنة ١٦٢٣ وصار "اول الاديار التي انشئت في تلك البلاد"، وكان أخوه القس سركيس مترّهباً في دير قزحيا، فانتقل إليه حسبما روى البطريرك الدويهي، وجعل منه داراً لسكنى البطاركة والرهبان والراهبات. ومن أديار كسروان الهامة أيضاً دير حراش، ومار عبدا المشمّر فوق صخور نهر الكلب، ومار سركيس وباخوس في ريفون، ومار عبدا هرهريّا، ومار الياس غزير، وسيدة طاميش جنوبي نهر الكلب، ودير عين ورقة الذي اسسه القس خير الله اسطفان سنة ١٦٩٠ وأصبح من أشهر مدارس عصره. ودير مار الياس انطلياس حيث أقسم اليمين رجال العامية المشهورة باسمه على مذبحه في القرن التاسع عشر. وكما نلاحظ إن أديار كسروان، كلّها حديثة العهد، لأن المماليك عندما اقتحموا هذه المنطقة لم يتركوا فيها ديراً قائماً.

٥- أديار الشوف والجنوب والبقاع: وهناك اديار اخرى أقلّ شهرةً من الأديار التي ذكرنا. وهي موزعة لا سيما في جهات دير القمر التي يقال، أن أقدم الاديار الشوفية بني فيها حيث تقوم اليوم سيدة التلة، ولا تزال عتبة مثبتة عند مدخل هذه الكنيسة وعليها إشارة الصليب ونور الشمس يحتضنها ويظهر القمر في عمق اللوحة التي تمثل المسيحية التي وصفها الأقدمون بأنّها نور العالم. وقد أشرنا سابقاً إلى أسماء القرى المماثلة في جهات دير القمر للقرى السورية، مما يدلّ على قدم النزوح الماروني إلى هذه المنطقة. وفي الجنوب والبقاع طمست آثار الكنائس والأديار الأولى لا سيما في صور التي تعتبر اول الاسقفيات المسيحية في لبنان. وتبقى آثار قانا الجليل الباقية حتى اليوم على فوهة مغارة يُعتقد أنها كانت ديراً قديماً محفوراً في الصخر، وتمثّل العشاء السرّي. وفي هياكل بعلبك الوثنية في البقاع قام أول دير للعذراء مريم. ولكن الامم الغريبة التي دخلت البقاع والجنوب لم تبق على أثر من تلك الأديار والكنائس القديمة العهد. وكان على شعوب تلك المناطق انتظار تولّي الامير فخر الدين الثاني الكبير حتى تتجرّأ على السكن في هذه الأطراف إبتداءً من القرن السابع عشر بعد انقطاع دام ثلاثة قرون طمست فيها كل الاثار المسيحية التي كانت موجودةً فيها.

٦- كنائس السيدة العذراء: وإكراماً للسيدة العذراء شفيعة اللبنانيين الأولى شُيِّدت الكنائس في معظم القرى، وزيِّنت الرايات برسومها، واقيمت لها المزارات على الطرق، والتماثيل على المذابح. وقد حملت أكثر من إسم ولقب، تارة سيدة الحقلة، والزروع، كما في كفيفان وميروبا، وسيدة الحصن والقلعة كما في إهدن وتنورين وبيت مري وبشرّي، وسيدة البرج في المنيطرة، وام النعم وسيدة النجاة في بكفيا وقرطبا وجبيل وشكا وطرابلس وقنوبين، وزحلة، وبيروت... وطوراً سيدة التعزية في تعنايل، والعطايا في بيروت وغيرها، والنعمة في طرابلس وبحمدون، والبزاز في صغار وحارة صخر والمغيّرة وبقسميا والدُرّ في الزعيترية والفتوح وبشري وقنوبين، والفلاحة في تنورين، والبدر في عبرين، والنصر في كفيفان، والكرم في وادي قنوبين وسيدة لبنان في حاريصا، وسيدة أرز لبنان في بوسطن التي تعتبر اول كنيسة مارونية في اميركا، وتاريخ بنائها يعود إلى العام

١٨٩٩... الخ...

ولا نستطيع حصر هذه الألقاب التي منحت في لبنان للسيدة العذراء التي يرى فيها اللبنانيون الأم التي عليها تلبية جميع الحاجات والمطالب سواء أكانت إقتصادية تتعلق بالأرض وبالمعيشة، أم صحية وإنسانية واجتماعية، بالاضافة إلى كونها رمز الحبل بلا دنس، والنجاة، و... و... أم الله، كما تشير طلبتها الشهيرة التي يرددها اللبنانيون، لا سيما في شهر أيار المخصص لعبادة السيدة العذراء. وقلما تخلو قرية، او طريق، أو بيت من مزار او رسم العذراء يحاط بكل محبة واحترام وإيمان، ويلجأ إليه عند كل محنة... وتبقى سيدة زغرتا التي بنيت سنة ١٦١٥ هي الأشهر في هذا المجال، إذ يقصدها أهالي البلدة خاشعين مؤمنين بأنها لا تردّ لهم طلباً، ولا تحجب عنهم بصراً، والاتكال على نصرتها تاريخي ومقدّس.

الكنائس الاولى في لبنان

أقدم الكنائس في لبنان، كما يشير الأب بطرس بركات صاحب تاريخ إهدن هي كنيسة مار ماما في إهدن التي يعود بناؤها إلى العام ٧٤٩ (٣٠). وكنيسة للسيدة في انفه، وفي إحدى مغاور عدلون التي انتظرت فيها السيدة العذراء السيد المسيح في مسيرته بين الجنوب والجليل. وبشري ضربت الرقم القياسي في عدد المذابح التي كانت على "عدد أيام السنة" والكلام للعلاّمة الدويهي في "تاريخ الموارنة". وبعدها حردين والعاقورة. وتأتي في المقدمة بشري بأسماء شفعاء كنائسها العائدة بأكثريتها إلى أسماء الرسل والقديسين الأوائل، أمثال دانيال، وليشاع، واسطفان، وسركيس وباخوس، وسابا، وماما، وقلّما نجد بينهم ذكر مارون او يوحنا مارون إلاّ ما بني منها في مرحلة متأخرة. وبعض كنائس لبنان الحاملة إسم القديس شربل تعود إلى القديس شربيليوس، أحد شهداء المسيحية الاوائل قبل القديس شربل مخلوف اللبناني. ومن الكنائس القديمة في لبنان كنائس: حدشيت، وحوقا، وبقوفا، وبلوزا، والديمان، وحصرون، وبزعون، وبقاعكفرا، وكفرحي، وحدتون، ومار سركيس شبطين، وبحديدات والعاقورة، وصمار جبيل، وميفوق، وجبيل وغيرها.

ولا بد قبل أن نختم هذا الموضوع حول اديار لبنان وكنائسه القديمة، من الإشارة الى أن اللبنانيين أعجبوا بمار سركيس وباخوس، وبالقديس جرجس، وذلك للفروسية التي تحلّوا بها، لذلك اختارهم شفعاء لكنائسهم معظم اللبنانيين. وقلّما نجد قريةً تخلو من كنيسة، ولو صغيرة، على إحدى التلال المشرفة عليها، مشيّدة على إسم القدّيسين المنوّه عنهم، لا سيما سركيس وباخوس، طبعاً بعد كنائس العذراء مريم الأكثر إنتشاراً. وإلى هذه الكنائس يتقاطر المواطنون من كل الجهات للاحتفال بأعياد شفعاء القرى، حيث تقام الحفلات الساهرة والممتعة، وتوقد الشموع، وتقدّم النذور، وأحياناً تمارس عادة النوم في الكنائس في ليلة العيد، التماساً للبركة وحلول النعم.

وإلى جانب تلك الأديار القديمة، والكنائس الضاربة في الزمن، هناك سلسلة من الأديار والكنائس الحديثة العهد، والتي تعود بمعظمها إلى نشوء الرهبانيات اللبنانية، منذ مطلع القرن السابع عشر، وهي تنتشر في جميع المناطق، وقلّما نجد هضبةً تحيط بها بعض القرى، ولا يقوم عليها دير رهباني، او صومعة عاش فيها رهباننا القديسون حياةً تقشفيةً قاسية تذكرنا بالنساك الاوائل الذين تحدثنا عنهم في جبل قورش، وسنأتي على ذكر نساك لبنانيين عاشوا فوق تلالنا، وفي بطون اوديتنا اللبنانية المقدسة في سياق هذه الدراسة.

المزارات والصلبان والايقونات والصور والتماثيل والرسوم

وإلى جانب الكنائس والأديار التي أقامها اللبنانيون لشفعائهم القديسين، أُقيمت أيضاً المزارات الصغيرة على مفارق الطرق، وفي جدران البيوت، وحيث وقعت حوادث أدّت إلى وفيات، وذلك وفاءً لنذر او التماساً لشفاعة أو حماية من الشر. وتعود عادة إقامة الصلبان على التلال إلى أيام الملك هرقل البيزنطي الذي استرجع صليب السيد المسيح من بلاد الفرس، فاشتعلت الجبال والهضاب إحتفالاً بتلك المناسبة، منذ القرن السابع، ولم تزل هذه العادة باقية حتى اليوم بمناسبة عيد الصليب في الرابع عشر من شهر ايلول. ومن المعروف تاريخياً، كما أشرنا سابقاً، أن صلباناً رسمها اللبنانيون او حفروها في صخورهم لحماية قراهم من خطر الوحوش. وهناك صلبان رسمها أباطرة رومان في بلادنا لتشير

إلى حدود ممتلكاتهم الاميرية.

اما الايقونات وصور القديسين والتماثيل والرسوم فهي تحف أثرية فنية صبَّ فيها مبدعوها من كبار الفنانين اللبنانيين والايطاليين كل إبداعهم فجاءت آيةً من الزخرفة والفن والجمال. ولكن أقدمها وأروعها هي تلك التي يملكها الارثوذكسيون والروم الكاثوليك لا سيما في دير البلمند، والراعي الصالح. وقلما تخلو كنيسة قديمة العهد من لوحة او ايقونة او صورة زيتية رائعة لقديس، تعود بأصولها إلى المدارس الفنية البيزنطية او المارونية او الصليبية. وتبقى أروع هذه الرسوم لدى الطائفة المارونية، تلك التي زين بها الفنان صليبا الدويهي سقف وجدران كنيسة الديمان بطلب من البطريرك الماروني انطون عريضه.

الاجراس

وبعدما كثرت أعداد المسيحيين، ولا سيما الموارنة، وارتفعت القبب عالية فوق الكنائس، غير خائفةٍ من أعدائها الوثنيين وأصحاب البدع والمذاهب الأخرى، ركزت الأجراس في تلك القباب العالية، وأمام باحات الكنائس والأديار، من الخشب في البداية، كي لا تخدّش أذن حكام البلاد من الملل الأخرى، ومن ثم نحاسية تتردد اصداؤها وهي تدعو إلى الاحتفال بالذبائح الالهية، إلى البعيد، بين التلال والهضاب. ويعود الفضل إلى الصليبيين بإدخال طريقة صنع الأجراس من النحاس التي امتزج رنينها مع أذان الشيوخ في الجوامع،، لتشكّل سمفونية، لبنانيةً مميزةً وفريدةً في سموّها، وما ترمز إليه من تآلف وتعايش واحترام متبادل للقيم الروحية وحرية الذات. وكثيراً ما أغاظ هذا التلاحم الوطني النادر والفريد حكام البلاد الغرباء، وحكام الجوار، فسعوا جاهدين لتعكيره والايقاع بين أصحابه، واستبدال نغمة الفرح بسيل من الدموع والدماء تضفي على بساط الطبيعة الأخضر، وبياض الجبل الناصع، احمراراً غريباً عن طبع ومزاج هذا الشعب العريق.

وفي النهاية، مهما جاهد الغزاة، وسعى السعاة الغادرون، لتمزيق هذه اللحمة المتأصلة في الذات اللبنانية، ووفّقوا في مسعاهم فشوّهوا الوجه اللبناني

الأصيل، فسرعان ما تستفيق الاصالة اللبنانية فتمسح العرق والدماء عن الوجوه الأصيلة لتعود ناصعة كثلج صنين ونقية كمياه الباروك، فتسلم القيم من التدمير والتخريب، وتنجو المقدسات من التجريح والثلم، وتحترق الايدي اللاعبة بالنار من قبس روحانية هذه الأرض التي لا ولن تسجد يوماً إلاّ لخالق واحد كريم سموح ، عظيم، وهو الجامع والموحّد والخالق هذا الفردوس اللبناني الذي وجد ليكون "جنة الله" على الأرض، ولن يكون إلاّ "معقلاً للحريات، وموئلاً للطرداء"، وملجأً لكل طامح إلى العيش الحرّ الكريم...

٢ - المارونية بين البدع والمذاهب

السمات المميّزة للمارونية

الموارنة جماعة عرفت في بداياتها، مع مطلع القرن الخامس، بفضل مرشدها القديس مارون، "بحزب مارون".وقد اطلقت هذه التسمية عليها لتأثرها بالمبادئ التي بشّر بها هذا الناسك العظيم، وأثمرت بعد سنوات معدودة من وفاته "مجمعاً خلقيدونياً" عقد في العام ٤٥١، وشدّد على وجوب الاعتراف بطبيعتي المسيح الالهية والانسانية، في حين ناقض هذا المبدأ، مفكّرون آخرون، ورفضوا الاعتراف بهذا الانصهار في جوهر الثالوث الذي هو جوهر الايمان الماروني وظلّت المارونية وفيةً لمبادئها وقيمها رغم الجهود المضنية التي بذلها أخصامها لضرب هذه الأسس، وفصم الروابط المارونية بالتقاليد الشرقية، لكن الموارنة رفضوا التخلّي عن أصالتهم الشرقية، واستقلاليتهم الفكرية، مع الاستمرار بالانفتاح على كل جديد من حيث أتى، شرقياً كان ام غربياً، لا سيما وهي تشدّها الى الغرب قيم روحية مشتركة، تماماً كما تشدّها الى الشرق أصالة وتقاليد. فالموارنة من حيث كونهم مزيجاً من الشعوب الآرامية والكنعانية، هم شرقيّون كغيرهم من مسيحيّي بطريركية إنطاكية، وخلقيدونيون كالذين تبعوا تعاليم هذا المجمع، لكنهم يتميّزون عن هؤلاء جميعاً بأنهم أبناء بيئة لبنانية جبلية، شرق أوسطية، ساحلية، ذات إرتباط وثيق بالمسيحية العالمية وبالتراث الشرقي في آن معاً. وقد أدى هذا الموقع المميّز الى اتصال مباشر منذ القدم، بمصادر الثقافة والحداثة والحضارة في العالم،

وتقبّل كل فكرجديد ينتج عن اتصالهم" بغيرهم المختلف، وتقبّله لأنه مختلف، وهذا ما طبع مجتمعهم الخاص بما ندعوه اليوم جدلية التناقضات" (١).

قيام الكنيسة المسيحية الانطاكية وصراع البدع

بعدما بشّر الرسل الاوائل بالمسيحية، وقامت بطريركية أنطاكية لتشمل أقاليم المشرق وأسقفياتها، كان العدو الأكبر لهذه الكنيسة هم الحكام الرومان الوثنيون، وكهنة الهياكل الوثنية، إذ اعتبروا الشرقيين مبدعين وانفصاليين يرمون عن طريق التبشير بالمبادئ المسيحية، ضرب الكيان الامبراطوري الغربي. وأبرز هؤلاء الاباطرة الحاقدين على الدين الجديد هو الطاغية نيرون (٥٤ ـ ٦٨) الذي رافق الاشعاع المسيحي منذ انبثاق قبسه الأول، فتضايق لسطوعه وانبهار العالم به، فصمّم على خنقه في المهد. وراح يعمل جاهداً لضرب الكنيسة المسيحية في بداية نشوئها (٢). ولم يوفّر خلفاؤه هذه الكنيسة الطرية العود، ولا المذهب اليهودي الداعي هو الآخر للايمان بالله خالق السماء والأرض، ونبذ الاصنام التي يعبدها الوثنيون. وكان أول شهداء المسيحية البطريرك الانطاكي الثالث "إغناطيوس المتوشّح بالله" الذي استشهد سنة ١٠٧. واستمرت الاضطهادات عنيفة بعد ذلك، خلال القرون الثلاثة الاولى، حيث كان الأباطرة وعملاؤهم يهدمون الكنائس، ويقتلون المبشّرين، ورجال الدين المسيحيين. ولكن دماء الشهداء كانت تعود فتحيي هذا الجسد المدمّى والمنهوك، فتتدفّق في عروقه دماء العقيدة الجديدة، وتدفع بالمؤمنين لإعادة بناء ما تهدّم متحدّين كل الصعاب والعذابات. ولم يجمع بين الرومان والفرس المتزاحمين على السلطة في الشرق، إلا اضطهاد المؤمنين المسيحيين وقادتهم الشرقيين والروحيين. وكان آخر شهداء تلك الفترة سلوانس اسقف حمص، والكاهن الانطاكي الشهير لوقيانوس. ولما كان لبنان إقليماً رومانياً كغيره، جرى فيه ما جرى في الأقاليم الأخرى من الاضطهادات والمجازر التي اودت بحياة كثير من المسيحيين.

ومع مطلع القرن الرابع، اعتلى قسطنطين العرش الروماني، وعملاً بمشورة والدته هيلانه، اعترف بالدين المسيحي، وجعله ديناً رسمياً للدولة سنة ٣١٢. وبعد وفاته ارتفع على قبره هيكل عظيم للرب، في إنطاكية، حيث كانت تقوم أعظم

الهياكل الوثنية في الشرق، باعتبار انطاكية ملتقى تجار وجاليات العالم القديم من فرس ورومان ويونان وعرب، وفينيقيين، وروم بيزنطيين. فدعيت أنطاكية تخليداً لهذا الحدث بـ "إيلينوبولس" أي مدينة هيلانه. ثم تحوّل هذا الاسم في عهد ازدهار المسيحية بعد انتصارها على اعدائها الى "تيوبولس (Théopolis) أي مدينة الله"، واصبحت إنطاكية عاصمة الشرق والكنيسة المسيحية معا، في الوقت الذي كانت فيه روما تستعدّ لتكون عاصمة الغرب والكثلكة في العالم. وهنا بدأ التناقض في الأدوار، بين إنطاكية التي تعتبر نفسها مهد المسيحية الأول، والبطريركية الأولى في العالم، وروما التي تعتبر نفسها بوجود رفات القديس بطرس فيها بأنها الصخرة التي أوصى السيد المسيح نفسه ببناء البيعة عليها. وكان لا بدّ من بروز هذا التناقض ان يؤدي بالتالي الى بروز مفاهيم مختلفة في وقت تتركّز فيه معالم الكنيسة المسيحية، وعقائدها الايمانية، وليتورجيتها، وطريقة ممارسة هذه المبادئ، والتعبير عنها بوسائل وطرق مختلفة ناتجة عن اختلاف البيئة والشعب والحكام.

ظهور الهراطقة واصحاب البدع.

وادّى ظهور الامبراطوريتين شرقية في بيزنطية وغربية في روما، الى انشقاق في البيت المسيحي الواحد أيضا، وظهر مبدعون "يتنافسون، ويتخاصمون، ويضاعفون تجزئةً وانقساماً، وبدعاً. فالمسيح أتى ليجمع، فتفرّقوا باسمه بطاركة، وكهنة، وعلمانيين ومن كل مجمع مسكوني ومؤتمر، تخرج مدرسة جديدة مناوئة، والخلاف على المسيح، هل هو إبن الله، ام ابن الانسان، والحوار اللاهوتي الفلسفي حول الاقنوم، والطبيعة، والمشيئة، وكنيسة شرقيّة، وغربية، تحاول الأولى بيزنطياً توحيد العائلة المشرقية... بينما الثانية قررت مصيرها، وحزمت أمرها متّحدة مع روما، ومنتظرةً يقظةً للواقع أن مهمة الكنيسة الشرقية مستحيلة، وعسى لا يطول الانتظار" (٢).

وبين "إيل الوثني"، و"يهوه اليهودي"، و"الله أكبر"المسلم، توزّع المؤمنون الشرقيون بالكتب المقدّسة، وكلّ يشدّ بالله إلى شعبه وأرضه وتراثه، فاختلط الايمان بالتعصب، والحقيقة العلمية بالاسطورة، تاركة هذا الشعب يسبح في بحور من الدموع والدماء ويعيش فترة كبيرة من أقسى وأمرّ فترات ومراحل تاريخه.

فاليهودي، حامل رسالة التوراة، وكتابه "التلمود" ناموس به يدين، ويجدّ لفرضه على الآخرين. والمسيحي كتابه العهد الجديد، يقاوم به السلاح اليهودي المتمثّل بالقوة والعلم والاعلام والمال. وفي الوقت ذاته يظهر على الساحة ولو متأخراً، طامع ثالث بتوحيد الأرض والشعب تحت راية الله الواحد الأحد، سلاحه السيف والايمان بأن الشهيد مقرّه الجنة، فيستميت في تحقيق أهدافه التوسعية والدينية. أما المسيحي، فتسلّح بالفلسفة واللاهوت المبنيّين على نبذ العنف واحتقار المادة والمال، وامتشق المحبة سلاحاً يدعو للتسامح و"ادارة الخدّ اليمين للذي صفع الايسر"، وفي الوقت ذاته كان عليه، دفاعاً عن الذات والقيم، أن يلجأ الى سلاح آخر، ولا يوفّر استعمال القوة والعنف عند الضرورة. وساحة الصراع الكبرى، كانت ولا تزال هذه القدس التي جمعت بين أسوارها ثاني الحرمين المقدسين، صخرة الاسراء والمعراج، وهيكل سليمان الحكيم حرم "أرض الميعاد" الأكبر، وكنيسة القيامة التي في جوارها دحرجت المسيحية عن قبرها الحجر، وإليها ستعود يوم القيامة والحشر. ترى متى ستشهد هذه الأرض "المسرّة والسلام" اللذين بشّر بهما الملاك جبرائيل "الشعب المختار" يوم ميلاد المسيح؟ أم هل ستتحقق نبوءة المفكّر اللبناني الكبير ميشال شيحا القائل: "كل زيتون العالم لا يكفي لتحقيق السلام بين اليهود والعرب"؟ (٤).

في هذا الجو الاسود المكفهرّ في سماء الشرق، وفي الوقت الذي انحسرت ظلال الوثنية عن التلال والسفوح، قام داخل الكنيسة المسيحية (الجديدة، وهي لم تكمل بعد قرنها الثالث)، دعاة معارضون لتعاليم الرسل الاولين، محاولين نقض الأسس التي عليها يقوم الايمان المسيحي الارثوذكسي الصحيح، الذي اعتمدته الكنيسة المسيحية الجامعة في إنطاكية، وفي روما، وسائر أنحاء المعمور. فقال بعضهم إن ابن الله هو "إنسانٌ سامٍ"، وآخرون قالوا بأنه "إله ابن إله"، وفريق ثالث ادّعى بأنه "قوّة الله على الأرض". وفي نهاية المطاف جمع هؤلاء الفرقاء تياران: أحدهما يقول بوجود طبيعة إلهية واحدة في المسيح، والثاني بوجود طبيعتين إلهية وبشرية. وفي طليعة المونوتوليين القائلين بطبيعة المسيح الالهية: بولس السميساطي، وآريوس وسيمون الساحر، ونسطور، واوطيخا، ويعقوب البرادعي،

وسواهم. أما القديس مارون واتباعه "جماعة مارون" كما عُرف الموارنة في بداية عهدهم، فكانوا قادة الفريق الآخر القائل بالطبيعتين في المسيح، البشرية والالهية، وهي التعاليم التي كرز بها الرسل الأوائل، وحافظ عليها ودعمها الكرسي الرسولي في روما، وهي التعاليم المطابقة لأقوال السيد المسيح، وآباء الكنيسة الذين رأوا في الثالوث الاقدس، الآب والابن والروح القدس، إلهاً واحداً متساوياً في الجوهر. والقديس مارون لا يمكن اعتباره في عداد المبدعين، لأنه لم يبدع جديداً، بل حافظ على "الايمان الارثوذكسي القويم"، وكنيسته المارونية هي فرع من فروع الكنيسة المسيحية المقدّسة الرسولية التي أسسها القديسان بطرس وبولس في إنطاكية وروما.

وقد ساعد على انتشار تلك المجادلات اللاهوتية إنتشار المدارس الفلسفية اليونانية التي ازدهرت في تلك المرحلة من حياة الكنيسة، وأسفرت عن تقسيمها الى شيع وبدع متخاصمة. وأبرز تلك البدع والشيع:

١- الآريوسية

ينتسب الآريوسيون الى كاهن مسيحي متحدر من أصل ليبي يدعى آريوس، اشتهر بغزارة علمه وقوة حجّته. وهو من أبرز كهنة الاسكندرية. أنكر آريوس الوهية السيد المسيح فأنذره بطريرك إنطاكية بوجوب الكفّ عن هذه الادّعاءات تحت طائلة الحرم، لكنه استنجد بأسقف نيقوميديا قريب الامبراطور البيزنطي ليكنَسيس ليحميه من "بابا الاسكندرية" كما كان يلقّب رئيس أساقفة هذه المدينة التي ينتمي إليها. عندها التأم في الربع الاول من القرن الرابع مجمع نيقوميديا للنظر في هذه القضية، فاستطاع آريوس استمالة الاساقفة في الاسقفيات التالية: اساقفة صور، واللاذقية، ونيرونيا، وزوربا، وبيروت، وقيصرية فلسطين. وللحال عقد مجمع آخر في إنطاكية سنة ٣٢٥ للوقوف بوجه آريوس واتباعه قبل أن يعرقلوا مسيرة الكنيسة المسيحية التي لم يمض على اعتراف الدولة الرومانية بها أكثر من ثلاثة عشر عاماً، فصدر قرار المجتمعين في إنطاكية بتحريم البدعة الآريوسية، وإعلان "المبادئ الارثوذكسية القويمة" القائلة إن في المسيح طبيعتين إلهية وإنسانية، وانه يجب الاعتراف "بإله واحد، آب ضابط الكل، خالق الأرض والسماء... وبربٍّ واحد هو

يسوع المسيح إبن الله الوحيد.. وبكنيسة واحدة جامعة مقدّسة رسولية..." إلى آخر كلمة من فعل الايمان الذي يتلوه الموارنة اليوم في صلواتهم، فاعتبرت هذه التوصيات "دستور الايمان الارثوذكسي القويم".

وبعد إعلان هذه المبادئ - الدستور، رفض الاسقفان الكبيران تيودورس اسقف اللاذقية، وديودورس اسقف صقلية هذه المبادئ واصرا على اعتناق البدعة الآريوسية. ووجدت هذه البدعة أرضاً خصبة لانتشارها بفضل نشاط هؤلاء الآباء والاساقفة الاجلاّء، فعمّت معظم أنحاء مصر وافريقيا، وظلّت قائمة حتى نهاية القرن الرابع. وكان للقديس باسيليوس الكبير، والقديس يوحنا فم الذهب، الفضل الاول في وقف هذه البدعة، وتثبيت وتعميم المبادئ الارثوذكسية على جميع أبرشيات الشرق بصفتهما بطريركي إنطاكية في تلك المرحلة الزمنية. ولم يطل الأمر، بعد "عهد السلام الانطاكي" الذي عمّ أرجاء الشرق، وانحاء الكنائس المسيحية، حتى ظهر مبدع جديد يدعى نسطور، يحمل أهدافاً قريبة من تعاليم آريوس، ويهدّد بشق الصف الارثوذكسي من جديد.

٢. النسطورية

بعدما هدأت الحركة الآريوسية التي قادها بعد آريوس، الاسقف بولينا روس، وعادت الكنيسة الانطاكية الى وحدتها وايمانها الارثوذكسي القويم، ظهر مبدع جديد في بلاد ما بين النهرين إسمه نسطور. اعلن نسطور أن مريم العذراء أعطت المسيح بحكم الولادة "الطبيعة البشرية"، ولم تعطه "الطبيعية الالهية"، باعتبار أنه لا يمكن أن يكون هناك طبيعة دون وجود شخص حسب نظرية أرسطو. ولما كان معظم رجال الدين في أنحاء الامبراطورية الرومانية، قد تأثّروا بالمدارس الفلسفية اليونانية، وخاصة مدارس افلاطون وأرسطو، ومدرسة اللذة والانشراح التي قادها أبيقورس اللبناني الاصل، فقد اعتبر نسطور أن المسيح هو"انسان يحمل ذاتاً إلهية، أي متوشح بالله"، وبالتالي فطبيعته إنسانية وليست إلهية، ولا يجوز الخلط ومزج الطبيعتين الالهية والانسانية معاً في شخص السيد المسيح.

وما أن طرحت هذه النظرية على الرأي العام، وكبار رجال الدين، حتى

احتدم الجدل استناداً الى النظريات الفلسفية اليونانية، والهلّينية اي المطعّمة بالفينيقية، مما أدّى الى ظهور بدع جديدة لم تكتف بالجدل الفلسفي، بل تعدّته الى الصراع الدموي، ونتيجة لذلك تعرّض الكثيرون للاضطهاد، والقتل، والتهجير، واحراق البيوت والممتلكات. ووصلت نيران تلك الاحداث المشؤومة الى الجماعات المارونية المنتشرة في سوريا، فخرّبت أديارهم، وقضي على الكثير من رهبانهم مما دفع بالكثير منهم للّجوء الى لبنان والاحتماء بموارنته وجباله العاصية. وكان وراء كلّ ما يجري من أحداث ومجازر ملوك بيزنطية، متوخّين من دخولهم فريقاً فيها، تثبيت أقدامهم في هذه البلاد، وصرف نظر الشعب عن مساوئ حكمهم، وابتزاز فريق منهم بوضعه في مواجهة الآخر كعادة كل المحتلين، في كل مكان، وعصر. فأقدام الغزاة لا تترسّخ إلا في أرض منقوبة بالعداء، ومروية بالدماء.

وساعد استلام نسطور اسقفية القسطنطينية، عاصمة الامبراطورية البيزنطية، في ١٠ نيسان سنة ٤٢٨ بعد ثلاث سنوات من مجمع نيقوميديا أونيقيا الذي نشر المبادئ الارثوذكسية المناقضة، على الترويج للبدعة الجديدة، في الوقت الذي لم تكن فيه قد انقطعت نهائياً أصداء البدعة الآريوسية عن أصقاع الشرق. وساهم ملوك بيزنطية بدعم هذه البدعة، في تمكين كهنة نسطور من الوعظ علناً في كنائسهم، بأن السيدة العذراء كونها إنسانة، لا يمكن أن تلد إلهاً، وبالتالي هي إذن والدة المسيح الانسان وليس الاله.

وانتشرت هذه العقيدة في مصر وروما نفسها، وفي بعض اسقفيات إنطاكية. عندها تصدّى لها القديس كيرلس، اسقف الاسكندرية المتعمّق في اللاهوت، وراح ينشر المقالات المناهضة لها. واستمر الجدل محتدماً حتى عقد مجمع أفسس المسكوني سنة ٤٣٠، واعتبر البدعة النسطورية كالآريوسية، وبدعة اليعاقبة ذات الجذور النسطورية، باطلة. في حين اعتبر معارضو هذا المجمع البدعة النسطورية سليمة وأيّدوها. ولما كان قد اعتلى العرش البيزنطي آنذاك الملك ثيوذورس المؤيد للخط الارثوذكسي القويم، فأصدر أمراً بنفي نسطور الى البتراء، لايقاف هذا الجدل الذي خلخل دعائم الحكم البيزنطي، وهدده بالسقوط، كما أمر بمصادرة امواله وضخّها الى ممتلكات الكنيسة الارثوذكسية، وباحراق كتبه

ومــخطوطاته. ومــات نسطور فـي العــام ٤٤١، لكن النسطورية لـم تمت بموته لأن مروّجيها كانوا يحتلّون مراكز دينية رفيعة، بينهم بطاركة وأساقفة كبار أمثال: ساويروس بطريرك إنطاكية، وتاودوريطس اسقف قورش المؤرخ الشهير، وتيودورس المؤرخ الآخر واسقف صور المعروف، ويعقوب البرادعي الذي ساهم بنشر هذه العقيدة في سوريا ولبنان بين السريان فانتسبت اليه وعرفت النسطورية عندها باليعقوبية، بالاضافة الى ديوسقورس البطريرك الانطاكي الآخر الذي ساهم بنشر هذه البدعة في مصر وأفريقيا، واسقف اورشليم توادوسيوس وسواهم.

وبفضل هؤلاء القادة الكبار استطاعت البدعة اليعقوبية أن تندسّ في عقول بعض كهنة الموارنة وقادتهم، فتغوي بطريركاً عرف باسم لوقا النبهراني، ومقدّمين في جبة بشري وحردين وفي طليعتهم المقدّم سالم، والمقدّم عبد المنعم.

ولما استلم الملك البيزنطي قسطنطين اللحياني، في اواسط القرن الخامس، بعد عشر سنوات من موت نسطور، دعا في العام ٤٥١ لعقد مجمع في خلقيدونيا التركية لحسم هذا الجدل المتنامي بين رجال الدين الارثوذكس، بعدما كان قد عُقد مـجـمـعـان سـابـقـان أحـدهـمـا سنة ٤٤٥ في إنطاكـيـة، والثـاني سنة ٤٤٨ في القسطنطينية ولم يسفرا عن نتائج ملموسة لوقف هذه المناظرات التي اشتُهر امرها وضُرب بها المثل، فعُرفت بالمجادلات البيزنطية التي استمرت حتى سقوط عاصمة بيزنطية القسطنطينية بيد العثمانيين في اواسط القرن الخامس عشر.

وقد أجمع معارضو مجمع أفسس الذي وضع المبادئ الارثوذكسية التي عُرفت بالدستور الارثوذكسي القويم، ووصفوه بالمجمع اللصوصي بفضل من تجمّع ضدّه من كبار رجال الدين الذين يؤمنون بالنسطورية. وراحت أتعاب القوى المحبة للوفاق سُدىً رغم عقد مجمعين لاحقين خلال مدة ست سنوات. وكان العالم الارثوذكسي يتطلّع بقلق إلى خلقيدونيا حيث عُقد "المجمع الخلقيدوني" الشهير سنة ٤٥١ على أمل توحيد الكنيسة الارثوذكسية، لكنه أجج الصراع أكثر فأكثر، وكرّس الانقسام الارثوذكسي الذي لا يزال قائماً حتى اليوم.

المجمع الخلقيدوني

تمّ الاتفــاق بين الكرسي الرســولي والملك قــسطنطين الذي خلف الملك ثيودوسيوس الثاني سنة ٤٥٠ على عقد مجمع خامس في نيقيه في ١٧ ايار سنة ٤٥١، ثم نقل مكان هذا المجمع إلى خلقيدونيا في ٨ تشرين الاول سنة ٤٥١. وفي هذا المجمع اعـترف الاسـاقـفـة المجـتـمـعـون بخطأهم في المجمع الأفـسـسي "اللصوصي"، والمجامع اللاحقة، وطالبوا بالاجماع، بتحريم العقيدة النسطورية المونوتولية، والحوا على كبير دعاتها الاسقف ثيوذورتس على نبذها علناً، فأعلن في المجمع المذكور: "إنيّ أحرّم نسطوريُس، واوطيخا، وكل من يقول أنّه يوجد إبنان... ومحروم من لا يقول أن القديسة مريم العذراء هي والدة الله، ومن يفصل الابن الوحيد إلى ابنين...". وهتف الاساقفة الحاضرون جميعاً: "إذن سطع الحقّ، وزُهق الباطل، وزال الشكّ في موقف ثيوذورتس الكلّي الورع لأنه حرم نسطوريس أمامنا، وقُبل عند لاون (البابا) المحبّ والجزيل البرّ، رئيس أساقفة رومية المتقدّمة (او المحترمة)... ثيوذورتس مستحق الكرسي... فليتّخذ الراعي رعيته، ولتتّخذ الكنيسة معلّمها الارثوذكسي..." (٥).

وهكذا أُعيد ثيوذرتُس إلى اسقفية قورش، وصفرونيوس إلى أسقفية القسطنطينية، وسواهما من الاساقفة الذين عزلوا عن اسقفياتهم في المجامع السابقة، إلى كراسيهم، واعترف المجمع الخلقيدوني بفوثيوس اسقف صور، وافسطائيس اسقف بيروت باعتباره تابعاً لأسقف صور مثل باقي أساقفة فينيقيا الساحلية. وهكذا نلاحظ أن أسقفية صور كانت أشبه بمتروبوليت، او شبه بطريركية يتبعها عدة اسقفيات وأسقفها هو بالتالي رئيس أساقفة فينيقيا البحرية الممتدة من عكا إلى النهر الكبير الشمالي. اما فينيقيا الداخلية التي كان يتبعها سوريا المجوّفة (البقاع)، فكانت قاعدتها دمشق. وسوريا الثانية التي تقع بين النهر الكبير والقورشية، عند تخوم إنطاكية، فكانت عاصمتها أفاميا.

وانتهت جلسات هذا المجمع الست عشرة في أول تشرين الاول عام ٤٥١، بعدما تمّ اعتراف جميع الأساقفة الحاضرين بدستور الايمان الارثوذكسي القويم، وبطبيعتي المسيح الالهية والانسانية المتساويتين في الجوهر، في محاولة لتوحيد

أبناء الكنيسة المقدّسة الرسولية.

وكان الملك قسطنطين قد دعا، بعد الجلسة السادسة، لحضور تدشين كنيسة إنطاكية بالاشتراك مع بطريركها الجديد أفرام الآمدي، وبحضور رئيس دير مار مارون الكبير الواقع بين حمص وحماه على الرستن في سوريا الثانية، المؤيّد للبطريرك المذكور في تحريم بدعة ساويروس النسطوري بطريرك إنطاكية السابق. وهذا ما جعل اليعاقبة يعتبرون الموارنة من جماعة أفرام الآمدي، والبطريرك يوحنا مارون "عدوّ الله" حسب تعبير المؤرخ اليعقوبي سعيد بن البطريق. ولم يلبث اليعاقبة أن اغتنموا الفرصة في عهد الملك انسطاس المؤيّد لهم سنة ٥١٧ أن اقتحموا دير مار مارون الكبير. ثم أعادوا الكرّة فدمّروه وقتلوا قسماً من رهبانه وهجّروا الآخرين في العام ٦٩٤ في عهد يوستنيانوس الأخرم، وتابعوا زحفهم باتجاه لبنان لملاحقة فلول الموارنة النازحين إلى لبنان، بعدما دمّروا كل أديارهم الواقعة في طريقهم على نهر العاصي.. وسنأتي على تفاصيل هذه المعركة في حديثنا عن البطريرك يوحنا مارون لاحقاً.

وكان اليعاقبة والموارنة، منذ نشوء الخلاف اللاهوتي بينهما حول طبائع المسيح، قد تبادلوا عدة رسائل في هذا الموضوع، كشف عنها الدكتور نو (Nau) في المخطوطات التي عثر عليها في لندن. كما جرى تحكيم الخليفة العربي معاوية في هذا الخلاف سنة ٦٥٩. فحكم للموارنة وجرّد اليعاقبة من ممتلكاتهم واوكل بها الموارنة حسبما أشار مؤرخهم سعيد بن بطريق.

وبين سنتي ٦١٠ و٦٤٠ توالى على لبنان وسوريا زحفان لاقى فيهما النصارى أقسى العذابات، ولا سيما النصارى الخلقيدونيين منهم: الزحف الفارسي الذي دمّر العاصمة إنطاكية وقضى على بطريركها، والزحف العربي الذي عزل "جماعة مارون" في جبال لبنان العاصية التي تحصّنوا بها رافضين الاستسلام، والخضوع، والتخلّي عن قيمهم، وايمانهم المسيحي. ومنذ تلك اللحظة أخذوا يتطلّعون إلى تأسيس كيان وطنيّ مستقلّ لهم، يرتبط عقائدياً بروما بدل إرتباطه السابق بإنطاكية التي عزلت عنهم وخضعت للحكم الغريب، وذلك للاستمرار في ممارسة طقوسهم ومعتقداتهم بحرية واستقلال. وقادهم تشبثهم

بالايمان الارثوذكسي القويم الذي أقرّه المجمع الخلقيدوني إلى بذل الدماء الغزيرة، والاستشهاد، والخراب الكبير والتهجير، وقتل العديد من رهبانهم إذ قضى في معركة واحدة نحو ثمانماية راهب من رهبان دير مارون الكبير واضطر الباقون لمغادرته إلى جبل لبنان. وهذا ما جعلهم في مواجهة مستمرة دامت أجيالاً مع المونوتوليين أصحاب العقيدة اليعقوبية المناوئة للخلقيدونيين، فنجح هؤلاء مرّات عديدة في اختراق صفوفهم ولكن إلى حين، ثم لم يلبث الموارنة أن نقّوا صفوفهم وكتبهم من كل ما دسّه هؤلاء خلسةً من مبادئ لا تطابق المفهوم الماروني - الارثوذكسي الصحيح. وأمام الوشايات المتواصلة، والاتهام المزوّر بأن الموارنة تبعوا المونوتوليين، اضطر الموارنة لكشف اوراقهم وانظمتهم الخاصة بهم وتقديم الحساب لقصّاد الكرسي الرسولي، وإثبات خلوّ عقيدتهم المارونية من الشوائب بشهادة هؤلاء الممثلين للعاصمة المسيحية الاولى في روما.

الفصل الثالث

بطريركيات الشرق
والوطن الماروني

١ ـ بطاركة الشرق وأبرشياتهم

التنظيم السياسي والكنسي في الشرق المسيحي

قبل الحديث عن البطريرك يوحنا مارون مؤسس الكنيسة المارونية المنظّمة، لا بُدَّ من إعطاء لمحة عن تنظيم البطريركيات المسيحية في الشرق، وموقع كل منها، والمنطقة التي تشملها، ومدى ارتباطها بالعاصمة إنطاكية في الشرق، وبروما عاصمة الكثلكة في الغرب.

من الوجهة السياسية كانت القيادة المارونية منوطة بأمير او مقدّم يقيمه الملك البيزنطي حاكماً على هذه الجماعة التابعة إدارياً للحكم البيزنطي، باعتباره قائد "خيل الروم"، وهم العساكر الملكية المخوّلين ضبط الأمن في هذه الربوع المشرقية التابعة لملكة بيزنطيا.

اما من الناحية الدينية فكانت المنطقة المشرقية الممتدة من القسطنطينية إلى مصر، مقسّمة إلى بطريركيات تمثّل المذاهب والبدع القائمة في المملكة البيزنطية، وتقيم في إنطاكية، واورشليم، والاسكندرية، والقسطنطينية. في حين خلت إنطاكية، البطريركية الاولى، من البطاركة لوقوعها بيد العرب المسلمين. وسنعطي لمحة، ولو موجزة، عن هذه البطريركيات الأربع الشرقية:

١ ـ بطريركية الشرق الإنطاكية

كانت الامبراطورية البيزنطية قد قُسّمت في عهد الملك ديوقلسيان في العام ٢٨٤، بعد انقسام الامبراطورية الرومانية نفسها شرقاً وغرباً إلى امبراطوريتين، إلى أربع مديريات (Préfecture) تضمّ إثنتي عشرة أبرشية (Dioséses) ، وستاً

وتسعين مقاطعة (Provinces) (١) . واحتفظ الامبراطور لنفسه بمديرية المشرق التي تضم لبنان وسوريا وفلسطين ومصر نظراً لأهميتها. وهي تمتدّ من تراقيا وتركيا وبلغاريا واليونان شرقاً إلى ليبيا غرباً. وتضمّ خمس أبرشيات هي: تراقيا وعاصمتها هرقلية، وأبرشية آسيا وعاصمتها نيقوميديا، وأبرشية النبطوس وعاصمتها الكابادوك، وابرشية الشرق وعاصمتها إنطاكية التي تحولّت بعد مجمع خلقيدونيا سنة ٤٥٦، إلى مقرّ بطركية "إنطاكية وسائر المشرق" (٢). وقد حمل هذا اللقب بطاركة إنطاكية في القرن السابع، بعدما انقسم الشعب في هذه الأبرشية إلى خمسة مذاهب هي: الموارنة - الملكية - اليعقوبية - النسطورية والارمن، ثم أضيف إليهم اللاتين في الشرق التابعين أساساً للكرسي الرسولي في روما في القرن الثاني عشر. وقد جاء في "المجمع اللبناني"، في مقرراته التي صدرت عن المجمع الطائفي المنعقد عام ١٧٣٦، أن بطريرك الموارنة تشمل بطريركيته المعروفة "ببطريركية إنطاكية وسائر المشرق" خمس متروبوليتات: حلب - بيروت - دارا - سرجيو بوليس - وحمص، وتسع اسقفيات كبرى: ايسوريا - سوريا الفراتية - الرُها - ما بين النهرين - فينيقية - فلسطين - العربية (اليمن السعيدة). وقد فصلت قبرص عن إنطاكية في مجمع أفسس سنة ٤٣١ (٣). وقد حمل لقب "بطريرك إنطاكية وسائر المشرق" البطريرك الماروني، منذ تأسيس الكنيسة المارونية على يد البطريرك الأول القديس يوحنا مارون في الربع الأخير من القرن السابع، و"كانت تضمّ مديرية الشرق بالاضافة إلى آسيا حتى الهند" (٤). وقد حدّد الأباتي فهد أبرشيات إنطاكية بخمس عشرة مقاطعة هي التالية: "فلسطين الاولى - والثانية والثالثة - فينيقيا الاولى - فينيقيا اللبنانية - سوريا الاولى والثانية والثالثة او الفراتية - كيليكيا الاولى والثانية ، قبرص - أُسروان (Osroeine) - ما بين النهرين - ايزوريا - والعربية" (٥).

وإنطاكية، قبل أن تصبح بطريركية، كانت مدينةً صغيرة دُعيت "حَمَتْ الكبرى" لتمييزها عن "حمت الصغرى" أو أبيفانيا في سوريا. وقد عظُمَ شأنها وعمّرت في عهد القائد اليوناني سلوقس خليفة الاسكندر المقدوني الذي دعاها باسم والده انطيوخوس "إنطاكية". كما دُعيت "تاوبوليس" أي مدينة الله، في عهد يوستنيانوس الكبير الذي أعاد بناءها بعدما هدمها كسرى انو شروان ملك الفرس عام ٥٣٨.

وأخذ يتراجع شأنها بعدما احتلّها العرب بعد قرن من الزمن. وقد تفاوت عدد الأبرشيات التابعة لها حسب العهود والحكام. وجاء في "سجل" الاسقف نيلُس ذوكصباتري (Nili Doxapatrii) الموضوع سنة ١١٤٣ بتكليف من ملك صقلية روجيه الثاني تسجيلاً لأسقفيات الكراسي البطريركية أن بطريركية إنطاكية كان لها ثلاث عشرة مطرانية مع ١٣٧ اسقفية، وهي الآتية:

١ ـ ميتروبوليتية صور

عدد اسقفياتها ١٣ وهي تشمل منطقة فينيقيا الساحلية الممتدة من عكا حتى النهر الكبير في الشمال عملاً بتقسيمات الامبراطور ديوقلسيان الذي جعل لبنان وسوريا كنيستين: كنيسة فينيقيا الساحلية ومركزها صور، وكنيسة فينيقيا اللبنانية ويتبعها الجبل الشرقي والبقاع وكان مركزها غالباً في دمشق (المشرق ٣:١١٠٣). اما كنيسة فينيقيا الساحلية المعروفة بمتروبوليت صور، فكانت متقدّمة على جميع الكنائس الأخرى، وتدعى "الكرسي الانطاكي الاول"، وتضم الاسقفيات التالية: بورفيريون (الجيّة ـ وآخرون يضيفون إليها النبي يونس وبرجا)، جبيل او بيبلوس ـ البترون او بوتريس ـ غيغُرتا او جيغرتا (حنوش وما جاورها ساحلاً وجبلاً)، ترياريس (أنفه)، تريبولي (طرابلس) اورتوسياس أو أرتوسيا (النهر البارد) ـ عرقا ـ بشرّي وإهدن واميون التي يرأسها خورفسقوس ، أي ما نسميّه اليوم بالخوراسقف (الأب لامنس ـ مرجع سابق صفحة ١١٥).

وخارج هذه الميتروبوليتات الصورية الكبيرة التي اعتبرت كما أشرنا الكرسي الانطاكي الاول، هناك ثماني ميتروبوليتات اخرى مستقلة لم يكن لها اسقفيات تابعة لها، وهي: بيروت ـ هيليوبوليس (مدينة الشمس اي بعلبك) ـ اللاذقية ـ سميساط ـ ميارفارقين او مارتيروبوليس (مدينة الشهداء) ـ مصيصه او موبسوايستيا ـ أدنا ـ بومبيوبولس (مدينة بومبيوس). و"أضيف إلى هذه المتروبوليتات ثمانية كراسٍ كبرى على كل منها رئيس أساقفة وخمسة كراسٍ بسيطة وحرة، برتبة رئيس أساقفة" [٦]. وربما أخطأ كاتب هذه العبارة في التعبير، وكان يقصد "برتبة رئيس كهنة اي خوراسقف، وليس رئيس أساقفة. وعدّد بعض هذه الأسقفيات التي ظهر توقيع

رؤسائها في القرن الرابع عشر ومنها: دومايبرس (نيسابور عاصمة خراسان)، واكسرخوس كل إيفتريا (الكرج او قفقاسيا جورجيا)، متروبوليت أفاميا، وأديسًا، وحمص، وبصرى، وهليوبوليس (بعلبك)، وطرابلس، وبومبيوبولس، وبيروت، وصور، وغيرها، بحروف سريانية" [٧].

وتبقى "بطريركية إنطاكية وسائر المشرق"، رغم التقلّبات التي طرأت عليها في مختلف العهود والحكام، والقول للقديس باسيليوس في رسالته السادسة والستين، هي أهمّ البطريركيات التي قامت في الشرق. وقد أسّسها القديس بطرس ومكث فيها سبع سنوات حسب القديس غريغوريوس الكبير، بمساعدة القديس بولس. كما ساعد أيضاً بعض القديسين الاوائل في ازدهارها، ومنهم يوحنا مرقس الانجيلي، ويوحنا الفم الذهبي أحد بطاركتها، والقديس اغناطيوس الانطاكي، والقديس برنابا، وافرام السرياني، وغيرهم.

٢ - بطريركية القسطنطينية

في مجمع القبّة الذي عُقد في القسطنطينية سنة ٦٩٣ فرض الامبراطور يوستنيانوس الأخرم على الأساقفة الشرقيين إيلاء الكرسي القسطنطيني المرتبة الاولى مع كنيسة روما التي كانت تعتبر الاولى بين متقدّمين (Premiére parmi deux égaux) . و"لم يكن لهذه البطريركية مركز مميّز قبل ذلك، بين كنائس الشرق الأربع الأساسية، بل كانت تتبع الكرسي الانطاكي"[٨]. وربما قصد هذا الامبراطور المستعدي للموارنة من هذا التدبير، خفض شوكة البطريرك الانطاكي يوحنا مارون ودوره المتنامي في قيادة الموارنة بتحريض من اليعاقبة عشية إعلانه الحرب عليه في العام ٦٩٤، أي بعد عام من هذا القرار. وأخذ دور القسطنطينية على أثر ذلك يتنامى بدعم من الملوك البيزنطيين حتّى هدّد في بعض الحقبات دور روما نفسها. وهذا ما دفع الموارنة إلى رفض هذه التبعية، والاصرار على استقلال الكرسي الانطاكي الماروني، وراحوا يوثّقون علاقاتهم بالكرسي الروماني، في حين انحاز بعض بطاركة الشرق الآخرين إلى الكرسي القسطنطيني الذي كان يضمّ أبرشيات آسيا الصغرى والبلقان. ولن نتوسع في الحديث عن هذا الكرسي وأبرشياته باعتبار الموارنة،

موضوع دراستنا، كانت علاقاتهم شبه معدومة به.

٣ - بطريركية اورشليم

كان الكرسي الاورشليمي متحالفاً مع الكرسي الاسكندري المصري، بسبب العقيدة النسطورية اليعقوبية التي انتسب إليها هذان الكرسيان في غالب الاحيان. وهذا ما جعل علاقاتهما تفتر جداً، واحياناً تنقطع كلياً، مع الكرسي الرسولي، عكس علاقة الموارنة التي كانت تتنامى مع الأيام. وعلى هذا الأساس اصبحت اورشليم مركزاً للتيارات الدينية المناهضة للكرسي الرسولي حتّى قيام الصليبيين باحتلال القدس وجعلها مركزاً لبطريرك اللاتين الكاثوليكي الخاضع لسلطة بابا روما المباشرة. وكان يتبع هذا الكرسي ابرشيات فلسطين والاردن ولبنان الجنوبي أحياناً، لا سيما في القرون المسيحية الاولى التي شهدت إنقساماً حاداً بين المونوتوليين في العهد النسطوري والآريوسي، والخلقيدونيين وفي طليعتهم الموارنة، مما ألحق صور في مراحل قصيرة من الزمن باورشليم.

٤ - بطريركية الاسكندرية

تولّى الكرسي الاسكندري بطاركة اعتنقوا المبادئ الآريوسية والنسطورية.، واليعقوبية، وغيرها من التيارات المونوتولية المناهضة للكرسي الرسولي في روما. وهذا ما جعل التحالف وثيقاً بين الكرسي الاورشليمي والكرسي الاسكندري المدعومين من حكام بيزنطية للوقوف بوجه النفوذ الروماني الممثّل بالكرسي الرسولي والكرسي الانطاكي الذي يحتلّه الموارنة. ولذلك اصبح الصراع يدور بين شرقيين يدينون بالولاء للقسطنطينية، وغربيين خاضعين للكرسي الروماني. ومع هذا استطاع الموارنة الحفاظ على انتمائهم الشرقي وتقاليدهم واستقلاليتهم، في حين لم يتنكّروا لولائهم للكرسي الرسولي الذي تجمعهم به وحدة العقيدة الخلقيدونية والأرثوذكسية القويمة. وقد تبعت بطريركية الاسكندرية أبرشيات مصر والسودان وكل افريقيا.

الرتب الكنسية ودرجات البطريركيات

بالعودة إلى المجمع اللبناني صفحة ٣٤٦ نرى "أن لحبر روما العظمى المقام الأول في مراتب الرؤساء باعتبار كونه نائب المسيح، ربّنا والهنا، على الأرض، وخليفة بطرس زعيم الرُسل، في الرئاسة على الكنيسة جمعاء، وعلى رؤسائها كلهم أجمعين، وللبطاركة المقام الثاني، وللجثالقة الذين يقال كلهم اكسرخسية المقام الثالث، وللمطارين أي رؤساء الاساقفة المقام الرابع، وللأساقفة العاديين المقام الخامس... وكون الولاية البيعية قد انقسمت، منذ نشأة الكنيسة، ثلاث كنائس بطريركية (إنطاكية واورشليم والاسكندرية). فقد صرّح آباء مجمع نيقيه في القانون السادس لهذا المجمع أنهم عزوا إلى البطريرك الاسكندري والبطريرك الاورشليمي حقوقهما على مقتضى هيئة البطريركية الرومانية. "ثم بدا لهم في شأن بطريرك إنطاكية وسائر كبار رؤساء المشرق... أن الكنائس البطريركية الثلاث، المار ذكرها، ليست من السلطة على سواء، ولم تستفد امتيازاتها من عظمة مدنها وشرفها، بل من مؤسسها القديس بطرس زعيم الرسل". ولما كان القديس بطرس المذكور قد اختار روما كرسياً له، بعدما أسس كنيسة إنطاكية، وعيّن عليها نوّاباً عنه وعلى الاسكندرية بمثابة أساقفة يسوسون تلك الأبرشيات الواسعة، فقد تحولّت روما مقرّ لرئيس الكنائس المسيحية الأول الذي حمل لقب "بابا" لاحقاً، وحمل رؤساء الكنائس الاخرى التابعين لسلطته "بطاركة"، ونواب هؤلاء في الابرشيات "أساقفة" أو "مطارنة"، يعاونهم الكهنة الذين يعطى للبارزين منهم لقب خوراسقف أو "فُسقفوس"، وهو ما يُعرف حالياً "بالمونسنيور".

أما قداسة البابا اينوشنسيوس الثالث (١١٩٨ ـ ١٢١٦)، فقد حدّد منزلة الكنائس المسيحية في مجمع لاتران المسكوني سنة ١٢١٥ بقوله: "إننا تجديداً لما للكراسي البطريركية من الامتيازات القديمة، نحكم باتفاق المجمع المقدّس العام أن يكون للكنيسة القسطنطينية المقام الأول من بعد الكنيسة الرومانية التي اوتيت بتدبير الرب رئاسة السلطان العادي على سائر الكنائس، باعتبار كونها أمّ المؤمنين كافةً ومعلّمتهم، والثاني للاسكندرية، والثالث للانطاكية (ونرى هنا تأخرّ الكرسي الانطاكي عن موقعه السابق بسبب الاحتلال العربي لانطاكية)، والرابع للأورشليمية،

مع رعاية مقام كلّ منها، حتّى إذا احرز رؤساؤها من لدن الحبر الروماني درع التثبيت الذي هو آية بسطة الخطة الحبرية، بعد حلفهم له يمين الطاعة والامانة، ساغ لهم أن يولّوا من كان تحت ولايتهم من الأساقفة بعد أن يكلّفوهم إعلان الاعتراف القانوني لهم، والوعد بالطاعة للكنيسة الرومانية..."(٩).

امتيازات البطريرك الماروني الانطاكي

عدّد "المجمع اللبناني" في الصفحة ٤٢٣ إمتيازات البطريرك الماروني، واهمها:

١ـ حقّ التقدّم جلوساً في المجامع المسكونية، وفي إبداء الرأي والتوقيع. وعلى هذا الأساس اعتبر الكردينال صفير عميد دفعة تعيين الكرادلة الجدد سنة ١٩٩٥، وتكلّم باسمهم، وجلس في مقدّمهم.

٢ـ أن يسيّر أمامه راية الصليب أينما كان، عدا روما وحيث يحل الحبر الاعظم.

٣ـ أن يتقلّد الحلى، ويلبس الارجوان، ويركب جواداً أبيض مسرجاً بلجام ومهامز ذهبية.. وهذا ما حرّمته الشروط العمرية عند المسلمين على المسيحيين أيّاً كانوا.

٤ـ أن يبعث بالرسائل المجمعية إلى غيره من البطاركة.

٥ـ أن يعيّن المطارنة والجثالقة، ويقبل استقالتهم في مجامع أسقفية برئاسته، وأن يحرمهم في حال رفضوا حضور المجامع التي يدعو إليها.

٦ـ أن يذكر إسمه بعد الحبر الاعظم في القداديس والفروض الطقسية...

هذا عدا غيرها من الامور الثانوية والادارية التي خولّته إياها الاصلاحات والانظمة المرعية الاجراء في الطقوس المارونية التي تلزم غبطته ببروتوكولات معيّنة لجهة الزيارات وحضور المآتم ومغادرة المقرّات البطريركية التي لم تعد صارمة في هذا المجال لا سيما بعدما اطلق البابا المعروف بسجين روما لنفسه مثل

هذه الحريات.

علاقات بطريركيات الشرق بالغرب المسيحي

نظراً للروابط الدينية التي تربط الشرق بالغرب المسيحي، قامت بين الطرفين علاقات تاريخية مميّزة، وخاصة بالكرسي الرسولي، والملوك الغربيين. وقد أسفرت هذه العلاقات المتينة إلى مدّ يد العون إقتصادياً وثقافياً، وأحياناً كثيرة عسكرياً للمسيحيين الشرقيين من قبل دول الغرب كلما تعرّضوا لأخطار في بلدانهم. ولتمتين هذه العلاقات، كان بطاركة الشرق يتبادلون الهدايا والزيارات مع ملوك الغرب وقادته الروحيين. ويُذكر على سبيل المثال ما قام به "البطريرك توما، بطريرك القدس الذي حمّل مع راهب من القدس إلى شارلمان بركته وذخائر من القبر المقدّس، وعاد يرافقه أحد كهنة بلاط شارلمان (ملك فرنسا) واسمه زكريا، وكميّات كبيرة من الهدايا والتقادم للأماكن المقدّسة وللبطريرك... كما ارسل البطريرك توما رايةً ومفاتيح كنائس القيامة، والجلجلة، وجبل صهيون، مع الراهب زكريا وراهبين آخرين. وكان سرور شارلمان بها عظيماً..." (١٠). أما بشأن الزيارات المتبادلة مع الكرسي الرسولي وملوك الغرب فهي مستمرة، وقد بدأت طلائعها بزيارة البطريرك إرميا العمشيتي للفاتيكان في العام ١٢١٥، وحضوره مجمع لاتران. ثم توالت الزيارات التي قام بها البطاركة للكرسي الرسولي وللملوك ورؤساء فرنسا وانكلترا وايطاليا والولايات المتحدة وتركيا وافريقيا واوستراليا وروسيا، وغيرها من الدول التي تربط لبنان بها علاقات الصداقة والودّ. ومنذ عهد هارون الرشيد ايضاً قامت وفود في الاعوام ٨٠٢ و٨٠٣ على رأسها "المسلم عبدالله وراهبين يمثلان بطريرك القدس"، تحمل الهدايا إلى شارلمان، وبينها "ساعة دقّاقة"، وفيل ضخم دعاه كتبة الفرنج "أبا العباس"... واستمرّت هذه العلاقات بتحسّن حتى العام ٨١٠ حيث فرض الامبراطور شارلمان في بلاده ضرائب "لترميم وصيانة كنائس الله في القدس... وأتى رهبان لاتين واتخذوا جبل صهيون مقراً لهم..."(١١). وتتابعت مثل هذه العلاقات وأصبح من التقاليد أن يرمّم ملوك فرنسا "كنائس فلسطين"(١٢). كما قامت السفن الغربية بعدة غزوات لشواطئ لبنان وسوريا، ولم تقتصر العلاقات على تبادل الهدايا والزيارات، بل تبادل الغزوات أيضاً، إذ ردّت الزيارة مراكب وسفن شرقية قامت

باحتلال قبرص. كما تهافت الحجاج الغربيون إلى زيارة الاماكن المقدّسة و"كانوا يمرّون بساحل لبنان المأهول بالموارنة، فكان هؤلاء يرحبّون بهم، ويبذلون لهم وداً وولاءً، ويبتهجون باستماع أخبار فرنسا والبلدان النصرانية في اوروبا"(١٣). كما نزحت أعداد كبيرة من اللبنانيين إلى بلدان الغرب هرباً من الاضطهاد وطلباً للقوت، وحيناً آخر طلباً للعلم، وانتهى الأمر بهم إلى بناء الكنائس والمدارس والأديار، واستقبال الطلاب والسائحين الشرقيين فيها. وكان للموارنة الدور الأبرز في هذا المجال.

ولعلّ أبرز مظاهر تلك العلاقات التي قامت بين الشرق والغرب، هي تلك الصلات المستمّرة التي كانت للموارنة بالكرسي الرسولي، وبدول الغرب، منذ الزيارة الاولى التي تحدّث عنها الدويهي والتي ينسب فيها إلى البطريرك الماروني الاول يوحنا مارون زيارته الكرسي الرسولي في اواخر القرن السابع لقبول درع التثبيت الذي تحوّل إلى تقليد بين بطاركة الموارنة وروما، ولا يزال مستمراً حتى اليوم. وهذا ما ألمح إليه قداسة البابا بناديكتوس الرابع في خطبة ألقاها بكرادلة روما في ١٣ تموز سنة ١٧٤٤ حيث قال: "لا يفوتكم أنه في اواخر القرن السابع، عندما فشت بدعة القائلين بمشيئة واحدة في المسيح، وأفسدت سكان البطريركية الانطاكية، جزم الموارنة حينئذ، رغبةً في وقاية طائفتهم سالمةً من ذلك الفساد، أن يختاروا بطريركاً يثبّت من الحبر الروماني"(١٤). وقد توالت مثل هذه الزيارات والبراءات البابوية والرسائل المتبادلة بين البطاركة والبابوات والكرادلة حتى اليوم. وقد توّجت في العام ١٥٨٥ بإنشاء معهد روما الماروني بمسعى متبادل بين الطرفين، كان من نتائجه الهامة ترسيخ العلاقات الثقافية المتبادلة، وتزويد الشرق بقادة روحيين بارزين تركوا أثراً كبيراً على النهضة الثقافية والعمرانية في هذه البلاد.

وفي تقرير شهير للقاصد الرسولي دنديني، إشارة واضحة إلى "أن يوحنا مارون، إذ أرسل إلى الحبر الاعظم، رقّاه إلى المقام البطريركي، ووكل إليه رعاية اولئك المؤمنين الذين ما برحوا أُمناء متمسكين بعروة الدين الكاثوليكي"(١٥). وقد اورد أكثر من كاتب، وفي طليعتهم الدكتور عادل اسماعيل، والأباتي العنيّسي، والأباتي فهد، والخوراسقف يوسف داغر، وغيرهم عدداً كبيراً من البراءات والرسائل

المتبادلة بين قادة الموارنة والفاتيكان وبعض ملوك فرنسا.

بطاركة إنطاكية من القديس بطرس إلى القديس يوحنا مارون

١ـ القديس بطرس الرسول من العام ٣٥ او ٣٧ إلى العام ٤٤.

٢ـ اوديوس (٤٤ ـ ٧١).

٣ـ اغناطيوس ألتوري (٧١ ـ ١١٠).

٤ـ هيرون (١١١ ـ ١٣١).

٥ـ كورنيلوس (١٣١ ـ ١٤٣).

٦ـ ايروس (١٤٣ ـ ١٧٠).

٧ـ توفيلوس (١٧٠ ـ ١٨٢).

٨ـ مكسيمنوس (١٨٢ ـ ١٩١).

٩ـ سرابيون (١٩١ ـ ٢١٣).

١٠ـ اسكلابياد (٢١٣ ـ ٢١٩).

١١ـ فيليبطوس (٢١٩ ـ ٢٣٠).

١٢ـ زيبنوس (٢٣٠ ـ ٢٤١).

١٣ـ بابيلا (٢٤١ ـ ٢٥٣).

١٤ـ فابيوس (٢٥٣ ـ ٢٥٥).

١٥ـ ديمتريوس (٢٥٥ ـ ٢٦٢).

١٦ـ بولس السميساطي (٢٦٢ ـ ٢٧٢) وقد عُزل بسبب اعتناقه النسطورية.

١٧ـ دمنوس الاول (٢٧٢ ـ ٢٧٧).

١٨ـ تيماوس (٢٧٧ ـ ٢٨٣).

١٩ـ كيرللس (٢٨٣ ـ ٢٩٩).

٢٠ـ طيرانس (٢٩٩ ـ ٣١٢).

٢١ـ مارويطاليس (٣١٢ ـ ٣١٤).

٢٢ـ فيلوغونيوس (٣١٤ ـ ٣١٩).

٢٣ـ باولينوس (٣١٩ ـ ٣٢٤).

٢٤ـ اوسطاطيوس (٣٢٤ ـ ٣٤٠).

٢٥ـ فيليطوس (٣٤٠ ـ ٣٦٠).

؟ من العام ٣٦٠ إلى العام ٣٨١ لم يذكر البطاركة لخروجهم على الايمان الارثوذكسي القويم[١٦].

٢٦ـ فلابيانوس (٣٨١ ـ ٤٠٤).

٢٧ـ بورفيريوس (٤٠٤ ـ ٤٠٨).

٢٨ـ إسكندر (٤٠٨ ـ ٤١١).

٢٩ـ توادوتوس (٤١١ ـ ٤٢٨).

٣٠ـ يوحنا الاول (٤٢٨ ـ ٤٤١) يفترض أنه يوحنا الفم الذهبي.

٣١ـ دمنوس الثاني (٤٤١ ـ ٤٤٩).

٣٢ـ مكسيموس (٤٤٩ ـ ٤٥٦).

٣٣ـ باسيليوس (٤٥٦ـ ٤٥٨).

٣٤ـ أكاليوس (٤٥٨ ـ ٤٥٩).

٣٥ـ مرتيريوس (٤٦٠ ـ ٤٧٤).

٣٦ـ يوليانوس (٤٧٤ ـ ٤٧٦).

٣٧ـ يوحنا الثاني (٤٧٦ ـ ٤٧٧).

٣٨ـ اسطفانوس الاول (٤٧٨ ـ ٤٨١).

٣٩ـ اسطفانوس الثاني (٤٨١ ـ ٤٨٢).

٤٠ـ كالنديوس (٤٨٢ ـ ٤٨٥).

٤١ـ يوحنا الثالث (٤٨٦ ـ ؟).

؟ من العام ٤٨٦ أو أكثر اي بعد ولاية يوحنا الثالث استولى مبتدع على الكرسي ولم يذكر إسمه حتى سنة ٤٩٦.

٤٢ـ فلابيانيوس (٤٩٦ ـ ٥١٢).

٤٣ـ بولس (٥١٩ ـ ٥٢١).

٤٤ـ اوفراسيوس (٥٢١ ـ ٥٢٥).

٤٥ـ افرام (٥٢٦ ـ ٥٤٦).

٤٦ـ دمنوس الثالث (٥٤٦ ـ ٥٦١).

٤٧ـ انستاس الاول الكبير (٥٦١ ـ ٥٩٩).

٤٨ـ انستاس او انستاز وانسطاس الثاني (٥٩٩ ـ ٦٠٦).

؟ ومن العام ٦٠٦ إلى العام ٦٨٠ استولى هرطوقي آخر ولم يذكر إسمه على الكرسي. وربما خلا الكرسي البطريركي بسبب سقوط انطاكية بيد العرب.

٤٩ـ توافانس (٦٨٠ ـ ٦٨٥).

٥٠ـ يوحنا مارون (٦٨٥ ـ ٧٠٧). وهو البطريرك الماروني الأول، مؤسس الطائفة المارونية وكنيستها المستمرّة حتى اليوم، والحامل لقب "بطريرك انطاكية وسائر المشرق"، ويحمل الرقم خمسين بين البطاركة الانطاكيين القويمي الايمان. ونلاحظ أن مدد تولّي معظم هؤلاء البطاركة كانت قصيرة جداً، بعضها لا يتعدّى

السنة أو السنتين، مما يدلّ دلالةً واضحة على مدى صعوبة إشغال هذا المركز في زمن مشحون بالانقسامات، والبغضاء، والتزاحم على السلطة والنفوذ، وتدخّل الامم الغريبة والقريبة.

سكان مدن الشرق الهامة عند دخول العرب إليها

تشير الاحصاءات إلى أن سكان إنطاكية عند دخول العرب إليها في اواسط القرن السابع كانوا بحدود الـ ٣٠٠ ألفاً، أفاميا ٧٠٠ ألف - بيروت ٥٠ ألفاً - دمشق ٥٠ ألفاً... وفي "مجمل سوريا الثانية ولبنان"، حيث تنتشر جماعة مارون، كانوا بحدود "الستة ملايين نسمة" نصفهم تقريباً من اليعاقبة، والنصف الآخر من الموارنة. اما الروم البيزنطيون، فكانوا لا يزيدون على المليون نفس[١٧]... وفي غياب الاحصاءات الدقيقة تبقى هذه الأرقام وهمية ومبالغاً فيها.

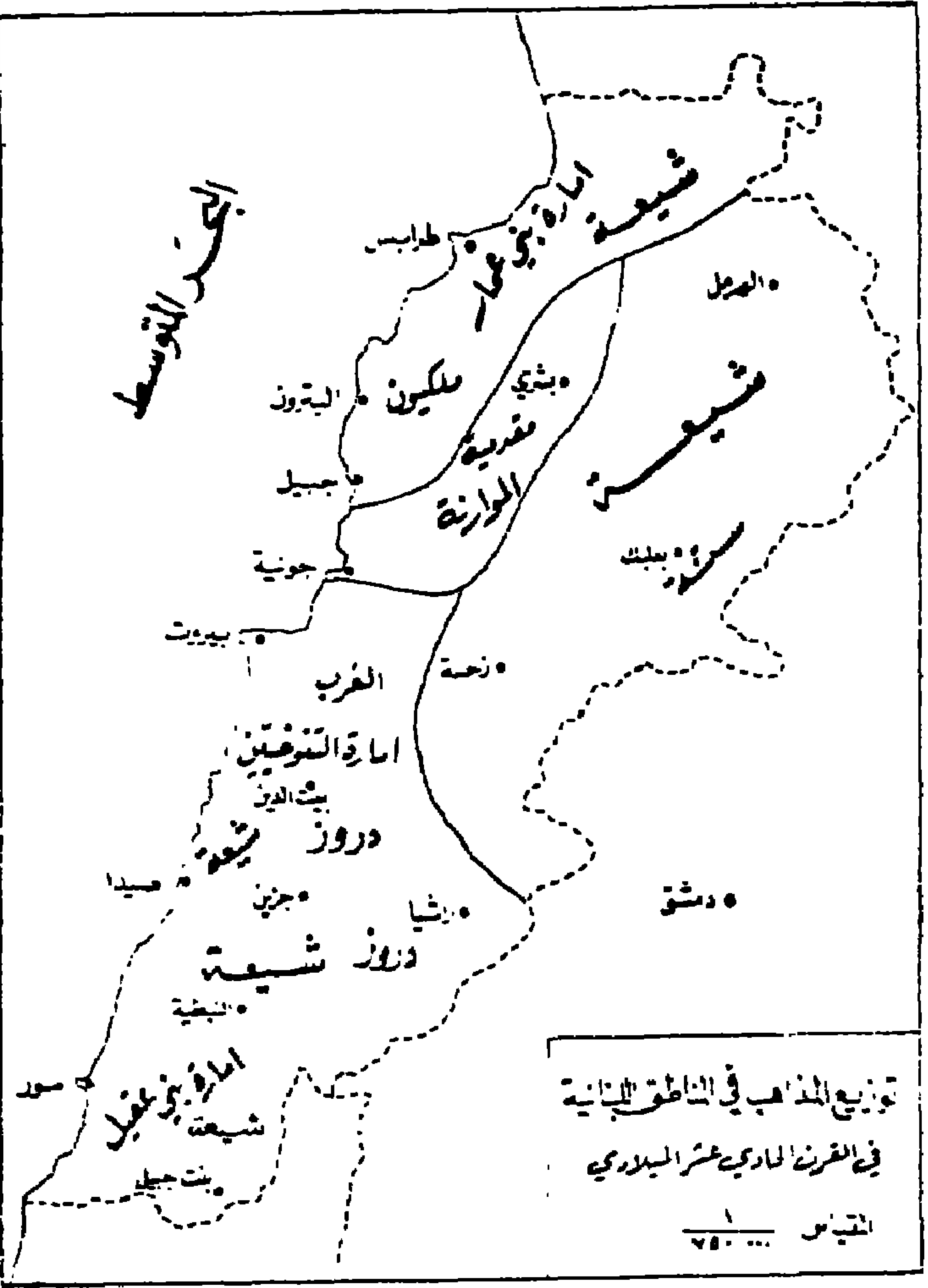
٢ـ مواطن الموارنة الأوائل
في سوريا ولبنان

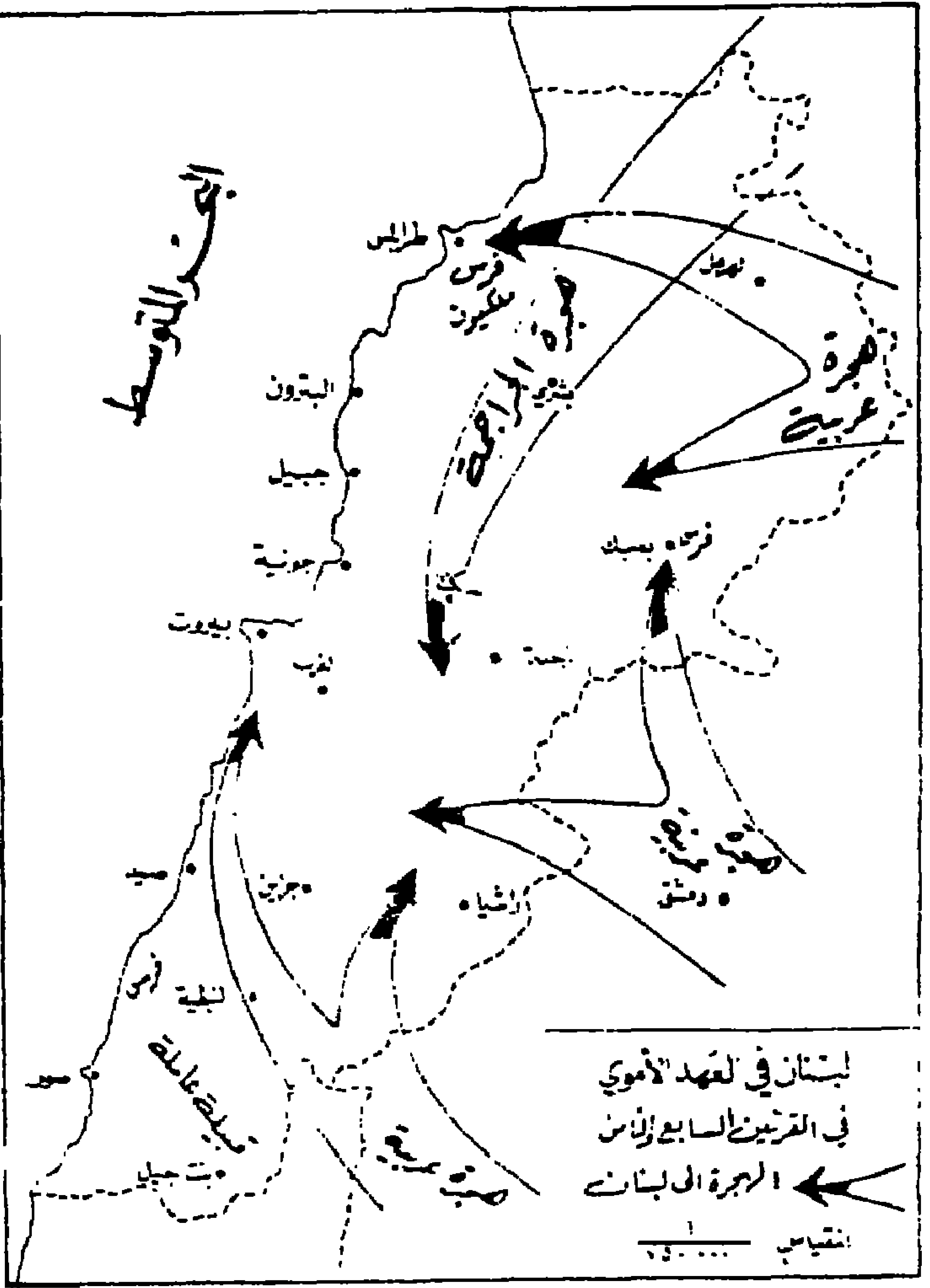
حدود الوطن الماروني

الشيء الملفت للنظر، بخصوص حدود الوطن الماروني، عند نشوء الكنيسة المارونية، هو أن تلك الحدود كانت هي نفسها حدود الوطن الفينيقي التاريخية التي تمتد من عند مصبّ العاصي في سوريا الثانية إلى عكا ساحلاً، أي بين جبال اللكام شمالاً وجبال الجليل جنوباً، والسلسلة الشرقية وجبال العلويين شرقاً، إلى البحر المتوسط غرباً.

وبما أن مدن العالم القديم كانت تشكّل إمارات شبه مستقلّة، ولو ألّف سكانها شعباً واحداً، كما كانت الحال في صيدون وصور وجبيل وطرابلس وعمريت الفينيقية، أو مقدونيا وأثينا وسبرطا اليونانية، هكذا قُسّمت هذه البلاد المارونية، إذا صحّ التعبير، إلى مناطق نفوذ، وأبرشيات، تتبع دينياً إنطاكية، وإدارياً القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية الحاكمة.

وعلى هذا الأساس يمكن التأكيد أن الجماعة المارونية التي تبعت تعاليم القديس مارون، والتي انتشرت في المنطقة التي أشرنا إليها، كانت تعتبر أن مقرّ قيادتها الروحية في دير مار مارون الكبير على العاصي، ورئيس هذا الدير الذي يلعب دور "الاكسرخوس" أي المترئس على بقية الأديار، والمتقدّم عليها، رئيس هذا الدير، هو رئيس الطائفة المارونية قبل أن تصبح كنيسة منظمّة، وهو بدوره يدين بالولاء للبطريرك الانطاكي الارثوذكسي الصحيح الايمان. ولما دمّر البيزنطيون هذا





الهجرات وتجمعات الطوائف.

الدير، والأديار المارونية الأخرى، انتقل الموارنة إلى لبنان، واتحدوا تحت راية رئيس دير مار مارون الكبير السابق يوحنا مارون، وألّفوا كنيسةً مارونية مستقلّة، وصار يطلق عليهم، أو على الجماعة المارونية السابقة، إسم "الموارنة" أي منذ العام ٦٨٥، سنة تولّي الاسقف يوحنا مارون "بطريركية إنطاكية وسائر المشرق". وبما أنهم الجماعة الارثوذكسية الخلقيدونية الأكثر عدداً في الشرق، تولّى قائدهم الروحي يوحنا مارون بطريركية إنطاكية وسائر المشرق، في وقت سقطت فيه إنطاكية نفسها بيد العرب واستحال على القيّمين على بطريركيتها السكن فيها. فتحولّت كفرحي في بلاد البترون إلى مقرّ بطريركي لموارنة الشرق. ونظراً لأهمية هذا المركز الذي تبوّأه الأسقف يوحنا مارون، أصبح الزعيم الروحي والمدني للشعب الماروني المنتشر في كامل الوطن الماروني الممتد من الجليل إلى اللكام، أي من جرجومه في جهات إنطاكية إلى قانا الجليل التي شهدت الأعجوبة المسيحية العظمى بتحويل الماء إلى خمر.وأصبح "حزب مارون" أو "جماعة مارون"، كنيسةً مارونيةً منظمّة، والوطن الماروني، كياناً مستقلاً يحكمه مقدّموه وامراؤه بالتعاون مع بطريركه "بطريرك إنطاكية وسائر المشرق" بصفته "مقدّم المقدّمين"، والمرجع الأول في الاوقات العصيبة.

انحسار الوطن الماروني إلى داخل الأرض اللبنانية

وبعد الحرب التي شنّها الملك البيزنطي يوستنيانوس الاخرم سنة ٦٩٤ على بطريرك الموارنة يوحنا مارون، انحسر الوطن الماروني الكبير، وانحصر بالجبال اللبنانية، سيّما وأن العرب من جهة ثانية كانوا قد احتلّوا الساحل والبقاع والجنوب وسوريا. واصبحت حدود الوطن الماروني الجديد تمتدّ من منبع العاصي وعرقا في الشمال إلى مصبّ الليطاني في الجنوب. ونظراً للصراع العسكري المتواصل بين العرب والفرس والروم، وأحياناً على حدود الوطن الماروني، فضّل الموارنة الاستقلال، والاعتصام بجبالهم رافضين الانحياز إلى أي من هذه الأطراف المتنازعة. وقد ساعدهم في ردّ هؤلاء الغزاة عن أرضهم، وحدة الايمان بالمبادئ المارونية الخلقيدونية التي اخذوها عن القديس مارون. ولا شيء كالاضطهاد عامل يوحّد المشاعر، ويشدّ اللحمة، فلذا اجتمعت قيادات الموارنة، مقدّمين، وامراء، واساقفة، تحت راية البطريرك يوحنا مارون الذي قام بجمع رعيته الكبيرة وخرافه،

ويحمايتها من الذئاب الطامعة بها. ولما كان في لبنان بقايا من "خيل الروم" والمرتزقة، فقد رفض هؤلاء الانصياع لأوامر ملك الروم بمغادرة البلاد، وآثروا البقاء تحت راية البطريرك الماروني، والانضمام إلى كنيسته. فالجراجمة، وهؤلاء المتمردون الذين أُطلق عليهم إسم "المردة"، والموارنة المؤمنون الخاضعون لتعاليم مارون، يشكّلون شعباً مارونياً واحداً في وطن ماروني محدّد، فألّفوا جيشاً مارونياً قوياً يدين بالولاء لمقدّميه وبطريركه، وعاشوا ستة اجيال متواصلة، أي من دخول العرب في العام ٦٣٦ إلى المشرق، إلى دخول المماليك جبل لبنان سنة ١٣٠٥، باستقلال كامل وسيادة تامة، مشكّلين نواة الوطن أو الكيان اللبناني الذي ستكرّسه لاحقاً المواثيق الدولية وطناً حراً سيّداً، يعيش فيه المواطنون بكل فئاتهم، ومذاهبهم، وأعراقهم، بحرية ووئام، واستقلال وسلام. وللموارنة فضل كبير في هذا الانفتاح على المذاهب الأخرى إذ أنه في كل مرّة كان لهم الخيار والقرار، عمدوا إلى توسيع رقعة الوطن ليضمّ حفنةً جديدة من المذاهب والمواطنين الجدد.

أصول وجذور الشعب الماروني

معظم المؤرخين والباحثين في أصول الشعب اللبناني، يرجعون إلى اسطورة المؤرخ اليوناني هيرودوت، ويزعمون أن هذا الشعب ما هو إلاّ هجرة سامية تعود إلى نحو أربعة آلاف سنة قبل الميلاد جاءت من جهات البحر الأحمر والجزيرة العربية. وكأن هذه البلاد الخصبة الأرض، الوافرة المياه، الحاملة بذور الحضارة إلى أقاصي الشرق والغرب، كانت قبل هذه الهجرة صحراء لا تدبّ فيها دابة، ولا يجري على أرضها بشر. والعكس من ذلك هو الثابت والصحيح، فقد اكتشف علماء الآثار في إحدى مغاور إنطلياس هيكلاً عظمياً للبنانيٍّ عمره خمسون ألف سنة. في حين اكتُشف شمالي النهر الكبير، في ما كان يسمّى قديماً بعمريت، مجمّع سكني يعود إلى مئتي ألف سنة، وفيه أكثر من أثر ودليل على وجود الفينيقيين فيه، ونشوء حضارة لهم برزت بعد اكتشافات اوغاريت، وتل رأس شمرا، واعتبرت واضعة الحروف الكتابية الأولى قبل كل الحضارات العالمية، واليها أعاد العلماء فضل اكتشاف الحروف الصوتية التي شكّلت قاعدة الأساس للغات العالم كلّها. وحتّى كتاب التوراة الحديث نسبياً في عمره، ولو أنه أقدم "الكتب التاريخية والمراجع، فقد

ذكر لبنان والكنعانيين، عشرات المرات، ونسب نسلهم إلى حام، أخي سام، ثاني اولاد نوح "الذي أرسل آخر أبنائه كنعان للحلول بقبيلته في لبنان". فبنى أول مدينة له وأسماها "صيدون" التي عُرفت "ببكر كنعان". وهذا ما جعل كنعان "الملعون" على حدّ ما جاء في التوراة، "عبداً يكون لعبيد إخوته"، وهو الرافض للعبودية، أن ينتقل باسرته، كما يشير سفر التكوين (٩:٢ - و٢٧)، منفصلاً عن ذرية نوح، ويقيم في "الكنعانية" و"أرض الميعاد"، و"الأرض المقدّسة" و"فينيقية"، و"فلسطين"، و"جنة عدن"، و"حدائق الله"... إلى ما هنالك من التسميات التي اطلقتها التوراة على الأرض اللبنانية. وقد زعم المؤرخ اليوناني هيرودوت، نقلاً عن كهنة معبد ملقارت في صور أن أهل صور وصيدون الكنعانيين قد نزحوا بسبب الجفاف والمجاعة التي ضربت شواطئ البحر الاحمر والجزيرة العربية إلى لبنان(١). في حين تبنّى المؤرخون قوله وأضافوا أن قبائل أخرى آرامية نزحت من بلاد ما بين النهرين، بعدما عَمّرت برج بابل واستكبرت فبلبلها الرب، وضربها بزلازل متواصلة حتّى تمّ نزوح قسم كبير من شعبها الذي تفرّق بين شمالي لبنان، وفلسطين. وعندها تمّ بناء مدينة "جبل" أو "جبال"، وهي المعروفة اليوم بجبيل، وقد اطلق عليها اليونان إسم بيبلوس وإليها نُسبت التوراة باعتبار جبيل مدينة الحرف، وأول مدن العالم الحجرية كما قال أحد المستشرقين، في حين أضاف رينان وهو الباحث الأثري الفرنسي الشهير بعدما نقب أرضها، وكان له الفضل في إبراز معالمها، بأنها عرفت إثنتي عشرة حضارة عبر تاريخها، وبلغت حدود مملكتها إلى الدامور جنوباً لتتصل بالشعب الكنعاني المقيم هناك، في حين تخطت حدودها شمالاً الحدود اللبنانية لتصل إلى الّلكام، وكانت عاصمة الشعب الآرامي او الاموري. ثم اختلط الشعبان الكنعاني والارامي مؤلّفاً شعباً واحداً أسماه اليونانيون الشعب الفينيقي بسبب صدفة الفينيكس البحرية التي منها صنع الفينيقي تاجر الارجوان أقمشة بنفسجية مائلة إلى الاحمرار، حيكت ملابس للملوك والامراء وكبار الكهنة. ومنهم من نسب التسمية الفينيقية إلى النسر الكنعاني المعروف باسم فينيكس اي الكنعان، او شجر النخيل الذي يكثر في الشواطئ اللبنانية. والشيء الثابت والاساسي أن الفينيقية لقب اطلق على الشعب اللبناني الأصيل وليست هجرة غريبة حطت في لبنان.

وما أن غابت سلطة اليونانيين عن هذه البلاد حتى استعادت إسمها اللبناني العريق، وفتحت صدرها لاستقبال المضطهدين في المناطق المجاورة، لا سيما موارنة سوريا الثانية، وجنود البيزنطيين الخارجين عن طاعة ملوكهم، ومن انخرط منهم في الجيش البيزنطي المتمرد على اوامر الملك البيزنطي الذي دعاهم لمغادرة البلاد على أثر توقيعه اتفاقاً مع العرب يقضي بسحب ١٢ ألفاً منهم إلى خارج الأرض اللبنانية. هذا بالاضافة إلى جاليات تركت أرمينيا وتركيا في عهد الحكم العثماني، ولا سيما بعد المجازر التي تعرّضت لها في الحرب العالمية الاولى والثانية، عدا بعض اليهود والسريان والكلدان، وغيرهم من شعوب اخرى جنسيتها قيد الدرس. وكل هذا الحشد من الجنسيات والاعراق والطوائف وجد في هذه الجبال اللبنانية الملاذ الأمين الذي وفرّ له الحرية والامن والطمأنينة، فرفض التخلي عن هذه الأرض واستمات في الدفاع عنها بوجه الامبراطوريات التي حاولت قضمها منذ أيام الأشوريين والبابليين والكلدان والحثيين، إلى أيام الفرس، واليونان، والرومان، والعرب، والفاطميين، والصليبيين، والمماليك، والعثمانيين والفرنسيين، والاسرائليين، وغيرهم من الامم الطامعة بهذه الأرض وشعبها.

هوية الشعب اللبناني

فالشعب اللبناني إذن مزيج من عدة جنسيات ومذاهب وأعراق، وفي معظمه من العرق اللبناني الأصيل الذي أعطى العرب هويةً حضاريةً حيّةً، واعطوه العمق الجغرافي والصلات التاريخية والأخوية، إلى جانب صلات الدم والثقافة، فإذا به يتميّز عن كل شعوب الأرض بهذا الغنى الأثري والحضاري والمذهبي الذي جعل منه كياناً فريداً في تراثه وتطلعاته ومؤهلاته التي اكتسبها عبر التاريخ، من تعاطيه التجاري والثقافي مع كافة شعوب الأرض التي وجدت في هويته اللبنانية، هويةً عالميةً فريدة في تنوّعها وغناها، وسعة انتشارها. وقلما تجد بلداً في العالم يحمل شعبه في اكثريته مقدار ما يحمل الشعب اللبناني من الهويات والجنسيات التي تخولّه حق المواطنية في معظم دول العالم. وقلما نجد حكومةً أو برلماناً ليس فيه متحدرون من أصل لبناني لهم دورهم الفاعل في سياسة هذه الدول المنتشرة في القارات الخمس. وهذا الدور ليس حديثاً إطلاقاً، بل منذ عهد الفينيقيين، قد شهدنا

اباطرة لبنانيين في قرطاجة، وامراء لبنانيين في جزر اليونان، وإيطاليا، وبحر إيجه واسبانيا. وبعدهم في العهد اليوناني وجدنا في المدارس الفلسفية اليونانية اساطين فكر وعمالقة ترأس بعضهم هذه المدارس، ومثال على ذلك أبيقورس صاحب مدرسة اللذة والانشراح المعروفة بالمدرسة الابيقورية. حتّى إرسطو وأفلاطون هما يتحدَّران من أسر فينيقية جعلت إقامتها ردحاً من الزمن في كريت وغيرها من جزر وممالك اليونان. وفي العهد الروماني، حكم الامبراطورية الرومانية التي امتدَّ ملكها حتى شمل الشرق والغرب، عدة أباطرة لبنانيين من أُسرة ساويروس الشمالية التي نشأت وترعرعت في عرقه اللبنانية. وها نحن نشهد اليوم رؤساء جمهوريات وقادة وزعماء في دول العالم لبنانييّ الأصل.

وعلى هذا الأساس، ومع تقديرنا لكل هويات الدول، هويتنا اللبنانية تبقى الأشمل والأوسع إنتشاراً في العالم، فتضُمّ ولا تضَمّ، ولا ضير في انتسابنا إلى عُروبة نحن دفعنا في عروقها الدم والحياة. واللبناني يعرف تماماً، من سوابق تاريخية متكرّرة، انه يوم تخلّصت هذه الأرض من سيطرة المستعمرين الغرباء، من فرس ويونان ورومان واتراك، وغيرهم، عادت لتحمل إسمها اللبناني العريق وهويتها اللبنانية الأصيلة التي على حد قول الفيلسوف الملحمي اللبناني البيروتي الأول سنكن يتن "لا ينازعها في حملها أحد"(٢). ولا تزال ماثلةً في الذاكرة واقعة رفض امير لبنان الكبير فخر الدين الثاني قبول "لقب أمير عربستان" الذي أغدقه عليه السلطان العثماني مراد الرابع، وأصرّ على أن يبقى "أمير لبنان والشطوط البحرية" حسبما أشار المؤرخ العربي المحبّي(٣).

ولو عدنا إلى التاريخ لوجدنا اللبناني قد حمل، أو لبس لكل فترة لبوسها، تبعاً لمشيئة الحاكمين، وما أن ينحسر ظلّ الغرباء حتى يعود إلى زيّه اللبناني الأصيل. ففي القرن الخامس والسادس والسابع طغت على شعبه تسميات "المردة" و"الجراجمة" و"الموارنة"، تماماً كما أُطلق على سكانه الاوائل إسم "الصيدونيين"، و"الصوريين" و"الجبيليين"، ثم "الكنعانيين"، و"الآراميين"، و"الفينيقيين"... ومردّ هذه التسميات، والالقاب التي تتناسى الهوية التاريخية، والاسم اللبناني الأصيل، إلى امرين: الأول حظّاً لقدر هذا البلد الصغير الذي فرض نفسه وتجارته وحضارته على

العالم، وهذا من غيرة الامبراطوريات الكبيرة. والأمر الثاني هو الرغبة المشتركة لدى الأمم في طمس الاسم اللبناني كي تحول بين هذا الشعب وباقي أجزائه المنتشرة في كافة دول الأرض، والتي لو اجتمعت لخدمة قضية واحدة، أو كيان واحد، لما استطاعت أية قوة، مهما عَظُم شأنها، أن تخضع هذا الشعب العظيم، وبالتالي أن تحدّ من طموحه وسيطرته على كافة مقدّرات المنطقة. إنها المصلحة المشتركة تجمع الاضداد وتوحّد الأعداء، لخدمة هدف واحد مشترك، يكمن في ضرورة قص رياش هذا "النسر" الكنعاني الذي إن بسط جناحيه وحلّق، حجب الشمس، وخطف الضوء عن كامل هذه الأرض المشرقية المستنيرة بإشعاعه.

ونحن لا نبالغ إذا قلنا، أن الحضارة اليونانية نفسها، هي مدينة للبنانيين بتوقّدها، وعبثاً يحاول اليونانيون إخفاء هذه الحقيقة بإطلاق التسميات التمويهية عليهم "كالفينكس"، أي تجّار الارجوان، او "الحُمُر" للسبب ذاته، متغافلين عن الأسم اللبناني الكبير. فهذا شيشرون علاّمتهم يقول: "إن الامة الفينيقية هي كثيرة المكر، كما تشهد لنا بذلك الآثار القديمة، مع عامة المؤرخين... إنهم ولدوا للعبودية...إنهم قطيع خسيس... واللاتين يصفونهم بالنسل الصبور، ويذكرون إسم السوري مرادفاً لاسم العبد. وسقراط يعدّ السوريين في جملة الامم التي ولدت للعبودية... وذكر سترابون "الكذبة الفينيقية". وكان هوميروس أول من نشر هذه الأخبار عن الفينيقيين (بأنهم مثال الخداع والخبث والخسّة)، فسوّد بها سمعتهم بين اليونان. ووصفهم بالبراعة في الخداع، والقدرة في إيلاد الشرور بين البشر..." (٤).

هذا ما وصف به كبار كتاب اليونان الفينيقيين، مع ان اليونان، كما وصفهم أحد المستشرقين ليسوا "سوى نقلة للحضارة الفينيقية إلى الغرب"، وما الحضارة الهلّينية التي يتباهون بها، كما قال آخر "سوى مدرسة من مدارس الفكر الفينيقي". وفي هذا المجال نستشهد بما قال المستشرق ديسو (Dussaud) . "جمع الفينيقيون الشرق والغرب بشبكة من العلاقات التجارية والثقافية، فكانوا اول من انتشل اوروبا من البربرية"(٥) . والأب مارتان اليسوعي يقول: "لا يُنكر على اليونان أنهم توصلّوا إلى أخذ الحضارة عن شعب أرقى منهم، وهم الفينيقيون، وأنهم تمكّنوا من أن يسرقوا منه سرّ تفوّقه"(٦) .

إن مراجعةً بسيطة للدور الذي قام به اللبنانيون في مختلف عصور تاريخهم، تُبرز بوضوح انهم استحقوا عن جدارة هذا اللقب الذي منحهم إيّاه المفكّر والشاعر اللبناني الكبير سعيد عقل حين وصفهم بأنهم "معلّمو معلّمي العالم".

حدود لبنان في التاريخ

اعتبر اليونان، وهم أكثر الامم التي تحدّث مؤرخوها عن لبنان، نظراً لصلاتهم الوثيقة بشعبه وحضارته، أن لبنان هو سلسلة الجبال الغربية فقط. اما السلسلة الشرقية فقد دعوها "انتي ليبان"، أي المقابلة للبنان، في حين أن سنكن يتن البيروتي هو اول من ذكر السلسلة الشرقية واعطاها إسم "أنتي ليبان"، ولكنه ادخلها ضمن الأرض اللبنانية في المعلومات التي نقلها عنه المؤرخ الجبيلي فيلون. وذكر ديودورس الصقلي في القرن الاول أن لبنان يمتد من صيدا إلى طرابلس، وأن غابات الأرز تظلّله (٧). والجغرافي اليوناني الشهير سترابون فرّق بين جبلي لبنان الشرقي والغربي، ومثله بوليب، وجعلا بينهما "سورية المجوّفة" أي سهل البقاع، وحدوده الشمالية عند جبال عكار. اما بلينوس فهو يجعل أول لبنان عند صيدا، وآخره وراء النهر الكبير، عند بداية جبال النصيرية او العلوية (٨) . وكبير مؤرخي الرومان ثاوفانوس، ومثله مؤرخو العرب الاوائل يتحدّثون عن وطن المردة الذي يمتد بين مصبّ العاصي والقدس الشريف، ومثلهم أيضاً إبن العبري(٩). اما إبن جبير، وابن بطوطة الرّحالتان، ومثلهما ياقوت الحموي، فيجعلون حدود لبنان تشمل المنطقة الواقعة بين حمص شمالاً ومكة المكرّمة والمدينة، وصولاً إلى الشام شرقاً، وسميساط وقيليقية إلى بحر الحرز(١٠) .

اما الكاتب اللبناني الدكتور كمال الصليبي في كتابه "التوراة جاءت من جزيرة العرب"، فقد أطلق إسم لبنان على جبل في الحجاز. والأب مارتين اليسوعي رأى "أن عشيرة آرام (خامس اولاد نوح) التي عمّرت بلاد سورية لم تقض زمناً طويلاً كغيرها من العشائر في قطع البلدان الواسعة حتى تستقر في موطنها الجديد تحت سماء لبنان الصافية... فإن لبنان، إذ صدقت التقليدات التي اوردناها، لم يكن أرضاً جديدة في عين أولاد نوح، لأن الأب حام، وهكذا سام (العمّ) في الراجح كانا

عائشين أيضاً عندما سكنت ذرّيتهما هذه الأرض المباركة، أرض الآباء الاولين. ولا يبعد ان يكونا قد بادرا كلاهما إلى الاقامة بأرض الميعاد هذه... وقد تمكّن أبناء آرام في تلك الأرض المتسّعة الخصيبة التي قدّمت لهم في بلاد آرام الحقيقية او سورية، أن يمدّوا إلى بعيد خيامهم، ومنازل عشائرهم، من البادية في الشرق، إلى البحر الكبير (المتوسط) في الغرب، ومن تخوم الكنعانيين صوب صيدون إلى مضايق جبل التور (طورس) في الشمال. وكان هؤلاء المهاجرون الجدد من الآراميين يتفرّقون في ربى لبنان ووهاده كلما كثرت عشائرهم، حتى ملأوا، في قليل من الزمن، جميع جهات الناحية المذكورة...". وهذا الرأي يفترض أن الكنعانيين جاءوا من ساحل البحر الأحمر، كما ذكر هيرودوت، وهم من أبناء حام، اي حاميين، وليسوا ساميين، ثم تبعهم اولاد آرام أبناء عمّهم من بلاد شننعار (بلاد ما بين النهرين)، ليسكنوا إلى جوارهم. وهذا ما أشرنا إليه سابقاً، ورأينا مبالغةً فيه، إذ أن تلك الهجرات في حال حدوثها، لا يمكن أن تشكّل بأي حال من الاحوال، حالةً شاملة لكل المواطنين اللبنانيين كي يجوز ردّهم إلى الاصل الحامي او السامي أو الآرامي. وفي افضل الاحوال، لا يمكن افتراض خلو الأرض اللبنانية من السكان السابقين لهذه الهجرة. فأين هو الشعب اللبناني الأصيل الذي وجدت آثاره في مغاور لبنان، على شكل فؤوس ومخارز ومناشير وسيوف حجرية، وحلى وجواهر معدنية في مرحلة لاحقة، وعظام بشرية تعود إلى آلاف السنين، وليس أبعدها هيكل انطلياس الذي قدر العلماء عمره بنحو خمسين ألف سنة. أيُعقل أن تكون هذه السهول والحقول اللبنانية الخصبة، والمروية، قفراء جدباء، بما فيها اليوم من مراع وغابات وبساتين، والصحاري والبوادي من حولها تعجّ بالسكان، حتى يتنبّه هؤلاء بعدما أصابهم الجفاف بوجود أرض على قاب قوسين منهم وُصفت بأنها "حدائق الله"، و"بستانه"، و"جنّة عدن"؟! فيأتون إليها ليتفرّدوا بها باعتبارها خالية من السكان!!

وفي النهاية يؤكّد المستشرق الأب مارتين اليسوعي "أن هذا الشعب قد انتظم امةً، وحافظ على تقاليده مستقلاً عن جميع الشعوب التي يزعمون أنه مرّ بها" (١١).

والعودة إلى آثار اللبناني الاول المنتشرة في كافة أرجاء الوطن اللبناني، إبتداءً من مغاور قنوبين، ونهر الجوز، ونهر ابراهيم، والكلب، وعدلون، مروراً بتلال

افقا وايليج ويانوح، والمنيطرة، وصولاً إلى دير القمر وكامل أنحاء الشوف وجزين، والجنوب والبقاع... إلى كل هذه الجبال التي تخفر هذا الساحل مشكّلةً حصناً طبيعياً لجنّة فريدة، وفي كل منها رسوم وعظام وادوات وحُلى تثبت وتؤكّد عراقة وأقدمية هذا اللبناني الذي عاش في مملكة تمتد من مصب العاصي وقمم القورشية واللكام في الشمال إلى بادية الشام في الشرق نزولاً إلى البحر المتاخم لهذه الأرض غرباً، وهي حدود وطن عريق، قديم العهد، عمره آلاف السنين، من عمر حضارته التي لولاها لبقي الشرق والغرب معاً أسرى الهمجية البدائية. وفي هذه الأرض عاش شعب لبناني أصيل عمره من عمر هذه الأرض، وفيها ابتدع حروفاً، وصناعات، وفنوناً، كان الفضل لها في القفزة العملاقة التي خطتها شعوب الشرق والغرب من الهمجية إلى الحضارة. وهذا لا ينفي كونه جزءاً من البلاد العربية التي أطلق نهضتها وحمل همومها وقضاياها ولا يرى أي انتقاص من سيادته واستقلاله في الانتساب إليها، باعتبار البلاد العربية مجموعة من الامبراطوريات والحضارات العريقة، بينها المصرية الفرعونية، والمغربية، والعربية، والآرامية، والسومرية، والفينيقية... وغيرها.

٣- الاحزاب والتنظيمات العسكرية المارونية

حزب مارون

أمام هذا السيل من الأسماء والتحديدات والألقاب التي أُغدقت على الشعب اللبناني، والوطن اللبناني، من قبل الدول المحتلة والمؤرخين، نتوقّف عند المرحلة المارونية، ولا يسعنا إلاّ إبداء الأسف لتبديل الإسم التاريخي لهذه الأرض العريقة في القدم، تبعاً لأهواء ومصالح الغزاة، لجعلها أرضاً بدون هوية تابعة لامبراطورياتهم التي ظنوّها مؤبدةً، وإذا بهذا الشعب الأبي يرفض استمرارها، ويقاومها بعناد وإصرار، حتى يسترجع حدوده وسيادته وحريّاته. فلا الكنعانيون استطاعوا جعلها كنعانية، ولا الفينيقيون رغم تفاعلهم مع شعبها الأصيل وفعلهم الثقافي الخارق استطاعوا أن يجعلوها فينيقية، ولا السوريون تمكّنوا من إبقاء الاسم السوري، أو إسم "بلاد الشام" كما عرفت أيام العثمانيين، مقروناً بها أو مستتبعاً إياها... وحده الإسم اللبناني الأصيل طغى على جميع هذه الأسماء، وكان يعود للظهور كلما انحسرت القوى المحتلة والغاصبة. ولم يذكر التاريخ أن هذا الشعب اللبناني الأصيل قد تخلّى عن أرضه مرةً لأحد أو غادرها مرغماً إلى جهات اخرى، وكل هجراته كانت طوعية مع الاحتفاظ بالهوية والجنسية اللبنانية معاً، رغم أنه كان أول شعب دار حول العالم، واكتشف البلدان المجهولة، والبحار الغامضة، وزرع جالياته فوق كل أرض وتحت كل شمس، تاركاً في بلاد الاغتراب أضعاف شعبه الباقي في مواطنه الاصلية.

وفي المرحلة المارونية التي نحن بصددها، والممتدة من القرن الخامس إلى

القرن الحادي عشر، الّف هذا الشعب باكثريته الساحقة المتواجدة في الجبل اللبناني وجبال العلويين، شعباً واحداً عُرف "بجماعة مارون" او "بحزب مارون" إذ طغت عليه الرابطة الدينية، باعتباره كان يؤلّف "شعباً" أو "جماعةً روحيةً" سريانيةً، ارامية الأصل، مارونية المعتقد، لبنانية الجذور والجغرافيا، والتاريخ. وتحوّلت المارونية لاحقاً، من مذهب، وعقيدة دينية، ونهج روحيّ إلى كيان سياسي له تنظيماته العسكرية، والروحية، وقادته الزمنيون.

وقد انتشرت هذه الجماعة او الحزب في كلّ من لبنان وسوريا الثانية او البلاد المعروفة باسم جبل قورش وصولاً إلى جبال اللكام وإنطاكية. ومؤسس هذا الحزب او الجماعة هو القديس مارون الذي أطلق جملة من المبادئ والتعاليم الروحية التي شكّلت نظاماً أساسياً مختلفاً عن الدول المتاخمة له، كالعبرانيين في الجنوب، والعرب المسلمين في الشرق، والروم البيزنطيين النسطوريين في الشمال. وكانت المرجعية او العاصمة الدينية لهذا الشعب "إنطاكية"، ومقرّ قيادته متنقّلة بين دير مار مارون في سوريا الثانية، ودير مار مارون في كفرحي، وغيرها من المقرات اللبنانية. في حين، كانت عواصم الشعوب المحيطة به في القدس والقسطنطينية والشام. ولما كانت جبال لبنان، معاقل يسهل الدفاع عنها أكثر من السهول والهضاب السورية، فقد تجمّع هذا الشعب إبّان محنته ومهاجمة البيزنطيين واليعاقبة له، في الجبال اللبنانية. ولما كان الاختلاف بين الشعب المستعمر، وهو رومي آسيوي واوروبي الأصل، والشعب اللبناني الآرامي، فقد سهل على الرومان التخلّي عنه، رغم حدة الايمان الارثوذكسي التي كانت تجمعهما، لأن رابطة الدين، واللسان ليست كافية لصهر الشعب في أمّة واحدة، بل الأهم من ذلك رابطة العرق والدم والنهج والتقاليد والارض والثقافة والمصير الواحد.

الجيش الماروني الواحد يحمي الموارنة المقيمين في لبنان والنازحين إليه

وعلى هذا الاساس، وامام اول تجربة في التمايز العقائدي، بين مونوتولية وخلقيدونية، انشطر هذا الشعب إلى مجتمعين، ونظامين، ودولتين منفصلتين ومستقلّتين، برجوع كل منهما إلى جذوره التاريخية، فأعلن الحزب الماروني، او

الجماعة المارونية، التمرّد على السلطات البيزنطية، واستقلّ ضمن حدوده الجديدة اللبنانية. ولكي يضمن حماية هذه الحدود أنشأ جيشاً مارونياً يتألّف من عدة تشكيلات او تنظيمات، بقيادة مقدّمين وامراء حملت التسميات التالية:"مردة"، "جراجمة"، "خيل الروم". واندمجت هذه التشكيلات، بما فيها الرومانية والتي آثرت البقاء في هذه الأرض حيث تجمعها وشعبها المبادئ الايمانية الواحدة، وكانت تعرف في الأصل "بخيل الروم"؛ ثم اندمجت بما كان يسمّى "الجراجمة"، وفرق "المردة"، وأصبحت جيشاً مارونياً واحداً يسهر على حماية الحدود، والايمان الماروني، حتى في وجه الروم الذين كانوا قد سخّروهم لحماية امبراطوريتهم البيزنطية.

وقد جاء في "التاريخ البيعي" للسقولستقي "أن الملك أنستاس أعاد تنظيم الجندية اللبنانية التي نودي بأحد قوادها ملكاً، وهو جرمانوس سنة ٥٨٣"، فأبى قبول هذا المنصب (١). كما أشار بروكوبيوس إلى الجندية اللبنانية في عهد يوستنيانوس سنة ٥٢٧، ومحاربتها الفرس بقيادة الامير اللبناني او الملك يوسف (٢). كما ذكر المؤرخون هبوب الموارنة من لبنان للدفاع عن إنطاكية عندما حاصرها كسرى، ملك الفرس، ولكنهم وصلوا متأخرين، فعادوا إلى جبالهم (٣). ولما احتل الفرس بلاد ما بين النهرين وسوريا وفلسطين، فرّ بعض سكانها واستوطنوا في جبال لبنان باعتبارهم ينتمون إلى الحزب الماروني. وقد ذكر هذا الحدث كل من ثاوفان، وشدرانس، وزوناراس، وغيرهم. وعندما هاجم يهود إنطاكية البطريرك الانطاكي انستاس الارثوذكسي وقتلوه، وجرّوا جثته في شوارع المدينة، هلع السكان ولجأ بعضهم إلى لبنان. وعلى أثر صدور قرارات المجمع الخلقيدوني سنة ٤٥١، قام اليعاقبة بمساندة من الملك البيزنطي، بمهاجمة رهبان دير مار مارون الكبير، وهم في طريقهم لزيارة دير مار سمعان، او للهرب من وجه هذه الحشود المتّجهة إلى ديرهم، فقتلوا منهم ٣٥٠ راهباً، وخرّبوا الكنائس والاديار المارونية، ففرّ قسم من موارنة سوريا إلى لبنان. وكان النزوح الأكبر في عهد الملك يوستنيانوس الاخرم عام ٦٩٣ ـ ٦٩٤، عندما هاجم بالاشتراك مع اليعاقبة دير مار مارون الكبير المذكور، وكافة الأديار والكنائس المارونية والتجمّعات السكانية المارونية في سوريا الثانية، فنزحت إلى لبنان للاحتماء ببطريركها الماروني الاول يوحنا مارون. وعندها

كان لا بُدَّ من المواجهة في معركة حياة او موت، حفاظاً على الايمان والأرض والمقدّسات، باعتبار أن الجبل اللبناني هو آخر معقل لهم، فيه يمارسون معتقداتهم بحرية وأمن وسلام. فانتظم الشباب الماروني في تشكيلات عسكرية منظمّة، على راسها قائدان احدهما ينتمي إلى النازحين من سوريا الثانية، وهو إبن أخت البطريرك يوحنا مارون ويدعى الأمير ابراهيم، والثاني لبناني هو الامير أو المقدّم سمعان، مقدّم بسكنتا. وجرت المواجهة في سهل أميون كما سنفصّل ذلك لاحقاً، وكان الانتصار إلى جانب البطريرك وشعبه أو جماعته المارونية التي أُطلق عليها إسم "الموارنة"، بعدما نظمّهم في أبرشيات معيّنة، ضمن كنيسة مارونية خلقيدونية مستقلة عن رفاق الامس من الارثوذكس.

"المردة" و"خيل الروم" و"الجراجمة"

ولا بُدّ قبل الانتقال إلى الحديث عن الموارنة بعد انتظام كنيستهم ودولتهم، من كلمة حول هذه التشكيلات العسكرية التي حملت أسماء مختلفة، وهي في الحقيقة تمثّل فئة واحدة، وشعباً مارونياً واحداً، بعضه جاء من سوريا الثانية، والبعض الآخر هو لبناني أصيل ويمثّل الأكثرية الساحقة من الشعب.

١ـ "**خيل الروم**": هم جماعة من الجند كان الرومان، أو بالتحديد ملوك بيزنطية لاحقاً، قد كلّفوهم بحماية الثغور اللبنانية من الفرس والعرب. وظلوا طوال قرون يؤدون وظيفتهم في هذه البلاد حتى قيام الكنيسة المارونية، والصدام الذي حصل مع البيزنطيين، نتيجة للاتفاقات التي عقدها هؤلاء مع معاوية وهارون الرشيد، وغيرهما من الحكام العرب، والتي بموجبها طلب البيزنطيون من هؤلاء العودة إلى بلادهم، فرفضوا التخلّي عن هذه المناطق التي عاشوا فيها أجيالاً وأصبحوا جزءاً من شعبها، لا سيما بعدما وحّد مشاعرهم ومعتقداتهم البطريرك يوحنا مارون، وقاد مسيرتهم باتجاه الاستقلال في هذه الجبال المنيعة. وكان عددهم كما يذكر المؤرخون إثني عشر ألفاً، فأعلنوا التمرّد على أوامر دولتهم فصاروا يعرفون "بالمردة". وقد اجلاهم الملك الفتى يوستنيانوس عن جهل وطمع بالمال عن لبنان قسراً في اوائل القرن الثامن.

٢- "المردة": هم الجنود الذين كلّفهم الروم بمهمة حماية هذه الثغور، وعُرفوا سابقاً باسم "خيل الروم"، ثم آثروا البقاء في هذه الأرض عندما انتهت مهمتهم بطلب من ملوكهم. وكانوا فئتين: واحدة نظامية تتقاضى أجراً من البيزنطيين، والثانية مدنية من أقرباء وعشائر الفئة الاولى التي أقامت في هذه البلاد منذ أجيال. وبسبب اعتراضهم على اوامر العودة إلى بلدانهم الاصلية، عُرفوا "بالمردة". وكان هذا الطلب قد وجّه إليهم على أثر عدة اتفاقات عقدت بين البيزنطيين والعرب، أولها عام ٦٥٩ وآخرها عام ٧٠٧ في أيام هارون الرشيد، على أثر موت البطريرك يوحنا مارون، موحّد ومنظّم الشعب الماروني، في عهد الملك يوستنيانوس إبن الإثني عشر عاماً، الذي خضع لرأي مستشاريه اليعاقبة وتحريضهم على أعدائهم الموارنة، فطلب ترحيل ١٢ الفاً منهم، واستعمل القوة لإجلائهم، ثم ندم على فعلته لأنه كان قد دمرّ "السور النحاسي" الذي شكلّه هؤلاء، على حدّ تعبير المؤرخ ثاوفانوس، على حدود مملكته. وقد رمى اليعاقبة من ذلك ضرب التيار الخلقيدوني الذي يتزعّمه الموارنة، والكنيسة المارونية التي يقودها يوحنا مارون، والثأر من وضع اليد المارونية على ممتلكاتهم على أثر تحكيم معاوية في خلافاتهم مع الموارنة، وصدور قراره بتوزيع ممتلكاتهم على الموارنة، والزامهم بالصمت، وأخيراً لضرب اللحمة بين موارنة لبنان ومردته، والجراجمة الموارنة المقيمين في مدينة جرمومه وجوارها في جبال اللكام، والمشرفة على انطاكية، لشدّة خوفهم من هذه "الجبال المشحونة بالاعداء الالدّاء"(٤) على حدّ زعمهم.

والمردة قد اشتقوا إسمهم إما من لفظة "مردو" السريانية التي تعني "القوي والبطل" وإما من فعل تمرّد العربي بسبب تمردهم على رؤسائهم والتمرد يفترض القوة والبطولة، فالمعنيان إذن مدلولهما واحد.

ويسود الاعتقاد معظم المؤرخين أن "المردة" هو الإسم المتأخّر الذي أُطلق على من كانوا يسمّون سابقاً "خيل الروم"، وهم الجنود المولج بهم حماية هذه البلاد وإخضاعها للحكم البيزنطي، ومنع شعبها من الخروج على الطاعة وطلب الاستقلال. كما كانت تناط بهم أيضاً جباية الضرائب والرسوم. ولما كان معظم هؤلاء من السريان الموارنة، فقد رفضوا مغادرة البلاد، والذهاب إلى أماكن نفوذ اليعاقبة،

والخضوع لسيطرتهم، وسيطرة ملوك بيزنطية، وفضّلوا التحرر من التابعتين معاً، واصرّوا على الانتماء إلى لبنان والطائفة المارونية التي يرأسها البطريرك يوحنا مارون، وخلفاؤه من رهبان دير مار مارون الكبير على الرستن ما بين حمص وحماه، حيث تمرّ طريق عام حلب وإنطاكية. وقد اورد المؤرخون أخبار حملاتهم المظفّرة في أرمينيا وسواها، بقيادة امرائهم الذين كانوا يحملون أحياناً لقب الملوك، ولا سيما يوسف ملك جبيل الذي ظفر بجيش سابور ملك الفرس. وكان عديدهم "١٢ ألف فارس بطل" (٥). كما تحدّث المؤرخون أيضاً عن حملات قادها كسرى والياس ويوحنا... في البقاع، وفلسطين، ضد الجيوش العربية، والبدو، وأحياناً ضد البيزنطيين أنفسهم، مما اضطرّ هؤلاء تنفيذاً لاتفاقياتهم مع العرب إلى اغتيال قادتهم، كما حدث للمقدّم الياس في البقاع، حتى تمّ إرغام ١٢ ألفاً على الخروج إلى أرمينيا حيث استقبلهم الملك البيزنطي يوستنيانوس واصبح لكبيرهم منزلة رفيعة في البلاط البيزنطي تخوّله حمل المظلة التي يستظلّها الملك في الاحتفالات الرسمية. ومع هذا، فقد البيزنطيون بحلّ هذه الفرق الشجاعة "السور النحاسي" الذي كان يحمي بلادهم، حسبما أشار المؤرخ ثاوفان. وسنأتي على ذكر هؤلاء القادة، والمعارك التي خاضوها، وما قيل فيهم، لاحقاً.

ولا بُدَّ قبل الانتهاء من الحديث عن المردة، من ذكر هذه الواقعة العظيمة المدلول، التي رواها المؤرخ العربي البلاذري عنهم، وتقول: "لما كانت أيام إبن زبير، وموت مروان بن الحكم، وطلب عبد الملك الخلافة بعده... خرجت خيل الروم إلى جبل اللكام، وعليها قائد من قوادهم ثم صارت إلى لبنان. وقد ضوت (اي ضمت) إليها جماعة كثيرة من الجراجمة، وأنباط (كان العرب يطلقون هذا الاسم على من هم ليسوا عرباً)، وعبيد آباق (باقين) من عبيد المسلمين. فاضطرّ عبد الملك أن يصالحهم على ألف دينار كل جمعه. وصالح طاغية الروم (الملك قسطنطين) على مال يؤديه إليه لشغله عن محاربته... واقتدى في صلحه بمعاوية حين شُغل في حرب العراق... وذلك سنة ٦٧٠" (٦).

٣ـ الجراجمة: لقد ورد في الكلام السابق ذكر للجراجمة الذين انضمّوا إلى "خيل الروم" الذين عُرفوا لاحقاً بالمردة، وهم سكان بلدة الجرجومة الموارنة في جبل

اللكام الذي يحدّ المنطقة التي نشأ فيها الموارنة لجهة أقصى الشمال قرب إنطاكية. والمؤرخ الشهير نلدكه يؤكّد "أن مؤرخي العرب يدعون المردة باسم الجراجمة، وأن كليهما أمّة واحدة" (٢). ومؤرخّونا اللبنانيون المعاصرون، وفي طليعتهم الدكتور فيليب حتّي، والأباتي فهد، وغيرهما، التقوا مع المؤرخ اللبناني المعاصر الأب بطرس ضو الذي يوجز تلك المساجلات التاريخية حول نسب المردة، والتي شارك فيها الدويهي في "التاريخ الماروني"، والسمعاني في كتابه اللاتيني "Biblislurés canomicl et civillis recles, orientalis" Liv. V. P 528 et 623 والحاقلاني في كتابه اللاتيني ايضاً: "Chronicon orientale" Paris 1651, infot: P. 288. ونمرون الباني الماروني في تاريخه اللاتيني أيضاً، "Dissertatis de origine, nomine, acreligione maronitarum" Rome 1679.P.30 وجبرائيل الصهيوني، ثالث أقطاب روما الموارنة، مع الأب يوحنا الحصروني في "جغرافية الادريسي" المترجمة إلى اللاتينية، والمطبوعة في باريس سنة ١٥٩٢". بالاضافة إلى مؤرخي الغرب والبيزنطيين امثال: ثاوفانوس في كتابه (Délégation Permanente du liban auprès de l'Unesco: imaguration du Sionita en France) 1982-P.15. وبولس الشماس "مختصر التاريخ" مجموعة ماين عن الآباء البولنديين مجلد ١٢١ تموز ٨٤٢ و٨٤٣. والقديس زوناراس في كتاب (Manuel de l'Hist Universelle des origines jusqu'à l'an 1118) T. 2 Paris 1683. P. 266. وبكتافيوس في: (Chronologique de l'Hist. Universelle) T. 2. Paris 1683 p. 266 هذا بالاضافة إلى الأساقفة الموارنة الأجلاّء امثال الدبس ودريان وديب وعواد وغيرهم.

ومعظم هؤلاء يشير إلى كون "الجراجمة" و"المردة" موارنة، و"خيل الروم" جنوداً بيزنطيين التحقوا "بجماعة مارون" أيضاً بعد ما تمّ إجلاء ١٢ ألفاً منهم.

المردة والجراجمة على ألسنة الكتاب والمؤرخين

اختلف المؤرخون والكتاب حول هوية المردة والجراجمة، ومصيرهم، بعد المعاهدات العربية ـ البيزنطية التي أدّت إلى ترحيلهم. فالمؤرخ اللبناني الارثوذكسي أسد رستم استشهد بالمؤرخين تيوفانس، وكورنيس "اللذين يؤكّدان أن المردة غرباء،

أتوا لبنان من الخارج..." (٨) . وابن العبري قال: "إن المردة جنود الملك قسطنطين اللحياني. وانه أرسلهم إلى الشام للدفاع عنها". ورداً على مؤرخي الموارنة الذين أكّدوا انه لم يسكن لبنان في تلك الأزمنة سوى النصارى، ولما كانوا نصارى، فهم لبنانيون، اعتبر "أن سكوت المراجع لا يكون حجة إلاّ بشروط أهمها أن نكون قد اطّلعنا على جميع المراجع، وأن المراجع التي اطلعنا عليها هي جميع ما دونّه السلف، ولم يضيع شيء منها..."، وهو يرى أن المردة ليسوا عرباً، وقد وجدت بينهم وبين الموارنة "علاقات ودية أثناء إقامتهم في تلال الساحل... ولدى خروج المردة من لبنان وسائر تلال الساحل لم يتبعهم الموارنة في هجرتهم..." (٩) . والمؤرخ الارثوذكسي الآخر الدكتور كمال الصليبي يشير في هذا المجال إلى انه "ذهب بعض المؤرخين الموارنة، ومنهم البطريرك اسطفان الدويهي إلى أن الموارنة هم في الاصل من "المردة" أي "الجراجمة"، ووافقهم في ذلك إلى حدّ ما بعض المستشرقين المعروفين، ومن هؤلاء هنري لامنس... وليس هناك ما يثبت أي علاقة بين الفريقين إلا الموافقة في الزمن، وواقع توغّل "الجراجمة" او "المردة" في الاطراف الجبلية من الشام عندما كانوا يقومون بغاراتهم على البلاد. "ولعلّ عناصر منهم بقيت مستقرّةً في بعض هذه الاطراف كما يفترض القائلون بصلة الموارنة بالمردة، والله أعلم" (١٠) . ويرى الصليبي ايضاً" أن الموارنة كانوا من ناحية العراق من "نبط" الشام، يقطنون المناطق الزراعية في الأرياف، ويعملون في الفلاحة. وكان من بينهم بعض الرعاة من أبناء العشائر في الجبال، وربما كان هؤلاء من أقحاح العرب" (١١) .

والمؤرخ الكاثوليكي هنري ابو خاطر يرى أن المردة من الألبانيين الذين أرسلهم ملك الروم الأخرم إلى لبنان، ثم أجلاهم عنه، وقد "جعلوا من لبنان موطناً ثانياً لهم، وأقاموا فيه، وامتزجوا بالموارنة ساكني جباله، وتبعوا الموارنة في إيمانهم"(١٢).

والبلاذري العربي المسلم أسمى المردة والجراجمة "خيل الروم"، وهذه "خرجت إلى جبل اللكام وعليها قائد من قوادهم. ثم صارت إلى لبنان، وقد ضوت إليها جماعة كثيرة من الجراجمة وأنباط، وعبيد أباق من عبيد المسلمين" (١٣).

ويرى المستشرق الأب لامنس أنه "من غريب امر هذا الشعب، أنه لم يبدُ في بادئ ذي بدء ضعيفاً ضئيلاً، بل نراه فوق مشارف لبنان، ضابطاً مضايقه، شاغلاً كل نقطة الحصينة على مدى طوله، من الشمال إلى الجنوب، وليس من يقوم في وجهه، بل كثيراً ما ينقضّ من مراكزه الحريزة فيغزو المعاملات القريبة دون ان يردّ أحد هجماته. ولم يزل أمر هؤلاء المردة في اشتداد حتى صار كل الملهوفين والمطرودين من أهل الوطن وأصحاب الفاقة يلتجئون إليهم ويلوذون بحمايتهم، ويزيدونهم عدداً وقوةً..." (١٤) .

والمطران يوسف الدبس في مناظرته مع الأب لامنس حول المردة يقول: "إننا نحن الموارنة نعلم أن المردة إسم للموارنة لقبّهم به أعداؤهم في القرن السابع، وأن المردة والموارنة أمّة واحدة..." (١٥) .

والأب أنسطاس الكرملي الذي عاصر الدبس والأب لامنس وشاركهما في تلك المناظرات التي رعتها مجلة "المشرق" وقف إلى جانب الأب لامنس مؤكّداً غموض هوية المردة، واعتبارهم شعباً دخل لبنان من مكان آخر، وعلى الاصح "لم يكونوا شعباً كبقية الشعوب، بل كانوا على هيئة عسكرية ونظام حربيّ، يفلحون الأرض وقت السلم، وهم على أهبّة لمباشرة الحرب في أي ساعة كانت..." (١٦) . ثم يعترف الأب لامنس أن بعض الائمة من الموارنة (كالسمعاني، والحاقلاني، والصهيوني، ومرهج بن نيرون، والدويهي...) وليس فيهم من يرقى عهده إلى ما قبل السابع عشر الميلادي، وإلى بعض الاوروبيين كبارونيوس ولوكيان... يخالفونه الرأي، ويقولون: "إن المردة هم الموارنة". وهذا الموقف باعتبار المردة موارنة، أيّده أيضاً أساقفة الطائفة، وفي طليعتهم المطران دريان في "البراهين الراهنة" الذي يعتبر المرجع الأهم في هذا المجال. وخلص الأب لامنس إلى القول أن الفضل يعود إلى الروم بتحوّل الموارنة "إلى امة مستقلة"، وتمكينهم من التصديّ للعرب المسلمين، وتسمية المردة هذه أطلقت على المسيحيين الساكنين في لبنان إبّان القرن السابع، لتمرّدهم على من كان رافضاً للايمان الكاثوليكي من ملوك الروم، مقابلاً لاسم ملكية لمن بقي من المسيحيين المذكورين مسالماً وطائعاً لهؤلاء الملوك (١٧) . ويتعجّب المطران دريان من تقلّب الأب لامنس "فتارةً نراه أميَل إلى كون المردة والجراجمة والموارنة شعوباً

مختلفة واخرى إلى كونهم شعباً واحداً، أو أخلاطاً تكوّنت منهم الطائفة المارونية بعد دخولهم إلى لبنان وامتزاجهم بعضهم ببعض "كامتزاج الماء بالراح"، مع أنه لم يبق منهم بقية. وفي مقالته عن "الجراجمة" يحاول الأب لامنس إثبات كونهم والمردة شيئاً واحداً... ويصل في النهاية إلى التأكيد بأن الموارنة أتوا من جهات العاصي بعد خروج المردة والجراجمة منه، واختلطوا ببقاياهم... إلى غير ذلك من القلق والتقلّب في الرأي... وفي رأي دريان أن هؤلاء جميعاً "أمّة واحدة" أطلق عليهم فيما بعد إسم "الموارنة" (١٨).

والمؤرخ الالماني نلدكه، كما أشرنا سابقاً، يرى أن "مؤرخي العرب يدعون المردة باسم الجراجمة، وإن كليهما أمّة واحدة" (١٩). ومؤرخو لبنان في العصر الحديث امثال الدكتور فيليب حتي، والأب بطرس ضو، والأباتي فهد، قد التقوا مع أئمة الموارنة من طلاب معهد روما الماروني، في اعتبار "المردة والجراجمة إسمين لمسمّى واحد... فصيلة خارجية اتت من بلاد الروم بأمر ملوك بيزنطيين، وفصيلة داخلية كانت تقطن سورية منذ أجيال وعاصمتها الجرجومة. وكان إسم هذه الفئة الداخلية الجراجمة، بينما إسم الفئة الخارجية المردة، وهاتان الفئتان وإن كانتا بالاصل شعباً واحداً من بلاد فارس، إلاّ أن كلاً منهما اصطبغ بلون البيئة التي استقرّ فيها... فالمردة والجراجمة جانحان لشعب واحد ذي أصل إثنّي واحد. وقد اندمج في الغزوات ضد العرب، المردة الخارجون الروم، والمردة الداخلون الموارنة الجراجمة في عسكر واحد بسط سيطرته من الجرجومة واللكام شمالاً حتى القدس جنوباً، وجعل من قمم لبنان معقلاً رئيسياً له... وقد سحب ملك الروم الأخرم، من لبنان، فرقة المردة الخارجين... بينما بقي في لبنان وسوريه المردة الداخلون، أي الجراجمة والموارنة..." (٢٠).

والحاكم التركي اسماعيل حقي بك في كتابه "لبنان ـ مباحث..." الصادر إبان الحرب العالمية الأولى يوافق الأب لامنس ويرى أن المردة مشتق من "مرد الفارسية ومعناها البطل"، ويشير إلى تتبع الكاتب أنكتيل دوبرون (Anquetil Duperron) تاريخهم منذ الاسكندر، وهجراتهم قبل حلولهم في جبل اللكام، معتبراً هذا التتبع ردّاً لقول "الزاعمين بأن المردة موارنة لبنان" (٢١) . ويذكر يوسف السودا أنه "من

الوثنيين إلى الموارنة، إلى العبيد، إلى المستعبدين، كان يلجأ إلى لبنان كل من لحق به جور في البلاد المجاورة لسبب ديني أو لسبب زمني افراداً وجماعات... وفي ذلك العهد يذكر التاريخ وجود قوم في لبنان عرفوا باسم "المردة"، ومؤرخو العرب يسمّونهم "الجراجمة"... ومهما يكن من أصل المردة ونسبهم فلم يذكر عنهم أعمال تؤثر إلاّ في لبنان، مصفّحةً تاريخهم صفحةً لبنانية، شأنهم فيها شأن من عُرفوا قبلهم باسم فينيقيين، وانحصر تاريخهم بلبنان" (٢٢) . ويرى المؤرخ فيليب حتى "أن الجراجمة بعد اندماجهم بسكان الجبل الأصليين أصبحوا في هذه الحقبة يُعرفون بالمردة. ومنذ ذلك الحين أصبح لبنان معقلاً آمناً للأقليات وللطوائف المذهبية... وقد أسفرت عملية الاندماج هذه، بين الجراجمة ونصارى لبنان عن قيام الطائفة المارونية... ومنذ هذا الوقت يبدأ جبل لبنان بالظهور على مسرح السياسة في هذا القسم من العالم..."(٢٣). وهذا ما أكّده المؤرخ جواد بولس الذي أضاف بأنه منذ ظهور المردة "بدأ دور لبنان يبرز كملجأ للاقليات الطائفية شبه المستقلة التي راحت تظهر على المسرح التاريخي والسياسي للشرق الاسلامي..." واستشهد بالمطران بطرس ديب القائل: "إن الشعب الماروني صار له منذئذ وطن نهائي" (٢٤).

وأشار المؤرخ متى جانر إلى أن "خيل الروم"، وهم الجنود النظاميون التابعون للحكم البيزنطي، وقد رحلوا معظمهم سنة ٦٨٥ إلى أرمينيا حيث استقبلهم الملك يوستنيانوس الاخرم، وصار "كبيرهم السابع عشر رتبةً بعد الملك". اما العلاّمة السمعاني فيرى أنهم اصبحوا "في بمفيليه، ووضع قائدهم في مدينة أضاليا، بعد مغادرتهم لبنان بقرنين... وكان يقام منهم قاضٍ يقال له قاضي اضاليا... ومنذ عهد الملك ميخائيل الرابع الذي كان في أيامه قاضي أضاليه، واسمه أيضاً ميخائيل، حتى أُخذت القسطنطينية من يد الروم (عام ١٤٥٣)، كان لكبير المرديين مرتبة في عاصمة المملكة كما جاء في تأليف غريغوريوس كورنيدس كروبالات الذي كان حيّاً يرزق في أيام فتحت القسطنطينية" (٢٥). وهذا ما سيؤكّده أيضاً الجغرافي اليوناني سترابون القائل: "إن المردة هم نفسهم "المرديون" في أرمينيا" (٢٦).

ويبقى رأي للقنصل الايطالي في بيروت دي غوبرناس الذي عاش بين افراد قبيلة المرديت الألبانية لننهي هذه الاشارات الخاطفة إلى اقوال المؤرخين حول المردة

والجراجمة، وفيه يقول: "إن المرديت في البانيا من أرمينيا، وليسوا من لبنان، وأنه تقصّى هذا الأمر، وهم اخبروه أن لا علاقة لهم بلبنان. والمتصرّف اللبناني واصا باشا، وهو منهم، أنكر علاقته بالموارنة عندما سأله المطران دبس عن صحة هذا النسب". ويستخلص المطران دريان من كل ذلك "أن المردين ليسوا الجراجمة، كما أنهم ليسوا الموارنة، لأن هؤلاء وطنيون في جبل اللكام وجبل لبنان، واولئك غرباء عنه"... ثم يقول أخيراً "إن المردة من قبيلة المرديين الذين منشأهم بين أرمينيا وفارس. أتى بهم كسرى الثاني ملك الفرس إلى لبنان بعد أن فتح سوريا سنة ٦١٠ وسنة ٦١٣ ليدوّخ بهم اللبنانيين ويكسر شوكتهم... وامتزجوا بأهل البلاد وبقوا معهم حتى استرجع هرقل سوريا من يد الفرس سنة ٦٢٨، وعقد الصلح معهم شرط أن يخرج من سوريا كل فارسي ويلحق بقومه... وفضّل المرديون البقاء في لبنان، وقد خضعوا للروم وحالفوهم. وعندما أخذ العرب يفتحون سوريا منذ سنة ٦٣٤، ظهر هؤلاء جميعاً تحت إسم المرديين... واخذوا يناصبون العرب القتال ويضايقونهم... وكانوا ارثوذكساً... ومكثوا في لبنان ١٦ سنة عندما تمّت محاولة إجلائهم في معاهدة كسرى والروم. وكانت مملكة الروم تعتبرهم من أرمينيا، أي من رعاياها، وتحت سلطتها كاللبنانيين، لذلك استمّروا في لبنان ورفضوا الرجوع..."(٢٧).

وما لم يقله غوبرناس نضيفه لاستجلاء هذا الأمر استناداً إلى ما ورد سابقاً من الأقوال، وهو أن الاثني عشر ألفاً الذين أُجلوا من لبنان نتيجة معاهدات العرب والروم، هم "خيل الروم" وجنودهم المولج إليهم امر المحافظة على التخوم البيزنطية. ومن تبقّى من الجراجمة والحاميات البيزنطية الأخرى والمرتزقة الذين خدموا في الجيش البيزنطي، والهاربين إلى لبنان بسبب الاضطهاد من المناطق المجاورة، ومن تبقّى من خيل الروم، هم قلّة من السكان انضمّت إلى الموارنة فيه، وشكّلت وإياهم شعباً واحداً. أما لفظة مردة فلا دخل لها بجنسية هؤلاء القوم، إنما هي مجرّد لقب أُعطي لهم لتمرّدهم على السلطات البيزنطية التي كانوا موالين لها في السابق، وخاصةً على اوامر الرحيل التي فُرضت عليهم بالقوة، ولبطولتهم واقدامهم في الحروب، ومواجهتهم للقوى الاقليمية الطامعة بهم من فرس وروم وعرب،

واستبسالهم في الدفاع عن هذه الأرض وقيمها وايمانها واستقلاليتها وسيادتها، باعتبارها المعقل الأخير الذي يضمن لهم العيش بحرية وامن وطمأنينة وسلام. وهذه الصفات من البطولة والاقدام وحب الوطن، والنزعة الاستقلالية، والشغف بالحرية، هي متجذّرة في عمق الروح اللبنانية الأصيلة. والرابط القوي الذي جمع بين كل هذه الفئات المختلفة الاعراق والاجناس والبلدان، هو المارونية التي وحّدت المشاعر، والحاجة إلى وطن نهائي لهم يقيهم من التشرّد والاضطهاد. وهذا ما اكّده المؤرخ العربي البلاذري حين قال: "كان الجراجمة على مذهب مارون. لذلك عندما تضايقوا أتوا إلى إخوانهم في جبل لبنان وامتزجوا بهم" (٢٨). وثاوفان في حديثه عنهم أشار إلى "انضواء الجراجمة إلى الوطنيين". وابن العبري جمع بين المردة والجراجمة، واعتبرهما شعباً واحداً، وقال: "إن قسطنطين أرسل غزاةً روميين مرديين، اي رجال حرب، يسمّيهم السريان جراجمة،واستولوا على كل من (بدل ما) هو من جبل الجليل إلى جبل اللكام، وعلى جبل لبنان أيضاً. وكابد العرب منهم اموراً كثيرة" (٢٩). والعلاّمة إبراهيم الحاقلاني اللبناني المقيم في روما خريج مدرستها الشهيرة، في تعليق على كتاب ثاوفان قال: "إن جماعة المردائيتي تقتبس إسمها من قبيلة مراد التي تسكن البقعة المناوحة السورية، واليها يرجع كل القبائل العديدة بهذا الاسم ممن يسكنون اكثر مدن ودساكر العربية السعيدة (اليمن). وقد امتاز هذا الجنس بين العرب بشدة البأس، ومعاناة السلاح، واشتهروا خاصةً بالنصرانية التي كانوا شديدي الحرص عليها" (٣٠). ويرى أنسطاس الكرملي أن لفظة "مُردان" بالمادوية (لغة الماديين الفرس حيث عاشوا) تعني الأبطال والمغاوير، وقد سكنوا بلاد جيلان وطبرستان. واعتبر أن "المردة هم نفسهم الجراجمة وأن المردة هو لقب منسوب إلى البطولة". ويشير المطران دريان إلى أنه حاور الاب انسطاس الكرملي وأقنعه أن المردة والجراجمة هما شعبان مختلفان، ولكنه عجز عن إقناع الأب لامنس بذلك. كما أن المطران يوسف الدبس الذي فتح هذه المناظرة الطريفة والتي استمرت أسابيع وشهوراً على صفحات مجلة المشرق، كان يرى أن "هذه العصابة او الجماعة فرقتان: إحداهما متحصّنة في جبل لبنان وهي التي يسمّيها ثاوفان وابن العبري "مردة"، والثانية متحصّنة في جبل اللكام وهي التي يسمّيها البلاذري "جراجمة" أو

"خيل الروم". والمردة والجراجمة بنظره هم الموارنة". وعلماء مدرسة روما المارونية يرون حسب دريان أيضاً أن "المردائيتي الذين ترجموهم بالمردة، إنما هم سكان جبل لبنان لذلك العهد"، وقد دعوا بهذا الاسم من الفعل السرياني "مردو" بمعنى عصى وتمرّد، لتمرّدهم على ملوك الروم... خلافاً لما فعل "الملكية" نسبةً إلى تبعيتهم لهؤلاء الملوك. وأصحاب هذا الرأي هم الدويهي والحاقلاني والسمعاني وابن نمرون وسواهم...

٤ـ الفتح العربي والعلاقات اللبنانية ـ العربية

الحضور المسيحي في الجزيرة العربية

قبل أن يعرف العرب في الجزيرة العربية الاسلام، قامت في مدنه الهامة مثل مكّة ويثرب في الحجاز، وفي مدن اليمن السعيد، وحارّان في بلاد ما بين النهرين، وغيرها من الاقطار العربية، جاليات مسيحية واخرى يهودية، كانت تهتم إلى جانب الامور التجارية والمالية، بالأمور الدينية ولا سيما بتعميم معرفة الله بين القبائل الوثنية العربية، البدوية منها والحضرية، ومعظمها كان يعيش حياةً جاهلية، متنقّلة بين المراعي والواحات، والمدن التي فيها عاشت بعض القبائل المتحضّرة التي اعتنق بعضها الدين المسيحي وعُرفت "بالمتنصّرة"، وابرزها: قبائل تغلب، وسليخ، وتنوخ والغساسنة فرع منها، وبني كليب، ولُخم، وأزَد، وقُضاعه، والقيس، وبهراء وغيرها. وقد شاركت هذه القبائل المسلمين في فتوحاتهم، إلى أن أرغمها القائد خالد بن الوليد كبير قادة العرب الفاتحين، على اعتناق الاسلام وترك الدين المسيحي.

وكانت المسيحية "قد توّغلت في الجزيرة العربية بفضل الرسل الاوائل"، لا سيما القديس بولس، واوريجان أحد مرسلي القرن الثالث، وفي العام ٣٢٠ بواسطة الرسول تيوفيل الاريوسي الذي اوفده الملك قسطنطين اللحياني. وبفضل نسّاك أوائل قامت أديارهم في سيناء، واليمن السعيد، وبلاد الشام، ومصر التي اشتهرت برهبانها الذين تبعوا طريقة الصوامع الفردية ثم انضموا إلى بعضهم في أديار بقيادة القديس انطونيوس الكبير، وبفضل اول النسّاك إيلاريون "الذي لم تعرف بلاد الشام ناسكاً قبله" على حدّ تعبير المؤرخين، والناسك موسى الذي نصّر الماويين

وملكتهم، وصار اسقفاً عليهم سنة ٣٢٧، والناسك افتيموس الذي عُرف فيما بعد بالاسقف بطرس، راعي الكنائس الحربية والغزوات الذي نصّر كثيراً من البدو(١). والناسك إبراهيم القورشي الذي حلّ في المنيطرة اللبنانية وصار مقدّماً فيها، ثم أمره بطريرك إنطاكية الارثوذكسي بالانتقال إلى حارّان، فصار أُسقفاً عليها... وغيرهم من القسس، والنسّاك، والرهبان، والاساقفة، وفي طليعتهم اسقف نجران، واسقف مكّة قس بن ساعدة الذي عاصر النبي محمد وصديقه راهب بحيراء، واسقف مكّة ورقة بن نوفل الذي زوّج النبي من قريبته خديجة المسيحية حسبما تشير السيرة الحلبية، وسيرة ابن هشام(٢) . وكان القس بن ورقه يعرِّف عن قومه فيقول: "نحن سادة العرب وقادتها" (٣). وقد لازم النبي عليه السلام، اربعاً وأربعين سنة. كما أن جاليات يهودية كانت تعيش في المدن العربية الهامة، وقد لعبت هي الأخرى، دوراً هاماً في تعريف عرب الجاهلية بوجود الله خالق السماء والأرض. ومع هذا "رفضت معظم القبائل العربية التخلّي عن الوثنية وعبادة الاصنام، وتمسكت بجاهليتها رغم جهود المسيحيين واليهود..." وكان الجاهليون يعتبرون أن للكاهن أتباعاً من الجنّ يُطلعونه على كل شيء. والعرّاف يستطلع الغيب، ويعرف المستقبل عن طريق علم الفراسة والحركات والصوت. وفي حال الخلاف تفصل الامور بالقرعة التي أقرّها الشرع الاسلامي فيما بعد، على حدّ ما ذكر علي الزين ومصطفى الرافعي (٤). وبظهور النبي عليه السلام، ومباشرته الدعوة للاسلام، تأسلم معظم الشعب العربي المقيم في الجزيرة العربية.

احتلال العرب فلسطين ولبنان وسوريا وانتشار الدين الاسلامي

استطاع النبي محمد عليه السلام، وهو المولود في مكة سنة ٥٧٠، تحقيق ما لم يحققه مسيحيو ويهود الجزيرة العربية من نشر الايمان بالله، وتحطيم الاصنام، وذلك عن طريق استعمال القوة، ونقل المجتمع العربي الضارب في جاهليته إلى مجتمع "الدولة" ذات التنظيم والمؤسسات التي ترعى شؤونها. ولم يكتف العرب بذلك فبعد موت النبي غادرت الجيوش العربية الجزيرة في عهد خليفته ابو بكر الصدّيق، بقيادة شرحبيل بن حسنة، ويزيد بن أبي سفيان واخيه معاويه، وعمرو بن العاص، وخالد بن الوليد، في العام ٦٣٤ مسيحية. ثم انقسم الجيش العربي إلى فرقتين،

إحداهما بقيادة يزيد، والثانية بقيادة عمرو بن العاص. والتحق بهما القائد ابو عبيدة بن الجراح، فأصبح مجموع هذه الجيوش ٢٣ الف مقاتل (٥). وبوصول هذا الجيش إلى تخوم فلسطين تصدّى لهم جيش الروم بقيادة سرجيوس فهُزم، واستلم القيادة بعده ثيودور شقيق ملك الروم هرقل، ولكنه عجز هو الآخر عن الصمود بوجه هذا الزحف الناهض باسم الدين، المتمرّس بحرب الصحراء، والمؤمن بأن الذي يموت في غمار الجهاد المقدّس "مقرّه الجنّة". وكان القائد خالد بن الوليد قد اتجه على رأس ٨٠٠ جندي نحو العراق، فاتصل به الخليفة الثاني بعد النبي، عمر بن الخطاب ليلتحق بالجيش العربي المحاصر للقدس. وفي طريقه لنجدة رفاقه، احتل ابن الوليد دمشق سنة ٦٣٥ بمساعدة القبائل النصرانية الشامية والعربية، ثم سقطت حمص وبعلبك، وكانت المواجهة الكبرى في ٢٠ آب سنة ٦٣٦ في سهل اليرموك، فانهزمت جيوش الروم من جرّاء الأسباب التي ذكرناها سابقاً، بالاضافة إلى الخطة المحكمة التي رسمها القائد خالد بن الوليد، وسقطت القدس التي رفض بطريركها صفرونيوس تسليمها إلاّ للخليفة عمر نفسه، خوفاً من فتك الظافرين السكارى بخمرة النصر بشعبها ومعالمها. وبعد هذا الدخول تخلّى البطريرك عن مهامه الكنسية، ودخلت كنيسة اورشليم تحت الحكم العربي الاسلامي، ورفرفت الاعلام العربية فوق قبّة جامع الصخرة بجوار كنيسة القيامة، ليتجاور المذهبان السماويان، ويتعايش في بداية الزحف العربي باحترام كلّي متبادل لمقدّسات وخصوصيات كل منهما. ولكن شهر العسل هذا لم يطل أمره بعد أفول نجم الامبراطورية المسيحية الحاكمة، وبروز نجم العرب بعد الفتح العربي الاسلامي الجديد، بيد ان جيباً مسيحياً واحداً ظلّ محافظاً على رقعته واستقلاليته في هذا المشرق في قلب المحيط العربي الاسلامي، وهو الجيب اللبناني الذي قامت فيه كنيسة مارونية طرية العود بزعامة بطريركها الاول ومؤسسها يوحنا مارون. وهكذا استطاع هذا الجبل الصغير المحافظة على سيادته واستقلاله في الوقت الذي تمّ فيه فتح جميع المدن اللبنانية الساحلية والداخلية، بالاضافة إلى مناطق الجنوب والبقاع وعكار، وكل الأراضي السورية والفلسطينية، وحتّى إنطاكية بالذات عاصمة المسيحية في الشرق، والبطريركية الاولى في العالم. واستطاعت الكنيسة المارونية الصمود والبقاء في

الوقت الذي سقطت فيه كنائس الاسكندرية واورشليم وإنطاكية. و"لولا صمود الجراجمة والمردة الأشداء، سكان جبل اللكام، الذين أخافوا القائد خالد بن الوليد "لسرعة انقضاضهم ووعورة مسالكهم"، لسقطت القسطنطينية أيضاً، عاصمة بيزنطية نفسها" (٦).

وبحلول العام ٦٤١ كانت المدن اللبنانية التي أشرنا إليها قد سقطت، وتمّ فتحها من قبل يزيد بن أبي سفيان، وكان "فتحاً يسيراً"، ودون مقاومة، على حدّ ما ذكر المؤرخ محمد كرد علي (٧). وحدها طرابلس قاومت الفتح العربي فأرسل يزيد لفتحها سفيان بن مجيب فقطع المؤن، وحاصرها. وكتب أهلها إلى البيزنطيين لمساعدتهم، فأرسلوا إليهم المراكب، فركبوها، وهربوا ليلاً إلى بيزنطية. ودخلها مجيب، فوجدها خالية. وسكنها مع جماعة من اليهود. ثم أسكن فيها معاوية جماعةً من الفرس سنة ٦٦٣، وذلك من أجل ردّ هجمات الروم (٨).

وهكذا سقطت جميع مدن الشرق الهامة، باستثناء العاصمة البيزنطية، بيد العرب، وبقي للمسيحيين الشرقيين والموارنة، هذا الجبل اللبناني الممتدّ من بلاد عكار إلى جزين، يخضعون فيه لمقدّميهم وامرائهم، وأحياناً ينقضوّن منه على المواقع العربية، ويعودون بالاسلاب والاسرى "الذين يبيعونهم بمثابة رقيق للفرنج" على حدّ ما ذكر المؤرخ البيروتي صالح بن يحيى في "تاريخ بيروت العام" في طبعته الكاثوليكية الصادرة سنة ١٩٧٠.

وبعد الخليفة الثالث عثمان بن عفان، والرابع علي بن أبي طالب، استلم الخلافة والي الشام معاوية بن أبي سفيان منهياً عهد الخلفاء الراشدين، ومؤسساً عهداً أمويّاً سيستمر متسلّماً مقاليد الحكم في الشرق والبلدان العربية الأفريقية من العام ٦٦١ إلى بداية العهد العباسي في العام ٧٥٠. وكان معاوية "أمكر الملوك وأدهى العرب... على حدّ ملك الروم، خصمه هرقل الذي أضاف: والله لو همَّ بأخذي لتمّت له الحيلة عليّ" (٩). وفرض مؤسس الدولة الاموية الذي جعل الشام عاصمة لحكمه، بدل مكة في الحجاز، سلطانه بالقوة والمكر والدهاء، فبايعه جميع قادة العرب، وراح يدعّم موقفه بإسكان القبائل الفارسية الموالية له في المناطق التي

احتلّها ولا سيما في بعلبك وطرابلس وصيدا، من لبنان، فلم يعد طابع لبنان مارونياً، ولا حتّى مسيحياً، كما كان قبل دخول العرب إليه، وتسلّم معاوية الاحكام. وبعدها أخذت القبائل العربية والفارسية الداخلة في الاسلام، تتكاثر في ربوعه، لا سيما في السواحل والبقاع والجنوب، في حين يتقلّص عدد المسيحيين في هذه المناطق. حتى أن القبائل العربية المتنصّرة التي شاركت في الفتح العربي، وساهمت في فتح دمشق بالذات وأقامت في جهاتها، ولا سيما الغساسنة الذين حكم منهم ٣١ ملكاً، هؤلاء القوم نفسهم، أرغمهم خالد بن الوليد على ترك المسيحية واعتناق الاسلام، عندما استجاروا به للابقاء على إيمانهم لرابطة نسب تشدّهم إليه. و"كان الموارنة عند دخول الاسلام بلاد الشام، والمقصود لبنان وسوريه وفلسطين على حدّ ما ذكر الخوري بولس قرالي، يسكنون جبل لبنان، ويحكمون باقتدارهم في الجبال والسواحل التي تجاورهم، ويعتقدون في إيمان الكنيسة الرومانية الرسولية، سائرين بحقوق الطاعة لبطريركهم، ويحامون عن الدين المستقيم، وينتصرون لكلّ من يُقبل إليهم منهزماً بغرض الأمانة من أصحاب الكفر والبدع. وكانت بلادهم من حدود بلاد الشوف إلى بلاد الدريب في عكار" (١٠).

العلاقات المارونية ـ العربية

لم يقف الموارنة ضدّ العرب عند وصولهم إلى الساحل اللبناني ومهاجمتهم الحاميات البيزنطية، ذلك لأنهم كانوا قد قاسوا الأمرّين من معاملة الروم البيزنطيين لهم، خلال حروب البدع والطوائف في سوريا الثانية. وككل المستعمرين الغرباء، كثيراً ما حاولوا شقّ الصفوف والضغط على الحرّيات لإبقاء البلاد في قبضة يدهم، وضرب محاولات التحرر والاستقلال، وتحريك النعرات المذهبية بين اليعاقبة والموارنة، عن طريق دعم اليعاقبة في تعدياتهم على الأديار والكنائس والرهبان الموارنة. وقد رأى الموارنة في العرب سلطةً جديدة تعمل لخلع سلطة قائمة وجائرة، .وربما كانت أرحم من السابقة وأكثر عدلاً واعتدالاً منها، فلم يتصدّوا لها، واكتفوا بحماية حدودهم والحفاظ على استقلالهم. وقد رعى العرب العهود المقطوعة من القائد خالد بن الوليد لاحترام أماكن عبادة المسيحيين، ووعدهم "ألاّ يُدخلوا في بناء المساجد حجراً من بناء الكنائس" (١١).

وتوقّف العرب في فتوحاتهم، داخل الأرض اللبنانية، عند حدود جبل لبنان، حيث يعيش الموارنة، وعجزوا عن "القضاء على الطابع السرياني الآرامي للبلاد"(١٢). ولكن الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ ـ ٧١٥) نكث العهد وحوّل كنيسة القديس يوحنا في دمشق إلى الجامع الاموي الشهير. كما فرض الخليفة الاموي الآخر، عمر بن عبد العزيز، مجموعةً من الأنظمة على المسيحيين عُرفت "بالشروط العمرية"، كان من شأنها اعتبار غير المسلم "ذمياً" من درجة ثانية، ولا يحق له التمتع بنفس الحقوق التي يتمتع بها المسلم داخل النظام العربي الاسلامي. وسنأتي على ذكرها لاحقاً. ولا بُدَّ هنا من كلمة حول موقف المسلمين من نظام الحكم الاسلامي. ففي هذا المجال موقف المسلمين ثابت وراسخ وواضح لجهة وجوب تطبيق الشريعة الاسلامية في الدول الاسلامية. ولا مجال للمساومة في هذا الموضوع، فالمرجعية الدستورية هي القرآن باعتباره الكتاب المنزل والملزم لكل مسلم بأن يطيعه لأن ما جاء فيه، هو كلام الرسول الذي يعتبر ناموس دين ودنيا، عملاً بالاية القائلة: "من يطع الرسول فقد أطاع الله (النساء ١٠٥)". وحديثه الكريم عندما خاطب آل عمران واضح، وفيه يقول: "وكنتم خير أمّة أُخرجت للناس". وفي سورة المائدة (عدد ٥١) يقول: "يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء، ولا تستنصروا بهم، فإنهم جميعاً يدٌ واحدة عليكم". وعلى هذا الأساس كرّست الدول الاسلامية دساتيرها فحلّلت ما حلله القرآن وحرّمت ما حرّمه.

وفي هذا المجال نورد رأياً للمؤرخ السني زكي النقاش في كتابه "أضواء على تاريخ المارونية" حيث يقول: "إن معاوية قد استجاب لطلبهم (اي الموارنة) باللجوء إلى لبنان عام ٦٥٩"، وتابع مشيراً إلى أنهم كانوا يعرفون بالانباط، وأضاف: والفضل يعود إليه في "انصافهم من اضطهاد اخوانهم النصارى اليعاقبة" (١٣).

وفي موضع آخر من كتابه أشار النقاش إلى تمرّد الموارنة عام ٦٨٥ على الروم، "فسمُّوا بالمردة، وإنه لا يُعرف لهم يومذاك تنظيم كنسي على حدة. اما العرب ـ يمثّلهم الخليفة معاوية ـ فقدّموا لهم الحماية، ولقيوا منهم الولاء". واعتبر أن البطريرك صفرونيوس الذي سلّم القدس للعرب، نقلاً عن بطرس الشدياق المؤرخ الماروني "هو ماروني من جبه بشرّة (اي بشرّي)"، وانه سلّم القدس إلى العرب

"المنقذين"، لا "الفاتحين" (١٤). ويرى النقاش في النهاية "أن المسيحية كانت على أصفى ما يكون الودّ مع الاسلام، ولا عجب، فهما من منبع واحد، ومشكاة واحدة"(١٥).

والمؤرّخ الشيعي علي الزين في كتابه "مع التاريخ العاملي" يتساءل: "ما الذي يسوّغ لبعض المستشرقين ، ومن نهج نهجهم، من مؤرخي لبنان، أن يظنّوا بأن اللبنانيين حاولوا عفواً أن يتمرّدوا على الفاتح العربي (في معركة المنيطرة)، قبل أن تتسرّب إليهم الدسائس الرومية، او قبل أن يفكّر قسطنطين اللحياني ملك الروم إرسال قوة حربية مع الجراجمة إلى الشام...؟". وفي النهاية يؤكّد المؤرخ الزين "أن ولاء اللبنانيين الأصيل إنما هو للعرب" (١٦).

ويلتقي المؤرّخ السني الدكتور عادل اسماعيل مع المؤرخ أحمد بيضون الشيعي، والاسقف الماروني دريان، والمستشرق دي غوبرناس حول القول بأن المردة هم "إيرانيو الأصل استخدمهم البيزنطيون مع شعوب أخرى في حروبهم... وبينهم الجراجمة" (١٧).

إنتفاضة المنيطرة المارونية على العرب والتهجير الاول في التاريخ اللبناني

قام موارنة المنيطرة بتحريض من الروم، باعلان الثورة على الحكم العباسي سنة ٧٩٥، وهاجموا البقاع بقيادة الأمير سمعان، مقدّم بسكنتا. وبعد أخذ وردّ، وإقدام وفرار، تمكّن الحاكم العباسي صالح بن علي من هزم الثوار، وتخريب القرى المسيحية في البقاع، وتهجير سكانها إلى جبل لبنان، وقتل العديد من الشيوخ والنساء والاطفال الذين لزموا منازلهم. وهي أول حملة تهجير في تاريخ الموارنة، يتعرّض لها المجتمع الماروني. وبسبب الظلم والوحشية التي رافقها كتب الامام الاوزاعي إبن بعلبك المسلم، محتجّاً إلى الخليفة العباسي، مستغرباً "كيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة، ويُخرَج أهل الذمّة في جبل لبنان من ديارهم وأموالهم، وهم ممّن لم يكن ممالئاً لمن خرج على خروجه ممّن قَتَلْتَ؟ وأحقّ الوصايا أن تحافظ، وترعى وصية رسول الله "من ظلم معاهداً وكلّفه فوق طاقته فأنا حجيجه".

الشروط العمرية

لخصّ العلامة السنّي الشيخ صبحي الصالح، شهيد الجرأة والاعتدال في الحرب اللبنانية الأخيرة (١٩٧٥ ـ ١٩٩١)، الشروط الذمّية المعروفة بالشروط العمرية، المنسوبة حسب رأيه إلى عمر بن الخطاب، وفي رأينا واضعها هو الخليفة عمر بن عبد العزيز (٧١٧ ـ ٧٢٠) لأن الاول مشهور بورعه وتقواه، وبعده عن العنف والظلم، والثاني عاصر قيام الكنيسة المارونية وخوف العرب والروم منها على السواء، مما حملهما على عقد اتفاقيات الترحيل الشهيرة التي كان آخرها في عهد سلف الخليفة عمر بن عبد العزيز، الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ ـ ٧١٥). وقد اعتبر الشيخ الصالح أن الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب قد فرضها على نصارى الشام حين صالحهم، فاشترط عليهم: "ألاّ يحدثوا في مدينتهم، ولا فيما حولها ديراً، ولا كنيسةً، ولا قلاّيةً، ولا صومعة راهب، ولا يجدّدوا ما خُرِّب، ولا يمنعوا كنائسهم (والاصحّ بيوتهم) أن ينزلها أحد من المسلمين ثلاث ليال يطعمونهم، ولا يأووا جاسوساً، ولا يكتموا غشّاً للمسلمين، ولا يعلّموا أولادهم القران، ولا يظهروا شركاً، وأن يقوموا من مجالسهم إذا أرادوا الجلوس، ولا يتشبّهوا بالمسلمين في شيء من لباسهم، ولا يُكنّوا لكناهم، ولا يركبوا سرجاً، ولا يتقلّدوا سيفاً، ولا يبيعوا الخمور وأن يجزّوا مقادم رؤوسهم، وأن يلزموا زيّهم حيثما كانوا، وأن يشدّوا الزنانير على أوساطهم، ولا يظهروا صليباً ولا شيئاً من كتبهم فيه شيء من طرق المسلمين، ولا يجاروا المسلمين بموتاهم، ولا يضربوا بالناقوس إلاّ ضرباً خفيفاً (والنواقيس كانت في أيامه من خشب ولم يستعمل الناقوس النحاسي إلاّ بعد مجيء الصليبيين إلى لبنان في القرن الثاني عشر)، ولا يرفعوا أصواتهم مع موتاهم، ولا يظهروا النيران معهم، ولا يشتروا للمسلمين منهم ما يحلّ من أهل المعاندة والشقاق" (١٨).

وقد زاد المتوكل (٨٤٧ ـ٨٦١)، ولاة الشام، فيما بعد، شروطاً جديدة على الشروط العمرية وابرزها: "ان يعلق النصارى على ابواب بيوتهم تماثيل خشبية تمثل الشيطان، وقد أمر (المتوكّل) ألاّ ترتفع قبورهم عن مستوى وجه الأرض، وألا يركبوا سوى البغال والحمير، وأن يعلّقوا على أردان البستهم قطعاً من القماش الملوّن دلالةً على أنهم نصارى" (١٩). كما أضيف إلى هذه الشروط قرارات لاحقة بعدم توظيف

مسيحيين في الدواوين، او استخدام مسلمين، ووجوب إطاعة الخليفة ونوّابه كما يطاع الأحبار والبطاركة، وعدم تشريف المسيحي بالمشاركة في الجندية والجهاد المقدّس. كما فُرض على المسيحي ضريبة خاصة بأهل الذمّة. وقد أعاد العمل بهذه الشروط أيضاً وأيضاً "الرشيد العبّاسي سنة ٨٠٧، وأمر بهدم الكنائس" (٢٠).

ونتيجةً لتطبيق مثل هذه الشروط الجائرة التي تميّز بين المواطنين في الأمّة الواحدة، ترك قسم كبير من مسيحيّي حوران، وبلاد الشام، وفلسطين، إلى جبل لبنان لينعموا بالحرية التي فقدوها في مواطنهم السابقة، ومنهم "بنو الخازن، وملحمه، والسمعاني، وعواد، والشدياق، وثابت، والدبس، والتيّان، وسركيس..." (٢١). هذا عدا الذين هاجروا من المسيحيين السوريين الهاربين من العدوان البيزنطي واليعقوبي الذي تحدّثنا عنه سابقاً. وآخرون غادروا البلاد لاحقاً، لا سيما في العهد العثماني، وقبله في عهد الفاطميين والايوبيين والمماليك، والعباسيين، مثل الغساسنة والتنوخيين الذي تحولّوا من النصرانية إلى الدرزية إرضاءً للقادة العرب والمسلمين. وبالمقابل غادر كثيرون من مسلمي إيران وسوريا وبلاد ما بين النهرين والجزيرة العربية، ودخلوا لبنان لاجئين إلى حمى المسيحيين، مثل بني حماده وهم من شيعة إيران، وبنو شهاب من سنيي الحجاز، وبني معن من أكراد آسيا الصغرى بالاضافة إلى مسيحيين سوريين كالمعاديين والبجاجنة الموارنة، وكاثوليك حلب... وغيرهم، ممّا يؤكد أن هذا الجبل اللبناني، عبر تاريخه، كان وسيبقى ملجأً للاحرار وملاذاً للمضطهدين.

وبمقابل هذه الصفحات السوداء من الظلم والاكراه في تاريخ العلاقات اللبنانية ـ العربية، هناك صفحات بيضاء مشرقة من الحماية، كما في عهد معاوية، والثقافة المتبادلة كما في عهد هارون الرشيد الذي جعل تيوفيل الرهّاوي الماروني كبير مستشاريه ومنجّميه، وكذلك ابنه المأمون وغيرهما ممن عرف عهدهم بالعهد العربي الذهبي.

لكنّه لا بُدّ من الاعتراف، أن الشروط العمرية، والمعاناة المسيحية من الحكم الاسلامي تركت جراحاً عميقة في الضمير المسيحي اللبناني، وكثيراً ما عبّر عن

هذه الحالة النفسية "بعقدة الخوف"، و"الاحباط". وبعض كتابات وتصريحات قادة الفكر والسياسة في لبنان، وفي دنيا العرب، تحرّك بين الحين والآخر هذه المخاوف الراقدة في الضمير المسيحي. ونذكر على سبيل المثال المقال الذي أثار ضجةً عند صدوره في ١٨ ـ ٩ ـ ١٩٧٥ في جريدة السفير، لأمين دار الافتاء السنّي حسين القوتلي وفيه يقول: "... إما أن يكون الحاكم مسلماً، والحكم إسلامياً، فيرضى عنه المسلم ويؤيّده، وإما أن يكون الحاكم غير مسلم والحكم غير إسلامي فيرفضه، ويعارضه، ويعمل على إلغائه، باللين، او بالقوة، بالعلن أو بالسرّ..." المسألة بكل بساطة :"هذا هو الاسلام والمسلمون لم يأتوا بهذا الدين من بيت أبيهم ليغيّروا فيه..." (٢٢).

ومع هذا، عاش المسيحي اللبناني، وبعض الاسر المسيحية التي اصرّت على البقاء في الربوع التي سيطر عليها العرب المسلمون على أتمّ وفاق مع الحكام الجدد.

وقد ذكر المسعودي في كتابه "التنبيه والاشراف" موارنة منبج وقنسرّين والعواصم، كما ذكرهم اليعقوبي إبن العبري في تاريخه الكنسي السرياني(٢٣) والمؤرخ اليعقوبي الآخر سعيد بن بطريق في كتابه "مجموعة الآباء اليونان" (٢٤). كما ورد ذكرهم على لسان توما اسقف كفرطاب اليعقوبي، والاسقف تاودوريطس الذي تحدّث كما أشرنا سابقاً عن "البستان القورشي الذي أنشأه مارون". وتبقى مخطوطة الشام التي نقل عنها مؤرخو الموارنة، ومنهم المؤرخ طنوس الشدياق، وسنعتمدها مرجعاً للفصل اللاحق، هي أهم المراجع التي تحدّثت عن ملوك وامراء ومقدّمي لبنان عند دخول العرب إلى هذه البلاد، وما جرى في أيامهم من أحداث. وفي معرض حديثه عن الوطن الماروني يتحدّث ابن العبري اليعقوبي في كتابه "تاريخ البلدان"، عن تيوفيل الرّهاوي الماروني، كبير منجّمي هارون الرشيد (٢٥). والعالم الالماني نلدكه اكتشف كتابة سريانية قديمة في دمشق تشير إلى موارنة يعيشون فيها في بداية الانتشار الماروني والفتح العربي، قد نشرها في المجلة الآسيوية المعروفة. ومن يزر جبل سمعان اليوم، ويشاهد آثار الكنائس، وخرائب الأديار القائمة فيها، والكتابات المدوّنة على حجارتها، خلال القرنين الخامس والسادس،

يتأكد أن شعباً عظيماً بايمانه وقوته، قد سكن تلك الديار التي كانت عامرة، واتخذ المارونية كنيسةً له، ولبنان ملاذاً، وموطناً نهائياً، بعد ما لاحقته تعديات الحكام، من جبال اللكام إلى سفوح الجبل اللبناني. ولم يجد الأمن، والراحة، والاستقلال، والحرية، والسلام، إلاّ في الربوع اللبنانية. وهكذا انصهرت هذه القوى العسكرية، والشعبية، مع المواطنين اللبنانيين الأصيلين، يجمع بينها ايمان ماروني واحد، وأرضٌ واحدة، وتقاليد واحدة، وطموحات واحدة للعيش بكرامة وحرية. ولم تفكّ بعض هذه القيادات، لا سيما الرومية الأصل، ارتباطها بالدولة الرومية البيزنطية، إلاّ بعد معاهدات العرب والروم، وإجلاء قسم كبير منها، ممّا جعل البقية الباقية، وهي غير كبيرة العدد، تنصهر انصهاراً كاملاً مع الشعب الماروني اللبناني الأصيل، وتنشئ وإيّاه في هذه البلاد كياناً مستقلاً غدا ملاذاً وملجأً لكل مضطهد يأبى الذلّ والخضوع في هذا الشرق المتعصّب والمتقلّب.

شروط الصلح بين العرب والروم

ولكي يحافظ اللبنانيون على استقلاليتهم، والموارنة على طقوسهم، عقدوا معاهدات مع العرب، ونظراً لأهمية هذا الحدث في التاريخ الماروني، لا بُدّ من لمحة حول تطوّراته ونتائجه، سواء ما تمّ في عهد معاوية، او في عهد خلفائه، وصولاً إلى العهد العبّاسي.

١- معاهدة الجراجمة والامويين

أول معاهدة بين العرب والروم، كانت الاتفاقية التي تمّت بين سكان جرجومة في جبال اللكام والقادة العرب، وقد أتى على ذكر تفاصيلها المؤرخ البيزنطي ثاوفان، بكلام يشبه كلام المؤرخ العربي البلاذري، وفيها يقول: "في سنة ٦٦٩(؟) دخل المردائيتي إلى لبنان، واستولوا على كل ما هو من جبل اللكام إلى المدينة المقدّسة (اورشليم). واحتلوا بعض مشارف لبنان، وضوى إليهم جماعة كثيرة من العبيد والاسرى، ومن الوطنيين، حتى أنهم في مدى قصير بلغوا الوفاً كثيرة... ولما بلغ معاوية سوريه، جمع خواصه من بني اميّة وقريش... واستقبل البطريق يوحنا الملقبّ بالتزيكودي، وتمّ الاتفاق بين الفريقين على تحرير شروط الصلح كتابةً، بعد

تعزيزها باليمين. وكانت كما يلي: أن يدفع العرب لخزينة الروم كل سنة ثلاثة آلاف وزنة من الذهب، وخمسين فرساً كريماً... وتمّ الصلح بين الروم والعرب إلى ثلاثين سنة. واستلم كل فريق صكّاً شرعياً بها... وهكذا ساد الأمان والسلام في الشرق والغرب معاً..." (٢٦).

وقد ذكر الأب لامنس هذه المعاهدة، وحدّد القائمين بها بأنهم "سكان جرجومة في جبال اللكام والقادة العرب"، والتي أسفرت عن "معاهدة تقضي بالتحالف، وأن يكون الجراجمة أعواناً للمسلمين في الحروب، وأن لا يدفعوا الجزية، في حين يتقاسمون الغنائم". وهذا ما حولهم، حسب الأب لامنس إلى "أمّة مستقلة"، وهم مدينون بذلك، حسب رأيه إلى الروم الذين مكّنوهم من التصدّي للعرب وفرض شروط الصلح عليهم.

اما البلاذري في تاريخه "فتوح البلدان"، فيقول: "حدّثني مشايخ من أهل إنطاكية أن الجراجمة من مدينة على جبل اللكام... يقال لها الجرجومة... فلما فتح ابو عبيده إنطاكية... هموّا باللحاق بالروم، إذ خافوا على أنفسهم، فلم ينتبه المسلمون لهم... ثم إن أهل إنطاكية نقضوا وغدروا، فوجّه إليهم ابو عبيدة من فتحها ثانيةً، وولاّها بعد فتحها مسلمه النهري فغزا الجرجومة، فلم يقاتله أهلها، ولكنهم بدروا بطلب الأمان والصلح، وأن لا يؤخذوا بالجزية، وأن ينفّلوا (يمنحوا) أسلاب من يقتلون من عدوّ المسلمين إذا حضروا معهم حرباً في مغازيهم (وهذا شرف كبير يمنح لأهل جرجومة ان يسمح بالانخراط في جنود المسلمين او على الأقل في خوض المعارك إلى جانبهم). ودخل من كان في هذا الصلح، فسمّوا الروادیف (الاحتياط) لأنهم تلوهم وليسوا منهم... فكان الجراجمة يستقيمون للولاة مرةً، ويعوجّون أخرى فيكاتبون الروم ويمالئونهم... فلما كانت أيام إبن الزبير، وموت مروان بن الحكم، وطلب عبد الملك الخلافة بعده... خرجت خيل الروم إلى جبل اللكام وعليها قائد من قوادهم، ثم صارت إلى لبنان وضوى إليها جماعة كثيرة من الجراجمة... فاضطر عبد الملك أن صالحهم على الف دينار كل جمعة... وارتهن لهم رهناء وضعهم في بعلبك... وفي سنة ٧٠هـ (٦٨٩م)، إن عبد الملك وجّه إلى الروحي سحيم بن المهاجر فقتله ومن كان معه من الروم، ونادى في سائر من ضوى إليه بالأمان، فتفرّق

الجراجمة بقرى حمص ودمشق، ورجع أكثرهم إلى مدينتهم باللكام، وأتى الأنباط قراهم، فرجع العبيد إلى مواليهم (أسيادهم)... ولما كانت سنة ٨٥ هـ. (٧٠٧م.) اجتمع الجراجمة إلى مدينتهم، وأتاهم قوم من الروم من قبل الاسكندرية وروسيس، فوجّه الوليد بن عبد الملك مسلمة بن عبد الملك فأناخ عليهم من الخلف (هجم)، فافتتحها على أن ينزلوا بحيث أحبّوا من الشام، ويجري على كل امرئ منهم ثمانية دنانير، وعلى عيالاتهم القوت من القمح والزيت، وهو مدّان من قمح وقسطان من زيت، على أن لا يكرهوا، ولا أحد من أولادهم ونسائهم على ترك النصرانية، وعلى أن يلبسوا لباس المسلمين (وهذا إنعام كبير يخالف الشروط العمرية الممنوحة للذميين من غير المسلمين)، ولا يؤخذ منهم، ولا من أولادهم ونسائهم جزية، وعلى أن يغزوا مع المسلمين فيُنفّلوا (يعطوا) أسلاب من يقتلونه مبارزةً، وعلى أن يؤخذ من تجاراتهم، وأموال موسريهم، ما يؤخذ من أموال المسلمين. فأخرب مدينتهم، وأنزلهم فأسكنهم في الحوّار وسفح اللولون (لا شيء ثابت في موقع أمكنة هذه الأسماء ولكن يُعتقد أنها في جبل سمعان او قورش)، وعمق تيزين (في أرمينيا). وصار بعضهم إلى حمص، ونزل بطريق الجرجومة في جماعة معه وهرب إلى بلاد الروم..." (٢٧).

وبعد هذه الرواية التي فصّل فيها البلاذري فتح الجرجومة، والتعاون الذي قام بين أبنائها وبين العرب، أشار إلى أن هذه الاتفاقية نقضت عدة مرّات حتى أُبرمت نهائياً في أيام عبد الملك بن مروان في العام ٧٠٧، أي في نفس التاريخ الذي يعطيه المؤرخون لوفاة البطريرك يوحنا مارون. ولذلك لا بُدَّ من عودة لرسم هذه العلاقة التي قامت بين البطريرك الماروني وشعبه من جهة، ومعاوية والعرب المسلمين من جهة ثانية.

٢- تحكيم معاوية في الخلاف بين الموارنة واليعاقبة

في العام ٦٥٨ حضر بعض رهبان دير مار مارون الكبير في الرستن، بصفتهم رؤساء أديار سوريا الثانية إلى دمشق ليفصل الوالي معاوية، قبل أن يصير خليفةً، بينهم وبين اليعاقبة حول الشأن العقائدي والكنسي، وحقّ الافضلية

في إدارة شؤون الكنائس المسيحية الموزّعة في البلاد والخاضعة للأمويين، وقد تمثّل اليعاقبة بالراهبين تادروس وسبوخت. في حين تمثّل الموارنة بالراهب يوحنا مارون وبعض الموارنة، بصفته رئيس دير مار مارون المذكور، حسبما أشار بعض المؤرخين، في حين أن هذا الأمر هو حتى الآن غير ثابت. وبعدما أبدى كل من الفريقين ما عنده من آراء حكم معاوية بأن "يدفع اليعاقبة له عشرين ألف دينار، وأن يلزموا السكوت. وجرت العادة، والقول للبطريرك الدويهي، على أساقفة اليعاقبة، أن يدفعوا هذا الذهب لمعاوية لئلا يرخي اليد بهم، فيضطهدهم أبناء الكنيسة (وربما المقصود بها الكنيسة المارونية)" (٢٨). ويرى بعض مؤرخي الموارنة، وبينهم السفير هنري ابو خاطر أن ممثل الموارنة في هذه المناظرة لا شك كان يوحنا مارون كبير علماء دير مارون الكبير "حيث تجادل الفريقان أمام معاوية في امر الايمان ولما أُفحم اليعاقبة أمر معاوية أن يقدّموا عشرين ألف دينار، وأن يلزموا الصمت" (٢٩). ويذكر المؤرخ سعيد بن بطريق اليعقوبي هذا التحكيم، ويضيف أن معاوية من جملة ما حكم به على اليعاقبة هو تجريد اليعاقبة من ممتلكاتهم، ورفع يدهم عن كنيسة القديس سمعان العمودي، المختلف عليها بين الفريقين، وضمّها إلى الممتلكات المارونية. هذا مع العلم أن الأب بطرس ضو أثبت صورة اللوحة التي تتضمنها هذه الكنيسة، وعليها كتابة خطّ عليها "الأنبا مارون" في المجلّد الثاني الذي يتحدّث عن الكنائس المارونية في سوريا الثانية، وجبل سمعان بالذات، حيث دفن الخليفة عمر بن عبد العزيز صاحب الشروط العمرية الشهيرة ضدّ المسيحيين.

٣. معاهدة معاوية والروم

اما البطريرك الدويهي فقد أتى على ذكر المعاهدة التي جرت بين معاوية بصفته خليفة العرب، والملك قسطنطين اللحياني امبراطور بيزنطية، وقال: "في السنة الثامنة والتاسعة من ملك قسطنطين اللحياني (٦٦٨ ـ ٦٨٥) (أي في العام ٨٧٦) والقول للمؤرخ شدرانس، دخل المتمّردون (المردة أو الموارنة) إلى جبل لبنان، وتملّكوا جميع ما هو من جبل طوروس الذي في بلاد أرمينيا إلى بيت المقدس، وتولّوا أجراد (جرود) اللبنان، وارتدّ إليهم نفر كثير من عبيد، ويُسرى (أسرى)، وغرباء، حتى أن في مدّة يسيرة من الزمان نافوا على ألوف كثيرة. فرعبت هذه الاحوال معاوية

وصحابته، واستقرّوا (قرّروا) أن ملك الروم منصان من العناية الالهية، فسفرّوا إلى قسطنطين الملك رُسُلْ (رسلاً) بطلب الهدنة والصلح، والملك وجّه إلى المسلمين أمير الجيش، وعلى يده انعقد الصلح، وتحرّر على صفايح بهذا الشرط : أن العرب لمدة ثلاثين سنة يؤدوا (يؤدون) للروم كلّ عام عشرة آلاف (دينار) ذهب، ومماية أسير، وخمسين حصان (حصاناً). ومن هذه الهدنة صار هدوء كثير لملكة الروم" (٣٠).

٤ـ مخطوطة لندن وتحكيم معاوية

وقد أورد الأب نو (Nau) مكتشف إحدى الوثائق السريانية في لندن أنه في عهد معاوية نظمّ اليعاقبة والموارنة كنيستهما. ووزع اليعاقبة أساقفتهم في المدن الهامة من سوريا وفلسطين وصولاً إلى مصر وافريقيا. كما دخلت الكنيسة المارونية في مرحلة التنظيم بقيادة اسقفها يوحنا مارون. وهذا ما جعل معاوية يطلب قادة هاتين الكنيستين إلى دمشق ليتجادلا في حضرته، كما أشرنا سابقاً. واضطرّ البطريرك او الجثليق اليعقوبي "آن يجعل نفسه مرتخصاً (مرتهناً) لمعاوية لكي يطيعه اليعاقبة خوفاً منه" حسبما فسّر المطران الدبس أحد تلك النصوص السريانية المذكورة التي اوردها العلاّمة نو في مقالة له في "المشرق" (٣١).

٥ ـ معاهدة عبد الملك بن مروان

ظلّت العلاقات جيدة بين العرب والروم، بعد معاهدة معاوية، حتى استلم عبد الملك بن مروان الاموي الحكم، بين الاعوام ٦٨٥ و٧٠٥، وكانت البطريركية المارونية قد أُسندت، ولأول مرة، لمؤسس الكنيسة المارونية الاسقف يوحنا مارون، فتوثقت العلاقة بينهما، وكان عبد الملك يصطاف في دير "مُران" أي مارون، قرب دمشق. وابنه الخليفة الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ ـ ٧١٥) قد توفي في هذا الدير ودُفن فيه (٣٢). والخليفة عمر بن عبد العزيز، صاحب الشروط العمرية الشهيرة نفسه، كما ذكرنا سابقاً، لا يزال قبره قائماً في دير مار سمعان العمودي حتى اليوم، وهو الدير التابع لمتلكات الموارنة في جبل قورش او سمعان. وهذا يفسّر حسن العلاقة بين الموارنة والعرب. ولكن هذه العلاقة ساءت بعد ذلك بسبب ازدياد المداخلات البيزنطية في هذه المنطقة، والزيارات المتكررة التي كان يقوم بها مقدّمو لبنان لعاصمة الروم. فعمد

الامويون، ولا سيما عبد الملك وابنه الوليد، إلى عقد اتفاقات جديدة على غرار إتفاقية معاوية مع الروم لخفض شوكة المسيحيين، وعلى الاخص الموارنة أسياد لبنان، وترحيل القوى البيزنطية المساندة لهم.

وقد أشار المؤرخ البيزنطي ثاوفانوس، في معرض حديثه عن العلاقات العربية البيزنطية إلى اضطرار معاوية في السابق إلى تقديم "ثلاثة آلاف ذهباً، وثمانية آلاف أسير، وخمسين جواداً من الخيل الجياد. وأبرمت المعاهدة إلى ثلاثين سنة"، نظراً للاتفاق الذي جرى بين السراكسة الامويين والبطريرك البيزنطي يوحنا التزيكودي[٣٣]. وقد انتهى شهر العسل بين الروم والعرب، بانتهاء هذه المعاهدة التي توقّف العمل بها بسبب تزايد عمليات "السبي والاجتياح المتكرّرة لأرض العرب" حسبما أشار البطريرك السرياني رحماني في كتابه "التاريخ السرياني". وعلى أثر الانتفاضة التي قام بها الموارنة بقيادة ملكهم يوسف، حاكم جبيل، كما أشار البلاذري، وتمكّنه من "دخول بلاد معاوية وتشتيت أهلها... وقد حدثت هذه الانتفاضة في النصف الأول من القرن السابع بعد الغزو مباشرةً". وبعد سنوات من القلاقل والاضطرابات نقض الروم معاهداتهم، وعاد المردة من جديد إلى السطو على السواحل اللبنانية. ثم "حدثت مجاعة شديدة وطاعون في سوريا، وولّي عبدٌ في أميّه، وتواترت غارات المردة في لبنان، وثقلت وطأة الطاعون، فطلب عبد الملك تجديد عُهدة الصلح... وقد تمّت هذه المعاهدة في العام ٦٨٥ (وهو العام الأول لبطريركية يوحنا مارون)، وتقرّر فيها أن يدفع عبد الملك ألف قطعة ذهبية كل يوم، وأسيراً، ونصف خراج قبرس وأرمينيا وإيباريا، وجواداً أصيلاً... على أن يُرحّل البيزنطيون إثني عشر ألفاً من المردة عن الأراضي اللبنانية" حسبما اورد الدكتور عادل إسماعيل في مجموعته "الوثائق"، منشورات الجامعة الاميركية نقلاً عن ثاوفان صفحة ١٧٤ ـ ١٨٠. وتضيف المعلومات التي تناقلها المؤرخون حول هذه المعاهدة أن امير المردة يوحنا تمرّد على هذه الاتفاقية، واوامر ملك الروم، ورفض الخروج بجيشه من هذه البلاد لعمق الروابط القديمة بين الشعبين اللبناني والبيزنطي المقيم منذ أجيال في هذه البلاد التي يجمعه بأهلها وحدة الايمان والدم والمصير واللغة والتاريخ والجغرافيا، فما كان من قائد الجيش البيزنطي الذي دخل البقاع لابعاده

عن السلطة إلاّ أن غدر به بعد تظاهره بمساندته، وأقام مكانه الأمير سمعان مقدّم بسكنتا. ولم يلبث أن أرغم إثني عشر ألفاً من المردة على مغادرة البلاد إلى أرمينيا حيث استقبلهم الملك البيزنطي بكل تكريم "فانهدم السدّ النحاسي للمملكة البيزنطية" على حدّ قول المؤرخ ثاوفانوس، ناقل هذا الخبر، الذي اعتبر أن يوستنيانوس الأخرم، صاحب قرار الابعاد، كان في السادسة عشرة من عمره، وقد "أبرم هذا الاتفاق عن جنون في النفس". ثم عاد فندم بعد حين ونقضه. وفي اعتقادنا أن السبب الأهمّ الذي دفع بالروم إلى ترحيل المردة، ليس مردود هذه المعاهدة التي ندم على إبرامها يوستنيانوس، ولو أنه كان باهظ الثمن على العرب، بل بسبب وجود مستشارين كبار من اليعاقبة في بلاط الملك، وقد رأوا الفرصة مؤاتية للثأر من الموارنة الذين جرّدوهم من ممتلكاتهم في سورية بواسطة الوالي معاوية في العام ٦٥٩. وفي الوقت ذاته محاولتهم خنق المولود الجديد، وهو الكنيسة المارونية التي اعلنها يوحنا مارون، وهي في المهد قبل استفحال امرها واشتداد سواعدها. والسبب الثالث والأخير، ضرب اللحمة التي كانت قائمة بين مردة لبنان وجراجمة جبل اللكام التي تهدّد أمن الدولة البيزنطية، وقد أظهر قادتها مراراً خوفهم من هذه الجبال "المشحونة بالاعداء الألدّاء" (٣٤).

٦ـ معاهدة الوليد بن عبد الملك

بعد نحو عشرين عاماً ونيّف على معاهدة عبد الملك بن مروان والروم، التي عقدت عشية تولّي البطريرك يوحنا مقاليد الكنيسة المارونية، اضطر العرب لمواجهة حملة جديدة من مردة او جراجمة جبل اللكام عشية وفاة البطريرك يوحنا مارون الذي كان يضبط امور رعاياه بيد من حديد، ويمنع حدوث الشغب والاضطرابات. ففي العام ٧٠٧ "اجتمع الجراجمة إلى مدينتهم الجرجومة، والكلام للمؤرخ البلاذري، وأتاهم قومٌ من الروم، فوجّه الوليد بن عبد الملك مسلمة بن عبد الملك فأناخ عليهم من الخلف، فافتتحها على أن ينزلوا حيث احبّوا من الشام..." (٣٥). وكنّا قد أتينا على ذكر هذه الواقعة في حديثنا عن الجراجمة سابقاً، ولا داعي لتكرارها. ونكتفي بالقول أن الجراجمة يومها اضطرّوا للجوء إلى لبنان حيث أقاموا فيه، وعوّضوا خسارة الموارنة إثني عشر ألفاً من المردة الذين رحّلوا في العام ٦٨٥ وقد

عاد هذا التلاحم بين موارنة اللكام، وموارنة لبنان من جديد، ليؤكّد أن هذه المنطقة الممتدة "من طورس إلى بيت المقدس"، كما حدّدها المؤرخون، هي مارونية، وشعبها واحد، بما فيه من "مردة" و"خيل روم" و"جراجمة"، ولبنانيين "وطنيين" كما وصفهم البلاذري، وثاوفانوس، وغيره، في الحديث عن الروم اللاجئين إلى لبنان.

والجدير ذكره أن كل المعاهدات التي أُبرمت بين العرب والروم جرت بين العام ٦٥٩ و٧٠٧ أي خلال نصف قرن، ومعظمها في عهد بطريركية يوحنا مارون واسقفيته على بلاد البترون. كما كان الحشد الكبير البيزنطي، والهجوم على البطريرك يوحنا مارون وشعبه الماروني في العام ٦٩٤ قمّة المحاولات التي قام بها الروم، بتحريض من اليعاقبة، لإزاحته، وضرب الكنيسة المارونية الطرية العود، التي أعطت للموارنة إسمهم "الماروني". وبعد أن كانوا جماعة متأثرة بتعاليم القديس مارون وتدعى "حزب مارون"، جعلهم البطريرك يوحنا مارون كنيسةً منظمةً، وأمّةً واحدة تبدأ حدودها من جهات إنطاكية وجبال طوروس على حدود أرمينا، إلى بيت المقدس في فلسطين، فأرعب هذا النمّو المتصاعد للمارونية في الشرق الاعداء فتحالف الروم والعرب معاً لضربها حفاظاً عل بقائهم القوة الوحيدة المسيطرة في الشرق وتقاسم المغانم والنفوذ بين العاصمتين: الأموية في دمشق، والبيزنطية في القسطنطينية.

والأب بطرس ضو في مجموعته حول "تاريخ الموارنة" يعتبر أن المعاهدة التي عقدت بين الوليد بن عبد الملك والجراجمة "هي الميثاق الوطني الأول بين الموارنة والعرب... وظل مستمّراً على مرّ العصور، حتى جُدّد بصيغته النهائية والجديدة بين الموارنة في لبنان يمثلّهم الشيخ بشارة الخوري، والمسلمين يمثلّهم الاستاذ رياض الصلح..." [٣٦]. والتعديل الأخير أُجري على هذا الميثاق في "الطائف" في العربية السعودية في ٢٩ ايلول ١٩٨٩، حيث تبنّى نواب لبنان صيغةً جديدة للوفاق بين المسلمين والمسيحيين فكانت "الميثاق الوطني" الثالث. والمواثيق الثلاثة تدور حول موضوع واحد، هو تقاسم السلطة بين المسلمين والمسيحيين في لبنان. والجديد في هذا الميثاق الجديد هو إعطاء لبنان هوية عربية، وتأكيد نهائيته، وتقاسم السلطة فيه على أساس أن رئاسة الجمهورية تعطى للموارنة مع تخفيف في صلاحياتها،

ورئاسة الحكومة التي عُزّزت صلاحياتها وأصبح فيها الوزراء أصحاب القرار الحقيقي أعطيت للسُنّة، ورئاسة المجلس النيابي تركت للشيعة مع تمديد مدة ولاية هذه الرئاسة وإشراكها عملياً في تأليف الحكومة، مما يعني مضاعفةً لصلاحياتها.

ولا بُدَّ في نهاية هذا الموضوع المتعلّق بالاتفاقات المسيحية الاسلامية، او العربية - البيزنطية، واللبنانية ودول المحيط، من الاشارة إلى كلام قاله أحد السوّاح الغربيين الذين زاروا لبنان في القرن الماضي، وينطبق كثيراً على الواقع اللبناني الحالي، ومفاده أنه "لا يوجد شعبٌ في العالم أقلّ حباً للتجديد من الشعب العربي[٣٧]". وهذا التمسك بالعادات والتقاليد والانظمة والاعراف في المجتمع العربي، مردّه إلى مصادر هذه المبادئ المقدّسة والمعتبرة مُنزلة من عند الله. وهذه النزعة رغم، وجود الجامعات والمعاهد العالية، والطابع الغربي لها، بقيت متأصلّة، لا بل زادت "أُصولية" الشعب العربي. وهناك اليوم ردّة كبيرة إلى الأصول الدينية والطائفية، أدّت إلى اصطدامات مريعة بالسلطات الرافضة لهذا التخلّف. ولبنان يعتبر البلد الوحيد في المنطقة الذي يمارس الديمقراطية بشكلها الأقرب إلى الصحة، ومع ذلك تقف في وجه التغيير الجذري فيه، الداعي إلى العلمنة الكاملة، والتخلّي عن الطائفية، الطوائف مجتمعة، ممثّلة بقادتها الروحيين والسياسيين. والجيل الجديد، جيل الشباب، ليس أقلّ تمسكاً بأهداب الطائفية من الجيل القديم، الأمر الذي يبقي البلاد في حالة تخلّف، وعلى فوهة بركان، ذلك لأن الطائفية ما أن تخمد جذوتها حتى تتحفز للثوران من جديد وقذف اللهب والحمم المدمّرة. ولا خلاص للوطن اللبناني من الطائفية المقيّدة لتقدّمه إلاّ باتفاق كلمة أبنائه جميعاً على اقتفاء أثر الدول المتحضّرة التي تعتبر المواطنين عائلة واحدة متساوية في الحقوق والواجبات بعيداً عن اي انتماء طائفي او عرقي او جنسي او قومي. فهل يطول المخاض قبل ولادة هذا الوطن الحضاري الذي يطمح بالوصول إليه المخلصون والمثقّفون من أبنائه؟

الفصل الرابع

يوحنا مارون
والكنيسة المارونية

١. ملوك وامراء ومقدّمو لبنان عند دخول العرب

الحكم اللبناني والحكام الاوائل

المرجع الوحيد الذي عثر عليه المؤرخون فيما يتعلق بحكام لبنان الاوائل، هو نسخة داود بن ابراهيم الموضوعة سنة ١٣١٣، والمعروفة بالمخطوط الدمشقي السرياني الذي نقله البطريرك الدويهي، وعنه أخذ الآخرون [١] . ويستدلّ من هذه المخطوطة أن اللبنانيين أطلقوا على كبير حكامهم عند الفتح العربي إسم، او لقب "الملك"، ثم "الامير"، واخيراً استقرّوا فترةً طويلة على تسمية "المقدّم". وعلى رأس هؤلاء جميعاً كانت سلطة البطريرك الماروني الروحية والزمنية هي المرجعية الاولى في البلاد، إليه يعودون لتتويج ملوكهم، وأمرائهم، ومقدميهم، ومن يتلقون الألقاب أو الدرجات الروحية، كالشماس، والكاشف، والشدياق، ليضيفوا إلى سلطانهم الزمني سلطةً روحية، وفي يده أيضاً إطلاق الحرم عليهم وإسقاطهم من مراكزهم. وباختصار كان البطريرك الماروني "ملك الملوك"، و"امير الامراء"، و"مقدّم المقدمين". كما تشير المخطوطة المذكورة إلى أن جبيل كانت مقرّ حاكم الساحل، وبسكنتا مقرّ حاكم الجبل والداخل، وربما ذلك عائد إلى تقاسم السلطة بين الروم والموارنة. فالبيزنطيون كانوا يطلقون على امير الجنود البيزنطيين لقب "ملك" أو "أمير"، في حين كان اللبنانيون يطلقون هذا الإسم أيضاً على كبير مقدّميهم. وفي كل الاحوال إن أسماء هؤلاء الحكام غير واضحة تماماً باعتبار ناقليها اكتفوا بالاسم الأول للحاكم، ولم يذكروا إسم شهرته ولا نسبه، بيزنطياً كان أم لبنانياً. وفي اعتقادنا أن حكام جبيل كانوا من الروم، في حين كان حكام بسكنتا موارنة لبنانيين.

١ـ حكم الملوك

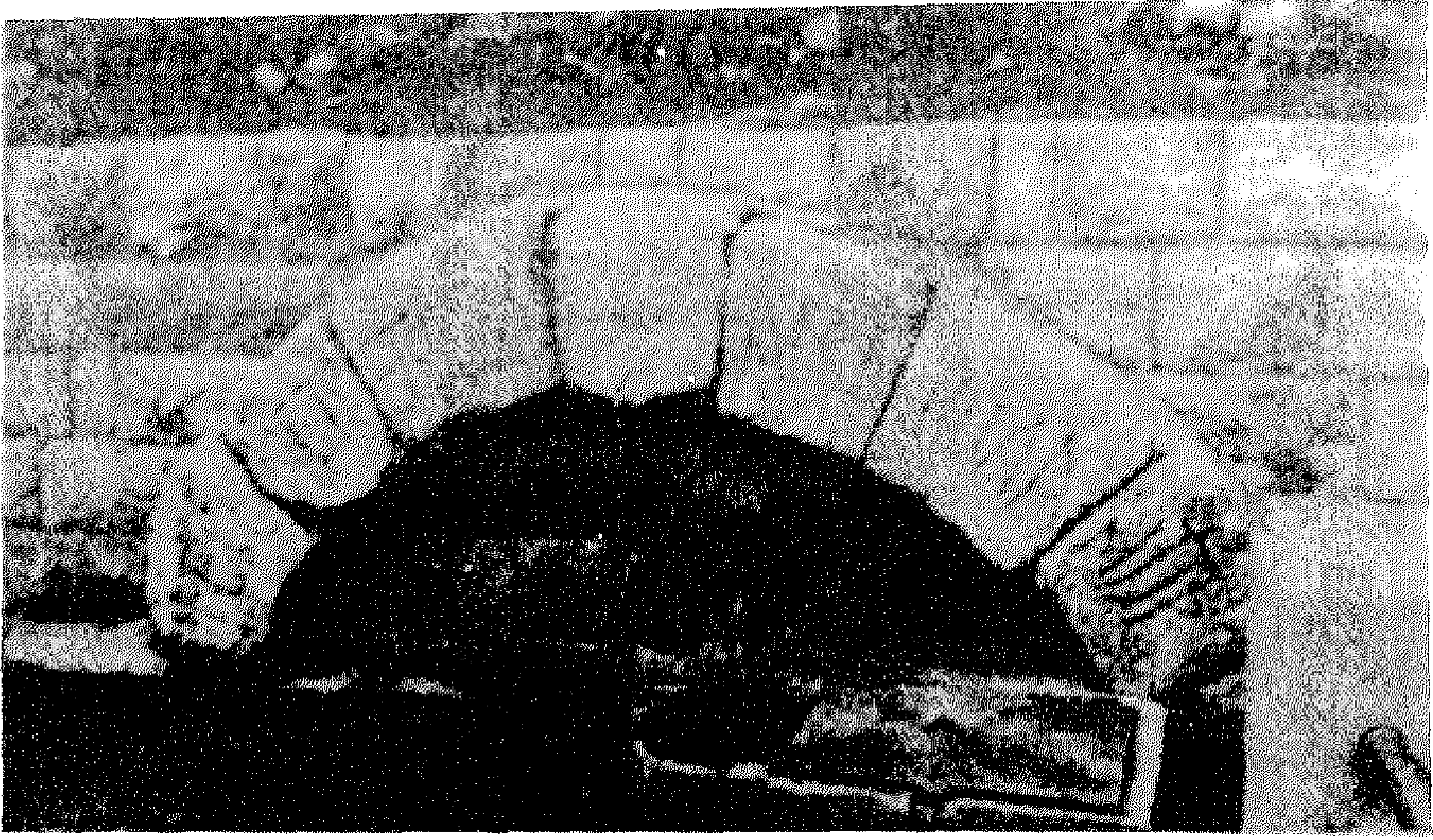
روى كاتب مخطوطة دمشق داود بن ابراهيم، وعنه نقل المؤرخ طنوس الشدياق: "أنه في إبتداء دولة العرب كان يوسف ملكاً على جبيل وكسرى على الداخلة وسمّيت باسمه كسروان. وكان أيوب متوليّاً قيصرية فيلبّس (البقاع) وبيت المقدس في خلافة عمر (عمر بن الخطاب). وبعد أيوب قام الياس، وهذا نجد هرقل (ملك الروم) عند قدومه إلى بلاد الشام سنة ٦٢٨..."(٢).

وقبل متابعة هذه السلسلة لحكام لبنان؛ لا بدّ من التوضيح أن الاحداث التي وردت فيها هي غير واضحة المعالم، ومبهمة، لا ترتبط بمكان ولا بتاريخ معيّن، بل مشوشة تختلط فيها الأسماء والألقاب. فهناك أكثر من يوحنا وموسى وسمعان ويعقوب وشمعون، حكم تكراراً، وأحياناً خلفاً لآخر بنفس الإسم. ونادراً ما ورد بعض التفاصيل حول مجريات الحكم والاحداث.

وقد حاول المؤرخ الأب ميخائيل الشبابي الذي عدنا إليه في محاولة لتوضيح هذه الملابسات في كتابه "تاريخ الكنيسة الانطاكية السريانية المارونية"، استنتاج التواريخ، والاحداث التي توضح تلك المرحلة، ولكنه لم يُشر إلى مصادر معلوماته كي يمكن الركون إليها ومراجعتها والتعليق عليها.

٢ـ حكم الامراء

ويتابع الشدياق سرد أسماء الحكام. وبعد ذكر أربعة ملوك هم: يوسف (مقرّه جبيل) وكسرى (مقرّه في بسكنتا ـ كسروان أو الداخلة) والياس (في قيصرية فيليبس) (البقاع)،وأيوب الذي خلف الياس حتى العام ٦٢٨في القيصرية المذكورة... بعد هؤلاء، عاد فانتقل إلى تعداد أسماء الحكام اللبنانيين من "الأمراء" على الشكل التالي:"... ثم الامير يعقوب، والامير ابراهيم إبن أخت البطريرك يوحنا مارون، ثم الأمير بطرس، ثم الأمير موسى، ثم الأمير جرجس، ثم الأمير موسى (أيضاً)، والأمير بطرس، والامير يعقوب، ثم الامير بكخوس (باخوس)، والأمير يعقوب (ثانيةً)، ثم الأمير شمعون، ثم الامير يعقوب إبن الأمير شمعون..." وينتقل بعدها إلى ذكر الحكام من المقدّمين، فيكون مجموع الامراء الذين ذكرهم سبعة عشر أميراً.



قصر الأمير اللبناني يوحنا في عين القبو بسكنتا .

وقبل الانتقال إلى تعداد المقدّمين كما وردت أسماؤهم عند الشدياق، نشير إلى ما ورد عند المؤرّخ الشبابي المذكور من المعلومات حول كل من هؤلاء الملوك والأمراء. فالملك الأول يوسف قد وجّه حملةً تلبيةً لأوامر ملك الروم إلى أرمينيا حيث ظفر بقائد الفرس سابور، ثم عاد فاحتل بلاد الأمويين او "أرض معاوية" كما يشير آخرون. ويظهر أن ملك جبيل كان له حقّ الصدارة لأنه تمّ تتويج الأمير سمعان في داره بحضور البطريرك الماروني وكافة امراء ومقدّمي وأساقفة الموارنة. والملك كسرى زار القسطنطينية وعاد منها مبجّلاً من ملك الروم ومخوّلاً الرئاسة على كل امراء ومقدّمي لبنان؛ ولذلك سميت الداخلة باسمه كسروان. والملك الياس وايوب كانت لهما جولات مظفّرة في البقاع والجبل مع العرب الطامعين ببلادهما. وينقل الحديث إلى الامراء، فالأمير ابراهيم ابن أخت البطريرك يوحنا مارون بقي في

الامارة إلى العام ٧٢٨، وقد حمى خاله من هجمات اليعاقبة وتصدّيهم له في صمار جبيل عندما أسندت إليه مقاليد اسقفية البترون. وخلفه الامير بطرس الذي خيّم الهدوء في أيامه إلى سنة ٧٥٢ التي ذهب فيها المقدّم الياس (اما الشدياق فيعطيه لقب أمير)، قائد جيش الموارنة، بعسكره إلى جهات السهل غازياً، حيث واجه السراكسة الأمويين الذين تظاهروا برغبتهم في الصلح، ثم قتلوه في المكان الذي دعي نسبةً إليه "قب الياس"، أي قبر الياس. واستلم بعده إبن شقيقته الأمير سمعان. في حين يذكر آخرون حادثة قتل المقدّم الياس أو الأمير الياس وينسبونها إلى الروم الذين اوفدوا إليه، بحجة مساندته، أحد قوّادهم الذي غدر به لأنه امتنع عن تنفيذ الاتفاقية المعقودة بين العرب والروم حول ترحيل ١٢ ألفاً من المردة الذين رفضوا الأمر وتمرّدوا على ملكهم فدعوا "مردة". وتخفيفاً لوطأة الحادث على مواطنيه وأتباعه، حسبما يشير الشبابي، تمّ تعيين إبن شقيقته الأمير سمعان خلفاً له، وهو الذي تُوّج باحتفال مهيب في دار الملك يوسف بجبيل، كما يذكر الدويهي، بحضور البطريرك الماروني (الحالاتي) واربعين أسقفاً من كافة أنحاء البلاد (٣). وقد اشتبك الامير سمعان، امير بسكنتا، في عدة معارك مع السراكسة الامويين في سهل البقاع وانطلياس ونهر الكلب، وتغلّب عليهم في كثير من المواقع. ثم توفي ودفن في بسكنتا، عاصمة جبل لبنان والداخل، وخلفه بطرس الذي لم يعمرّ كثيراً حسب الشبابي. وخلف بطرس بعد موته سنة ٧٥٦ الأمير موسى الذي واصل مهاجمة السراكسة وملاحقتهم حتى حمص وحماه. ولايقاف التعديات المارونية على العرب "طلب ابو جعفر المنصور، الخليفة العبّاسي، إلى الأمير منذر بن مالك واخيه إرسلان القيام بعشيرتهما من معرّة النعمان والحلول في بلاد بيروت، فحلّ الأمير إرسلان في وادي التيم، والامير منذر في حصن سرحمور، ثم تبعه إرسلان إلى سنّ الفيل، والأمير حسان بن خالد بن مالك إلى طردلا. ثم حلّ الأمير عبد الله بن النعمان بن مالك في كفرا، والأمير فوارس بن عبد الملك في عبيه. وتفرّق الآخرون بعشائرهم، فكانوا إثنتي عشرة قبيلة. وأخذوا يقاتلون الموارنة اجيالاً كان فيها معظم الفوز للموارنة الذين أخذوا كثيراً، مع الايام، من بلاد النزلاء..." (٤). وكان هؤلاء جميعاً من التنوخيين الذين يعودون بأصلهم الى الغساسنة وإلى المناذرة ملوك الشام النصارى

الذين أرغمهم خالد بن الوليد على اعتناق الدين الاسلامي بعد فتح الشام الذي ساهموا فيه، والفضل يعود إليهم في دخول العرب إليها. وقد اعتنقوا المذهب الدرزي لاحقاً في عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي.

ولما دهمت المنيّة الأمير موسى سنة ٧٩٠، قام مقامه الأمير جرجس الذي خاض اعنف المعارك مع الأمير مسعود الارسلاني في سنّ الفيل التي استرجعها من الارسلانيين، وهزمهم، وأحرق بعض قراهم. ثم خلفه الأمير يوحنا الذي في عهده أمر هارون الرشيد ثابت، امير الثغور الشامية، بمساعدة الارسلانيين على أهل كسروان العاصية (كما أسميت بسبب وقوفها بوجه العرب). كما خاض الموارنة معركة طاحنة ضد الأمير تنوخ الارسلاني المعروف بالمنذر سنة ٨٧٥، وفيها تقهقر الارسلانيون حتى نهر بيروت. ثم ارتدّوا على الموارنة وفتكوا بهم فتكاً ذريعاً. وبعد موت يوحنا خلفه يوحنا آخر استطاع بسط الأمن أكثر من سلفه، فكثر في عهده الحبساء والنساك. ثم خلفه الأمير اندراوس في اواسط الجيل العاشر، فأمّن البلاد على غرار سلفه. وبعده حكم الأمير موسى وسار على خطى سابقيه، وتوفي سنة ١٠٢٠. وبعده تولى الأمير عساف مقاليد الحكم، وكان بطلاً مغواراً، فاز على أخصامه في عدة معارك، وغزا السهل البقاعي، وتوفي سنة ١٠٥٠. وخلفه الامير جرجس الذي استمرّ في الحرب حتى وفاته وحلول الامير سوسى مكانه سنة ١٠٩٠. وفي أيامه دخل الصليبيون لبنان، فانخفضت شوكة أعداء الموارنة، وعزّ مقامهم في مناطقهم، فشرعوا في بناء الكنائس والأديرة. وانقرضت سلالة الفوارس التنوخية، ليحل محلّها في الحكم قبيلة البحتريين.

وفي العام ١١٢٠ ولّى صاحب دمشق، الأمير معن الأيوبي على البقاع لمحاربة الفرنج، فحلّ بعشيرته المعنيّة في جبال الشوف المقفرة، في المكان المعروف اليوم بصحراء بعقلين. وتوافد إليه النازحون من بلاد العرب، ولا سيما من بني تنوخ الذين تولّى أميرهم بحتر على بيروت والبقاع وبلاد الغرب في عهد الأمير الماروني بطرس الذي بقي في الامارة حتى سنة ١١٩٠. وكان قد حل في لبنان أيضاً آنذاك الشهابيون سنة ١١٦١ بقيادة الأمير منقذ الشهابي، وسكنوا وادي التيم، وتصاهروا مع المعنيين المقيمين في الشوف، وتبادلوا وإيّاهم حكم البلاد عدة قرون.

وفي عـهـد الامـيـر بـكـخـوس، او بـاخـوس، وقـع خـلاف عظيم بين الموارنـة على إقامة بطريرك للموارنة، وربما ذلك بسبب عزل البطريرك لوقا البنهراني الذي اعتنق المذهب اليـعـقـوبي. وفي اجـتـمـاع حـضـره أسـاقـفـة ووجـهـاء الموارنة برعـاية الأمـيـر باخوس في جبيل، تمّ إختيار إرميا العمشيتي بطريركاً، وطلبوا إليه حضـور المجمع اللاتراني الذي دعاه إليه قداسة البابا سنة ١٢١٥. ولما توفي الأمـيـر باخـوس خلفـه الأمير يعقوب فجرت في أيامه الحروب بين الشهابيين والمعنيين من جهة، والصليبيين من جهة ثانية سنة ١٢٤٠. وفي العام ١٢٥٨ مـات الامير عامر الشـهابي فخلفه إبنه قرقماز، وفتك بأكثر امراء عائلته. وغادر ملك فرنسا لويس التاسع عكا إلى فرنسا، تاركاً اسرته في لبنان تحت حمـاية الموارنة. وحارب الموارنة الملك الظاهـر برقوق ملك المـاليك، وهزمـوه إلى عكا، ثم عاد فأغار على قلعة الشـقيف وطرابلس وضـرب ٢٤ قرية من قرى الشمال، ولا سيما جبة بشرّي، فانقضّ عليه الموارنة وأرغموا جنوده على الفرار إلى حصن الأكراد. وسنة ١٢٦٩ فتح هذا الملك الحصـون التي في سفح لبنان، وقبض سنة ١٢٧٦ على امراء عبيه واعتقلهم، ونقلهم إلى مصر كما جاء في كتاب "الغرر الحسان" للأمير حيدر شهاب. وحمل الملك المنصور (قلاوون) على جبل لبنان سنة ١٢٨٢، وفتح إهدن، بـعد حـصـار ومقـاومـة اربعين يومـاً، بقـيادة البطريرك دانيال الحدشيتي. كما فتح جبّة بشرّي. وفي العام ١٢٨٤ غزا المغول الديار الشـامية فلم ينجُ من آل شـهـاب إلاّ بعض الامـراء "بقـيادة الأمـيـر سـعـيـد. امـا بلاد الموارنة، فكانت في هذه الشدّة، على حدّ تعبير الشـبابي، ملجـأً لمن نجوا من فتك المغول" (٥). وسنة ١٢٩٣ استرجع امراء الغرب بلادهم، بعد رحيل الصليبيين، "وجـعلوا بيروت مـراقـبـةً بـحـرية واتصـاليـةً مع الشـام. وكـان لبنان في هذا العـهـد ملجـأً لمن هرب من الفرنج وغـيـرهم، من إنطاكيـة وغيرها. وفي سنة ١٢٩٦ توفي الأمير يعقـوب، أمـيـر لبنان، وقـام بالامـارة بعده إبن اخته الأمـيـر اسـطفـان، فـانتـهى في عـهـده هذا الـجـيل (القـرن الـثـالث عـشـر) بالشـدائد والمحن" (٦)، إشـارة إلـى دخـول المـاليك و"فـتـوح كسروان". وبعد المقدّم اسطفان، وهو الملقّب بالامير اسطفـان عند الشـبابي، انتقل الحكم من الامراء اللبنانيين إلى المقدّمين.

تتويج الامير سمعان

وقبل الانتقال من حكم الامراء إلى حكم المقدّمين نشير إلى الاحتفال الكبير الذي جرى بمناسبة تتويج الامير سمعان؛ وهو نموذج لما كان يجري في مثل هذه المناسبة، لما للقائد الماروني، بصفته الحاكم الزمني، من الأهمية في تلك الحقبة من التاريخ. ويظهر أن الموارنة كانوا يقلّدون الرومان، ليس في تسمية حكامهم بالملوك فحسب، بل باحتفال التتويج هذا. ففي الوقت الذي كان قداسة البابا يتوّج ملوك الرومان في كاتدرائية القديس بطرس، كان بطاركة الموارنة يتوجّون ملوكهم وامراءهم في مقرّاتهم الخاصة بهم. والمعروف أن البطريرك وإن كان القائد الاعلى الزمني والروحي للموارنة، لكنه كان دائماً يوصي باختيار حكام زمنيين لتولّي الشأن العام، ويدعم هذا الاختيار بكل قواه مسبغاً عليه الشرعية الروحية بمنحه ألقاباً دينية خاصةً كلقب "الشدياق"، كما يشير ابن القلاعي في زجليته باعطاء المقدمين "عصا الشدياق العلماني".

وصف ابن القلاعي حفلة تتويج الامير سمعان، امير بسكنتا؛ وعنه نقل الدويهي قائلاً: "انطلق المقدّم سمعان (في حين يسمّيه الشبابي الأمير سمعان، وغيره من المؤرخين الموارنة والاجانب) ليزور يوسف امير مدينة جبيل (والآخرون يعطونه لقب ملك جبيل)، فتلقّاه السيد البطريرك غريغوريوس (الحالاتي) (٦)، بالقرب من المدينة، ودعاه إلى ضيافته. وبعد تمام الوليمة، سار معه إلى المدينة، فخرج الامير لملاقاتهما في خارج السور. وبعد أن قدّم واجب الاحترام للسيد البطريرك عانق سمعان. وسار الكلّ ماشين إلى دار الأمير. ثم أرسلوا فجمعوا أساقفة البلاد من عكار إلى حدود الشوف، وكان عددهم نحو أربعين أسقفاً. وثبّتوا سمعان أميراً على العاصية المسمّاة اليوم كسروان، وحدودها من نهر بيروت إلى نهر ابراهيم. فباركوه، ودعوا له، وانصرفوا. ثم إن أمير جبيل وهب الأمير سمعان عدةً من الخيل والجمال، فودّعه الامير سمعان..." (الأب ضو - جزء ثالث - صفحة ٢٥٤ نقلاً عن الدويهي).

٣. حكم المقدّمين

نستدلّ من الانتقال من تسمية الحاكم اللبناني ملكاً، إلى تسميته اميراً، ثم مقدّماً أن هذه الألقاب أخذها اللبنانيون عن حكام المنطقة، بينما اللقب الأساسي الذي تداوله الموارنة قبل وبعد مرحلة حكم الملوك والامراء، فهو لقب "المقدّم" الذي يعتبر بدعة مارونية، ولم يسبق الموارنة إلى استعماله أحد. واللفظة مشتقّة من "مقدّمانو" السريانية التي تعني الاقدام والبطولة، أو الوجيه الذي يتقدّم الصفوف في المجالس والكنائس والحروب. ولما كانت العادة التي درجت عليها معظم شعوب العالم، تقضي بتتويج الحاكم في احتفال رسمي من قبل رئيس الكهنة والأساقفة، عملاً بالتقاليد الوثنية القديمة، فقد عهد الموارنة إلى بطريركهم باعتباره رأس الطائفة لتتويج مقدّميهم، وحكامهم، ملوكاً كانوا ام أمراء. وقد بدأ تتويج كبار رجال الحكم والملوك مع اعلان الملك او الامبراطور قسطنطين الكبير سنة ٣١٢ المسيحية ديناً رسمياً للدولة، وقضت التقاليد الرومانية بأن يتوّج قداسة البابا الملوك والأباطرة. وهذا ما دفع نابوليون، الامبراطور الفرنسي، للتمثّل بهم والطلب إلى الحبر الاعظم أن يتوجّه.

ويظهر أن الموارنة، كانوا قد تخلّصوا من لقب الملك الذي اعطوه لمقدّميهم بزوال النفوذ البيزنطي عن بلادهم، ومع حلول الصليبيين في هذه البلاد، راحوا يطلقون على مقدّميهم لقب الامراء أسوةً بهم. وبعد رحيلهم في نهاية القرن الثالث عشر، عادوا إلى لقبهم الخاص بهم، وهو لقب "المقدم"، الدال بلغتهم السريانية على البطولة والاقدام، وهما الصفتان اللازمتان لكل حاكم. ثمّ وزّعوا على أعيانهم القاباً دون المقدّم أهميةً وهي الشدياق، والشاهور، والمدبّر، والرقيب، والشيخ... بالاضافة إلى امراء معظمهم غرباء نزحوا إلى البلاد في فترات معيّنة من الزمن، وأصبحوا من أبنائها وحكاماً عليها. ولا عجب إذا تشبّه الموارنة بالدول العظمى، ومنحوا حكامهم ألقاباً رفيعة كالملوك والامراء، فالبطريرك الماروني الاول يوحنا مارون، بعد وفاته سنة ٧٠٧ ترك شعباً منظماً وقوياً حافظ على سيادته واستقلاله، وخافته كل شعوب المنطقة وحكامها، وصار مجتمعاً أصيلاً في ديمقراطيته وتنظيمه، فلعب قادته الروحيون والزمنيون دوراً بارزاً في تاريخ هذه الأمّة اللبنانية، وفي كامل أرجاء هذه

هذه المنطقة المشرقية عامةً.

ومن المقـدّمين الذين تتـابعـوا على قيـادة البـلاد، بعـد من ذكـرنا من الملوك والأمراء، ودائماً بالرجوع إلى نسخة داود بن ابراهيم الدمشقية المخطوطة التي تعود للعـام ١٣١٣، ونقلاً عن طنوس الشدياق: "... المقدّم موسى (خليفة الامير اسطفان، إبن أخت الأمير يعقوب، الذي يدعوه بعضهم أيضاً مقدّماً)، والمقدّم يوحنا، ثم المقدّم يوسف العبدلّي (وهو من عبدللي في بلاد البترون، وآخر مُقدّمي جبيل وبسكنتا، وبعده انتقلت القيـادة المارونيـة سنة ١٤٠٠ إلى جبّة بشـري)". ثم يتـابع الشـدياق حديثه عن مقدّمي لبنان قائلاً: "... وسنة ١٤٠٠، لما قدم تيمورلنك، انتقلت الامارة من بلاد البترون وجبيل إلى بشري مقام المقدّم يعقوب وأولاده...". وقد استمر حسب الشدياق حكم مقدّمي الشمـال من العام ١٤٠٠ إلى العام ١٦٤٨ مع آخر المقدمين "خالد الحصروني الذي حكم سبعاً وثلاثين سنة...". وكان بين هؤلاء المقدمين نسل يعقوب أول مقدّمي بشرّي الذي عقبه في الحكم اولاده، ثم العناحلة (مقدّومو عين حليا)، إلى جانب بعض المقدّمين الغرباء المسلمين. والجدير ذكره أن حكم المقدّمين اصطدم بعقبة كبيرة، عند دخول المماليك في هذه البلاد عام ١٢٨٢، فأصبح الحكم الفعلي بيدهم، والبطاركة الموارنة أنفسهم لم يحمهم مقامهم الديني الرفيع من التعدّيات، فاضطروا مراراً للاختفاء وتغيير مقرّاتهم بين الحين والآخر حفاظاً على حياتهم وكرامتهم وممتلكاتهم. ومع هذا فقد وقع أكثر من شهيد منهم على يد هؤلاء الحكام الغرباء وأتباعهم. ونترك تفاصيل هذه الامور للجزء الثاني من بحثنا هذا. ونكتفي بالاعتراف أن الموارنة فقدوا استقلالهم منذ اليوم الأول الذي دخل فيه المماليك إلى مناطقهم، على أثر فتح كسروان سنة ١٣٠٥، وقبلها جبّة بشري سنة ١٢٨٢، وهُجّروا من بيوتهم، وقُطعت أشجارهم، وأُحرقت وهُدمت منازلهم، وقد عاشت بلادهم فترةً طويلة من القلاقل استمرت زهاء قرنين ونيّف من الزمن تحت سلطة الغرباء الذين استقدموا إلى بلادهم قبائل من العرب والتركمان والأكراد، فأصبحت السلطة بيد هؤلاء، ويد من أدخلهم العرب سابقاً من المسلمين، واضطرّ بعض الموارنة للعمل كمدبّرين لشؤون هؤلاء الحكام، أو كشركاء في أملاكهم. كما تقوقع معظمهم على أنفسهم في المنطقة الممتدة من طرابلس وبشري شمالاً إلى نهر

إبراهيم الذي يفصل بين جبيل وكسروان جنوباً. وفي مطلع القرن السادس عشر، مع دخول العثمانيين وانحسار الحكم الملوكي، عاد الموارنة للتوسّع في سكنهم فعمّروا كسروان التي هدمها المماليك، وامتدّوا جنوباً وشمالاً حتى أطراف لبنان، بفضل حكام يتحدرون من تلك الأسر التي أسكنت لبنان لتطويع شعبه فأصبحت أكثر المواطنين سعياً للتحرّر والاستقلال، وفي مقدّمة هؤلاء الامراء المعنيّون والشهابيّون.

٤. المدبّرون والمشايخ

بعد انخفاض شوكة المسيحيين، ولا سيما الموارنة منهم، على أثر دخول المماليك إلى البلاد، حاول الموارنة استعادة نفوذهم عن طريق التسلّل إلى مراكز القرار في الدولة الجديدة التي اصبحت بيد المسلمين الدخلاء والغرباء. وهكذا نرى بعض الأسر يلمع نجمها بحكم موقعها الجديد، وفي طليعتها مشايخ بني حبيش الذين استطاعوا تدبير امور امراء بني عساف حكام كسروان والشمال الذين جعلوا مقرّهم في غزير، وأخذوا يعملون لاعادة تعمير كسروان التي خرّبها المماليك. كما شاع لدى أمراء الدروز في مطلع القرن السادس عشر، ولا سيما في عهد الامراء المعنيين، الاعتماد على "مدبّرين" من الموارنة باعتبارهم أكثر إلماماً بالعلوم والكتابة من غيرهم، ولا يجرّهم الطمع بالحكم إلى القضاء على متسلمي الاحكام، فاختير منهم الأكثر إلماماً بالحساب، والمتميّز بجمال الخط لشغل وظيفة "مدبّر"، أو "كاخية"، أي أمين سرّ يهتمّ بالقضايا المالية، إلى جانب تقديم الاستشارات، وتمثيل الحاكم او الاقطاعي، والقيادة العسكرية. وقد توصّل بعض هؤلاء، بفضل ملازمتهم للامراء وكبار وجهاء البلاد، إلى لعب دور أساسي، عاد عليهم، وعلى طوائفهم بالنفع الكبير. ونذكر على سبيل المثال الدور الكبير الذي لعبه أبو نادر الخازن، مدبّر الأمير فخر الدين، ومن بعده اولاده وأحفاده عند الامراء المعنيين والشهابيين، فأصبحت الاسرة الخازنية من الأسر الاقطاعية التي امتدّ نفوذها وأملاكها من كسروان إلى عكار. والشيخ سعد الخوري الذي خلفه إبنه نوفل، أكسب أُسرة آل الخوري مركزاً مميّزاً في البلاد، فأصبح افرادها مشايخ، وتوصل بعضهم لإشغال وظيفة مدبّري بني شهاب حكام البلاد، وخلفوا بني الخازن في قنصلية فرنسا على الأرض اللبنانية.

والشيخ سمعان البيطار مدبّر الأمير يوسف شهاب الذي توصل بفضل دوره الكبير أن يصبح بيده سلطان تمليك الأراضي التي انتُزعت من بني حماده الشيعة حكام وملتزمي الشمال. وآل الضاهر والشدياق والدحداح، وأبي صعب، والعازار، وغيرهم من الأسر المسيحية التي شغلت وظائف مدبّري بني جنبلاط وكبار شيوخ الدروز، وبني شهاب، وغيرهما من الوجهاء والاقطاعيين، فصار هؤلاء بحكم نفوذهم وثروتهم بدورهم من المشايخ ورجال الاقطاع. وآل باز الذين لعبوا دوراً كبيراً في عهد الأمير بشير الثاني وأدّى بهم نفوذهم إلى غيرة أقطاب الاسر الأخرى، ولا سيما الشيخ بشير جنبلاط كبير الجنبلاطيين، والامير حسن شهاب شقيق الامير بشير الثاني الحاكم، فتآمروا لإغتيال المدبّرين الشيخين جرجس وعبد الأحد باز في يوم واحد حيث الأول كان مدبّراً لشؤون الامير الحاكم في دير القمر، والثاني مدبّراً لشؤون اولاد الامير يوسف شهاب في جبيل.

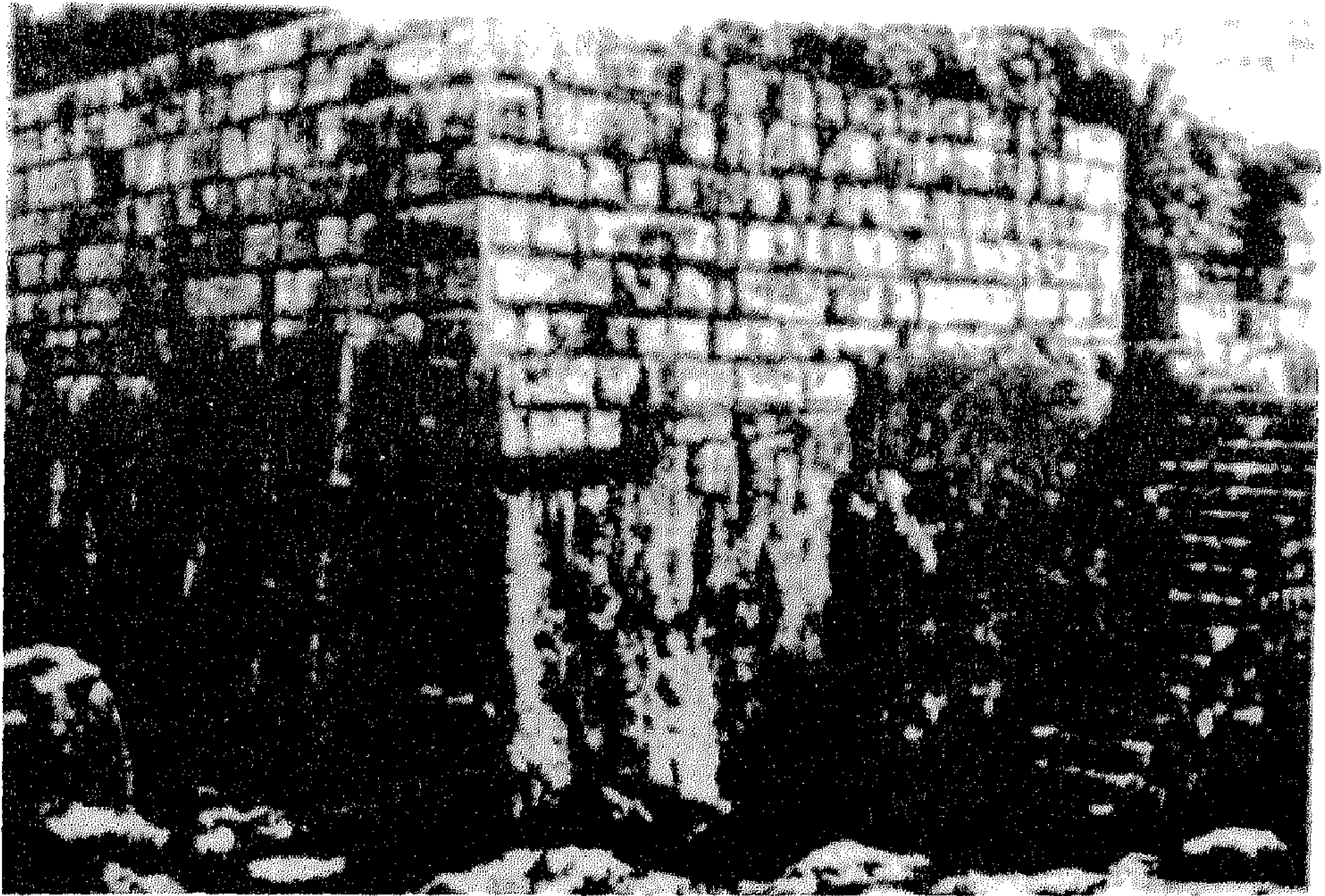
وفي الوقت الذي تقاسم فيه بعض الاسر اللبنانية النفوذ في لبنان، أخذ الموارنة بفضل تعاونهم مع الاسر الحاكمة حقّهم من النفوذ والاقطاع، وتقاسم حكم البلاد طيلة عهد الحكم العثماني الاسر التالية، وعلى الشكل التالي: بنو عاملة الشيعة في الجنوب، بنو بحتر وتنوخ وجنبلاط، والعماد، وتلحوق، وعبد الملك، وابي اللمع، ونكد، وإرسلان، والقاضي، وعلم الدين، الدروز وغيرهم، في الشوف وجهات بيروت. وبنو حماده الشيعة في بلاد جبيل والبترون وكافة أنحاء الشمال، يقاسمهم الحكم بعض الأسر الكردية من آل الشعّار والأيوبي، والأسعد وسيفا وغيرهم. وأمراء آل فريخ وحرفوش في البقاع... إلى جانب ولاة مسلمين غرباء كانت مقرّاتهم في طرابلس وبيروت وصيدا، تحكّموا بالمدن الساحلية، وبالجبل والداخل اللبناني، وبالامراء اللبنانيين، حكام البلاد أنفسهم، واخضعوهم للابتزاز والاضطهاد، مما جعل الاوضاع لا تستقرّ في البلاد، ممّا شجّع على الهجرة، فغادر كثيرون البلاد طلباً للراحة والاطمئنان. ومع هذا بقي للجبل اللبناني، رغم فقدان الموارنة السلطة فيه، طابعه الماروني، بفضل شيوخ ومدبّرين، كان لهم الفضل الأول في إعادة بناء الاسس التي عليها قام الوطن اللبناني، والكيان الوطني، بعد رجوع العافية إليه، وانحسار نفوذ الغرباء عنه.

وقبل الانتقال إلى دور البطاركة في تحصين البلاد من الداخل، ومدّها بالعون من الخارج، لا بُدَّ من الاشارة إلى أن هذا الجبل اللبناني بقي خارج النفوذ العربي إبّان حكم العرب للسواحل والداخل اللبنانيين، وبعد ذلك عند استلام القبائل الفارسية الشيعية والتركية السنيّة الأحكام، حتى في الجبل نفسه، بقيت السيادة معقودةً لامراء ومقدّمي ومدبّري وشيوخ الموارنة، ولو على المناطق التي لهم فيها وجود كثيف. وهذا ما أشار إليه المؤرخ جواد بولس، نقلاً عن الفيلسوف العربي إبن خلدون بقوله: "إن العرب الذين كانوا يعيشون في السهول والصحارى، كانوا يجهلون الجبل... أحاطوا به... ونادراً ما أخضعوه لنفوذهم... وكانت جبال الساحل المتوسطي في لبنان، وجبال العلويين (في سوريا) وجبال البربر في الجزائر، طوال العهد العربي تشكلّ حاجزاً منيعاً في وجه البداوة، وأحياناً في وجه العروبة... او الاسلام أيضاً... وكان إبن خلدون قد لاحظ أن الاعراب لا يستطيعون فرض نفوذهم إلاّ في بلاد السهول" (٨).

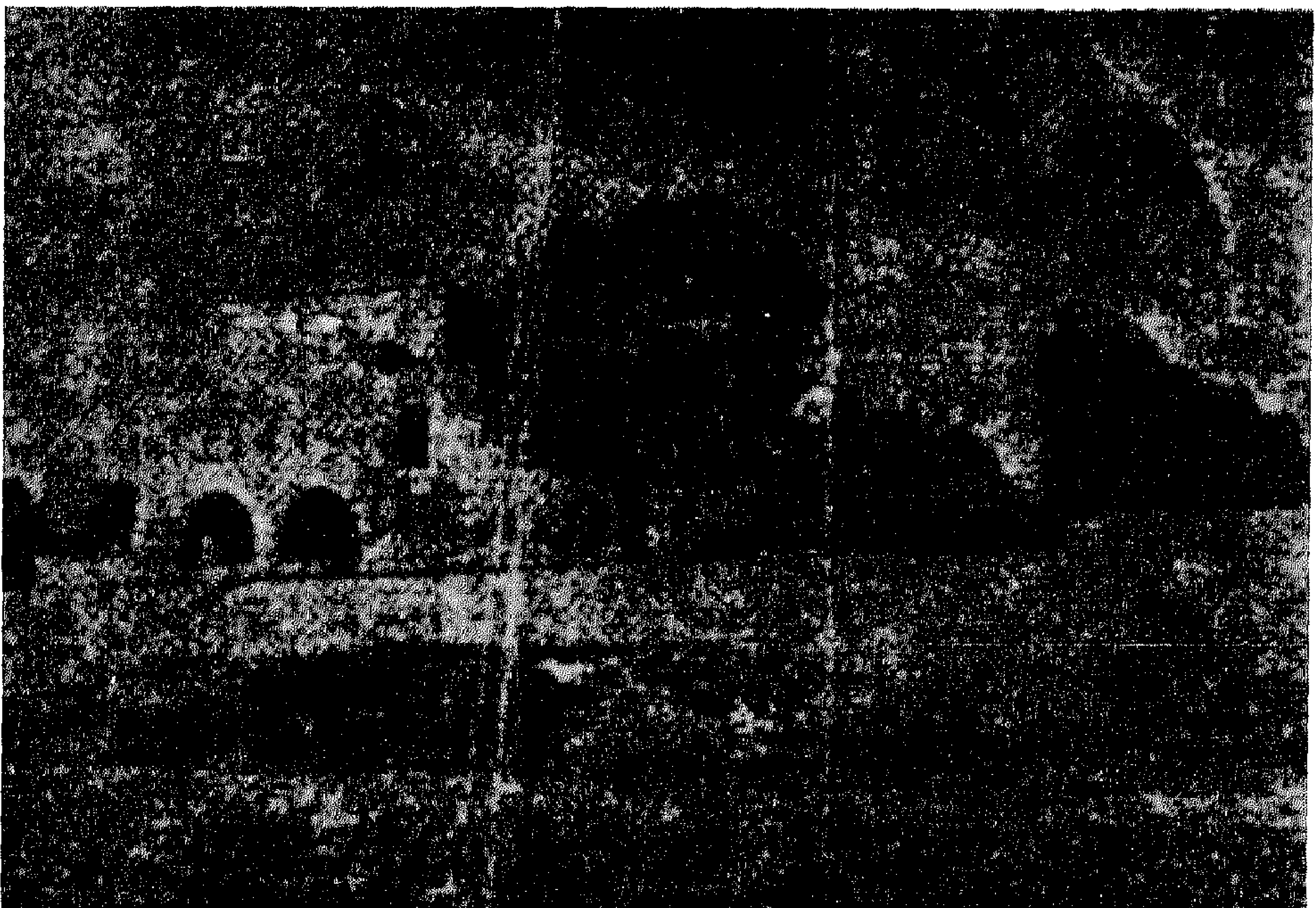
وبعد معاوية الذي كان أول من استقدم قبائل فارسية عربية من المسلمين سنة ٦٥٠ لإسكانها في لبنان، قام الخليفة العباسي المنصور (٧٥٤ ـ ٧٧٥) بإسكان قبائل عربية في منطقة حلب، وفي المدن الساحلية اللبنانية، وبينها قبيلة تنوخ التي أُنزلت في بيروت وصحراء الشويفات والشوف. في حين تمّ إسكان الشهابيين العرب في وادي التيم وحاصبيا، والمعنيين الأكراد في الشوف. وكان الغرض من إسكان هذه الجماعات في المنطقة الممتدة من ساحل بيروت إلى جرود المتن والشوف، هو الفصل بين مسيحيّي الجنوب والشمال، كي لا يعودوا إلى تشكيل إمارة مارونية على غرار ما كان واقعاً قبل دخول العرب إلى هذه البلاد. ولما أصبح الجنوب إمارةً معقودة اللواء للشيعة، تجدّد خوف العرب السنّيين في العهد العباسّي من لحمة بين الجنوب والشمال يصعب السيطرة عليها، لا سيما ولبنان حاجة ماسة لربط أجزاء الامبراطورية العربية في أقصى الشمال وأقصى الجنوب ببعضها، نظراً لأهمية هذه الطريق الساحلية التي جهد الغزاة والفاتحون الشرقيون والغربيون على السواء، للسيطرة عليها، باعتبارها الممرّ والبوابة الوحيدة بين الشرق والغرب. وهذه الأهمية

الستراتيجية نفسها دفعت المماليك والصليبيين والعثمانيين ودول الحلفاء للسيطرة على الأرض اللبنانية. ولا تزال المؤامرات تحاك حتى اليوم للفصل بين طوائف لبنان، بهدف إبقاء هذا الجسر مرتهناً لأصحاب المصالح في المنطقة، والقوى العظمى في العالم.

وتبقى ملاحظة أخيرة، وهي أن المسيحيين، رغم الضغوط التي مورست عليهم، كما أشرنا سابقاً، تجاوروا مع الدروز والشيعة والسنّة في القرى الواحدة، في حين لم تتمّ مثل هذه المشاركة بين القبائل السنيّة، وأيٍّ من هذه القبائل الاسلامية الأخرى. وظلّت على ولائها الكامل للخلفاء والحكام المسلمين الغرباء. وكان الدور الماروني، منذ نشأة هذا الوطن، ينحصر دائماً، وعلى اختلاف العهود، بتوحيد البلاد، وتشديد اواصر اللحمة، والولاء لهذه الأرض. وهذه هي "المارونية السياسية" الحقيقية.



جانب من قلعة سمار جبيل.



دير مار يوحنا مارون كفرحي

٢- كفرحي المقرّ البطريركي الأول:
يوحنا مارون وخلفاؤه

كفرحي القرية والمقرّ

كفرحي التي تبعد نحو خمسة عشر كيلومتراً عن البترون لجهة الشرق، تعلو نحو ٥٥٠ متراً عن سطح البحر، اسمها هذا مؤلف من الجذر العبري "كفر" أي "قرية" و"حي" من حايا التي تعني الحيّ والعائش، أو الصافي حسب الدكتور انيس فريحه [١]. وربما تعود هذه التسمية الى كون كفرحي كانت المقرّ الذي استراحت فيه هامة القديس مارون، مع ما في القضية من غموض، إذ أن بعض المصادر تشكّك في كون رأسه حمل إلى لبنان ودفن في كفرحي، رغم تأكيد الدبس والأب ضو والدويهي وغيرهم.

وفي كفرحي كنيسة قديمة العهد، شيّدت على انقاض معبد وثني كما تشير الكتابة اليونانية الموجودة فيها، وترجمتها "ان رجلين أحدهما يدعى مونيموس (أي منعم وهي كنية تبجيل مثل عبد الله وعبد المنعم، وعبد الكريم وغيره)، والآخر سيناس، أقاما هذا المذبح لأحد الآلهة، وقد طمس اسمه ولم يبق منه سوى ثلاثة حروف هي .A.P.P حسب ما ذكر الأب لامنس" [٢]. وقد اختار البطريرك يوحنا مارون هذه القرية ليبني الدير الماروني الأول فيها، ويجعله مقراً بطريركياً بسبب وجودها في وسط العمق الماروني الذي يحميه جناحا المارونية جبة بشري وجبّة المنيطرة، بسبب بعدها أيضا عن الساحل الذي يسكنه ويسيطر عليه العرب.

وفي هذا المقرّ الحصين، المحاط بالاودية السحيقة، على سفح هضبة تشرف على نهر الجوز، شاء الاسقف يوحنا مارون الذي كان مقرّه الاسقفي في "صمار جبيل" على بعد نحو عشرة كيلومترات من كفرحي، أن يجعل دير "ريش مُران"، او "رأس مارون" مقرّ بطريركية "انطاكية وسائر المشرق" بعدما كان مقرّها الاساسي في إنطاكية ومنها انتقلت مؤقتاً، عند تعيين الاسقف يوحنا مارون، الى دير مار مارون الكبير في الرستن قرب حماه الذي يترأسه يوحنا مارون، قبل أن يصير اسقفاً، ثم تحوّل هذا المقرّ بسبب الضغوط التي تعرض لها الموارنة في سوريا الثانية، والتي أدّت إلى استشهاد المئات من رهبان دير مارون الكبير المذكور، إلى بلدة كفرحي في وسط بلاد البترون . ولما كانت المدوّنات الرسمية قد نهبت وأتلفت، فليس ما يثبت هذا الانتقال الى كفرحي سوى ما يتناقله أباء الموارنة ومؤرخوها جيلاً عن جيل. اما الأب ضو، فله رأي آخر، ويعتقد أن يانوح هي المقرّ الأول للبطريركية، وكفرحي المقرّ الثاني الذي اعتمده يوحنا مارون على أثر معركة أميون التي انتصر فيها على اليعاقبة والروم في العام ٦٩٤(٣). اما البطريرك الدويهي فيرى أن البطريرك يوحنا مارون في العام ٦٨٥ "دخل بنفسه إلى رومية وقبل "الامفوريوم" (وغيره يسمّيه البالاريوم) أي درع كمال الرئاسة (أو التثبيت) من البابا سركيس (سرجيوس) الانطاكي الأصل، وعندما رجع الى كرسيه ردّ كثيرين من اليعاقبة، ومن تلاميذ مقاريوس، إلى الاقرار بالطبيعتين والمشيئتين" (٤). وقد شاء الدويهي والدبس ومن تبعهما في هذه الرواية، أن تنقل هامة القديس مارون المدفونة حسب زعمهم في كفرحي إلى فولينيو بإيطاليا على يد أحد الرهبان البنادقة من جمعية القديس مبارك سنة ١١٣٠. وقد أكّد اسقفها هذا الخبر كما أشار الدبس، وذكرنا ذلك سابقا، وسنأتي على تفاصيل هذا الخبر لاحقاً. وقد أقام في كفرحي، بصفتها المقرّ البطريركي الرسمي الأول، ثلاثة بطاركة هم: يوحنا مارون، وقورش، وجبرائيل. وظلّ دير مار مارون أو "ريش مران" عامراً حتى العام ١٦٣٤، وبعد القبض على أمير لبنان فخر الدين الثاني، وكان رئيس هذا الدير من محبّيه، "وصلت اليه يد التخريب بسبب كثرة الحكام والاغراض، ووشاية الاعداء والحسّاد"، على حدّ قول البطريرك الدويهي الذي أضاف: "وكثر الظلم، وكلّفوا الرعايا بدل

المال مالين، وقبضوا على الرؤساء في القرى... وكان القس يوحنا الاجبعي مترئساً على دير القديس مارون في قرية كفرحي، فوشى به أهل بقسمية إلى إبن سيفا حتى قبض عليه وأهانه، وسامه فوق ما هو في طاقته، فترك الدير، ثم ارتحل. ومن ذلك الوقت خرِّب الدير وخرِّبت بقسمية التي كانت لطائفة الملكية" (٥). والمقصود بالملكية تابعي الملك البيزنطي من اليعاقبة وبعض المؤرخين الآخرين ذكروا بقسمية واتبعوها بعبارة "التي كانت لليعاقبة".

وأعاد البطريرك يوسف اسطفان الغسطاوي (١٧٦٦ ـ ١٧٩٣) ترميم هذا الدير بعد خرابه، وحوَّل إسمه من دير "ريش مران" إلى دير "مار يوحنا مارون" تخليداً لذكرى مؤسس الطائفة المارونية. ثم قرر مجمع اللويزة المنعقد سنة ١٨١١ تحويله إلى مدرسة لتعليم أبناء الطائفة، على أن يساهم الميسورون من أبنائها بإعماره، وتخصيصه بالاوقاف. فأقدم بعض أعيان الطائفة بالاستجابة لهذا القرار وأخذت تتوسَّع املاكه حتى بلغت مساحات واسعة معظمها مروي من مياه نهر الجوز. ثم تحوَّل هذا الدير الى مقر لأسقف بلاد البترون جرمانوس ثابت الذي استقبل فيه شقيقه بالتبنّي البطريرك يوسف التيان بعد استقالته من البطريركية حيث قام بالتدريس عدة سنوات في المعهد المذكور. ثم خلفه في إدارة الأبرشية والمدرسة معاً الاسقف بطرس فريفر إبن بلدة كفرحي نفسها. ثم تحوَّل هذا المعهد إلى ثانوية زاهرة في عهد الخوراسقف ارسانيوس من بلدة كور القريبة من كفرحي. وفي الثمانينات من هذا القرن استعاد ازدهاره، بعد ما كان قد توقف منذ الحرب العالمية الأولى ليأخذ مكانه معهد سيدة النصر كفيفان، وعاد ليصبح مقراً لأسقف البترون الحالي المطران أميل بولس سعادة، وتفتح فيه مدرسة ثانوية رسمية.

طفولة يوحنا مارون

أكَّد الزعيم اليعقوبي يعقوب البرادعي "أن يوحنا مارون ولد في مدينة سروم الواقعة جنوبي انطاكية في جبل السويدية سنة ٦٢٧، وأضاف أن هذه المدينة تقع "على مسافة متساوية بين إنطاكية ودير القديس مارون" (٦). وقد وضع البطريرك العلاّمة اسطفان الدويهي نبذة عن حياته، نقلاً عن كتاب قديم وجد في كنيسة السيدة بدمشق سنة ١٣١٣، ويعرف بمخطوطة دمشق. وقد جاء فيه: "كان رأس

الامة المارونية رجل اسمه يوحنا، فاضل، عالم، مستقيم، كثير الفضائل، وهو من أصل شريف، إسم أبيه أغاتون، وامّه أنوهاميا، وإسم جدّه اليدبيس إبن أخت ملك فرنسا كارلومانيو. فلما قدم الى سوريا واستولى عليها، بقي الأمير اليدبيس إبن أخته في مدينة أنطاكية، فرزقه الله ولداً سمّاه أغاتون، وأغاتون ولد له يوحنا، فتأدّب هذا بالعلوم الروحية، والتفاسير الانجيلية، ومهر في السريانية، وسلك طريق النسك والفقه، واقيم بطريركاً على هذه الأمة" (٧). اما المؤرخ الماروني ميخائيل الشبابي، وسواه من المؤرخين فيعتبرون أن ابن أغاتون هذا، هو الاسقف يوحنا مارون الثاني، وليس الأول، وانه عيّن اسقفاً على البترون، وبطريركاً، في أواخر القرن العاشر، نقلاً عن مخطوطة إبن الطيّب الدمشقية نفسها. ثم يؤكد أن يوحنا الذي عناه البرادعي هو يوحنا مارون الأول السرومي البطريرك الاول، وهو بنظره لم يكن اسقفاً على بلاد البترون، بل يوحنا مارون ابن الافرنج، المعروف بيوحنا مارون الثاني. ويشهد الشبابي أن البطريرك يوحنا مارون السرومي كان خلقيدونياً مستقيم الايمان، وقد ثبتّه قداسة البابا، وعاد ليستقرّ في دير مار مارون، قرب حماه، ثم في كفرحي من بلاد البترون حيث مات ودفن في التاسع من شهر شباط. وهي الترجمة التي ذكرها السنكسار الماروني، وقد وجدت منه نسختان في خزانة الفاتيكان تحت رقم ٢٧ و٢٨، وفيهما ترجمة حياة البطريرك يوحنا مارون الأول (٨).

والأب بطرس ضو يؤكد، هو الآخر، أن يوحنا مارون المذكور، هو بطريرك آخر من بطاركة الموارنة غير مار يوحنا مارون الأول الذي أقام في كفرحي لأنه "يستحيل أن يكون مار يوحنا مارون إبن اخت كارلومانيو ملك فرنسا الذي توّج ملكاً سنة ٨٠٠ ومات سنة ٨١٥، بينما يوحنا مارون (الأول) أصبح بطريركاً سنة ٦٨٧ ومات في اوائل الجيل الثامن". ومدينة سروم المشار إليها هي المدينة التي تدعى اليوم سرمانيا الواقعة في جبل السويدية على مسافة متساوية بين إنطاكية ودير القديس مارون حيث يوجد قريتان احداهما تدعى موارنة والثانية ماروني. وكانت بلدة سرمانيا حسب الأب ضو إقطاعاً لامراء سرمانيا في العهد الصليبي (٩)، وأحد هؤلاء الامراء هو جرفيه دي سارمنيا (Gervais De Sarmenia) بارون إنطاكية، وابنه أشينارد بارون أرمينيا. وكان البطريرك الماروني معاصراً للبطريرك اليعقوبي

ساويروس الثاني الذي مات سنة ٦٨٤. وهذا الاختلاف في الرأي بين مؤرخي الموارنة وغيرهم، ناتج عن الالتباس بين مار يوحنا مارون الاول والثاني، والأقرب إلى الصحة كون الاول هو مؤسس الطائفة المارونية وان سكنه كان في كفرحي، بينما الثاني هو بطريرك أخر جاء بعد يوحنا مارون بنحو قرنين ونصف من الزمن وجعل مقرّه في يانوح، وليس في كفرحي.

وقد روى يعقوب البرادعي أنه "عندما يلتقي الهراطقة (ويقصد بهم الموارنة)، والارثوذكسيون، فيسألهم الهراطقة من أنتم؟: فيجيب الأرثوذكسيون نحن من حزب أمانة يعقوب أول الرسل واخ الربّ. وهذه الأمانة هي التي يعظنا بها يعقوب الالهي (والمقصود صاحب الخبر نفسه البرادعي). أما خصومهم (الموارنة) فيجيبون: إننا من حزب أمانة أفرام الآمذي (بطريرك إنطاكية في العام ٥٣٢ الذي حرم نسطور وساويروس واليعاقبة يوم تدشين كنيسة إنطاكية)، او يوحنا السرومي البطريرك عدوّ الله" (١٠). وهذه النعوت التي يطلقها اليعاقبة على الموارنة تشير إلى مدى العداء المستحكم بينهما بسبب الخلاف العقائدي حول طبيعتي المسيح التي يؤمن بها الموارنة، والطبيعة الواحدة الالهية التي يؤمن بها اليعاقبة. وقد استشهد الشبابي والأب لامنس بكلام منسوب الى إبن نصير مؤسس المذهب العلوي المعروف بالمذهب النصيري المعتنق من قبل العلويين في جبال النصيرية، وقد ورد فيه، من خلال كتاب "الباكورة السليمانية"، نسبة الى كاتبه سليمان العلوي في القرن التاسع: "إنك يا علي بن أبي طالب تفعل ما تشاء، وتحكم بما تريد، وأسألك أن تنزل سخطك وعذابك على إسحق الاحمر... وإلعن أبا بكر (الصدّيق)، وعمر (ابن الخطاب)، وعثمان (ابن عفان) ومعاوية (إبن أبي سفيان)... وإجعل اللعنة على يوحنا مارون البطرك الملعون، وعلى كل من أكل خيرك وعبد غيرك..." (١١).

وهذا العداء السافر بين اليعاقبة البيزنطيين والعلويين العرب، من جهة، والموارنة من جهة ثانية، يظهر الصراع الاقليمي بين سكان الجبل اللبناني الماروني، وسكان السهول والسواحل التي خضعت للمسلمين ولليعاقبة.

القس يوحنا مارون السرومي

ولا يسعنا إلا الاعتراف أن سيرة القديس يوحنا مارون، فيها الكثير من الغموض والتناقض، وهي بحاجة إلى إعادة تقييم وتحقيق لايضاح كل هذه الالتباسات بدءاً بشخصية ومسقط راس هذا القائد الماروني، وصولاً الى سيرة بقية البطاركة الذين توالوا على الكرسي الانطاكي حتى نهاية عهد الصليبيين. والسبب الأول للجهل المطبق المسيطر على تلك الحقبة، هو التخريب الذي لحق بأديار الموارنة ومقراتهم البطريركية خلال العصور، ولجهل معظم رجال الدين في تلك الفترة للعلوم وفنّ التاريخ. والرأي الأكثر واقعية حول ترجمة يوحنا مارون هو كونه أحد أبرز نسّاك دير مارون الكبير في الرستن بين حمص وحماه. وبما أن فكرة نهاية العالم كانت رائجة في تلك الفترة، فقد فضّل العقّال من المواطنين، ولا سيما الأشراف منهم، أن يخلّصوا نفوسهم فعمدوا إلى ترك الحياة المنعّمة والانعزال بعيداً عن العالم، عملاً بمشورة السيد المسيح القائل "اترك كل شيء واتبعني".

وهكذا ترك يوحنا أغاتون السرومي بلدته سروم اوسرمانيا كما تُعرف اليوم، وتوجّه إلى دير مار مارون في الرستن حيث أنهى دروسه الثانوية واللاهوتية، بعدما كان قد أنهى علومه الابتدائية في إنطاكية، وانخرط في عداد رهبان القديس مارون حيث حمل إسم الأخ يوحنا مارون، ولمع إسمه في محيطه، سيما بعدما انتقل إلى القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية حيث درس الفلسفة اليونانية، وعاد الى ديره بصحبة إبن شقيقه قورش بعدما توفي أبوه أثناء وجوده في القسطنطينية، فسيم قساً، وتولّى رئاسة دير مار مارون الذي هو أكسرخوس، أو رئيس ديار سوريا كلها. وذاع صيت القس يوحنا مارون في كل أنحاء القورشية وإنطاكية وسوريا الثانية وجبل لبنان، أي في كامل المنطقة المارونية الممتدّة من جبال اللكام إلى جبال الجليل. وأصبح المؤمنون، ورجال الفكر، من الموارنة ومن اعداء المارونية، وهم كثر يتداولون مواعظه، وكلّها تدور حول العقيدة المارونية الارثوذكسية الصحيحة. وفي هذا الوقت بالذات كانت تشهد منطقة سوريا الثانية زلزالاً سياسياً كبيراً، أهمّ من الزلازل الطبيعية التي كانت تضرب هذه المنطقة بين الحين والآخر، وهو الاحتلال العربي الاسلامي لكامل المنطقة السورية والفينيقية، بالاضافة الى فلسطين مخلّفاً

وراءه الدمار الروحي والمادي للكنائس المسيحية الموزّعة في الشرق، ابتداءً بالاسكندرية مروراً باورشليم، وصولاً إلى إنطاكية بالذات التي هرب بطريركها إلى القسطنطينية، وأصبح شعبه في واد، وهو في واد آخر، وظلّ مركزه شاغراً والرعية الانطاكية الارثوذكسية بدون راع قرابة "نصف قرن". وهذا ما وجّه الانظار إلى يوحنا مارون رئيس دير مارون الكبير.

الاسقف يوحنا مارون



الاسقف يوحنا مارون (رسم قديم محفوظ في روما ١٧٠٧).

هنا لا بدّ من الاعتراف بأن أسقفية يوحنا مارون، كما أشرنا سابقاً، هي موضع بحث. فهل اسقف البترون المدعو يوحنا مارون هو الأول الذي صار بطريركاً ومؤسساً للموارنة؟ ام بطريرك آخر جاء لاحقاً بعدما كان اسقفاً على البترون؟ وفي هذا المجال نشير الى رواية نقلها العلاّمة السمعاني في ترجمته عن القديس يوحنا مارون وفيها يقول: إن امير أنطاكية أوجين البرنس استدعى يوحنا مارون، وكان بين الرجلين حسب قول بعض مؤرخينا صلة نسب تعود إلى ملوك

فرنسا من آل كارلومانيو، وزار وإيّاه يوحنا الفيلادلفي أسقف عمّان، ونائب البابا على بطريركيتي إنطاكية واورشليم، فبادر القس يوحنا مارون، رئيس دير مار مارون الكبير، الامير الانطاكي بالقول: "يا ملك، وناقل هذا الخبر هو المؤرخ اليعقوبي سعيد بن بطريق، نحن نخاف على جبل لبنان لئلا تدوّره طائفة الملكية (الطائفة المؤيدة للملك البيزنطي وهي اليعقوبية) إلى أمانتهم، فقم الى الكردينال الذي عندك، وألزمه أن يكرسني مطران لأمسك بعض الناس على الامانة الفرنجية (الكاثوليكية التابعة لبابا روما)، أما أمانة يعقوب (البرادعي اليعاقبة) فما أذكرها؛ فكرسه مطران على البترون..." (١٢). فأي يوحنا هو المقصود؟ كل من مؤرخي الموارنة يرى خلافاً لغيره، فالشبابي، كما أشرنا، رأه يقصد يوحنا مارون الثاني، والآخرون وهم الكثرة الساحقة يعتبرون المقصود هو يوحنا مارون الأول الذي نحن بصدده الآن.

ومهما يكن من أمر هذه الملابسات، فنحن شخصياً نرى أن المقصود بهذه الرواية هو يوحنا مارون الأول مؤسس الكنيسة المارونية وبطريركها الأول، للأسباب التالية:

أولاً: لم ينشق الخلقيدونيون، أصحاب الإيمان الارثوذكسي القويم، بين ارثوذكس ملكيين، وارثوذكس كاثوليك، قبل العام ٧٢٧، أي بعد وفاة يوحنا مارون الاول بسنوات معدودة إذ أنه توفي عام ٧٠٧.

ثانياً: إن جميع السنكسارات المارونية القديمة السريانية، المحفوظة في الفاتيكان تحت رقم ٢٧ ـ ٢٨ مخطوطات، تتحدّث عن يوحنا مارون باعتباره "ينبوع الروح القدس"، و"عمود البيعة المقدّسة"، و"الناطق بصدق الايمان". ومخطوطات اليعاقبة هي أيضاً تشير بوضوح إلى "قائد ماروني كبير يدعى يوحنا مارون، قام على رأس الموارنة وجعل منهم كنيسة عظيمة، وامّة مرهوبة الجانب امتدّت بين اللكام والجليل في القرن السابع، عند مجيء العرب، وكان "زعيم الهراطقة"، و"عدوّ الله". وقد نقل المؤرخ ميخائيل مشاقه السوري عن التلمحري ديونيس، ثم عاد فنقل عنه المستشرق شابو (Chabot) قوله: "لا بدّ لنا في بيان الانقسام الذي حصل بينهم (بين الارثوذكسيين الخلقيدونيين) في هذه السنة ١٠٣٨ (للاسكندر وتوافق سنة ٧٢٧ مسيحية) بسبب هذه الهرطقة، وبسبب العبارة "يا من صلّيت لأجلنا". كانت

هذه البدعة (اي الملكية) سائدة في بلاد الروم منذ عهد قسطنطين. ولكن لم تكن مقبولة في البلاد السورية. وزرعت فيها الآن من قبل الأسرى الذين جلبهم العرب، وأقاموهم في سوريا. وبسبب مهابة دولة الروم انقاد إلى فساد هذه البدعة، وقبلها خاصة، سكان المدن وأساقفتهم والزعماء. وكان أحد هؤلاء سرجيوس بن منصور (وهو الذي تواطأ مع العرب على تسليم دمشق عند الفتح العربي بتركه الابواب مفتوحة ليلاً لدخولهم)... أما رهبان بيت مارون، واسقف هذا الدير، وغيرهم، فلم يقبلوا بهذه البدعة" (١٣). ثم روى المؤرخ ميخائيل مشاقه أن بطريرك الملكيين تيوفيلكس بن قنبرة أخذ أمراً من الخليفة مروان "ملك العرب الخلقيدونيين"، سنة ٧٣٦، "للتنكيل بالموارنة"، ومن ثم أتى إلى دير مارون (الكبير في الرستن) لإكراههم على القبول بهرطقة مكسيموس (البطريرك اليعقوبي المونوتولي)، وعلى ألا يقولوا "يا من صلّيت لأجلنا"، فوهن عزم الرهبان، بسبب التعذيب وقطعوا وعداً بالموافقة في اليوم التالي صباحاً؛ فثارت ثائرته، وجنّ جنونه لهذه المماطلة، وتقدّم راهب من مرافقيه فضرب المذبح المقدّس بيده صارخاً: "إلى متى ستبقى منجّساً أيها المذبح"، وللحال، وبفعل أعجوبة "ضربته يد العدل الالهي، إذ استولى عليه شيطان، وسقط على الأرض، وبعد أن قضى ليلته في الاوجاع لقي حتفه... وظلّ الموارنة على ما هم عليه حتى اليوم، يقيمون بطريركاً وأساقفة من ديرهم" (١٤). والمقصود إقامة بطاركة موارنة من دير مار مارون. وقد نفى الدويهي والسمعاني خبر إقامة البطاركة الاوائل خارج كفرحي. والتقاليد المارونية تشير إلى تعيين يوحنا مارون رئيس دير مار مارون اسقفاً على البترون وجبل لبنان سنة ٦٧٦ من قبل القاصد الرسولي يوحنا الفيلادلفي، فأقام في صمار جبيل(١٥) حتى تعيينه بطريركاً في العام ٦٨٥ .وهناك مغارة وجرف صخري كبير في وادي المدفون الملاصقة لصمار جبيل جنوباً يحملان إسم يوحنا مارون.

وبعدما زار يوحنا مارون، بصفته رئيساً لدير مار مارون الكبير المترئس على أديار سوريا كلها، أمير انطاكية اوجين البرنس، وطلب إليه تعيينه اسقفاً على البترون لمنع التحاق اللبنانيين بالطائفة الملكية اليعقوبية، وشدّهم إلى الكنيسة الكاثوليكية، لم يعد يُعرف ما حدث بعد ذلك، فلا المؤرخون القدامى، ولا من جاء

بعدهم، عثر على مستند رسمي يثبت تاريخ ومجريات هذه الاسقفية. وطغت الاحداث والصراعات اليعقوبية ـ المارونية على ما عداها من أحداث تلك الفترة حتى قيام الحملة البيزنطية الكبيرة على جبل لبنان الماروني في العام ٦٩٤، أي بعدما تسلّم يوحنا مارون مهام الكرسي البطريركي الانطاكي الذي أتفق على تحديد تاريخه في العام ٦٨٥ ـ ٦٨٦.

بطاركة كفرحي

وبما أن كفرحي، أبعد عن متناول أعداء المارونية من اليعاقبة والطوائف الاخرى القائمة في الساحل اللبناني، من صمار جبيل، فقد رأى البطريرك الماروني الأول يوحنا مارون أن يجعلها مقرّاً بطريركياً، ومن بعده لخلفائه الثلاثة، وهم جميعاً، من يوحنا مارون الى قورش، فجبرائيل، فيوحنا الثاني، من رهبان دير مار مارون الكبير في الرستن من سوريا الثانية بين حمص وحماه.

● ١. البطريرك الأول يوحنا مارون (٦٨٥ ـ ٧٠٧)

وإن كانت أسقفية يوحنا مارون مثار جدل، وموضع شك عند البعض، فإن بطريركيته أكّد عليها معظم المؤرخين، ولو أن إسمه لم يرد في سلسلة بطاركة الطوائف المسيحية الأخرى، كما احتجّ بعض هؤلاء المشكّكين. وقد ردّ المؤرخون والعلماء الموارنة على هذا الزعم بأن كل طائفة من هذه الطوائف كانت تهتم بذكر بطاركتها دون سائر البطاركة. وهذا ما فعله الموارنة عندما نظّموا سلسلة بطاركتهم. وأول نص عثر عليه في هذا المجال نسخة داود بن ابراهيم المعروفة بمخطوط دمشق باللغة السريانية، وهي ترقى إلى القرن الثامن والتاسع. وسنأتي على ذكر ما جاء فيها بالتفصيل. وهي لم تأت على ذكر بطاركة الطوائف الأخرى، تماماً كما فعل منظّمو السلاسل العائدة للطوائف المسيحية الباقية. وأول من اكتشف هذه السلسلة هو البطريرك الدويهي فذكرها في "سلسلة بطاركة الموارنة" التي نشرها الشرتوني. وكان قد اكتشفها من قبل العالم نو (Nau) في لندن، ونشرها في العام ١٩٠٠ في باريس [١٦].

ولما كان الكرسي الانطاكي شاغراً منذ ثمانية وثلاثين سنة بموت البطريرك

الانطاكي أنستاز (او انسطاس) سنة ٦٠٩، فقد أصدر الحكم البيزنطي وقادة القسطنطينية قراراً بتعيين أربعة بطاركة لخلافته على الكرسي الانطاكي وفقاً للتواريخ التالية:

١ـ مكدونيوس: من العام ٦٤٧ إلى العام ٦٤٩. لكن البابا مرتينوس الأول حرمه، ورفض الاعتراف به، لأنه لم ينتخب حسب العادات الانطاكيّة التي تقضي بانتخاب البطريرك الانطاكي من قبل الأساقفة الانطاكيين أنفسهم.

٢ـ مكاريوس: من العام ٦٤٩ إلى العام ٦٨٠. وهو أيضاً قد جرى تعيينه من قبل البيزنطيين فرفضه الكرسي الرسولي للأسباب نفسها التي حرم من أجلها سلفه.

٣ـ ثاوفانوس: انتخبه المجمع السادس المنعقد شرعياً بحضور ممثّل قداسة البابا من العام ٦٨١ حتى وفاته في العام ٦٨٥، فاعترف به الكرسي الرسولي، وبوفاته شغر الكرسي الانطاكي فعمد البيزنطيون إلى تعيين بطريرك رابع هو جاورجيوس.

٤ـ جاورجيوس: اختاره البيزنطيون في العام ٦٨٦ وعاش حتى العام ٧٠٢، ولكن الكرسي الرسولي لم يعترف به، لتعيينه خلافاً للاصول الانطاكية.

ولذلك، من بين هؤلاء الأربعة، يمكن اعتبار البطريرك ثاوفانوس وحده، بطريركاً إنطاكياً شرعياً، وبوفاته سنة ٦٨٥، شغر الكرسي الانطاكي. وهذا ما دفع الأساقفة الانطاكيين للاجتماع في دير مار مارون الكبير، وانتخاب رئيس هذا الدير، الاسقف يوحنا مارون، اسقف البترون وجبل لبنان، بطريركاً إنطاكياً. وتمتيناً لشرعية هذا الاختيار قام القاصد الرسولي يوحنا الفيلادلفي بمرافقة البطريرك يوحنا مارون إلى روما، لتثبيت إنتخابه من قبل البابا مرتينوس الأول. وأصبح هذا التقليد، بالعودة إلى روما لتثبيت الانتخاب، من الاعراف والتقاليد المارونية المرعية الإجراء، منذ عهد البطريرك الأول يوحنا مارون إلى أيامنا هذه. وقد رأت روما في هذا الاختيار تصرّفاً حكيماً وباركته لأنه السبيل الوحيد لحماية كاثوليك الشرق من الالتحاق بالنساطرة واليعاقبة الخارجين على طاعة الكنيسة الارثوذكسية الجامعة

المقدّسة الرومانية في روما.

وكل الكتب المارونية القديمة من كتاب الهدى، إلى ايضاح الايمان المنسوب إلى البطريرك يوحنا مارون نفسه، إلى نسخة داود بن ابراهيم المؤرخة في العام ١٣١٣، كلّها أشارت بوضوح إلى البطريرك الأول يوحنا مارون الذي يذكر إسمه في خدمة القداس وفي كل الكتب المارونية. ولعلّ أول ذكر للبطريرك يوحنا مارون في المخطوطات التي عثر عليها المنقبون هو النص العربي الذي ترجمه المطران داود الماروني عن الأصل السرياني الذي يرقى إلى القرن الثامن او التاسع، في العام ١٠٥٩ للميلاد وجاء فيه أن "أول فرقة ظهرت من الفرق المشهورة الفرقة المنسوبة إلى آريوس، ثم النسطورية المنسوبة إلى نسطور، ثم اليعقوبية المنسوبة إلى الملك قسطنطين بن قسطنس بن هرقل (ومنهم من يسمّيها الملكية)، ثم المارونية، وهي المنسوبة إلى مارون يوحنا بطريرك إنطاكيا العظمى" (١٧). وكتاب الهدى الذي عنه نقلت هذه النبذة "وضع في الجيل السابع حسب رأي العلامة نو". واقدم نسخة منه موجودة الآن في الفاتيكان، وهي النسخة المكتوبة في حاقل سنة ١٣٩٢. ويعتقد أن هذا الكتاب هو من تأليف البطريرك يوحنا مارون نفسه (١٨). كما ورد إسم البطريرك يوحنا مارون، كما أشرنا سابقاً، في كتب اليعاقبة ونعت بأنه "البطريرك عدوّ الله"، و"البطريرك الملعون" حسب دعاء المذهب العلوي ودستور النصيريين. والزعيم اليعقوبي، المنسوبة إليه طائفة اليعاقبة، يعقوب البرادعي نفسه أتى على ذكر يوحنا مارون كما أشرنا ووصفه "بيوحنا السرومي، وهو البطريرك المخالف للّه" (١٩).

وقد ذكر المؤرخ عبد يشوع الصوباوي أن يوحنا إبن الأفرنج (يوحنا الثاني) الذي صار بطريركاً في أواخر الجيل العاشر، واوائل الجيل الحادي عشر، هو غير يوحنا السرومي، ومؤلفاته معروفة، وهي تختلف عن مؤلفات يوحنا السرومي البطريرك الاول. وهو معاصر لصاحب مخطوطة دمشق عبد الله بن الطيب الذي ذكره في كتاب له حول الآباء الثلاثمائة والثمانية عشرة. وقال إنه لجأ إلى دير مار مارون الذي على تخوم حمص، ونسب إليه، وسمي مارون، وإسمه الوضعي يوحنا بن أغاتون بن عبدون. وقد خلفه البطريرك الدملصي (إرميا) بناء على رأي سلفه

قبيل موته (جبرائيل). وقد أقام في يانوح وليس في كفرحي التي أقام فيها يوحنا السرومي (٢٠).

أما المؤرخ الماروني طنوس الشدياق الذي روى قصة "البلابيس الفرنجي" المسمّى "عبدون" عند العرب، وإبنه أغاتون، وابنه يوحنا السرومي، فيشير إلى أن "يوحنا ترهّب في دير مار مارون عند العاصي. ثم انتخبه جمهور الافرنج الذي في أنطاكية مطراناً على البترون وجبل لبنان ليحفظ أهله من البدع، وذلك سنة ٦٧٦. ولما تقوّت الاسلام في تلك الديار رحل إلى جبل لبنان. ثم اقامه البابا سرجيوس بطركاً على جبل لبنان سنة ٦٨٥" (٢١). وإذا أضفنا إلى هذه الأقوال ما نقله البطريرك العلاّمة اسطفان الدويهي حول طفولة البطريرك يوحنا مارون الاول، لرأينا أن هذه الروايات جميعاً تنطلق من جذور واحدة، ولا تختلف في الجوهر، بعضها عن بعض. يقول الدويهي: "بعد إرتقاء يوحنا مارون إلى الاسقفية، أمّ أبرشيته، وأخذ يجتهد في الوعظ والتبشير متجولاً بغيرة الرسل في أنحاء أبرشيته ولبنان، هادياً ومرشداً. وتمكّن من هداية الكثيرين من القائلين بالطبيعة الواحدة، والمشيئة الواحدة، إلى الايمان الصحيح، فاجتمعت حوله رعية كثيرة العدد تمكّنت من الاستيلاء (وهنا تظهر كلمة الاستيلاء الدور العسكري للتنظيمات المارونية) على جبل لبنان، والمناطق الجبلية من حدود قيليقيا وبلاد الأرمن حتى القدس..." (٢٢).

ويبدو من الطبيعي جداً أن يكون القاصد الرسولي يوحنا الفيلادلفي قد عمل بنصيحة أمير إنطاكية أوجين البرنس الفرنجي، وبموجب صلاحياته الاستثنائية نظراً للاضطرابات الحاصلة في إنطاكية وجوارها من جرّاء الاحتلال العربي، وعيّن يوحنا مارون اسقفاً على جبل لبنان حيث نزح الموارنة بغالبيتهم. ثم اجتمع أساقفتهم وأعيانهم لاحقاً، واختاروه بطريركاً سنة ٦٨٥، فثارت ثائرة الملك يوستنيانوس الأخرم الذي رأى في هذا العمل إستقلالية وتفرّداً غير مرغوب فيهما، فجرّد حملة عليه لإسقاطه وتعيين بطريرك آخر يجعله تحت حمايته وتصرّفه في بلاط القسطنطينية. وعندها كان لا بدّ للبطريرك الجديد من الاحتماء بشعبه والدفاع عن نفسه تاركاً دير مار مارون الكبير على العاصي الذي جعله مقرّاً له عند تعيينه بطريركاً ليبقى قريباً من إنطاكية التي تعذّر الاقامة فيها بسبب الاحتلال

العربي. وهذا ما أشار إليه البطريرك الدويهي عندما قال: "ولما ظهر العسكر الرومي فجأةً في سوريه، وعلى مقربة من دير مار مارون، معقل ومركز القيادة المارونية، لم يكن بمقدور البطرك يوحنا مارون إلاّ أن يهرب إلى جبل لبنان، فتوجَّه نحو أبرشية البترون واعتصم في جبالها متّخذاً من قلعة اسمر جبيل حصناً له... وكاتب إبن أخته إبراهيم ليمدّه بالرجال دفاعاً عن نفسه، فأتاه في هذه المحنة باثني عشر ألف مقاتل من المردة بقيادة الأمير مسعود" (٢٣).

أما المؤرخ التلمحري فيقول: "إن الموارنة بدأوا يقيمون بطريركاً من ديرهم (أي دير مار مارون الكبير في الرستن) عام ٧٠٢، عندما أصبح أمر الرعية الانطاكية مهملاً، وإنه بعد أن حاول إبن قنبرة البطريرك الملكي الجديد (اليعقوبي المؤيد للملك قسطنطين) الذي أقامه الخليفة مروان الثاني، إخضاعهم عنوة لسلطته سنة ٧٤٦، ولم ينجح، ظلّ هؤلاء الموارنة، كما كانوا في الماضي، يقيمون بطريركاً من ديرهم"(٢٤).

والعلاّمة اللبناني، تلميذ معهد روما الشهير يوسف السمعاني، ذكر في مجموعته المعروفة باسم "المكتبة الشرقية" مجلد اول صفحة ٣٠٧ وما بعد، إلى انتخاب بطاركة موارنة يحملون إسم "بطرس" على الكرسي الانطاكي اعترافاً منهم بالولاء التام للكرسي الرسولي الروماني. وقد وجدنا عدة خطوط على أناجيل، وكتب كرشونية، وسريانية، في بعض أديار لبنان كتبها هؤلاء البطاركة أنفسهم تشير إلى تعيينهم الأساقفة ورؤساء الأديار، وتحمل ختم وتوقيع البطريرك الانطاكي الماروني. كما وُجدت كتابات كثيرة اخرى، بينها رسائل وبراءات من بابوات روما واولها من البابا زخيا الثالث الى البطريرك الانطاكي الماروني إرميا العمشيتي في العام ١٢١٣ ينوّه فيها بالعادات السارية في كنيسة أنطاكية ويمنحه درع التثبيت على الكرسي الانطاكي. وهذا ما درج عليه البطاركة الموارنة حتى اليوم، إن لجهة حمل لقب "بطريرك إنطاكية وسائر المشرق"، وإن لجهة طلب درع التثبيت من روما. وقد أوردنا هذه الدلائل دحضاً لأقوال مؤرخي اليعاقبة واللاتين والبيزنطيين التي تقول أن أسماء البطريرك يوحنا مارون وخلفاؤه، لم ترد في سلسلة بطاركة إنطاكية. مع العلم أن كل من هؤلاء كان يورد أسماء بطاركته دون ذكر البطاركة

الآخـرين. وهـذا لا ينفي وجـود بطاركـة مـوارنة ذكـرهـم من أشـرنا إليـهـم ، وبينـهـم مؤرخـون يعـاقبـة ونسـاطرة، وآخـرون غيـر موارنـة، بالاضـافـة الى بطاركـة الموارنة وعلمـائهم. حـتى أن أسـمـاء البـابوات لا نجـدهـا إلاّ في المراجـع الكنسـيـة اللاتينية. وعـدم ذكـر بطاركـة الموارنة في الكتب البـيزنطيـة يعـود إلى خـصـام الموارنـة وملوك الروم وكنيسة بيزنطيا بالتالي.

والخـلاصـة أنه شـغـر الكرسي البطريركي بين الاعـوام ٧٠٢ و٧٤٢ بسـبب الانقسام الذي حصل داخل الصف الارثوذكسي الواحد، وظهور البدع الآريوسية والنسطورية الملكية او اليعقوبية، والمارونية. وحدها الجماعة المارونية كانت تعترف بسلطة البابا، فلذلك لم يعترف الكرسي الرسولي بتولّي بطاركة الفرق التي ذكرنا على الكرسي الانطاكي، رغم تزاحم البطاركة الأربعة على هذا الكرسي، ولم يحظ بتأييد روما إلا البطريرك الماروني يوحنا مارون الذي قصد روما للحصول على درع التثبيت منها بنفسه. وبما أن الأنظمة المرعية الاجراء كانت تقضي بانتخاب البطاركة في إنطاكية، والحصول على تأييد أكثرية أساقفتها، وكان هذا الامر متعذّراً بسبب الاحتلال العربي من جهة، ولتخريب إنطاكية من جرّاء تزاحم الفرس والروم والعرب عليها، وتبادل السيطرة عليها، مما أدّى في النهاية إلى تدميرها واستحالة العودة إليها من قبل البطاركة، لذلك رأى الموارنة نظراً لعلاقاتهم الممتازة بروما، وبآباء المجمع الخلقيدوني وأتباعهم من الأساقفة المستقيمي الايمان، أن ينتخبوا بطريركاً إنطاكياً من داخل دير مار مارون الكبير الداخل في الابرشية الانطاكية. ومن أجدر من رئيس هذا الدير، واسقف البترون وجبل لبنان، يوحنا مارون الأول؟ فاختير خلفاً للبطريرك الشرعي توافانوس سنة ٦٨٥، وكان البطريرك الماروني الأول، فأسس الكنيسة المارونية، وشغل كرسي "بطريركية إنطاكية وسائر المشرق" من العام ٦٨٥ إلى العام ٧٠٧ حين وفاته، جاعلاً مقرّه نظراً لتعذّر الاقامة في إنطاكية، في دير "ريش مران" الذي بناه شخصياً في كفرحي. ولو لم يحرق دير مار مارون الكبير على الطريق العام بين حمص وحماه، لكنا وجدنا بين اوراقه ما يثبت هذا الانتخاب الذي تمّ هناك بحضور معظم الاساقفة الانطاكيين الخلقيدونيين. وهذه الافتراضات تؤيدها المعلومات المدوّنة في السنكسارات المارونية السريانية



البطريرك يوحنا مارون.

والكرشونية واللاتينية، المحفوظة في مكتبة الفاتيكان تحت الرقمين ٢٧ و٢٨ مخطوطات، وفي التراتيل، والنوافير، ودعوات القدّاسات المارونية. ناهيك عن مخطوط داود ابراهيم الدمشقي الذي اكتشفه الأب "نو" في لندن والمعروف بمخطوطة عبد الله بن الطيّب، وغيرها من المخطوطات والكتب المارونية القديمة.

ولما كان الشعب الماروني السرياني الخلقيدوني المقيم في معظمه على ضفاف العاصي في جهات أفاميا في سوريا الثانية، وصولاً إلى جبل لبنان، يتألّم من الهيمنة البيزنطية المتحالفة مع اليعاقبة المونوتوليين المعادين للخلقيدونيين، فقد رأى قادة الشعب الماروني، حفاظاً على أديارهم، وما تبقّى من رهبانهم، وكنائسهم، ومؤمنيهم، أن يبتعد البطريرك الانطاكي المنتخب حديثاً في ديرمار مارون الكبير، ويلجأ إلى لبنان، حيث تتأمّن له الحماية اللازمة، لا سيما بعدما أخذ اعداؤه يعدّون العدّة لاسقاطه، فغادر منطقة الثقل اليعقوبي المدعوم من ملوك بيزنطيا، وراح يعزّز القوى المارونية المتواجدة في جبل لبنان بالتعاون مع إبن شقيقه ابراهيم قائد القوى البيزنطية المتمرّدة على الروم، والأمير مسعود أو سمعان قائد الموارنة اللبنانيين، ويقيم إلى جانب ذلك الأديار، والكنائس، والمناسك، ويعيّن الأساقفة، متسلّحاً بتأييد روما له أولاً، وشعبه الماروني ثانياً، منتظراً لحظة المواجهة المحتومة مع أعدائه، وعاملاً بكل قواه للمحافظة على استقلالية شعبه وحريّاته وإيمانه، وبطريركيته الانطاكية، وكنيسته المارونية الرخصة العود.

ردود الفعل على انتخاب البطريرك يوحنا مارون

من الطبيعي أن تأتي ردّة الفعل الاولى من اليعاقبة، ونظراً لوجود بعضهم كمستشارين في البلاط البيزنطي، لدى الملك يوستنيانوس الأخرم، إبن الستة عشر عاماً، فقد استطاعوا تحريضه لإسقاط هذا الانتخاب غير الشرعي بنظرهم، والتحضير لمهاجمته في عقر داره، في دير مار مارون الكبير، مقرّه الأساسي، وفي المقرّ النهائي الذي اختاره في كفرحي البترون، في قلب جبل لبنان. وكان أول المعترضين على هذا الانتخاب يعقوب البرادعي، زعيم اليعاقبة، الذي نعته "بعدوّ الله". والمؤرخ اليعقوبي سعيد بن بطريق، بطريرك الاسكندرية الملكي، الذي رغم اعتباره مار مارون، وبالتالي الموارنة، مونوتوليين مثله لبلبلة معتقدهم والمؤمنين به،

نفى وجود بطريرك باسم يوحنا مارون. كما أسماه الاسماعيليون، سكان جبال النصيرية القريبة من دير مار مارون الكبير "البطريرك الملعون"، والتمسوا من شفيعهم علي بن ابي طالب ان "ينزل اللعنة عليه" حسبما جاء في "الباكورة السليمانية" التي أشرنا إليها سابقاً، واتفقوا من خلال هذا الموقف مع اليعاقبة.

وجاراهم في هذه الحملة لاحقاً مستشرقون، وكتبة لاتين، اعتبروا بطريركية يوحنا مارون، في حال وجد مثل هذا البطريرك، غير شرعية، ممّا يظهر عدم إلمامهم بعمق هذه القضية، وتأثرهم باليعاقبة، في حين أن المؤرخ اللاتيني لكويان اعتبر أن يوحنا مارون هو "رئيس او جاثليق" رهبان دير مار مارون الكبير على العاصي، واعترفت به روما بطريركاً، وبخلفائه؛ ولذا فهو يحمل لقب بطريرك انطاكية وسائر المشرق، كما ورد في كتابه "الشرق المسيحي" (٢٥). وقد بنى بعض المستشرقين أمثال رودوط وشابو وغيرهما، أقوالهم في نفي قداسة مار مارون، ووجود بطريرك باسم يوحنا مارون، إستناداً إلى أقوال أعداء الموارنة، وفي طليعتهم سعيد بن البطريق، بطريرك الاسكندرية الملكي الذي اتهم الموارنة بالمونوتولية. وقد ألقى شابو محاضرة في باريس في العام ١٩٣٤ نفى فيها قداسة مار مارون وأشار إلى يوحنا مارون بالقول: "إن مار يوحنا مارون هو وهم، وليس حقيقة، اخترعته مخيّلة الموارنة في القرن الخامس عشر" (٢٦). وقد ردّ عليه الأب فيليب السمراني عبر المجلة نفسها، وأحاله إلى المؤرخ تاودوريطس اسقف قورش المعاصر للقديس مارون ليتعرّف إلى "مارون الالهي"، كما نعته المؤرخ المذكور. ودعاه لقراءة رسائل يوحنا فم الذهب، لا سيما الرسالة ٣٦ التي يسأل فيها صديقه الكاهن يوحنا مارون الصلاة من أجله، ويصفه بالكاهن العظيم الذي اعترفت به الكنيسة الرومانية في براءة رسمية صادرة عن البابا بناديكتوس الرابع عشر، وموجّهة إلى سكرتير مجمع نشر الايمان، والموجود نصّها في كتاب "البراءات المارونية" للأباتي طوبيا العنيّسي المطبوع في روما سنة ١٩١١. كما دعاه أيضاً لمراجعة كتب الموارنة، ولا سيما الكتب التي وضعها يوحنا مارون نفسه مثل "إيضاح الايمان"، وكتاب "خدمة القداس الماروني"، وكتاب "الفرض الالهي"، و"الشحيمة"، ولا سيما كتاب "الهدى" دستور الموارنة في القرون الوسطى (صفحة ٣٧) المنشور في حلب ١٩٣٥ من قبل

الاباتي العنيّسي نقلاً عن المطران داود الماروني الذي ترجمه سنة ١٠٥٩. ثم نسخه داود ابراهيم في العام ١٣١٣، نقلاً عن الاصل السرياني القديم... وكلها تشير وتثبت قداسة مار مارون وبطريركية يوحنا مارون الانطاكية.

وبعدما وجد المجتمع الماروني نفسه محصوراً بين يعاقبة يضغطون، مؤيّدين من الحكم البيزنطي، لتغيير معتقداته وإيمانه، وعرب يحاولون فرض إسلامهم عليه بالسيف، راح يجهد لتعزيز صموده وشأن قياداته، كي لا يقع مرة ثانية فريسة لهذه القوى الطامعة به، وبأرضه، وهو النازع دائماً إلى الحرية والاستقلال. وكان من الطبيعي أن يبادر بقيادة كبير علمائه ورئيس أدياره الجاثليق يوحنا مارون للاستقلال بكنيسته ومجتمعه الماروني، ولتعزيز سلطاته، وارتباطه بالمرجعية المسيحية العالمية في روما لتساعده على التزام الحياد بين الشرق البيزنطي اليعقوبي النسطوري المتطرّف، والشرق العربي الإسلامي الزاحف لاحتلال المنطقة بأسرها وفرض الاسلام عليها بالقوة. وأزاء هذا الموقف الحرج بين القوتين القاهرتين، رأى الموارنة الظرف يحتّم تنظيم شأن هذه الجماعة المنتشرة من جبل اللكام الى جبل الجليل في كنيسة منظّمة ومحصّنة على غرار الكنائس الأخرى اليعقوبية والملكية التي انتشرت في هذه المنطقة. ولما كان أبرز قادة وعلماء الموارنة هو الاسقف والجاثليق يوحنا مارون، فكان من البديهي أن يهبّ لنجدة شعبه وحماية خرافه من الذئاب الطامعة به. وكونه من سروم في قلب المجتمع الماروني السوري، ومركزه الأسقفي في صمار جبيل في قلب الشمال والجبل الماروني اللبناني، فقد توافرت له شروط المقاومة والصمود، وبالتالي حماية كنيسته الجديدة، ومجتمعه الماروني الواسع الانتشار.

وللأباتي بولس نعمان كلمة مأثورة في هذا المعنى، وفيها يقول: "كان لرهبان مار مارون اسقف يقيم في ديرهم، وكان هذا الاسقف بمنزلة رئيس أو جاثليق يرجع إليه الموارنة في امورهم. ثم عند اشتداد الخلاف بينهم، وبين الملكيين، أقاموا لهم بطريركاً ليحافظ على كيان أمّتهم" (٢٧). وكان لا بدّ أيضاً لتامين السلامة والبقاء من اللجوء الى استحداث تنظيم عسكري إلى جانب التنظيم الكنسي، فاستعان يوحنا مارون البطريرك بابن شقيقه القائد إبراهيم والامير الماروني سمعان.

والشيء الصعب، ونحن في الحديث عن بطاركة الموارنة الاوائل، هو تحديد تاريخ ثابت وأكيد لتولّي هؤلاء مناصبهم في القرون الأولى لقيام الكنيسة المارونية، إذ لم تصلنا عن سيرهم سوى أخبار مشوّشة مأخوذة عن صفحات كتب قديمة خطّ عليها كتابات باليد منسوبة الى هؤلاء البطاركة، أو إلى نسّاخ أنجزوا مخطوطاتهم في عهد اسقف او بطريرك ما، وغالباً ما يذكر بلقبه الروحي اي "مار بطرس بطريرك الموارنة" او "بطرس بطريرك إنطاكية وسائر المشرق"، دون تحديد الشهرة أو المقرّ، او البلدة التي ينتمي إليها هذا البطريرك. وأبرز تلك المخطوطات التي رجع إليها كل المؤرخين الموارنة، ونحن منهم، لتحديد ولاية البطاركة، هي "سلسلة بطاركة الموارنة" المعروفة بمخطوط دمشق الذي نقله داود بن ابراهيم سنة ١٠٥٨ عن أصل سرياني قديم. وتقول هذه المخطوطة أن أول بطاركة الموارنة هو يوحنا مارون. ثم أورد النص أسماء خلفائه الأربعة طبقاً لما ورد في كتاب "الهدى" الذي ترجمه المطران داود الحلبي الماروني المذكور آنفاً، في العام ١٠٥٨ عن الاصل السرياني المكتوب في القرن التاسع، وفيه أن يوحنا مارون هو "بطريرك إنطاكيا العظمى". أمّا في سائر النسخ التي وردت بعدها، فلا ذكر لبطريرك إسمه يوحنا مارون، وهذا ما دعا بعض المستشرقين لنفي وجوده كما أشرنا سابقاً. وقد نقل لكويان والسمعاني هذه السلسلة المنسوبة إلى المطران داود، والتي أوردها الدويهي في كتابه "تاريخ الطائفة المارونية" باللاتينية، وعنها نقل المستشرقون والمؤرخون اللبنانيون لاحقاً.

وقد برّر المطران الدبس عدم ذكر المؤرخين الروم واللاتين إسم البطريرك يوحنا مارون في سلاسل بطاركة إنطاكية بسبب أن انتخابه كان من قبل أساقفة الموارنة، وليس من قبل أساقفة إنطاكية. وهذا ما أكده الدويهي والسمعاني أيضاً، باعتبار عدوّه يوستنيانوس الأخرم، ملك الروم، كان بإمكانه إفشال هذا الانتخاب لو تمّ في إنطاكية لسلطته على أساقفتها. وهناك احتمال بتعيين البطريرك يوحنا مارون، كما أشار الدويهي في تاريخ الموارنة، من قبل البابا مرتينوس عندما زاره برفقة القاصد الرسولي في الشرق بعد شغور الكرسي الانطاكي على أثر وفاة البطريرك ثاوفانس سنة ٦٨٥، دون حاجة الى تزكية هذا التعيين بانتخاب أسقفي. وقد أيّد هذا الكلام البابا بناديكتوس الرابع في خطبة ألقاها بحضور كرادلة

الكنيسة الكاثوليكية في روما بتاريخ ١٣ تموز سنة ١٧٤٤ (٢٨). كما أشار البابا إينوشنسيوس الثالث في رسالته إلى الشعب الماروني وأساقفته سنة ١٢٠٧ مخاطباً فيها البطريرك إرميا العميشيتي بقوله: "نثبّت لك العوايد الجارية التي كانت لك، ولمن سلفوا قبلك في الكنيسة الانطاكية إلى الآن، ونهبها لك ولخلفائك، بالسلطان الرسولي". وبعده كتب البابا أدريانس إلى البطريرك مار بطرس سمعان "الجالس على كرسي أنطاكية" كما جاء في كلامه. ثم تتابعت البراءات التي تشير صراحة إلى كون بطاركة الموارنة هم "بطاركة إنطاكية وسائر المشرق". وهذا ما أشار إليه المؤرخ بياجيوس في تاريخ سنة ٦٣٥ بقوله: "إن بطريرك الموارنة يسمّيه الأحبار الأعظمون في برّاتهم (براءاتهم) الرسولية، منذ أيام اينوشنسيوس الثالث، بطريرك الموارنة الانطاكي". وهذا ما أثبته أيضاً المستشرق دي لاروك (De la Roque) بقوله: "إن الكنيسة (المارونية) يمكن أن تسمى الاولى في المشرق لكاثوليكيتها، وللبطريركية الانطاكية التي هي كرسيّها" (٢٩).

ولما كان البيزنطيون قد حرموا الاتصال برعاياهم العائشين وراء خطوط الاحتلال العربي، وبإنطاكية نفسها، لذلك تطوّر الاستقلال الماروني السياسي والديني تجاه الأمر الواقع، وشكّل الموارنة تبعاً لذلك كنيستهم المارونية المستقلّة، وأنشأوا كيانهم الوطني المستقلّ، فتوافرت لهم كل شروط التحرّر من الهيمنة البيزنطية، ومن سلطة القسطنطينية، والاتجاه نحو الكرسي الرسولي في روما.

٣ ـ معركة أميون ونشوء البطريركية الانطاكية المارونية والصراع الارثوذكسي

الحملة البيزنطية على الموارنة والبطريرك يوحنا مارون

يرى المؤرخ محمد علي مكي أن "رفض الموارنة لرأي يوستنيانوس الأخرم الماروني في امر المشيئة الواحدة، ونقمتهم عليه "بسبب إخراج المردة"، كان سبباً في الحملة البيزنطية على الموارنة، وهي التي قتل فيها القائدان موريق وموريقيان المكلّفان بالقبض على يوحنا مارون أول بطاركة الموارنة..." (١). كما يرى المؤرخ مكي أن عطف معاوية على الموارنة ومساندته لهم ضد اليعاقبة هو سبب آخر للحقد البيزنطي على الموارنة، وتوجيه جيشهم لضربهم، وقطع "خطوط مواصلات معاوية وتموينه...". كما أشار إلى أن الجراجمة وقواتهم كانوا عبارة عن "جماعات كانت تنادي عبد الملك (بن مروان) من أعالي دير مرّان المشرف على دمشق مطالبة بدفع الضريبة إذا تأخر بتأديتها..." (٢). ومع ما في هذا الخبر من مبالغة وخيال، فالشيء الأكيد أن عبد الملك، وقبله معاوية، وبعدهما الوليد بن عبد الملك، كلّهم عقدوا معاهدات باهظة الثمن مع الروم ليكفّوا عنهم شرّ الموارنة وتنظيماتهم العسكرية، المعروفة باسم الجراجمة والمردة وخيل الروم.

يبقى السبب الأهم الذي لم يذكره هذا المؤرخ، وهو الخوف من قيام امبراطورية مارونية تمتدّ من اللكام إلى الجليل مهدّدة الامبراطورية العربية، والامبراطورية البيزنطية معاً، سيّما إذا عنّ لها التعامل مع الفرس اعداء الامبراطوريتين معاً، لاحتلال هذه المنطقة وإبعادهما معاً عنها.

اما المؤرخ الشيوعي فؤاد قازان، فقد رأى أن المردة "لا يمكن أن يكونوا إلا مزيجاً من أقوام وأجناس متعددة... لا سيما من أقوام وقبائل غير عربية كانت تشكّل الأكثرية من سكان الدولة التدمرية"، وهم بالتالي ليسوا من جبل اللكام أو جرجومة، بل من خارج سوريا، وبالتالي ليسوا "عرباً" ولا "ارمناً"، بل "مرتزقة" اجانب، وربما "برابرة"... ويتابع: "قد يكون بعض الموارنة" قد اشترك في غاراتهم وغزواتهم بتأثير بيزنطي، "وعلى أي حال ليس المردة والموارنة شعباً واحداً" (٣).

ورأي المؤرخ قازان يخالف آراء معظم اللبنانيين والأجانب الذين يرون، حسبما أشار ضو، "ان المردة والجراجمة إسمان لمسمّى واحد..." ويضيف: "ان الاموريين كانوا يدعون "مارتو" او "ماردو"، ومن مدن هذا الشعب على شاطئ فينيقية عمريت واسمها الاصلي ماردوس (Marathus) ... وقد جاء مار يوحنا مارون لبنان متتبّعاً تحركات المردة، أبناء الموارنة بالروح، للسهر عليهم وعلى الموارنة في لبنان، مثلما يتبع الراعي قطيعه... ومنذ ذلك الوقت أصبح لبنان الجبل قلباً ومركزاً لكيان سياسي مستقل بعد أن كان مجرّد رقعة جغرافية لا مدلول سياسيا لها... ويعود، الى هؤلاء المردة، فضل تأسيس الكيان اللبناني قبل المعنيين والشهابيين وغيرهم..." (٤).

وكل ما يهمّنا من هذا الكلام الوصول إلى بيت القصيد، وهو محاولة الشعوب النازحة إلى لبنان، هرباً من الاضطهاد، تشكيل وطن قوميّ لها، مما يتعارض ومصلحة الروم والعرب معاً، فكان من البديهي أن يعقدا الاتفاقات والمعاهدات لتفشيل هذه الخطة، ومنع اللبنانيين الموارنة، والمنضوين تحت لوائهم، من الاستقلال، والتفرّد بحكم هذه الطريق الستراتيجية التي تربط اسيا الصغرى بأفريقيا والمنطقة الداخلية العربية الآسيوية بالشاطئ المتوسطي البالغ الأهمية على صعيد الملاحة مع دول الغرب والشرق.

فالمعركة إذن كانت مذهبية من حيث الشكل والمظهر السطحي للقضية، إنما في الواقع، وفي الجوهر، وفي العمق، لم تزل القضية التاريخية المزمنة هي نفسها، منذ الفينيقيين حتى اليوم "قضية أقليات" تنتمي إلى أجناس وأعراف ومذاهب متعددة، ترفض الرضوخ للامبراطوريات المسيطرة على المنطقة، وتحاول الاستقلال

في معاقل هذه الجبال اللبنانية الحصينة مشكّلة وطناً لها سيداً مستقلاً تعيش فيه حرّة سيدة أمرها ومصيرها. وبما أن هذا الجبل اللبناني هو المعقل الأخير الذي بقي لها فتأبى الاستسلام للقوى العظمى الطامعة بها وبهذا الجبل، وترفض التخلّي عن القيم، والأرض، والمعتقدات.

سير المعارك من قورش إلى اميون

انطلق اليعاقبة يساندهم الجيش البيزنطي بقيادة موريق وموريقيان، بعد أن رفض قائد الجيش البيزنطي لاون قيادة حملة تطيح ببطريرك الموارنة، وتقتل شعبه الحليف السابق للروم، ممّا استدعى زجّه في السجن، ومتابعة الحملة سيرها من القسطنطينية باتجاه دير مار مارون الكبير، العرين الماروني القائم بين حمص وحماه، ومركز الأسقف يوحنا مارون السابق، رئيس أديار سوريا كلّها. وهذا الدير كما هو معلوم أكبر الاديار المارونية على الاطلاق، ويقيم فيه مئات الرهبان. ولم تكن المرة الاولى التي يواجه فيها رهبان هذا الدير بعدوان مماثل، فقد حدثت فيه عدة مجازر كان أخرها مقتل ٣٥٠ راهباً من رهبانه. وقاوم الرهبان بكل بسالة، لكن عدم تكافؤ القوى جعل هذا الدير يسقط بعدما خسر ما يربو على الثمانماية شهيد من رهبانه، وهدمت جدرانه وأحرقت محتوياته، ولم يغادره الغزاة إلاّ بعد ما غدا "قاعاً صفصفاً" على حدّ ما ذكر المؤرخون العرب والروم. وما سلم من تخريب الجنود البيزنطيين، دمّره المندسّون من اليعاقبة في صفوف الروم وهم في طريقهم من دير مار مارون إلى منبع العاصي في لبنان، فدمرت كل الأديار والكنائس والقرى المارونية، وأحرقت الممتلكات التابعة لهؤلاء الخلقيدونيين العصاة المتمردين حسبما وصفتهم مراجع الدولة البيزنطية الغازية، بما فيها دير مار مارون على نبع العاصي حيث لا تزال آثار الحرائق والتخريب بادية في غرفة منقورة في الصخر، إلى يومنا هذا.

وبعد وصول الجيش البيزنطي واليعاقبة إلى الأرض اللبنانية عن طريق سهل عكار، وتوغّلها جنوباً باتجاه طرابلس والكورة وجبّة بشري حيث تقيم أعداد كبيرة من الموارنة في المناسك والأديار المنتشرة في وادي قاديشا المقدّس، وفوق تلال وهضاب الجبل اللبناني، قُرعت الاجراس في الجبل اللبناني، وجمع الموارنة

صفوفهم يتقدّمهم إبن شقيقة البطريرك إبراهيم، والقائد اللبناني الأمير مسعود، ومنهم من يقول الأمير سمعان أمير بسكنتا، ومشت الحملة باتجاه الكورة ورابطت في سهل اميون.

معركة اميون

وقبل الحديث عن معركة أميون لا بدّ من الاشارة إلى ان الملك يوستنيانوس، كان قد حاول عزل البطريرك يوحنا مارون عن طريق الضغط على قداسة البابا، وتوفير الضحايا والخسائر المادية من جرّاء تجريد هذه الحملة الكبيرة. ولهذا الغرض أوفد أحد أتباعه المدعو زكريا، بإشارة من اليعاقبة مستشاري هذا الملك الجاهل، إبن السادسة عشرة من عمره، إلى روما لمقابلة البابا والطلب إليه الحضور إلى القسطنطينية لمناقشة قضية إختيار يوحنا مارون بطريركاً على إنطاكية. وبوصول هذا الموفد الملكي إلى روما، ومعرفة غاية زيارته، هبّ شعب روما مستنكراً هذا الأمر، محاولاً القضاء على موفد الملك الجاهل، ففرّ "مسبوياً ملعوناً" على حدّ ما ذكر المطران الدبس ناقل هذا الخبر (٥). وكان اليعاقبة يحاولون بضغطهم على الملك البيزنطي القضاء على عصفورين بحجر واحد: تحقير البابا والحطّ من المنزلة الرفيعة التي يتمتّع بها في نظر الكاثوليك، وضرب التلاحم الماروني الروماني من جهة أخرى. والملك البيزنطي بدوره ظنّ الفرصة سانحة لحصر السلطة العليا في الشرق والغرب بشخصه، وهو المهووس بالعظمة والمغرور بقوته وسلطانه، عن طريق احتجاز البابا وعزله، والايعاز بانتخاب شخص آخر ضعيف يدور في فلكه مقدّمة لتوحيد الكنيسة الارثوذكسية تحت سلطته، فتأخذ القسطنطينية دور روما كقائدة للعالم المسيحي. إذن كان لمعركة أميون أبعاد كثيرة لو أن المخطط الموضوع لها من أباء اليعاقبة وسادة القسطنطينية قد نجح في اعتقال البابا والقضاء على يوحنا مارون. واوقع الملك البيزنطي في الارتباك عودة موفده مطروداً ومهاناً، وتمرّد قائده لاون، وامتناعه عن مهاجمة البطريرك "وسط قومه" على حدّ ما اعتذر به للملك عن قبول هذه المهمّة المستحيلة. وكان من رأي القائد لاون أن يقوم الملك على العكس من ذلك، بدعم البطريرك يوحنا مارون وشعبه الماروني حليف البيزنطيين، بوجه العرب لمنع استيلائهم على المعقل المسيحي الوحيد الذي استطاع الوقوف بوجه أعدائه

والصمود، ولم يقع تحت الاحتلال. وعبثاً حاول إقناع مليكه بخطأ ما يُقدم عليه والعواقب التي قد تؤدي في حال فشل هذا المخطط إلى التعجيل في وقوع القسطنطينية في قبضة العرب المسلمين. ولكن الملك لم يكن لديه الحرية في التقرير، باعتبار أنه كان يخضع لتأثير مستشاريه اليعاقبة، فرفض تبريرات قائده، وألقى به في السجن، وكلّف موريق وموريقيان بقيادة الحملة، لا سيما وأنه كان يخاف من طموح القائد لاون الراغب في استلام العرش والاطاحة به، فوجد الفرصة مؤاتية للقضاء عليه أيضاً. أما مواقف المسلمين المرابطين على الساحل اللبناني والسوري، فكانت مؤيدة لهذه العملية التي تحقق الغاية من المعاهدات التي سيتم عقدها لاحقاً بعدما فشلت الحملة في الحدّ من قوة الموارنة وكسر شوكتهم. لذلك سهّل العرب مرور الجيش البيزنطي ولم يتعرّضوا له، مع أنه في العام ٦٩٤ الذي جرى فيه هذا الهجوم كان قد مضى على وجود العرب في هذه المنطقة نصف قرن، وأصبحت معظم قلاعها وحصونها وطرقها بيدهم، وتحت إشرافهم.

وفي سهل أميون على بعد نحو عشرة كيلومترات شمالي كفرحي، كان يكمن للجيش البيزنطي المهاجم، جيش الموارنة بأمرة قائديه ابراهيم وسمعان (أو مسعود)(٥). وكانت العلاقات في أقصى ذروة التوتّر بين الموارنة والبيزنطيين بسبب ترحيل أثني عشر ألف مقاتل من المردة في السنة الاولى لولاية البطريرك يوحنا مارون، اي في العام ٦٨٦ بناءً لمعاهدة الخليفة عبد الملك بن مروان والملك البيزنطي يوستنيانوس الأخرم، وهي المعاهدة التي لام المؤرخ ثاوفانوس البيزنطيين على توقيعها لأنها هدمت "السور النحاسي" للدولة البيزنطية في الجنوب.

وبعد وصول الحملة البيزنطية إلى اميون، انقضّ عليها المقدّمون الموارنة الأشاوس انقضاض الصاعقة، وزعزعوا صفوفها، وضعضعوا قادتها، فهرب من هرب، وضُرب عنق من ضُرب. ثم انجلت المعركة عن انهزام ساحق للبيزنطيين وحلفائهم من اليعاقبة، لا سيما بعدما "وردت رسائل من القسطنطينية، من لاون القائد المذكور انفاً إلى البطريرك يوحنا، وإلى ابراهيم وسمعان اميري لبنان يبشّرهم بخلع يوستنيانوس من الملك، وترقيته هو إلى منصبه، ويرجوهم ضرب الجيش الذي أرسل الى سورية، واعتباره بمنزلة العدوّ. وذاع هذا الخبر بين

الكاثوليكيين، فحمدوا الله وشكروه على هذه المنّة، واستبشروا بنصر مبين، وارتأوا أنه لا يلزم إنتظار العدو ليتقدّم إليهم، فاندفقوا من أعالي الجبال إندفاق الماء المنهمر، ووثبوا على جيش يوستنيانوس وثبة الاسود، حتى أن كثيرين من الأعداء ولّوا الفرار قبل وصول الواثبين إليهم. وتفرّقت صفوف العدوّ، وأحاط بهم الموارنة من كل جانب، "فاثخنوا فيهم الجراح، وأبسلوا كثيرين منهم، ووقع موريق قتيلاً فأخذ اهل الكورة جثته، ودفنوها في أميون... وأقاموا على مدفنه كنيسة"، وجعلوا عيداً لذكراه في ٢٦ من تموز، وهو من الاعياد المشهورة عندهم. وأما مرقيان فجُرح في وقعة الحرب، وحُمل الى قرية شويتة في عكار، ومات بعد قليل من الزمان، وأقام له الملكية هيكلاً وعيداً. وقد ورد مثل ذلك في مقالة مرهج بن نيرون (وبعضهم يسمّيه بن نمرون) الباني (من بان قرب إهدن) في أصل الموارنة" (٦).

ويشير السمعاني في معرض نقله لوقائع هذه المعركة عن الدويهي إلى أن أهل الكورة قد قدّموا الطاعة والخضوع للملك لاون بعد أن أقرّوا بالضلال، (أي بالمونوتولية اليعقوبية). والدويهي استكمل خبر انتصار الموارنة مستشهداً بكتاب تعليم اليعاقبة، وأشعار البطريرك يوسف العاقوري (١٦٤٤ ـ ١٦٤٨) التي فيها يقول(٧):

"خرجوا من اسطنبول متّفقين ... مع جوقة اعداء شياطين
والسيوف على الموارنة مسلولين ... خالفوا لمارون وطاعوا الملكيّة
فيهم (الموارنة) من طاع ومن خالف ... والسيف فوق راسه مولّف
والبعض من الفزع تخلّف ... وطاعوا إلى الملكيّة.
داموا في الشر مصطدمين ... حتى نزل الامير مسعود والمقدّمين (٨)
والعساكر في أميون مجتمعين ... والقتل وقع في الملكيّة
انقتلوا القوّاد في أميون ... وانتصر جماعة مارون
والروم على موريق إبنون (٩) ... كنيسة لليوم مسمّيه..."

نتائج معركة أميون

ما تجدر الاشارة اليه أن معركة أميون الحاسمة بين الموارنة والبيزنطيين جعلت الموارنة مرهوبي الجانب، مستقلّي القرار، وأصحاب السيادة غير المنقوصة على كامل الجبل اللبناني طيلة ستة قرون متواصلة. كما أنها قلّصت الوجود اليعقوبي في لبنان، وأضعفت نفوذه في كافة أنحاء المملكة البيزنطية. ولم تعد الطائفة الملكية، كما في السابق، هي الناطقة الرسمية باسم البلاط البيزنطي، خاصة بعد تولي الملك لاون وخلفاؤه. وعلى الصعيد المحلّي كرّست الانقسام النهائي بين الملكيين والموارنة. ويعتبر البطريرك الدويهي أن "بدء الانقسام بين الموارنة والملكية إنما كان بسبب التحامل على يوحنا مارون، وبسبب الواقعة التي كانت بين جيش الروم وأهل الكورة (من جهة)، وبين مجاوريهم الموارنة (من جهة ثانية). فالذين تبعوا جيش الروم وانقادوا لرأيهم سمّوا "ملكية" نسبة الى الملك (يوستنيانوس الاخرم) الذي كان من أهل البدعة (المونوتولية اليعقوبية)، والذين ثبتوا على الايمان وطاعة البطريرك يوحنا مارون استمرّوا يسمون موارنة" (١٠). إلاّ أن بعض المؤرخين يرى أن تسمية الملكية هي أقدم من ذلك، وتعود الى المجمع الخلقيدوني وتعني أتباع الملك مرقيان حسبما زعم المؤرخ ديونسيوس بن صليبا في العام ١١٦٠ في شرحه لرتبة القداس، وأيّده في ذلك نيكافوركالستس اليوناني في كتابه الثامن عشر فصل ٥٢، وفيه يقول: "ظهر في سورية شقاق عظيم في أيام يعقوب (البرادعي) هذا الذي كان يدعو إلى بدعة الطبيعة الواحدة، فمن تشبّثوا بالايمان القويم سمّوا ملكية لأنهم تبعوا المجمع الرابع (الخلقيدوني) المقدّس ولأن تأويل "ملكو عند السريان ملك(١١)."

اما المطران الدبس فيرى أن "إسمي الملكية والمردة كانا في عصر واحد، وأحدهما يخالف الآخر، ولم يكونا يدلان في اول استعمالهما على دين أو طقس كما ارتأى بعض العلماء الموارنة، بل على غرض أو حزب مدني، وإن دلاّ على ذلك بعداً (بعدئذ)، أعني لمّا افترق كل فريق عن الآخر بطقسه ورعاته ومذهبه، لأن من عصوا الملك بسورية سمّوا "المردة "أي عصاة، ومن استمرّوا على طاعة لملك سمّوا "ملكية". وإنما كان هذا في أيام قسطنطين اللحياني لما استحوذ المردة على كل ما

كان من الجبل الاسود (المعروف بالجبل الأقرع) إلى اورشليم المقدّسة" (١٢).

ونستخلص ممّا تقدّم أن التسمية الملكية أعطيت للفئة الارثوذكسية التي اعتنقت المونوتولية، والتسمية المارونية هي التي أعطيت للفئة التي تبعت مار يوحنا مارون واعتنقت المبادئ الخلقيدونية، وبعدما احتدم الجدل الديني بينهما، ووصل الى اقصى حدوده، تحوّل إلى صراع دام ومواجهة عسكرية جرت في الكورة، وكان النصر فيها للموارنة، فأصبحوا أسياد الساحة المشرقية المسيحية كلها.

اما سعيد بن بطريق اليعقوبي فيرى من جهة أن "مرقيان الملك كان حسن الأمانة، وكان يدين ويقاتل عن أمانة الملكية"، فانتسبت اليه (١٣). والأب ضو يقول معلّقاً على معركة أميون أن جريمة الروم الموصوفة "بالضعف، أو بالخرف، أو بالخيانة"، هي تمهيدهم لسيطرة العرب. فللخيانة ادواتها وهم "آل سرجون في دمشق"، وللخرف الروحي آلته وهي "يوستنيانوس الأخرم". وقد اجتمع حسب رأيه سببان لذلك: ديني وسياسي. فآل سرجون من طائفة الروم، وكان لهم نفوذ كبير لدى الخلافة الاموية، ومنصور سرجون رئيس بيت المال في دمشق خلال الفتح العربي، أبقاه المسلمون العرب في منصبه لانه سلّمهم المدينة عند الفتح... وارتكب أكبر خيانة بحق النصرانية في الشرق... وكانت هذه الخيانة العظمى التي توالت على النصرانية في الشرق منذ ذلك العهد... اما يوستينانوس فقد "أجمع مؤرخو المملكة البيزنطية من تاوفانوس إلى شدرانس على وصفه بالطيش وسوء التدبير... ومن الأمور التي بلغ فيها طيشه أقصى حدّ، قضية عسكر المردة الموارنة (المقصود هنا إبعاد ١٢ ألفاً منهم إلى خارج البلاد)" (١٤). وفي النهاية يرى الأب ضو أن القوى التي تصدّت للغزاة الروم في أميون هي شعوب "انصهرت معاً بحيث اضحت شعباً واحداً، الشعب اللبناني المتنوّع العناصر، الموحّد البيئة والمصالح والاهداف والمصير والتاريخ..." (١٥). وفي مكان آخر من كتابه الثالث يقول: "حقّق المردة لأول مرة دولة الموارنة التامة الاستقلال..." وكان بعد قرون تلته بفضل ما تحقق فيه "عهد الاستقلال التام"، وتلا ذلك "عهد الاستقلال الناقص"، ثم "عهد الاستقلال المنتقض..." (١٦).

وفي رأينا الشخصي أن اعظم النتائج التي حققتها معركة أميون للموارنة

هي إقامتهم بطاركة مستقلين لإدارة طائفتهم بمعزل عن الروم والمسيحيين الآخرين من جهة، وعن العرب من جهة ثانية، لأنهم لولا هذه الانتفاضة لقضي عليهم وعلى المسيحية في الشرق، ذلك لأن هذا الجبل اللبناني بفضل تلك المعركة الفاصلة، استحق أن يحمل إسم "فاتيكان الشرق المسيحي". وبسبب هذا النصر العظيم استحقّ أيضاً بطريرك الموارنة لقب "بطريرك إنطاكية وسائر المشرق" دون سواه من بطاركة الشرق، إذ كان للنساطرة بطريركهم ويدعى ساويروس ومقرّه في بابل، وللروم الارثوذكس المحافظين على المبادئ الارثوذكسية والدستور الارثوذكسي الاساسي، والمنتشرين ما وراء انطاكية، ولا سيما في القسطنطينية، وبرّ الأناضول، والبلقان، بطاركتهم، كما أقام في أنطاكية عند دخول الصليبيين إليها بطاركة لاتين. وفي القرن السابع عشر سمح البابا للسريان الكاثوليك، أن يحمل بطريركهم إسم بطريرك إنطاكية. ومع أن بطاركة الموارنة لم يقيموا في أنطاكية، ومع هذا حافظوا على هذه البطريركية، واعتبروا بطريركهم الأول يوحنا مارون خليفة للبطريرك الانطاكي توافانس، بسبب تعلّق هذا الشعب العريق بجذوره وتراثه وتقاليده والأرض التي انتشر فوقها منذ قيام المارونية في أيام القديس مارون، أي من أواخر القرن الرابع حتى أيامنا هذه. ورغم كلّ النكبات التي حلّت بلبنان، من الدول المشرقية كافة، ظلّ هذا الشعب محافظاً على شرقيته وتقاليده دون أن يقطع إرتباطه بالغرب لضرورات أمنية، وتحسّباً لكل طارئ قد يؤدي الى اقتلاعه من هذه الأرض التي ارتبط تاريخها بدمه وعرق جبينه.

تحسّن العلاقات البيزنطية المارونية

وبعد خلع يوستنيانوس الاخرم واستلام العرش البيزنطي من قبل صديق اللبنانيين الملك لاون، وخليفته طيباريوس، تحسّنت العلاقات بين الموارنة والروم، وعادت إلى سالف عهدها من التعاون. وقد طلب طيباريوس من الموارنة مساعدته لوقف هجمات العرب، و"كتب إلى سمعان أمير جبل لبنان أن يلاقيه بجيش الموارنة، فأحاطت بهم العساكر من كل جهة، وقتلوا من العرب نحو مائتي ألف نفر. فانسرّ بذلك الملك طيباريوس وخلع على الأمير سمعان خلعاً، ورفع شأنه، وبعث زهرة ملوكية إلى البطريرك يوحنا مارون عربون المحبّة الوثيقة. وكتب إليه مكتوباً شريفاً

يتشكر من قداسته، ومن شهامة جماعته..." [١٧].

وفي هذا الصدد يذكر العلاّمة ابراهيم اليازجي أنه "لم يكن الموارنة طائفة مستقلّة عن السريان قبل تعيين البار يوحنا مارون بطريركاً عليهم... ولا يخفى أن مدن سورية القديمة كدمشق وإنطاكية وحماه، وغيرها، كانت آهلة من قبل بالسريان... ولما دحر العرب الروم في صدر الاسلام، عند مدن سورية، لجأ النصارى، وأكثرهم من السريان الموارنة إلى جبل لبنان، فاعتصموا فيه، وقويت شوكتهم حتى صدّوا جيوش معاوية مراراً عن المسير لنجدة المسلمين الذين تقدّموا لفتح القسطنطينية حينئذ. وقد حاصروها، وضيّقوا عليها سبع سنين متوالية. وقد تواطأ عبد الملك بن مروان (٦٨٥ ـ ٧٠٥) مع يوستنيانوس الأخرم ملك الروم، على إخراجهم منه (من لبنان)، وتسفيرهم إلى بلاد الأناضول، لقاء شروط قاسية معيّنة" [١٨].

مؤلفات البطريرك يوحنا مارون

بعد استتباب الأمن في الربوع اللبنانية، انصرف البطريرك يوحنا مارون إلى تعزيز كنيسته المارونية، وتحصينها بالانظمة والاسقفيات الجديدة التي عمّت معظم البلدات والمدن والدساكر. وراح يعمّر الأديار والكنائس، وينظّم الرتب الدينية من القدّاسات الى الزياحات والاعتماد والزواج والوفاة... ومن أجل صيانة هذه النظم وحفظها جيلاً بعد جيل، عمد إلى وضع عدة مؤلّفات أهمها:

أولاً ـ النافور: أي رتبة القدّاس.

ثانياً ـ إيضاح الايمان: وضع باللغة السريانية المتداولة في القرن السابع. وأقدم نسخة منه وجدت في حاقل، ثم نقلها السمعاني إلى الفاتيكان، مع آلاف المخطوطات والكتب الطقسية اللاهوتية والعلمية المارونية. وقد أشار إليها الأب نو(Nau) بإعتبارها رسالة موجّهة من قبل يوحنا مارون المقيم في دير مار مارون الكبير إلى الشعب الماروني في جبل لبنان.

ثالثاً ـ رسالة التقديسات الثلاثة المعروفة بالتريساجون.

رابعاً - كتاب "الكهنوت والناسوت".

خامساً - شرح القدّاس.

وهناك من يعزو الى البطريرك يوحنا مارون أيضاً وضع كتاب "الهدى" الذي يعتبر كتاب الناموس الماروني الذي أعاد خطه ونشره علماء الموارنة لاحقاً. ولا شك أن البطريرك يوحنا مارون، وهو أحد علماء دير مار مارون الكبير، الجامعة الاولى في عصرها في المنطقة كلها، قد ترك العديد من المؤلفات اللاهوتية والعلمية الأخرى التي بقيت في الدير المذكور، وذهبت طعاماً للنار عندما هاجم الروم هذا الدير واحرقوه ودمّروه في أواخر القرن السابع.

وفاة البطريرك يوحنا مارون

كثيرة هي الامور التي اختلف حولها المؤرخون في سيرة القديس يوحنا مارون، أولها نسبه، وثانيها ميلاده ووفاته، وحتى وجوده أصلاً. ولكن المتحرّي لهذه الأمور يعرف تماماً أن سبب هذا الانكار هو من جرّاء الحملة اليعقوبية التي رافقت هذا البطريرك، ولاحقته بعد موته، مدعومة من الفكر البيزنطي المونوتولي المعادي للفكر الماروني. ومن علماء الموارنة الذين تحرّوا هذه الأمور، المطران يوسف الدبس الذي يعتبر تاريخه، وتاريخ الدويهي، المراجع الاساسية للتاريخ الماروني الذي لا يكتب إلا بالرجوع إليهما باعتبارهما المصادر الرئيسية لهذا التاريخ. قال الدبس: "انتقل (يوحنا مارون) من دار الشقاء إلى دار البقاء لينال ثواب أعماله الصالحة، ومبرّاته الجزيلة، ممّن لا يضع (يضيع) أجر التّعِبين في كرمه الروحي. وكان انتقاله في التاسع من شباط سنة ٧٠٧ في دير ما مارون بقرية كفرحي. فاجتمع الاساقفة والكهنة والرهبان، وجمع لا يحيطه العدد من كل بلاد الموارنة، ليتباركوا بجسده الطاهر، وحملوه بالمصابيح والبخور والترانيم، ودفنوه في الدير المذكور، كما جاء في ترجمته أنه مات قديساً ودفن في كفرحي" [١٩]. ولم يشر الدبس الى مصدر معلوماته، ولكن يعتقد أنه عاد إلى الترجمة التي وضعها اسقف قورش تاودوريطس، وهي الاصدق لأنه من معاصريه.

وقال الاسقف جبرائيل اللحفدي في قصيدته "المجامع": في كفرحي مات

المختار. والعلاّمة الدويهي ذكر في "سلسلة بطاركة الموارنة" التي نشرها الشرتوني في مجلة المشرق: "إن أول هؤلاء البطاركة إنما هو يوحنا مارون الأول. جلس على كرسي البطريركية سنة ٦٨٦، ورقد بالرب في كفرحي سنة ٧٠٧" (٢٠).

أما الخوراسقف يوسف داغر، فيشير إلى وفاة القديس يوحنا مارون في كفرحي سنة ٧٢٠، نقلاً عن كتاب "الهدى" الذي يضمّ "مجموعة قوانين كنسية كانت دستوراً للطائفة المارونية وغيرها، وقد ترجمه إلى العربية في سنة ١٠٥٨، عن أصله السرياني القديم جداً، المطران داود الماروني الحلبي..." أما مؤلفه فمجهول. وقد وصل إلينا من هذا الكتاب عدة نسخ أقدمها عهداً نسخة نقلها السمعاني من لبنان إلى رومية، وهي محفوظة في المكتبة الفاتيكانية تحت العدد ١٣٣. فاعتمادنا كلّه على هذه النسخة الاولى التي جاءت على ذكر "مارون يوحنا بطريرك إنطاكية العظمى"، لا على النسخ التي جاءت بعدها، وقد لعبت بها الايدي، فأغفلت، سهواً او عمداً "، ذكر يوحنا مارون... فكانت وفاته سنة ٧٢٠..." (٢١). كما استشهد الخوراسقف داغر بالمؤرّخ التلمحري في مقالته العاشرة، فصل ٢٢، التي تقول: "كان لرهبان دير مار مارون اسقف يقيم في ديرهم، وكان هذا الاسقف بمنزلة رئيس، أو جاثليق يرجع إليه الموارنة في أمورهم. ثم عند اشتداد الخلاف بينهم وبين الملكيين اقاموا لهم بطريركاً ليحافظ على كيان أمّته... وظل الموارنة يقيمون بطريركهم من ديرهم... (حتى قيام البطريرك إرميا الدملصي، وهو الرابع في عداد البطاركة الموارنة، وهو لبناني من دملص في بلاد جبيل)... وكانت سيامة البطريرك يوحنا مارون حسب الخوراسقف داغر سنة ٧٠٢... ووفاته بكفرحي سنة ٧٢٠" (٢٢).

ومهما يكن من أمر الاختلاف في تعيين سنة مولده، وسنة وفاته، فالشيء الثابت والأكيد هو وجود يوحنا مارون بين اواخر القرن السابع واوائل القرن الثامن بطريركاً على رأس الطائفة المارونية، وعلى الكرسي الانطاكي، كما شهد بذلك المؤرخون والعلماء: ديونسيوس التلمحري، الأب نو، لكويان، المسعودي، إبن العبري، سعيد بن بطريق، السمعاني، الدويهي، إبن القلاعي، مرهج بن نيرون، قيس الماروني، داود إبن ابراهيم، تيوفيل الرهّاوي، بولس الشماس، الدبس، الخوراسقف داغر، فهد... وكل المؤرخين القديمي العهد والحديثين، الموارنة وغير

الموارنة. هذا بالاضافة إلى البراءات الصادرة عن الكرسي الرسولي، والمعاجم العلمية، وغيرها من المستندات والوثائق والمخطوطات.

رسوم البطريرك يوحنا مارون وقداسته وعيده

من أجل الاعتراف بقداسة البطريرك الأول يوحنا مارون في الكرسي الرسولي، أصدر المطران اسطفان عواد السمعاني، إبن شقيقة العلاّمة يوسف السمعاني، المقيم في روما،كتاباً باللاتينية حول هذا الموضوع سنة ١٧٦٩. ثم أتبعه البطريرك يوسف اسطفان الغسطاوي بكتاب آخر في الموضوع ذاته. ثم جمع الكتابان في مؤلّف واحد بعنوان "المحاماة عن الموارنة وقديسهم" باللغة العربية، في العام ١٨٩٩. كما أرسل الكرسي الرسولي القاصد بولس لوشيني للتحقيق في هذا الموضوع، فكتب تقريراً مسهباً يعترف فيه بقداسته. عند ذلك أصدر البابا بناديكتوس الرابع منشوراً يؤكّد قداسة يوحنا مارون، ويرفض إدّعات الروم الملكيين (والمقصود هنا الروم الكاثوليك باعتبارهم كانوا مونوتوليين وتحولوا إلى الكثلكة)، بأن يوحنا مارون كان مؤيداً للمذهب اليعقوبي المونوتولي، ومؤمناً بمشيئة واحدة في المسيح بناءً لما كان قد دسّه اليعاقبة من الاقوال في بعض المؤلّفات المارونية المزوّرة. وتوالت الرسائل والتحقيقات، من وإلى روما، مما اضطرّ الموارنة إلى عقد مؤتمر مسيحيّ عام تحضره جميع الطوائف المسيحية الشرقية، والمرسلون الغربيون، لمناقشة هذه التهم المغرضة، والبتّ في أمرها نهائياً. وحضر المؤتمر أساقفة الموارنة والسريان والأرمن، وبعض المرسلين اللاتين كاليسوعيين والكرمليين والكبوشيين، وكبار أساقفة الملكيين المدّعين، "فقضى من شهد المجمع المنعقد في حلب، بالاتفاق، أن يوحنا مارون قدّيس يحق له الاكرام، إلاّ الملكيين... وبعد التروّي والتحقيق، أثبت الكرسي الرسولي رأي الموارنة... ومنح البابا بيّوس السابع في ٣٠ كانون الثاني سنة ١٨٢٠ غفراناً كاملاً لجميع المؤمنين الذين يزورون كنيسة القديس يوحنا مارون في مدرسة كفرحي يوم عيده في ٢ آذار من كل سنة" (٣٣).

وفي كتاب رفعه القاصد الرسولي دنديني إلى الفاتيكان، والمثبت في كتاب له بعنوان: "بعثة إلى لبنان Mission au Liban " ورد أن "يوحنا مارون، إذْ أرسل إلى الحبر الاعظم، رقّاه إلى المقام البطريركي، ووكل إليه رعاية اولئك المؤمنين الذين ما

برحوا أمناء، متمسّكين أبداً بعروة الدين الكاثوليكي، ولم ينفكّوا منذ حينئذ، يؤدّون الاحترام والطاعة للكرسي الرسولي الروماني. ويوحنا المشار إليه سار سيرة الفضلاء والقدّيسين، والموارنة يعدّونه من أصفياء الله، وقدّيسيه، وينعتونه بالقديس في مقدّمة القدّاس، ويدعون باسمه..." (٢٤). ثم تتابعت البراءات البابوية التي تعترف بقداسة يوحنا مارون، وتمنح الغفرانات الكاملة لمن يزور كنائسه. كما طلب الكرسي الرسولي، في رسائل موجّهة إلى الملكيين وبطريركهم، أن يكفّوا عن مهاجمة الموارنة والتشكيك بايمانهم، وبرموزهم، تحت طائلة الحُرْم.

وكان قد تصدّى لحملة الملكيين معظم علماء الموارنة وأساقفتهم، أمثال السمعاني، والصهيوني، والدويهي، ومسعد، ومرهج بن نيرون الباني، وقيس الماروني، والأب بطرس مبارك، والأساقفة عواد والدبس ودريان، وغيرهم من المستشرقين، فاضطر هؤلاء الدُعاة أخيراً إلى السكوت، والتسليم بصحة المعتقدات المارونية الكاثوليكية، وبقداسة مؤسسي طائفتهم، لا سيما القديسين مارون ومار يوحنا مارون. ومن أبرز المؤرخين الذين تناولوا هذا الموضوع، ووقفوا إلى جانب الحق الماروني "الأب كوارزميوس" في كتابه الأول المعنون بوصف الأراضي المقدّسة. وسيداريوس في كتابه "رحلة إلى اورشليم"، وبرتلماوس في كتابه "السنكسار الروماني والبولنديين" المجلد الرابع بشهر تموز، والأب لكويان في المجلّد الثالث من كتابه "المشرق المسيحي"، والأب ايرونيموس دنديني القاصد الرسولي، والمستشرق الفرنسي دي لاروك في كتابه "رحلة إلى سوريا ولبنان"، والكردينال اورسي في تاريخه حول العام ٦٣٦، وبياجيوس في حواشيه على مار يوحنا مارون... الخ...

وهكذا أصبح للموارنة عيدان كبيران في دير واحد هو دير "ريش موران" أو دير "رأس مارون" الذي يعيّد فيه الموارنة في التاسع من شباط عيد مؤسس الطائفة المارونية القديس مارون وعيد القديس يوحنا مارون البطريرك الأول الذي فصل عنه لاحقاً وثبّت ببراءة بابوية كما أشرنا بناءً لطلب الموارنة في الثاني من آذار. وقد احتُفل بعيد مار يوحنا مارون في مدرسة روما المارونية التي انشئت في العام ١٥٨٥ حسبما ذكر برتلماوس بياتشي في كتاب الانجيل الروماني المطبوع في روما سنة ١٦٧٦، ويتضمّن مديحاً رائعاً للقديس يوحنا مارون جاء فيه: "في التاسع من

شباط يقام في رومه العظمى، بكنيسة مار يوحنا، عيد احتفالي سنوي للقديس يوحنا مارون الذي أقيم بطريركاً على الملّة المارونية، إذ كانت الهرطقات منتشرة في كل الامصار الشرقية. وكان القديس يوحنا مارون بحسن تدبيره، وفضل سيرته الصالحة، واحتماله المشاق، قد صانها سليمةً من كل بدعة وضلال، وانتقل إلى السماء" (٢٥).

ومن الصور والرسوم القديمة العائدة للبطريرك يوحنا مارون، واحدةٌ في كنيسة مار شربل معاد، والثانية في قرية بحديدات، والثالثة في دير الرهبانية اللبنانية المارونية في روما مرسومة سنة ١٧٠٧ إلى جانب رسم للبطريرك إرميا العمشيتي الذي حضر مجمع لاتران سنة ١٢١٥. هذا بالاضافة إلى رسم زيتي كبير في كنيسة مار يوحنا مرقس جبيل يجمع بين القديسين مارون ويوحنا مارون.

وفي أيام البطريرك يوسف اسطفان الغسطاوي (١٧٦٦ - ١٧٩٣) الذي رممّ دير مار مارون كفرحي، وأسماه دير مار يوحنا مارون، نُقل عيد مار يوحنا مارون من التاسع من شباط إلى الثاني من آذار ليتسنّى للموارنة الاحتفال بالعيدين معاً، بما يليق بهما، وبما يمثّلان من قيم مارونية روحية وتاريخية، حسبما جاء في قرار التعيين. ويعود الفضل إلى البابا اوربانوس الثامن (١٦٣١ - ١٦٤٤) في حسم الجدل الذي قام بين الملكيين والموارنة حول قداسة يوحنا مارون باعتبار أنه شهد لهذه القداسة، وأمر بطباعة السنكسار الماروني الذي حدّد التاسع من شباط عيداً له، وهذا ما يعتبر قانوناً اعترافاً بمضمون السنكسار المذكور، وبقداسة مار يوحنا مارون وعيده الوارد فيه في التاسع من شباط.

وهكذا تحولّت "الجماعة المارونية"، أو "حزب مارون" الذي التفَّ حول القديس مارون في نهاية القرن الرابع ومطلع الخامس، مؤمناً بتعاليمه ومواعظه وإرشاداته، إلى "طائفة مارونية" لها حضورها في الشرق، ومركزها المرموق بين الطوائف المسيحية، بفضل البطريرك الماروني الأول يوحنا مارون الذي ركّز اسس كنيسته المارونية، فزادت رفعةً وشأناً باعتراف الفاتيكان بها، وبمحافظتها على الخط الكاثوليكي والسمات الشرقية، مما أهلها لتلعب دور المرجعية المسيحية الأولى في الشرق الأوسط، إلى جانب بطاركة الطوائف الأخرى التي تشدّها إلى بعضها

البعض علاقات الودّ والتفاهم، حفاظاً على الوجود والمصير الواحد.

خلفاء يوحنا مارون على الكرسي الانطاكي

بعد القديس يوحنا مارون مؤسس الكنيسة المارونية، وبطريركها الأول، تربّع على الكرسي البطريركي الانطاكي خمسة وسبعون بطريركاً مارونياً حتى اليوم، بينهم ثلاثة من دير مار مارون الكبير حيث نشأت المارونية وكان عصرها الذهبي في عهد رئيس الدير الاسقف يوحنا مارون المذكور. وفي حين اختار البطريرك الاول يوحنا مارون وإثنان من خلفائه هما قورش وجبرائيل كفرحي مقرّاً لهم، اختار البطريرك الرابع يوحنا الثاني يانوح مقرّاً جديداً، وربما بسبب النزوح الكثيف الذي أعقب الحملة البيزنطية على الموارنة سنة ٦٩٤، وحلول القسم الأكبر من هؤلاء النازحين في جبّة المنيطرة، فأحبّ البطريرك أن يكون بينهم ليخفّف من مأساتهم في المكان الذي أُطلق عليه بالسريانية لغتهم، إسم يانوح، أي "بيت الراحة".

وبعد ما تحدّثنا عن البطريرك الاول يوحنا مارون نتابع سلسلة بطاركتنا، كما وضعها آباء كنيستنا المارونية وعلماء الطائفة بالاستناد إلى المخطوطات السريانية القديمة، مع البطريرك الثاني قورش الذي جعل هو الآخر مقرّه في كفرحي ليخلف خاله يوحنا مارون فيها.

● ٢ـ البطريرك الثاني قورش (٧٤٧ـ؟)

بعد وفاة البطريرك يوحنا مارون بأربعين عاماً، كما أشار ثاوفان[٢٦] ، بسبب "منع العرب إنطاكية إقامة بطريرك"، اجتمع أعيان الطائفة ومقدّموها وأساقفتها لانتخاب خلف له، فوقع اختيارهم على إبن شقيقته الأسقف "قورش" أحد رهبان دير مار مارون الكبير، جرياً على العادة المارونية السابقة عند اختيار يوحنا مارون، حسبما ذكر السمعاني مضيفاً "فدبّر رعيته تدبير الابرار المجاهدين إلى حين وفاته"[٢٧]. وزاد البطريرك الدويهي على هذه المعلومات مشيراً إلى أن "قورش اشتهر بغزارة علمه وقداسته" [٢٨]. وقد ذكرنا سابقاً أن يوحنا مارون كان قد اصطحب معه قورش ابن شقيقته، بعد موت والده عندما كان يدرس في القسطنطينية، إلى دير مار مارون الكبير حيث انخرط في سلك رهبانه، وكان من

خيرتهم تقوىً وعلماً. واشتهر قورش على حدّ تعبير الخوراسقف داغر في "العلوم العالية من فلسفية ولاهوتية طبيعية" (٢٩).

والمؤسف أنه حتى في دير مار مارون كفرحي حيث أقام البطاركة الأوائل، لا نجد أي مخطوطة تشير إلى هذا الوجود، ربما بسبب ملاحقة البطاركة حيثما حلّوا بالنهب والحرق، من جرّاء "تواتر الفتن من الاعراب، وحيف السلطان"، كما قال المسعودي، أو من جرّاء عاديات الزمان، وفعل الزلازل التي خرّبت هذه البلاد ودمّرت مكتباتها وقضت على كل أثر علمي مخطوط فيها.

الفصل الخامس

يانوح وبطاركتها من القرن التاسع
إلى القرن الثاني عشر

١ـ صراع الكاثوليك والارثوذكس الملكيين واليعاقبة والموارنة

الطائفة اليعقوبية او الملكية

أشار زعيم الطائفة اليعقوبية، وكبير منظّريها، يعقوب البرادعي نفسه، إلى البدعة اليعقوبية المرتكزة على المونوتولية النسطورية والآريوسية، وأسماها "الطائفة الملكية التابعة ليعقوب الالهي"، في حديثه الذي أشرنا إليه سابقاً حول الحوار بين جماعة الموارنة والملكيين اليعاقبة. وعبارة "الملكية" هذه التي أدخلت بمثابة تعريف بالطائفة اليعقوبية، هو لاعتزازها بتأييد ملوك بيزنطيا لها، والاستناد إلى هذا التأييد لاعتبار نفسها وريثة الكرسي الانطاكي الشرعي. وهذا ما لم تعترف به روما ولا الكاثوليك في الشرق والغرب، ولا حتى الكنيسة الارثوذكسية الأم التي رفضت المونوتولية التي تدين بها الفرقة اليعقوبية التي تحوّلت إلى طائفة راجت في جهات الاسكندرية واورشليم بسبب وصول بطاركة يعقوبيين إلى كراسيها، وفي جهات القسطنطينية بسبب تأييد بعض ملوك بيزنطية لها.

ويقول المؤرخ متى جانر، في تعريفه بالطائفة الملكية "سبب الفرق بين الموارنة والملكية، كان بسبب حملة موريق وموريقيان على القديس يوحنا مارون(سنة ٦٩٤)": فالذين تبعوا الروم دُعوا "ملكية"، والذين ثبتوا تحت راية البطريرك يوحنا مارون دُعوا "موارنة"(١). هذا من ناحية الاسم، أما من ناحية الايمان، وهنا الخلاف الجوهري الأكبر، رغم محاولة اليعاقبة إنكاره، هو في الخلاف العقائدي حول الايمان بمشيئتي أو طبيعتي المسيح، فاليعاقبة مونوتوليون يعترفون بطبيعة او

بمشيئة واحدة إلهية في السيد المسيح، وينكرون الطبيعة الانسانية وكل ما يتعلّق بقداسة العذراء وأمومتها لألوهية المسيح. عكس الموارنة الذين يؤمنون بطبيعتي المسيح الانسانية والالهية، وبمريم العذراء أماً للاله وللانسان معاً.

الارثوذكس والكاثوليك

وكثيراً ما وقع الالتباس بإطلاق التسمية الملكية التي اعتمدها الروم الكاثوليك مؤخراً على طائفتهم، باعتبار أن الملك البيزنطي يوستنيانوس الكبير، وهو غير يوستنيانوس الأخرم الذي دعم اليعاقبة، قد دعمهم، وساعد على انعقاد وتثبيت الانظمة الخلقيدونية وتعميمها. ولما استلم يوستنيانوس الأخرم وحارب الموارنة والارثوذكسيين الاقحاح أصحاب الايمان المستقيم بطبيعتي المسيح الانسانية والالهية، انقلبت التسمية، وصار اليعاقبة "ملكيين"، وهم الذين أشار إليهم يوحنا مارون عندما طلب من امير إنطاكية ليطلب إلى القاصد الرسولي تعيينه اسقفاً ليحمي الارثوذكس من اجتذاب الطائفة الملكية لهم. واصبح الملكيون السابقون او الارثوذكسيون الآخرون "ارثوذكس ملكيين كاثوليك" خاضعين كلياً لسلطة البابا خلافاً للملكيين السابقين واليعاقبة الرافضين سلطته.

وكان قد وقع هذا الانقسام بين الارثوذكسيين في العام ٦٢٧، إذ اعتبر الملكيون أن البابا هو الاول بين متعادلين(Premier entre deux égaux) (٢) وإمعاناً في استقلاليتهم عن سلطة الكرسي الرسولي اعتمدوا الطقس اليوناني، فيما اعتمد الارثوذكسيون الكاثوليك الطقوس السريانية واللاتينية. وتفاقم هذا الخلاف في عهد البطريرك فوتيوس سنة ٨٦٧، وتكرّس بانفصال تام نهائي بين الارثوذكسيين الملكيين والمعروفين حالياً "بالروم الارثوذكس" على اختلاف مذاهبهم، في العام ١٠٥٤. وجوهر هذا الانقسام يعود إلى الخلاف حول بعض الامور اللاهوتية، ولا سيما اعتبار الروح القدس ينبثق من الآب والابن حسب اعتقاد الكاثوليك، فيما يعتقد الارثوذكسيون الآخرون بأن الآب هو كل شيء، وقد "ضحّى بابنه في سبيل خلاص البشرية" (٣). كما نشأ بينهما خلاف حول ألوهية هذا الآب، إذ أن الكاثوليك يعتبرون الأقانيم الثلاثة (الآب والابن والروح القدس) متساوين في الجوهر، في حين يعتبر الارثوذكسيون أن الآب هو مصدر الالوهية. هذا فضلاً عن

الخلاف حول مقام البابا الذي يعتبره الكاثوليك رأس الكنيسة المقدّسة الرسولية، في حين لا يعتبره الآخرون إلاّ بمثابة بطريرك روما الموازي لبطريركهم. وقد حاول البطريرك الكاثوليكي غريغوريوس، قبيل فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٢ تسوية هذا الخلاف وإعادة اللحمة إلى الكنيسة المسيحية، لكنه فشل، وسقطت العاصمة البيزنطية نفسها سنة ١٤٥٣ بسبب هذه "المجادلات البيزنطية" الشهيرة، حول جنس الملائكة وغيرها من الامور اللاهوتية. وقد وقعت القطيعة النهائية، وتوقفت الاتصالات بين الفريقين، في عهد البطريرك أثناسيوس الذي أعلن ولاءه للبابا سنة ١٧٢٤ كسلفه البطريرك كيرلس الخامس الذي كان قد اعترف بسلطة البابا في اواخر القرن السابع عشر. وكان للبطريرك الماروني العلاّمة اسطفان الدويهي الدور الكبير في إقناع البطريرك أثناسيوس بالخضوع للكرسي الرسولي، وإعتناق المذهب الكاثوليكي (٤). ويومها انتقل الروم الكاثوليك من جهات حلب، وأقام بطاركتهم في دير قزحيا، ثم في كسروان وغيرها من المناطق، بحماية البطريرك الماروني، وصاروا يعرفون بـ "الملكيين الكاثوليك" او "بالروم الكاثوليك"، في حين أطلق على الارثوذكس غير الخاضعين لسلطة البابا إسم "الروم الارثوذكس". وقد تفشّى هذا الانقسام بين الأرمن والسريان وغيرهم من الطوائف المسيحية الشرقية. وعبثاً حاول البطريرك الارثوذكسي المقيم في اليونان أثينا غوراس، والبابا بولس السادس، وبعده البابا يوحنا الثاني والعشرين، رغم الاجتماعات المتكرّرة إنهاء هذا الخلاف الذي ينعكس استهجاناً في الاوساط المسيحية عند إحياء عيد الفصح في زمنين مختلفين، فيُميت المسيح ثم يقيمه كلّ فريق ساعة يشاء. والجميع يتطلّعون بشوق لوضع حدّ لهذا الانقسام الذي أضرّ كثيراً بالكنيسة المسيحية، وبلبنان الذي أضاف إليه انقساماً جديداً بين كاثوليك وارثوذكس، وما يرافق مثل هذه المناسبات المختلفة من تباين في التطلّعات والثقافة والمواقف.

الموارنة وموقعهم العقائدي والسياسي

الموارنة كمذهب، يُعتبرون الجماعة الكاثوليكية الأولى في الشرق. وقد تقدّموا الجميع في الامتثال لسلطة البابا، وبطريركهم الأول، مؤسّس الكنيسة المارونية، نال شخصياً من قداسة البابا مرتينوس درع التثبيت، واعترافاً بأنه خليفة توافانوس،

وبطريركاً شرعياً على "كرسي إنطاكية وسائر المشرق". ولا زال الموارنة منذ تاريخ استلام يوحنا مارون السدة البطريركية الانطاكية سنة ٦٨٥، ولليوم محافظين على كاثوليكيتهم، وارتباطهم بالكرسي الرسولي، ومن شروط كمال الرئاسة عند بطاركتهم الحصول على درع التثبيت وبراءة بابوية، وهدايا بابوية، تضفي على انتخاب البطريرك والأساقفة الموارنة (وقديماً كان الاعيان الموارنة يشاركون أساقفتهم في انتخاب البطريرك) الصفة الشرعية المطلوبة لتعيين الأساقفة، وممارسة البطريرك صلاحياته كاملةً. وهذا لم يمنع الكرسي الرسولي من تعيين بطاركة وأساقفة ببراءات بابوية تسبق عملية الانتخاب على الأرض اللبنانية، ومن ثم تزكّى بموافقة المرجعية المارونية.

وما أن تربّع الاسقف يوحنا مارون على العرش الانطاكي سنة ٦٨٥، حتى صار الزعيم الأوحد للشعب السرياني الماروني المنتشر بين اللكام والجليل، فتنادى أخصامه اليعاقبة، يؤازرهم ملوك الروم للاطاحة به، والقضاء على الاستقلالية المارونية التي حقّقها في المجالين الروحي والسياسي، لا سيما بعدما تكرّس أيضاً المدافع الأول والأكبر عن التيار الخلقيدوني الذي انحصر في المشرق بالموارنة دون سواهم من سائر المذاهب، طوال القرون الاولى التي أعقبت انعقاد مجمع خلقيدونيا في العام ٤٥١، وخروجه بإعتراف الاساقفة الحاضرين والبطاركة بطبيعتين في المسيح، إلهية وإنسانية، خلافاً للعقائد الآريوسية والنسطورية التي عبّر عنها اليعاقبة في عقيدتهم المذهبية. وليدفع عن نفسه، وعن شعبه، وطائفته، الخطر الداهم من تحالف اليعاقبة والبيزنطيين للقضاء عليه، عمد البطريرك يوحنا مارون إلى اتخاذ المواقف التالية:

أولاً: تعميق ارتباطه بالكرسي الرسولي بزيارة البابا شخصياً لطلب بركته وتأييده.

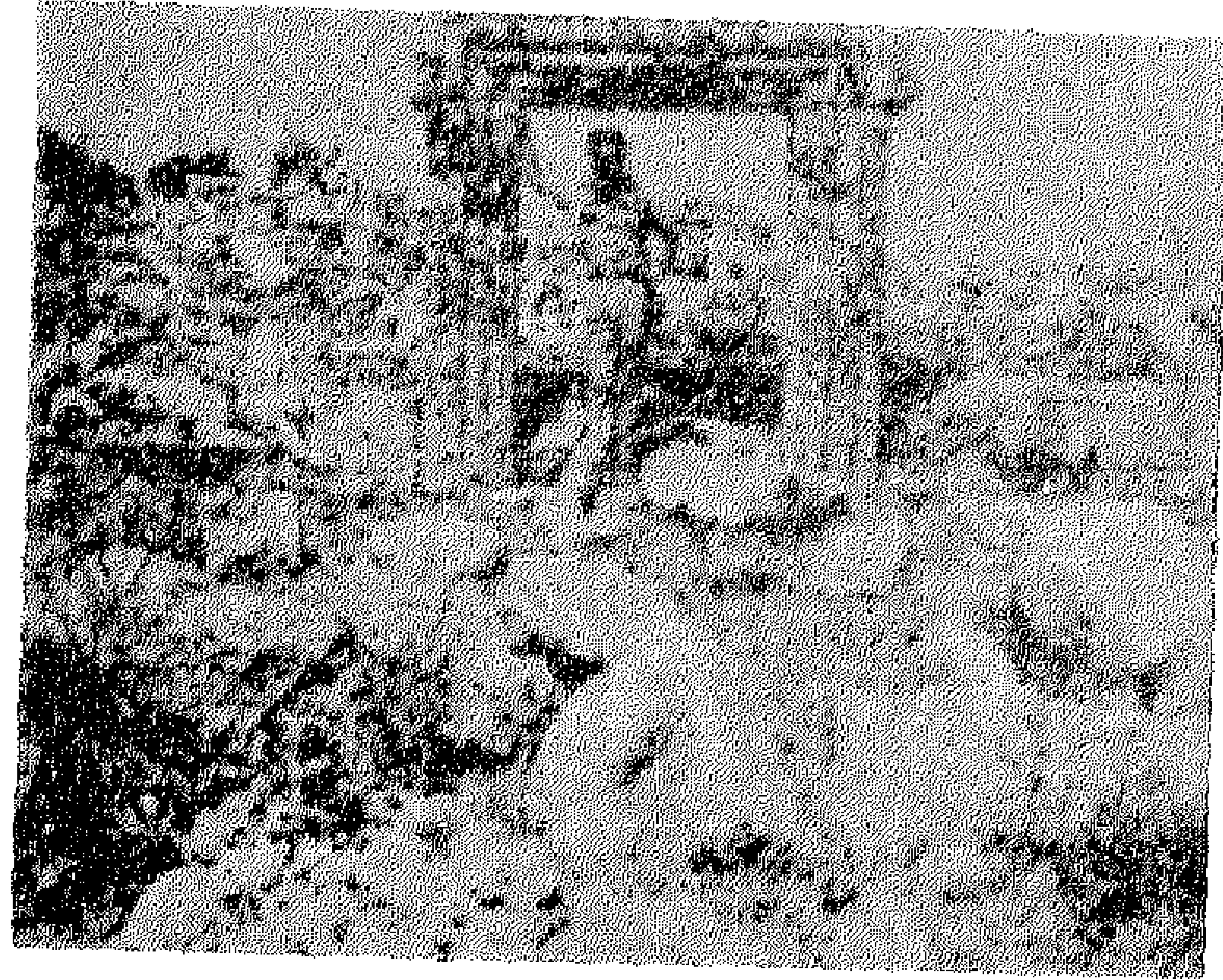
ثانياً: إعلان التعبئة العامة والجهاد المقدّس لصون الحريات والحفاظ على الكنيسة والوطن.

ثالثاً: استحضار إبن شقيقته ابراهيم على رأس مؤيّدي الخطّ الماروني

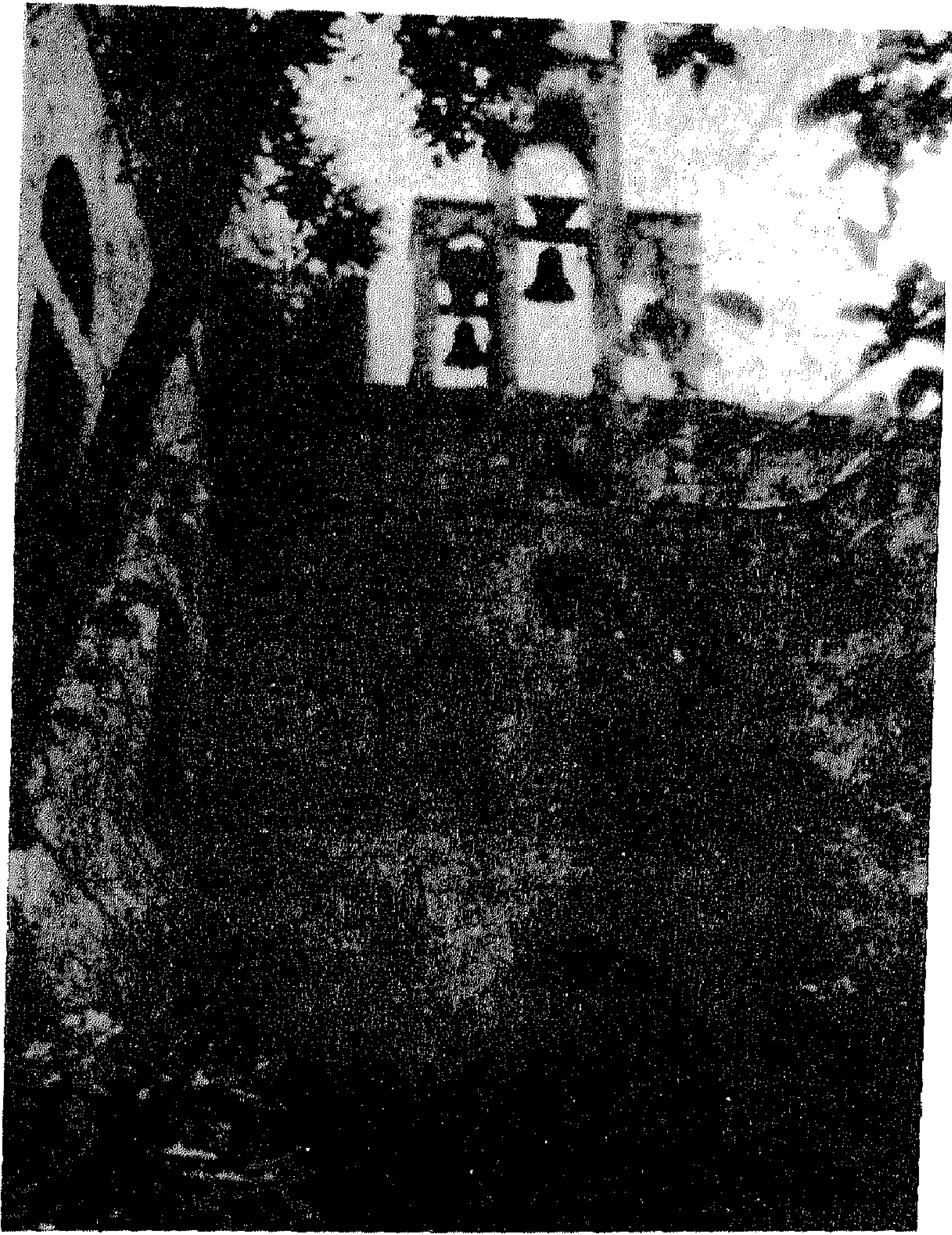
الخلقيدوني، للدفاع عن المقرّ البطريركي الجديد في كفرحي، وعن الكنيسة والوطن. وتكليف عناصر تحمي الأديار والكنائس والقرى المارونية في كافة أنحاء سوريا الثانية، وعدم الاستسلام والرضوخ مهما كلّف الأمر. فالمعركة مع أعداء الدين والوطن، معركة حياة او موت.

وكانت الشرارة الثانية بعد معركة أميون سنة ٦٩٤ التي أظهرت النوايا العدوانية، بعد الحلف الاموي البيزنطي اليعقوبي، للقضاء على هذه الامة المتغطرسة، الآخذة بالنمو والانتشار، والقائمة بالمواجهة على كافة الصعد العسكرية، والمذهبية، والسياسية، الرافضة للسلطة العليا المشرقية المتمثلة بملوك العرب والقسطنطينية، عبر الاتصالات والزيارات للغرب الروماني الكاثوليكي، كانت الشرارة الثانية مهاجمة البطريرك اليعقوبي النسطوري "توافيلوس بن قنبرة دير مار مارون الكبير على رأس عسكر من عساكر الملك مروان سنة ٧٤٧" (٥). وكان قد سبقها تعدّيات اخرى متفرّقة في أنحاء سوريا الثانية، ذهب ضحيتها عشرات من رهبان دير مار مارون الكبير الذي قاوم بضراوة هذه التعديات المتكرّرة، وكان آخرها القضاء على ٣٥٠ راهباً، كانوا في طريقهم لزيارة دير القديس سمعان العمودي القريب من ديرهم، ثم القضاء على نحو ٨٠٠ راهب آخر من رهبانه لاحقاً في العام ٦٩٣ عند الاجتياح العام للموارنة في سوريا الثانية.

وتذكر المراجع التاريخية الحادثة الثانية على الوجه التالي: حاول البطريرك الملكي اليعقوبي تيوفيلس إجبار رهبان دير مار مارون على القبول به بطريركاً. ولم يتورّع أحد مرافقيه من الرهبان، عن دخول كنيسة الدير وضرب المذبح بيده قائلاً: "متى تتقدّس أيها المذبح النجس (باعتبار رهبانه خلقيدونيين)؟ وفي الحال وقع الراهب ميتاً"، وكان البطريرك قد حاول أخذ الاعتراف الخطي من الرهبان ببطريركيته وأرجأوه إلى الغد لأخذ القرار. فلما رأى ما أصاب مرافقه "استولى عليه الخوف وترك الدير، وعاد بجيش الخليفة خاسراً"... ويتابع التلمحري، صاحب هذا الخبر حديثه فيقول: "وظلّ الموارنة يقيمون بطريركهم من ديرهم" (٦). ولم يعترف لا السمعاني، ولا الدويهي باختيار رهبان دير مار مارون بطريركاً من ديرهم قبل يوحنا مارون في العام ٦٨٥، وبأن البطاركة الموارنة قد أقاموا خارج الأرض



واجهة دير مار مارون الكبير في سوريا.



كنيسة دير مار يوحنا مارون كفرحي المقر البطريركي الأول.

اللبنانية، بالاستناد إلى ما وجدوه من كتابات قديمة في كتبهم الطقسية (٧).

وقد يكون في رواية تيوفيلس بن قنبرة على طرافتها، بعض المبالغة من قبل التلمحري، أو إبن العبري وهو صاحب التاريخ المعروف "بالتاريخ الكنسي السرياني"، وقد نشره المؤرخ المعروف بروكوبيوس، ولكنها مع هذا تظهر واقعاً تاريخياً معروفاً، يهمّنا أكثر من الخبر في حدّ ذاته، وهو تحالف العرب بشخص الخليفة مروان بن الحكم الاموي، وبطريرك اليعاقبة، وتزويد الأول للثاني بجيش لضرب المقرّ الماروني الأول والأهمّ، ومباركة ملوك الروم لهذا التوجّه الذي ظهر جلياً في دخول جيش الروم والعرب معاً إلى البقاع على أثر انتفاضة الموارنة على العرب والروم، وهي المعروفة بثورة المنيطرة سنة ١٧٥٩، والتي احتجّ على وحشية معاملة والي البقاع العباسي فيها للموارنة الآمنين من الشيوخ والنساء والاطفال، الامام المسلم الاوزاعي. وقد أدّت هذه الحملات المشتركة بين العرب والروم إلى عقد أحلاف كان من نتيجتها قتل المقدّم الياس في البقاع غدراً، ثم إرغام الموارنة على سحب إثني عشر ألفاً من قواتهم النظامية إلى خارج المنطقة التي يسيطر عليها العرب، عشية استلام البطريرك الماروني يوحنا مارون مقاليد الكرسي الانطاكي سنة ٦٨٥، ورفض هؤلاء الخروج لادراكهم تماماً بالخطة الموضوعة للقضاء على البطريرك وكنيسته، والاستقلال اللبناني، والكيان الوطني الحديث النشوء؛ لا سيما بعدما استطاع هذا البطريرك بحكمته وبطولته "ردّ الكثير من اليعاقبة من تلاميذ مقاريوس إلى الاقرار بالطبيعتين والمشيئتين"، كما أشار الدويهي (٨)، وبعدما تمكّن المردة من اجتياح "بلاد معاوية" أكثر من مرّة للحفاظ على استقلالية الوطن الماروني. وقد أشار مؤرخو البيزنطيين أنفسهم، أمثال توافان، وشدرانس، وزوناراس، وغيرهم إلى أن البطريرك الجديد، كما روى السمعاني أيضاً، "راح يتفانى في حراثة كرم الرب، وردّ إلى الايمان القويم كثيرين من أصحاب بدعتي الطبيعة الواحدة، والمشيئة الواحدة من رعيته وغيرها، فنما شعبه وكثر عديدهم، وانبسطت مساكن كثيرين منهم حتى اورشليم وبلاد الأرمن. وكان يعضدهم بكثرة الكهنة ورؤساء الكهنة لخلاص نفوسهم. بل أقام لهم امراء وقادة لجيشهم يذبّون عن جماعتهم، ويحمون حماهم من كل معتد. وكان من امراء جيشهم ابراهيم إبن

اخته الذي مرّ بنا ذكره. وكانت لهم السطوة والغزوات التي رويناها عن توافان وشدراتيس وزوناراس وغيرهم، حتى الجأوا معاوية وعبد الملك بن مروان إلى الاتفاق مع ملوك الروم عليهم، بشرط أن يصدّوا غزواتهم، ويجلوا عساكرهم (٩).

وهكذا رفض موارنة لبنان وسوريا، بقيادة امرائهم وبطريركهم، أن يعيشوا محاصرين بين مطرقة العرب وسندان الروم كبقية الطوائف المسيحية من هذا الشرق التي رضيت أن تأخذ فرمان تثبيتها من سلاطين العرب والروم، وكان لا بدّ من أن يدفعوا ثمن هذا الرفض، والتمسّك بالسيادة والحرية والاستقلال، تهجيراً واضطهاداً. فاضطرّ أن يهجر "رهبانهم، وأكثرية قومهم، على دفعات متتالية، أرض سوريا، حيث الانتقاص من الحرية والكرامة، وإستقرّوا في لبنان" (١٠).

ولم يغادر البطاركة الموارنة سوريا نهائياً إلى لبنان، حسب البطريرك الدويهي، إلاّ في القرن العاشر، إذ أنه منذ يوحنا مارون الأول البطريرك الأول، حتى يوحنا مارون الثاني، ظلّوا يتنقّلون بين سوريا ولبنان. وربما كان سبب بقائهم نهائياً في لبنان هو نصرة الروم لليعاقبة أعدائهم، وذلك في القرن العاشر. ويقول المسعودي الذي مات سنة ٩٥٦ إن الموارنة كانوا ينتشرون في أيامه "في الشام وغيرها، وأكثرهم بجبل لبنان، وسفير (الجبل الشرقي)، وحمص وأعمالها، كحماه وشيزر ومعرّة النعمان" (١١). وبانتخاب يوحنا مارون، رئيس دير مار مارون الكبير بطريركاً، اجتمعت القوى الروحية والقيادة الزمنية، بشخص البطريرك، فاستطاع ببسالته، وبحكمته، أن يوحّد الشعب الماروني المنتشر في المنطقة الممتده من اللكام الى الجليل، تحت قيادة واحدة، استعداداً للمواجهة مع اعدائه الذين تحرّكوا بسرعة لضرب "حزب مارون"، وهو الاسم التاريخي الذي أطلق على الجماعة المارونية التي تبعت القديس مارون، وفاتهم أن هذا الناسك الجديد يوحنا مارون، هو رئيس دير رهباني، جمع إلى تقوى الله القدرة على اتخاذ المواقف ومواجهة الصعاب والتحديات. وكما أن التسمية المسيحية لم تطلق على المسيحيين إلاّ في العام ٤٢، بعد قيام البطريركية الانطاكية بزعامة القديس بطرس، كذلك التسمية المارونية لم تطلق على الموارنة إلاّ بعد جلوس القديس يوحنا مارون على الكرسي البطريركي الماروني الانطاكي وتأسيسه الكنيسة المارونية سنة ٦٨٥.

وبعدما كان البطاركة الانطاكيون هم بطاركة السريان والارثوذكس، صاروا بطاركةً موارنة يُنتخبون من دير القديس مارون الكبير أولاً حتى البطريرك الرابع، ويقيمون في كفرحي، ومن ثم ينتخبون من لبنان، ومن بين أساقفة الموارنة عملاً بوصية البطريرك الثالث جبرائيل، ويقيمون في يانوح المتاخمة، لبلدة العاقورة منذ الجيل العاشر.

٢- يانوح وبطاركتها

يانوح المقرّ البطريركي الثاني

يانوح، القرية اللبنانية الخربة اليوم، في أعالي جرود بلاد جبيل، بمحاذاة العاقورة، إسمها السامي الاصل يعني "بيت الراحة" (١). وللوقوف على سبب هذه التسمية لا بدّ من الرجوع إلى التاريخ والجغرافيا معاً. فجغرافياً تقع يانوح على طريق الامبراطور الروماني ديوقلسيان، وهو المعبر الوحيد بين البقاع، ولا سيما بين بعلبك :"كعبة" الرومان، وجبيل "أورشليم" الفينيقيين أو "مكّة الوثنيين" في العصور الأولى. وبالقرب من يانوح بالذات كان يقوم معبد الزهرة الوثني الشهير الذي ظلّت أبوابه مفتوحة للفساد والمجون حتى اواسط القرن السادس. ثم ضربه الزلزال الشهير في العام ٥٥٥ بعد الميلاد، وأعيد تعميره، ثم هدم نهائياً بأمر من أباطرة الرومان أنفسهم بسبب ما كان يُرتكب فيه من معاصٍ اقلّها تسليم العذارى انفسهم في مناسبات معيّنة لعابري تلك الطريق إرضاءً للآلهة والكهنة معاً. وقد أشار الأب ضو إلى أن "منطقة أفقا والعاقورة، هي أول بقعة من لبنان بشّرها الموارنة بالانجيل، وحوّلوها إلى معقل لهم... والبطريرك يوحنا مارون جعل منذ ذلك العهد (بعد هزيمة البيزنطيين في اميون) كرسيّه في كفرحي حيث أقام ديراً وضع فيه جمجمة القديس مارون. وبعد هدوء العاصفة واستتباب الأمور، كان البطاركة يقيمون تارة في لبنان، وأحياناً في كفرحي، وأحياناً في يانوح، وطوراً في سوريا..." (٢).

وتاريخياً "يانوح"، التي جعلها البطريرك جبرائيل الثاني مقراً له، يصفها الدويهي بأنها: "من أشرف القرى في جبّة المنيطرة، واهلها كثيرو الغيرة والعبادة،

فـأبنيـو (أي ابتنوا) دير مـار جـرجس كلّه من الحـجـر الأزرق في غـاية الصناعـة والشـراقة. وهو باق الى يومنا هذا، لكنه خـال. وقد آثروا (آثرت) دفعات عدة الغير مـؤمنين، أن ينقلوا حـجارته فلم يتـركهم الله..." (٣). والمطران دريـان يصف يـانـوح موضـحاً أنـهـا "رحبة الأرض، كثيرة المياه، جيّدة التربة والهواء، منيعة الموقع، جميلة للغاية..." (٤). وقد تسلّم احد بطاركة يانوح بطرس الثاني براءة من البابا إنيوسنيوس الثـالث تقول: "إننا نسمي ايهـا الاخ البطريرك كنيسـتك على إسم العـذراء بيـانوح كراسي المطارنة والأساقفة الآتي ذكرها الخاضعين بحقّ الرئاسة لك، ولخلفائك: أي مطرانية مـار آسيا (قرحيا)، ومـار شربل (طرابلس)، واسـقفيـة المنيطرة، ورشـعين، وكفرفو، وعرقا، (ومعظمها لم يعد موجوداً اليوم)، وتأخذ الباليوم درع ملء الخدمة الحبـرية بحسب العـادة، يسلمـه إليك بطريرك انطاكيـة (اللاتيني حسب توضـيح الدبس) من غير ما صعوبة، وتثبّت تلك العوايد الجارية التي كانت لك، ولمن سلفوا قبلك في الكنيسة الانطاكية إلى الآن، ونهبها لخلفائك بالسلطان الرسولي..." (٥).

وقد بقيت يانوح مقرّاً بطريركياً حتى العام ١١٢٠، أي ما يقارب الاربعمـاية عام. وكان انتقل البطاركة إليها بسبب وقوعها في العمق الماروني البعيد عن مرمى سـهام الاعداء الكثر الطامعين بالقيادة الروحية للموارنة، باعتبارها القيادة العليا الروحية والزمنية. والعاقورة ومنطقتها كانت ولا تزال إحدى المناطق الغنية بالرجال الأشدّاء، بالاضـافة الى مـا حبتها به الطبيعة من جبـال عاصيـة ومسـالك صـعبة، فوفّرت للموارنة الحصن الأمين، ولبطاركتها الملجأ الحصين.

وإن تفرّد البطريرك في تعيين الاساقفة والابرشيات، وكافة الامـور الدينية، إلاّ أنه رغم سلطانه الكبير، كـان يدعو اشراف البـلاد ووجـهائها لينتـخبوا بحضـوره امراءهم ومـقدّميهم. وكـان يضـفي على المنتخبين، بعد انتـخابهم، لقب شمـاس او شـدياق او رقـيب او شـاهور، لكي ينخـرط هؤلاء في سلك الاكليـروس، ويصـبـحـوا خاضـعين لسلطته بشكل أوثق، حسبمـا أشار الأب فـهد في كتابه "بطاركة الموارنة واساقفتهم" (٦). وقد أشـرنا سـابقاً إلى تتويج الأميـر سمعـان في بيت ملك جـبيل يوسف. كمـا سنذكر لاحقاً عزل المقدّم عنتر بسـبب طمعه، وعبد المنعم وسـالم بسبب مساندتهمـا لليعاقبة، وتعيين مقدّمين آخرين عن طريق الانتخاب كمـا جرى في معاد،

وكفرحي وغيرهما، وبينهم المقدّم نقولا الذي دخل على البطريرك، كما ذكر إبن القلاعي، وخرّ أمامه قائلاً: "اعطيني من قدسك سلطان... وأكون قدام قدسك خادم... بسيف الطاعة والايمان".

● ٣- البطريرك الثالث جبرائيل الأول

اما بالنسبة الى البطريرك اليانوحي الأول، ثالث بطاركة الموارنة، جبرائيل الأول، فنشير إلى أنه لم يصلنا عنه سوى ما ذكره لكويان، وهو "أنه بعد قورش انتخب جبرائيل من جبل لبنان" (٧). وهو أحد رهبان دير مار مارون الآنف الذكر. وقد جرت العادة أن يختار الموارنة بطاركتهم واساقفتهم من رهبان هذا الدير في مطلع نشأة الكنيسة المارونية، منذ يوحنا مارون الاول حتى يوحنا مارون الثاني الدملصي. وفي عهد البطريرك جبرائيل "عاد الملكيون الى الاعتقاد بالطبيعتين والمشيئتين في السيد المسيح، وانتخبوا لهم بطريركاً جعلوا إقامته في دمشق" (٨).

وقبل تناول سيرة البطاركة الآخرين، لا بدّ من التوضيح أن الجهل المطبق لأعمالهم وسيرة حياتهم، بسبب البعد في الزمن، واحراق المؤلفات المارونية لا سيما الموجود منها في دير مار مارون الكبير، جعل الكثير من أحداث تلك الفترة الزمنية تخفى على الكتّاب والمؤرخين. ومعظم المعلومات التي تناقلها مؤرخو الموارنة نقلت عن هوامش الكتب الدينية المخطوطة باليد في أزمنة متأخرة تعود الى القرون الوسطى، مثل قول أحد النسّاخ او الكهنة أنه "تمّ إنجاز هذا الانجيل بعونه تعالى في عهد سيدنا البطريرك فلان، وبرعاية الأسقف فلان، في العام كذا". ومن هذه الشذرات المنشورة هنا وهناك في بطون الكتب القديمة، تمكّن البطريرك الدويهي، وغيره من مؤرخي الموارنة جمع أسماء سلسلة البطاركة، بالاضافة الى ما جاء في نسخة داود بن ابراهيم التي احتفظ بها البطريرك جرجس السبعلي، والمحرّرة في العام ١٣١٣، وعنها نقل الدويهي والآخرون، لبنانيين ومستشرقين. كما بيّنت بعض محاضر المجامع المسكونية أسماء المشاركين فيها من البطاركة والأساقفة ورؤساء الأديار. وقد جمعها وعلّق عليها علماء الطائفة المارونية أمثال السمعاني والصهيوني والحاقلاني والدويهي، العنيّسي وفهد والأب ضو، وغيرهم ممن كتبوا في هذا

الموضوع. هذا بالاضافة الى الوثائق التي عثر عليها في الفاتيكان من خلال المخطوطات القديمة والبراءات والرسائل المتبادلة مع بطاركة وأساقفة الشرق ولا سيما الموارنة.

والصعوبة في تكوين فكرة صحيحة ودقيقة عن بطاركتنا العظام تكمن في اعتماد الإسم الأول فقط، دون ذكر الشهرة او البلدة التي ينتمي اليها هؤلاء، وأحياناً كثيرة كان يُكتفى باللقب البطريركي البطرسي كمثل "مار بطرس بطريرك الموارنة"، وكيف يمكن تحديد شخصية وهوية هذا المقصود بهذه التسمية؟! وفي محاولة لتحديد أسماء بطاركة الطائفة، عمد العلاّمة السمعاني والبطريرك الماروني العلاّمة الدويهي، وكبار أساقفة الطائفة في "المجمع اللبناني" الشهير الذي عقد سنة ٧٣٦ إلى تحديد سلسلة للبطاركة، وقام بطبعها الراهب الحلبي اللبناني يوحنا نطين لاحقاً في العام ١٨٨١ في مطبعة نشر الايمان في روما. ثم أعاد نشرها المعلم رشيد الشرتوني في مجلة المشرق سنة ١٨٩٠. وقد نسبت هذه السلسلة الى الدويهي لأنه كان قد جال على القرى والأديار والكنائس وجمع الكتب والمخطوطات القديمة التي على متنها كتابات تساعد عل وضع سلسلة بأسماء البطاركة الموارنة. كما وضع البطريرك حويك، من ناحيته جدولاً بأسماء البطاركة نقله يوسف عسكر الى اللغة اللاتينية، واعتمده المستشرق لكويان في كتابه الهام "المشرق المسيحي" المجلد الثالث صفحة ٤٩. وهذا الجدول استند اليه المطران الدبس في "تاريخ سوريا" ومجلده صفحة ٢٤٩، وفي جزئه الأخير المسمى "الجامع المفصّل" صفحة ١٦ وما بعد.

وعندما صمّمنا على كتابة هذه الدراسة، عدنا الى هذه السلاسل والجداول المذكورة، وأضفنا إليها ما وجدناه في قراءاتنا من خلال كتاب الخوراسقف داغر "بطاركة الموارنة"، وموسوعة الأب بطرس ضو "تاريخ الموارنة"، ومجموعة الأباتي فهد "بطاركة وأساقفة الموارنة". كما عدنا إلى زجلية إبن القلاعي، وما دوّنه في تاريخه حول الموارنة، وما كان ينشر تباعاً في الصحف والمجلات والكتب الصادرة حديثاً، وبينها "سلسلة بطاركة الموارنة" التي تحمل عنوان "البطريرك الخامس والسبعون" لأمين عام مكتبة بكركي الأب الدكتور بولس صفير، وغيرها من المجلات والنشرات، ولا سيما مجلة "المشرق" و"المنارة" والصحف اليومية الصادرة في لبنان.

ومع هذا لم نجد الكثير حول سيرة بطاركتنا الأوائل لننقله إلى القراء، فيشفي غليل الباحثين والراغبين في مزيد من المعرفة والحقائق.

● ٤- البطريرك الرابع يوحنا الثاني (٨٣٩؟ - ؟)

بعد وفاة البطريرك الثالث جبرائيل الاول، اجتمع الأساقفة والاعيان، بعد حوالي تسعة أيام من دفنه، جرياً على العادة المارونية المتّبعة في انتخاب البطاركة، في دير "ريش مران" كفرحي، وانتخبوا يوحنا الثاني أحد رهبان دير مار مارون الكبير، حسب التقاليد السابقة. ويذكر الدويهي أن الخوراسقف داغر أضاف: "قصد السكن في إنطاكية، لكنه لم يستطع الاقامة فيها لمناوأة العرب له، فجاء وسكن في لبنان في دير سيدة يانوح قرب العاقورة" (٩).

وقد أرّخ ابن القلاعي في زجليته هذا الانتخاب بقوله:

وبعده مارون ثاني

من الدير الربّاني (دير مار مارون الكبير)

معلّم شاطر ملفاني

ويدعى يوحنا البار

قد جاء ليانوح وبطرك كان

وسكنه في جبل لبنان

وايمان مارون ما تغيّر...الخ...

وقد اوصى هذا البطريرك قبل وفاته بانتخاب خلف له من جبل لبنان.

● ٥ - البطريرك الخامس يوحنا الثالث الدملصي (٧٨٧)

وقبل الحديث عن هذا البطريرك، نعود الى الوراء قليلاً لتحديد الفترة الزمنية التي نتكّهن بمرورها للوصول الى سنة انتخاب هذا البطريرك. فقد ذكر الدويهي، وهذا أمر غريب، انه بعد وفاة البطريرك جبرائيل الاول، اجتمع الاساقفة والوجهاء،

وانتخبوا يوحنا الثاني، أحد رهبان دير مار مارون، جرياً على التقاليد السابقة "في العام ٩٣٩" (١٠). وهل يعقل أن يدير البطريركية أربعة بطاركة من العام ٦٨٥ إلى العام ٩٣٩ أي ٢٧٤ سنة؟ بمعدّل سبعين سنة للبطريرك الواحد؟ وهل قفز الدويهي قرناً من الزمن سهواً، والتاريخ الصحيح هو ٨٣٩؟ حتى هذا التاريخ يبدو مناقضاً للواقع إذا علمنا أن البطريرك الخامس قد ورد ذكره في مجمع نيقيا الذي انعقد في العام ٧٨٧ في عهده، حسبما أشار السمعاني في "المقالة السمعانية" (١١). وهذا مع العلم أن اتفاقية السلام بين عبد الملك وابنه الوليد والروم قد استمرّت زمناً طويلاً، فلا يعقل أن يبقى الموارنة والمنطقة في سلام بدون بطاركة. واليعاقبة أنفسهم على لسان سعيد بن بطريق "تحدّثوا عن إقامة الموارنة أساقفة وبطاركة من ديرهم"، كما أشرنا سابقاً. فما سرّ هذا الفاصل الزمني الكبير بين ولاية بطريرك وآخر؟وهل نجد عند المؤرخين تفسيراً لذلك؟

بعد مراجعة عدة مصادر تتحدث عن تاريخ الموارنة، وجدنا أن بعض المؤرخين أشار إلى شغور الكرسي البطريركي بعد استيلاء العرب على انطاكية. ولا يمكن تحديد هذه المرحلة بالضبط، إن كانت سابقة لقيام البطريركية المارونية الاولى، ام لاحقة. ومن هؤلاء ثاوفان الذي يذكر أن الكرسي الانطاكي خلا في مطلع القرن الثامن بوفاة يوحنا مارون مدة أربعين سنة بسبب "منع العرب إنطاكية من إقامة بطريرك لها". وثاوفان قد عاصر تلك الحقبة، إذ أنه وضع تاريخه المعروف بين ٧٨٣ و٨١٣. ويؤخذ عليه حسبما أشار الدبس تأخر تاريخه ثماني سنوات عن غيره (١٢). ومما قاله المؤرخ ثاوفان في هذا الخصوص: "كان راهب إسمه اسطفان عزيزاً لديه (لدى ملك الروم قسطنطين الزبلي عام ٧٤٢، وهي السنة الثانية لحكمه، كما يشير الدبس ناقل هذا الخبر)، وكان أمياً، لكنه، ورع، فأطلق لهم أن يختاروه بطريركاً على مدينة الله إنطاكية... ولم يعد العرب يصدّونهم عن إقامة بطريرك إلى الآن (مشيراً الى العام ٨١٣ عند كتابة تاريخه)..." (١٣).

اما المؤرخ سعيد بن البطريق، فيحدّد سنة تولّي البطريرك اليعقوبي اسطفان المذكور بالعام ٧١٧ ونهاية ولايته في العام ٧٤٣. ولكويان، وهو المعروف بملاحقة الأخبار التي يؤرّخها ويحقّقها بدقة، قد أشار الى" أن تاريخ إبن البطريق هو

مشحون بالأخطاء، فيلزم إصلاح قوله بمقتضى قول ثوافان، وروايته أمثل" وحسب رأيه قد خلف توفيلكتس توادورس سنة ٧٥٠ الذي عيّن إبن البطريق بداية ولايته عام ٧٧٧.

وقد ذكر ابن العبري في تاريخه السرياني أن الخليفة أبا جعفر المنصور قد أمر بأن يلقى في السجن ببغداد جيورجيوس بطريرك اليعاقبة، وتاودوريطس بطريرك النساطرة، ولبثوا (لبثا) فيه تسع سنين إلى أن أخلي سبيلهم بوساطة كبريانوس نصيبين النسطوري، على ما روى لكويان في كتابه "المشرق المسيحي".

أمّا الدويهي وهو الذي يعترف أنه "لم يصلنا شيء من أخبار بطاركتنا الاوائل"، في معرض نقله سيرة البطاركة، في سلسلته، يشير في كتابه "تاريخ الإسلام" الى أن يوحنا الثاني، وهو البطريرك الماروني الرابع قد خلف جبرائيل المفترض أنه من بطاركة القرن الثامن، وقد تمّ انتخابه "في العام ٩٣٩" (١٤). فأي التاريخين هو الخطأ؟ تاريخ تولّي البطريرك الاول يوحنا مارون الذي أجمع عليه المؤرخون وحدّدوه في العام ٦٨٥، أم هذا التاريخ الذي حدده لولاية يوحنا الثاني، وبين الإثنين نحو ثلاثة قرون؟ ويبقى احتمال آخر، وهو وقوع خطأ مطبعي أو كتابي بحيث يجب وضع الرقم ٨ بدل ٩ فيصبح تاريخ تولّي البطريرك يوحنا الثاني في العام ٨٣٩ بدل العام ٩٣٩. وبالتالي يمكن اعتبار تاريخ تولّي البطريرك يوحنا الثالث الدملصي قد تم في نهاية القرن التاسع، وليس في "نهاية القرن العاشر واوائل الحادي عشر" حسبما حدد الدويهي تاريخ إستلام سلفه الكرسي البطريركي.

وبعد كل هذه المقدّمات الطويلة التي لم نصل فيها الى قناعة تنير طريقنا الصعب في تحديد تاريخ إستلام البطاركة كراسيهم، وربما هذا عائد لخطأ في ترتيب أسمائهم المنقولة عن "سلسلة داود بن ابراهيم"، نعود الى سيرة البطريرك يوحنا مارون الثالث، أول البطاركة اللبنانيين الذين تبوّأوا الكرسي البطريركي الماروني، عملاً بوصية البطريرك السابق، يوحنا مارون الثاني الذي أشار على الأساقفة أن ينتخبوا خلفاً له من جبل لبنان، أي من خارج دير مار مارون الكبير. وكانت الطائفة المارونية قد بلغت مرحلة متقدّمة في مجال وفرة الكهنة المثقّفين، ولم

تعد الحاجة تقتضي باختيار أحد خرّيجي الدير المذكور، لا سيما وأن رهبانه قد أصبحوا خاضعين كلياً لمشيئة الحكام المسلمين الذين يسيطرون على كامل سوريا. وبات هذا الدير بسبب الصراعات المذهبية والاعتداءات، ديراً عادياً يقطن فيه رهبان قلائل، ولم يلبث أن تخرّب كلياً في مطلع القرن العاشر وخلا من الرهبان. وكانت هذه الامنية، أن يُختار بطريرك من الأساقفة اللبنانيين، هي أيضاً مطلب البطريرك الأسبق جبرائيل، ولكن الاعيان والاساقفة لم يعملوا بموجبها.

وتمّ إختيار يوحنا الدملصي، من قرية دملصا في بلاد جبيل، في دير كفتون "لغزارة علمه، وتقواه، وحسن إدارته".ومن المعلوم أن دير كفتون عند نهر ابراهيم(١٥)، ودير مار آسيا في وطى سفرتا من بلاد البترون قرب دير الطوباوية رفقا، وقد امحت اليوم آثارهما، كانا صرحين علميين كبيرين، وقد أشار إليهما أكثر من مؤرخ، بينهم الدويهي والأب ضو. وكان البطريرك الدملصي أحد البطاركة الشرقيين الثلاثة الذين لم يحضروا مجمع نيقيا الثاني سنة ٧٨٧ الذي اشتدّ فيه الخلاف بين النسطوريين وأخصامهم ،الى جانب بطريرك اورشليم، وبطريرك القسطنطينية. وكان هذا المجمع قد انعقد ضدّ محاربي الايقونات. ولم يستطع البطريرك الماروني حضوره، كما أشار آباء هذا المجمع في الجلسة الثالثة، بسبب "قساوة العرب المستولين عليهم (على الموارنة)، لكنهم لم يتأخروا عن إرسال نواب عنهم"(١٦).

وانتهى بالبطريرك الدملصي القيام باختيار بطاركة من دير مار مارون، وأصبح جميع خلفائه من داخل الأرض اللبنانية. وبعد كفرحي التي جعلها مقراً لهم البطاركة يوحنا مارون، وقورش، وجبرائيل، انتقل المقرّ الى يانوح التي استمر البطاركة يقيمون فيها حتى العام ١١٠٠. وبعدها نقل الكرسي البطريركي الى سيدة ايليج ميفوق بعد دخول الصليبيين إلى لبنان.

● ٦- البطريرك السادس غريغوريوس الأول (؟)

جاء في في "المجمع اللبناني" المنعقد في العام ١٧٣٦ - القسم الثالث، والفصل السادس، "أن الكرسي البطريركي كان أولاً في دير القديس مارون بكفرحي من أبرشية البترون، وجلس عليه من البطاركة سنة ٦٨٥ فصاعداً: يوحنا

مارون، قورش، وجبرائيل. ثم نقل الكرسي الى دير القديسة مريم بيانوح من أبرشية البترون المذكورة (اليوم يانوح تتبع ابرشية بلاد جبيل)، وجلس عليه بعد جبرائيل المذكور يوحنا الثاني، ويسمى مارون أيضاً، ثم يوحنا من دملصا، وغريغوريوس، واسطفانس، ومرقس، واوسابيوس، ويوحنا، ويشوع، وداود، وغريغوريوس الثاني (الحالاتي)، وتوفيلكتس، ويشوع الثاني، ودوميط، واسحق، ويوحنا، وسمعان، ويوسف الجرجسي، الى سنة ١١٢٠. ونقل الكرسي ثالثا الى دير القديسة مريم حزاء ميفوق بوادي ايليج في أبرشية جبيل".

والبطريرك الدويهي في سلسلته البطريركية يشير الى أنه بعد البطاركة الخمسة المذكورين سابقاً، لم يعثر على اسماء بطاركة كرسي إنطاكية في جبل لبنان حتى مجيء الافرنج، أي من بداية القرن التاسع حتى اواخر القرن الحادي عشر وقد عزا ذلك الى تلف الكتب بسبب الحروب، والفساد، ورحيل البطاركة من بلاد الى بلاد، ولبعد الزمن... ولكنه وجد في كتاب قديم لابن عمه الشدياق انطون أخي المطران بولس "مكتوبة فيه الخدمة التي يقرأها الشماس لكل يوم، وفي التذكارات، وهي التوبدانيات التي يقرأها الشماس، بعد الصوت الوسطاني منها، عندما يذكر البطاركة الذين ساسوا خراف المسيح في ولاية الكرسي الانطاكي"، هكذا يقول: "ترأس على كرسي إنطاكية هؤلاء الآباء، أي البطاركة: غريغوريوس، واسطفانوس، ومرقس، واوسابيوس (المدعو حوشب حسب السمعاني)، ويوحنا، ويشوع، وداود، وغريغوريوس، وتاوفيليقطوس، واسحق، ويوحنا، وسمعان" (١٧). وأضاف الدويهي: "إن الصلح عقد في أيام هذا البطريرك (غريغوريوس) مع هارون الرشيد باهتمام الملكة إيرينه التي تسنى لها تأييد الديانة المسيحية بمساعدة هارون الرشيد حليفها"(١٨).

اما الشيخ انطونيوس ابي خطار العينطوريني، فقد ذكر نحو أربعين بطريركاً حتى البطريرك الجرجسي. ولكن علماء الطائفة المارونية، وفي مقدّمهم السمعاني والدويهي، قد أهملوا تلك الأسماء، وتم الاكتفاء بمن ذكرنا استناداً الى تحقيقات قاموا بها في المراجع التي عثروا عليها. ونظراً للأحداث الكبيرة التي عصفت بالشرق آنذاك فقد اضطرّ البطاركة لترك العواصم الكبرى مثل إنطاكية، واورشليم،

والاسكندرية، والقسطنطينية، حيث تكثر وسائل الاعلام والمكتبات، واللجوء الى قرى وأديار نائية، بعيداً عن متناول الاعلام والمنشورات، فطمست أسماؤهم وسيرهم. وحيث وُجدت منشورات أتت على أخبارهم أحرقها أعداؤهم، لا سيما تلك الوثائق والمخطوطات التي كانت في خزائن الأديار. وباتت المصادر التي تتناول سيرة البطاركة محدودة جداً، وأبرزها ما ينسب إلى تاريخ قيس الماروني، أي مخطوط المسعودي، ومخطوط الأب نو المكتشف في لندن، وقد نشره باسم "Opus culus Maronites" أي "كتيّبات مارونية"، في باريس سنة ١٨٩٠. وعن هذين المرجعين نقل الكثيرون. ويعتقد آخرون أن ما نقله تيوفيل الرهاوي، كبير منجّمي المهدي العبّاسي، هو أيضاً من مدوّنات قيس الماروني، وهي تدور حول الفترة الممتدة من القرن التاسع إلى القرن العاشر. وفي هذين القرنين ضاعت الأخبار، وخيّم الغموض على اخبار الطائفة المارونية، وخاصة أخبار البطاركة. ولسنا ندري إن تمّت العودة الى هذا الكنز السرياني الكبير الذي نقله السمعاني الى روما، وإذا كان يلقي أضواءً إضافية على هذه المرحلة أم لا. ومع هذا نرى أنه تبرز الحاجة خاصة الى نبش تراثنا المخزون في الفاتيكان من جديد بحثاً عن معلومات لم ينشرها السمعاني، أو سواه من علماء الطائفة المارونية، والمؤرخون، فعلّ ذلك يكشف لنا حقائق جديدة تزيل هذا اللبس الحاصل حول سيرة بطاركتنا العظماء.

وفي العودة الى سيرة بطريركنا السادس غريغوريوس نقول إننا نعتقد أن هذا البطريرك هو المعني بتتويج الأمير سمعان، لأن ولايته، وهو السادس بين البطاركة يجب أن تكون في مجرى القرن التاسع الموافق لولاية الأمير سمعان الذي خلف سمعان الأول معاصر يوحنا مارون، وليس غريغوريوس الحالاتي الذي جاء في المرتبة الثالثة عشرة وحوالي النصف الثاني من القرن العاشر، أي بعد الأمير سمعان بزمن طويل. وفي عهد هذا البطريرك تمّ الصلح بين العباسيّين العرب والروم في عهد هارون الرشيد، وعمّ الأمن والاستقرار الشرق بكامله.

● ٧ ـ البطريرك السابع اسطفانوس (؟)

هنا يجب عدم الخلط بين اسطفانوس، البطريرك اليعقوبي الذي اختير في

اواسط القرن الثامن " بشغور الكرسي الانطاكي بسبب منع العرب لفترة طويلة إقامة بطريرك إنطاكي جديد، ثم رخّصوا للنصارى بذلك، فاختاروا اسطفانوس (اليعقوبي)... فلم ترضَ به روما، ولذا لم يكن بطريركاً عاماً (وقد ذكرنا ذلك سابقا نقلاً عن الدبس)... ولم يمضِ زمن طويل حتى عمّ انفصال الروم في المشرق (عام ٨٦٩) عن الكنيسة الانطاكية". اما البطريرك اسطفانوس الماروني، فقد جاء بعد ذلك بحوالي القرن، وهو كغيره من بطاركة الموارنة الذين لم يعرف عنهم المؤرخون سوى كونهم من عداد بطاركة يانوح لذكرهم في سلاسل بطريركية قديمة العهد.

● ٨ ـ البطريرك الثامن مرقس (؟)

والبطريرك الثامن مرقس، خليفة اسطفانوس، هو الآخر، من بطاركة تلك الفترة الغامضة، ولم يصلنا عنه، إلاّ ذكر إسمه في عداد بطاركة الموارنة.

● ٩ ـ البطريرك التاسع اوسابيوس أو حوشب (؟)

أطلق عليه العلاّمة السمعاني إسم "حوشب". وذكر الخوراسقف داغر أن البطريرك الانطاكي فوتيوس تغلّب في عهده على إغناطيوس بطريرك القسطنطينية(١٩). وهذا يفيد أنه عاش في اواخر القرن التاسع، إبان الصراع النسطوري الارثوذكسي الذي انتهى بانفصال الكاثوليك عن الأرثوذكس.

● ١٠ ـ البطريرك العاشر يوحنا الرابع (؟)

في عهده تمّ عقد المجمع القسطنطيني الذي لم يحضره بطاركة الشرق شخصياً، بل اكتفوا بايفاد ممثلين عنهم بسبب تشديد العرب على مسيحيّي الشرق لقطع صلاتهم بالغرب المسيحي. وهذا ما ادّى في النهاية الى قيام كنيسة ارثوذكسية شرقية منفصلة عن الكنيسة المسيحية الرومانية.

● ١١ ـ البطريرك الحادي عشر يشوع الأول (؟)

هو احد البطاركة الاربعة عشر الذين خلفوا البطاركة الموارنة الخمسة الاوائل، ولم يذكروا في سلسلة البطاركة الانطاكيين العائدة للنساطرة واليعاقبة. في حين ذكروا كبطاركة إنطاكيين، مما يؤكد أنهم موارنة، لا سيما وقد وردت أسماؤهم

في كتاب خدمة القدّاس الماروني الذي أشار إليه الدويهي. وفي حين ذكرت نسخة داود بن إبراهيم البطاركة الخمسة الأوائل، لم تذكر البطاركة الاربعة عشرة الذين خلفوهم. كما أنه لا ذكر في هذه اللوائح أيضا للبطريرك توافانوس الذي ورد اسمه في المجمع المسكوني السادس. وعدم ذكر هؤلاء البطاركة في لوائح النساطرة واليعاقبة واللاتين، لا ينفي وجودهم، إنما على العكس من ذلك، يؤكد أنهم كانوا من بطاركة الموارنة الانطاكيين الذين لم يردوا إلا في سلاسل بطريركية مارونية، كما لم يرد أي من النساطرة أو اللاتين في لوائح اليعاقبة والموارنة، والعكس صحيح أيضاً.

اما المؤرخ اليعقوبي ديونيسيوس التلمحري المولود في النصف الثاني من القرن الثامن في "تلفري" على الفرات، والذي أصبح بطريركاً لليعاقبة سنة ٨١٨، وتوفي سنة ٨٤٥، وتاريخه هو جزء من تاريخ إبن العبري، ويبدأ من العام ٥٨٢ الى العام ٨٤٥، فقد ذكر هؤلاء البطاركة الموارنة، كما أشار، نقلاً عنه، بطريرك السريان الكاثوليك رحماني، ولم يأت على ذكر ذلك البطريرك الدويهي والمطران الدبس. وقد طبع و نشر تاريخ التلمحري المستشرق الفرنسي شابو في باريس. كما وجد الاسقف جرجس حبقوق في العاقورة مخطوطة تتحدث عن هؤلاء البطاركة، وعنها أخذ الدويهي، وعن نسخة داود بن ابراهيم معلوماته حول البطاركة الموارنة. والأب نو (Nau) الذي ذكر هؤلاء البطاركة، كان قد اكتشف مخطوطاً في المتحف البريطاني يحمل الرقم ١٧٦٩ اشتراه أحد رهبان دير مار مارون الكبير لمكتبة الدير سنة ٧٤٥. وقد وجد العلامة رايت (Reight) كتابة مخطوطة على صفحات هذا المخطوط تعود الى ما بين القرن التاسع والعاشر، تصف أحوال الموارنة وبطاركتهم في تلك الآونة. وقد تمّ طبع هذا المخطوط ونشره في باريس عام ١٩٠٠ من قبل العالم نو المذكور.

وقد توقّف مؤرخو الموارنة طويلاً عند إسم "يشوع" معتقدين أنه يهودي، باعتبار أن هذه التسمية خاصة باليهود، لا سيما أن المسيحيين كانوا قد تركوها، واعتمدوا بدلاً عنها عيسى، كي لا يصير التباس بين عيسى بن مريم، ويشوع بن نون. ولمّا لم يجدوا إسم البطريرك يشوع في عداد بطاركة النساطرة واليعاقبة واللاتين، فقد تأكّد انذاك كونه مارونياً.

● ١٢ ـ البطريرك الثاني عشر داود الأول (؟)

لما كان الشعب الماروني الذي استقلّ بحدوده، داخل الخلافة العربية، بحاجة الى قوى عسكرية تحمي هذه المعاقل، ولا سيما القيادة الروحية المتمثّلة بالبطريرك الماروني، في منطقة لا تريد للموارنة، ولا لبطاركتهم الاستقلالية ولا لوطنهم الوجود، فقد لجأ هذا الشعب الى نظام فريد من نوعه، فوزّع ألقاب المقدّمين على وجهاء القرى، والابطال المقدامين من مواطنيهم، وأسند إليهم قيادة البلاد وحمايتها من الطامعين بها، بعدما قسمت الى منطقتين: ساحلية برعاية ملوك او امراء جبيل، وجبلية بقيادة امراء أو مقدّمي بسكنتا المناط بهم حماية الجبل وسهل البقاع؛ وكان لحكام إمارة الجبل والبقاع مواقف مشرّفة، إذ كانوا ينطلقون من مناطقهم في حملات لردع حكام العرب، كلما اعتدوا على مناطقهم، وحلفائهم التنوخيين المرابطين في جهات بيروت كلما تحرّشوا بقراهم المتاخمة لمنطقتهم. وكان لكل بلدة او مدينة، مقدّم أو أكثر، يتقدّم صفوف قومه في الصلاة وفي المعارك، ويرعى مصالحهم لدى الأمير الحاكم. والبطريرك "هو سيّد"، أو "مقدّم المقدّمين"، وصاحب القرار الفصل في الامور الهامة والمصيرية، بحيث يسقط فوراً كلّ مقدّم أو أمير، مهما علا شأنه إذا وقع عليه حُرْم البطريرك، كما حدث لمقدّم العاقورة عنتر الذي طمع بحصص رفاقه في معاد بعد المعركة التي جرت بين الموارنة وجيش المماليك بين المدفون والفيدار، ومقدّم بشري سالم الذي عزل بسبب مساندته لليعاقبة وإسكانهم في جبّة بشري، وغيرهما. وكنّا قد أشرنا سابقاً الى الرتب الدينية التي كان يمنحها البطريرك للوجهاء والمقدّمين كي يربطهم بالقيادة الروحية فيكسبهم بذلك مزيداً من السلطة والانضباط تحت سلطانه في آن واحد. ومن هذه الرتب "الشاهور" او "الكاشف"، أي المراقب الذي يقف بجانب المذبح لحماية الكهنة والأساقفة والمصلين. وهذه الرتبة مأخوذة عن البيزنطيين الذين استعملوا الرقيب المكلّف بحراسة الملك(٢٠). ثمّ تحولّت هذه الرتبة لاحقاً الى رتبة كنيسة تعرف بـ "الشدياق". وكان الشدياق يعيّن من قبل البطريرك ليكون "عين البطريرك وأذنه". وأهم الشدايقة: الشدياق يعقوب مؤسس اسرة مقدّمي جبة بشري من بني يعقوب، والذي تولّى مقدّمية بشري واولاده وأحفاده من بعده، من العام ١٤٠٤ حتى اواخر القرن السادس عشر، وإليه

لاذ البطاركة، وبه احتموا، وأقاموا منذ دخول المماليك الى هذه البلاد حتى خروجهم منها، في وادي قنّوبين في جبّة بشري، بعدما كانوا يقيمون قبل هذا الدخول في جبة المنيطرة والبترون. وكثيراً ما أعطي لقب الشدياق للمقدّمين لضمان خضوعهم للبطريرك، رأس الطائفة المارونية، وسيّدها المطلق الصلاحية.

٣ ـ إسكان العرب والفرس في لبنان ونشوء الدويلات فيه

إسكان القبائل الغريبة في لبنان

رأى العرب، ولا سيما معاوية، في عهد الخلافة الاموية، أن خير وسيلة لكبح جماح الموارنة، وزعزعة سيطرتهم على الجبل اللبناني، هي إسكان قبائل إسلامية من خارج البلاد في المدن والقرى المتاخمة لجبل لبنان، فأوعز الى قبائل فارسية للسكن في بعلبك والمدن الساحلية. ثم اتبعها العباسيون، لا سيما جعفر المنصور، بقبائل اخرى عربية اسكنها في جهات بيروت والجبال المشرفة عليها، وبينها اكراد وقبائل تنوخية وبحترية. ثم تبعهم الشهابيون في وادي التيم، والمعنيون في الشوف، وذلك من أجل منع التواصل بين موارنة الشمال، وموارنة الجنوب. ويعود نسب التنوخيين الى "تنوخ بن قحطان بن عوف بن كنده بن جندب بن مزحج بن سعد بن طي بن تميم بن النعمان بن المنذر ملك الحيرة المعروف بابن السماء اللخمي"[١]. وكان هؤلاء الامراء من العرب المتنصّرة الذين ساعدوا الجيوش العربية في فتوحاتها، ولا سيما في فتح الشام. وقد اعتنقوا الاسلام بناء لرغبة القائد خالد بن الوليد. وفي عهد هارون الرشيد طُلب اليهم "حضّ الناس للسكن في طول البلاد وعرضها، وشدّ أزر قوة امرائها على أهل العاصية (كسروان المارونية)"، كما جاء في الامر الموجّه من هارون الرشيد إلى ثابت نصر الخزاعي امير الثغور الشامية[٢].

وقد أشار الى استيطان الغرباء في لبنان، القنصل الفرنسي ريستلهوبر

(Reistelhubert) في كتابه "تقاليد فرنسا في لبنان" حيث قال: "وافى الى لبنان الفرس، ومن سلالتهم المتاولة، فأسكنهم الامويون ساحل البحر المتوسط. ثم جاء التنوخيون المسلمون وحلّوا بين بيروت وصيدا، وكانوا مثل طليعة لجيش المسلمين. ثم غادرت الى شمال لبنان فرقة شيعية، هي النصيرية، فناجزها الموارنة القتال، وقذفوا بها الى جبال سوريا الشمالية فسُمّيت باسمهم. وأخيراً أتى الدروز وكثر عددهم في الجبل" (٣). أما الموارنة فقد آثروا السكن في بطون الاودية وسفوح الجبال العاصية حفاظاً على أمتهم وسلامتهم، وابتعدوا عن المدن. وبدل صور وصيدا وبيروت وطرابلس، اختاروا كفرحي ويانوح والعاقورة وهابيل ووادي ايليج، ووادي قنوبين وغيرها. وفي الوقت الذي كان فيه سكان سوريا بحدود "الأربعة ملايين"، على حدّ ما ذكر الفرنسي كاللو (Callot) سنة ٧٢٢، كان "عدد المسلمين مئتي ألف (والباقي موارنة ويعاقبة ونساطرة مسيحيين)، واللغة المستعملة هي السريانية" (٤).

وهكذا يتّضح لنا أنه عند دخول العرب الى البلاد الشامية، كانت أكثرية سكان البلاد من المسيحيين. و"لم يحدث التمييز بين المسلمين وغير المسلمين، على حدّ قول الاستاذ المؤرخ جواد بولس، إلاّ في العهد العباسي"، حسبما ورد في مجلة "الفصول" عام ١٩٨٠ عدد ٢ صفحة ٨. وقد حدث هذا التمييز الطائفي الذي أدّى الى اضطهاد المسيحيين، واعتبارهم مواطنين ذمّيين من درجة دنيا، في المجتمع العربي خاصةً، في عهد الخليفة المتوكّل، والخليفة عمر بن عبد العزيز من قبل، في أيام الامويين، وهو واضع "الشروط العمرية" الشهيرة التي تحدّثنا عنها سابقاً. والخليفة المتوكل، كما أشار الاستاذ جواد بولس، أمر في عهده (٨٤٧ ـ ٨٦١) بتهديم الكنائس وفرض على المسيحيين لباساً مهّيناً، فارتدّ قسم كبير منهم الى الاسلام.

الدروز واسرهم

وفي جملة الذين لبّوا دعوة العباسيين للسكن في لبنان، بالاضافة الى التنوخيين والبحتريين وبني ارسلان، المعنيون في العام ١١٢٠، وقد تحوّلوا الى الطائفة الدرزية على يد نشتكين الدرزي والسيد حمزه بن علي بعد صدور دعوة

الحاكم بامر الله الفاطمي للدين الجديد في مصر عام ١٠١٠، وتكليف الدرزي وحمزه تعميم هذا الدين على الدول الاسلامية، ولا سيما الشيعة. وقد عمّ هذا المذهب القبائل التنوخية بعد انتصار الامير بحتر على الصليبيين في معركة رأس التينة على ضفاف نهر الغدير، طردهم من بيروت بالاشتراك مع القائد الدرزي زهر الدولة التنوخي، فكافأ السلطان نور الدين زنكي هذا القائد بمنحه القرى التالية: كفرعميه، مجدل البعنا، شارون، معاصر الدامور، صيدا، وادي التيم، ظهر الأحمر، جلبايا، القنيطرة، سنة ١١٥٢ (٥).

وعندما دخل المماليك الى جبل لبنان، و"غزا الظاهر برقوق بلاد جبيل وكسروان سنة ١٢٤٤، وانتقم من الموارنة لأنهم ساعدوا الصليبيين، التجأ هؤلاء الى بلاد الشوف التي لم يكن بها موارنة، والقول للأمير حيدر شهاب في "الغرر الحسان"، فوجدوا من الدروز كل عطف وحماية. ثم زادت مهاجرتهم حيثما اشتد ضغط متاولة الشمال عليهم" (٦). وقد شجّع الهجرة المسيحية والمارونية هذه، الامراء المعنيون، الذين دخلوا الى الشوف في العام ١١٢٠ واصبحوا امراءه وقادة البلاد. وابرزهم الأمير فخر الدين الثاني الكبير (١٥٩٨ ـ ١٦٣٥) الذي وحّد الجبل اللبناني، ومعظم مدن الساحل والبقاع والجنوب والشمال تحت امرته، ومدّ حدوده الى جهات حلب شمالاً والقدس جنوباً، فاستحق من العثمانيين لقب "أمير عربستان"، فرفض هذا اللقب وفضّل عليه لقبه المعروف "بأمير لبنان والشطوط البحرية". ومن اشهر الاسر الدرزية التي استوطنت الشوف وجبل الدروز، وصولاً الى حوران في سوريا مشايخ بني جنبلاط، وعبد الملك، وتلحوق، العماد، القاضي، وتقي الدين، ونكد، وعلم الدين، وابي اللمع الذين تحولّوا الى النصرانية لاحقاً، وامراء من بني ارسلان، وغيرهم. وقد انقسم الدروز الى حزبين جنبلاطي، ويزبكي. وبعد المعنيين الدروز، تولّى الحكم في جبل لبنان من القبائل الغربية التي اسكنت لبنان، الشهابيون السنّة. وكان المعنيون والشهابيون، خلافاً لما خطط له العرب الذين أسكنوهم، أكثر اللبنانيين عملاً لاستقلال لبنان، وسيادته، وتوحيد أرضه، وتوسيع رقعته.

ومع وصول بني بويه الشيعة إلى الحكم في العراق وإيران سنة ٩٤٥، بعد غيبة الامام الثاني عشر (المهدي)، وانتظار عودته، نظمّ الفقهاء من أشياع علي بن أبي طالب المعروفين بالشيعة الإثني عشرية، شؤون الجماعات الشيعية في ايران، وأعطوا كبيرهم لقب "القاضي" او "المجتهد"، وسلطة الافتاء، والتصرّف بالاملاك وبالأرواح التي لا يملكها إلاّ الامام باعتباره "السلطان العادل"، وجعلوه الاول بالسلطة الزمنية والدينية باعتبار أن الفقيه هو من "أولي الأمر"، وهو الوحيد القادر على فرض السلطان بقوة. وعلى هذا الأساس أُعلنت الجمهورية الاسلامية الايرانية بقيادة الامام الخميني الذي أمسك بقوة بزمام السلطة، وقضى على امبراطورية فارسية عمرها زهاء ألفين وخمسماية عام، وكانت أعرق الامبراطوريات في العالم. ورغم الصراعات الداخلية فيها، لا تزال تصدّر الفكر الاسلامي الاصولي إلى الخارج.

وقد تمركز الشيعة في جبل عامل من الجنوب اللبناني المعروف ببلاد بشاره، ولا يزالون فيه إلى اليوم، ويشكلّون أكثرية السكان، إلى جانب أقليات شيعية توزّعت في جبل لبنان، ولا سيما في بلاد جبيل والشمال والقسم الأكبر من الشيعة، بعد الجنوب، تمركزوا في البقاع ولا سيما في منطقتي بعلبك والهرمل. ويشكّل الشيعة اليوم، بعدما تضاعفت أعدادهم، الطائفة الأكثر عدداً في البلاد. وقد هجر معظمهم قرى الجنوب بسبب الاعتداءات الاسرائيلية، والنشاط الفدائي، إلى ضواحي بيروت حيث شكّلوا "حزام البؤس" الذي أدّى إلى قيام "حركة المحرومين"، وساهم مع الوجود الفلسطيني المسلّح في لبنان بقيام الحروب الأهلية الأخيرة في العام ١٩٧٥. وقد انضمّ إلى هؤلاء الشيعة، نازحون أيضاً من ايران في مطلع عهد العثمانيين، وهم بنو حماده الذين تولّوا جباية الضرائب، واستولوا على مقاطعات كثيرة في الشمال، ولا سيما في كسروان وبلاد جبيل والبترون وجبة وبشري والضنيّه. وقد تولّى إخراجهم من الجبل الامير يوسف شهاب بقيادة الشيخين سعد الخوري وسمعان البيطار المارونيّين في نحو العام ١٧٧٠. ومن أبرز الأسر التي حكمت بلاد بشاره في الجنوب بنو عامله فانتسبت البلاد اليهم، وسُميّت جبل عامل، ومنهم بنو

سودون، وشكر، وعلي الصغير، ومشطاح، بقيادة الحكومة الوائلية، واشتهر منهم علي الصغير، ومشرف البطل، وناصيف نصّار، ومحمد هرموش، وحمد البك، وآل الاسعد وأبرزهم: محمد بك الاسعد، وكامل بك الاسعد، وغيرهما. وبعض هؤلاء الشيعة كانوا قد تحوّلوا إلى دروز كما أسلفنا في عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي، ولا سيما من كان يعيش منهم في الشوف والمتن وعاليه والبقاع وحوران وجبل الدروز.

القبائل السُنّية

اما القبائل السنيّة، فكانت قد بدأت الدخول إلى لبنان من الجزيرة العربية منذ العصر الجاهلي. وبعد قيام الخلافة الاموية في الشام، دخلت لبنان عشائر من عرب الشمال حاملةً معها الحزبية القيسية، وقبائل اخرى من عرب الجنوب حاملةً معها حزبيتها اليمينية. وكان معظم هؤلاء على "سُنّة الرسول" التي جمعها عثمان بن عفّان في مصحفه. وكثرت المذاهب نتيجةً للتفسيرات والتوضيحات التي أعطيت لهذه المصاحف وشروحات العلماء أمثال الحنبلية والحنفية نسبةً إلى الحنفي والحنبلي وغيرهما من فلاسفة العرب وفقهائها. وقد استوطنت هذه الفئات المدن الساحلية والسهول، لا سيما طرابلس وعكار وبيروت وصيدا، وبعض أنحاء من الجنوب والجبل والبقاع. ولكنها لم تتوغّل في الجبال اللبنانية التي تقاسمها الدروز والمسيحيون والشيعة، ذلك لأن العرب معتادون على سكنى السهول والصحارى ويخشون سكنى الجبال التي لم يعتادوا على ارتيادها. والملفت للنظر أن الموارنة قد تجاوروا والسنّة والشيعة والدروز في قرىً واحدة، في حين لم يجاور السُنّة أيّ من الطوائف الاسلامية الاخرى. وفي الوقت الذي والى فيه السُنّة معاوية بن أبي سفيان الخليفة الاموي الأول، والى الشيعة منافسه على الحكم علي بن أبي طالب الذي قُتل ولداه الحسن والحسين في الصراع على الحكم بين الرجلين اللذين أدّى اختلافهما إلى انشقاق السُنّة، وقيام الشيعة العلويين، واخوان الصفا والاسماعيليين الموالين لعلي بن أبي طالب وغيرهم...

الاسر المسيحية ومناطق سكنها

ويمقابل الاسر والقبائل السنيّة والشيعية والدرزية، قامت أُسر مسيحية كانت تشكّل منذ القرون الاولى للمسيحية معظم سكان لبنان، بالانتشار في جبال لبنان، واكثريتها الساحقة من الطائفة المارونية التي استوطنت المناطق الواقعة بين دريب عكار شمالاً وجزين في الجنوب. اما الأسر الارثوذكسية المسيحية فقد تجمّعت أكثريتها في منطقة الكورة، والأشرفية، وحاصبيا، والمتن. فيما الروم الكاثوليك تجمّعوا في زحله وجوارها وصولاً إلى البقاع الغربي وجهات صيدا. هذا إلى جانب أقليات يهودية وسريانية لا تتعدى الواحد بالمئة من السكان انتشرت في بيروت والبقاع. وفي لبنان جاليات الأرمن المسيحية التي بدأت بالنزوح من أرمينيا وتركيا بعد الحرب العالمية الاولى نتيجةً لاضطهاد الحكم التركي لها، وهي تشكّل نحو مئة ألف مواطن اختاروا لسكناهم برج حمود في بيروت ومناطق المتن وعنجر وجوارها في البقاع. وقلّما نجد قرية لبنانية لا تضمّ بعض الاسر المسيحية، من الشمال إلى الجنوب، فالبقاع، وكافة المدن الساحلية.

صلاحيات المقدّم والكاشف والشدياق والرقيب

اختار الموارنة قادةً لهم المقدّمين والشدايقة والكاشفين، والمشايخ، والرقباء، وفوضّوهم في بداية قيام الوطن الماروني، منذ البطريرك الاول يوحنا مارون، إلى قيام الامارة اللبنانية في عهد المعنيين، الصلاحيات التالية، نوردها نقلاً عن زجلية إبن القلاعي:

١ـ استعمال السيف والسلطة لخدمة الايمان.

٢ـ حفظ البلاد من أي تأثير واختلاط يضرّان بالايمان الماروني الكاثوليكي.

٣ـ إجراء الفحص او الكشف على الكهنة والرهبان من حيث سلامة العقيدة والاخلاق.

٤ـ معاقبة الهراطقة الخارجين على الايمان القويم.

٥ـ تأديب الخاطئ والصديق بدون محاباة إذا زاغ عن الايمان.

وكان لقب المقدّم، كما أشرنا مراراً، في البداية "الكاشف" او "الرقيب" الذي يعطى درجة الشدياقية ليصبح من عداد رجال الدين الخاضعين لسلطة البطريرك. وقد ورد في زجلية ابن القلاعي الابيات التالية التي تشير الى هذه الامور:

وأقـــامـــوا مـــقـــدّم في بشـــرّي | علـى الـديـاري والـنـهـــــــــري
ضـــدّ الطغـــيـــان والمصـــري | يقـــيـم حـــرّاس ويكون ســـهـــران
حـــــاكم بدبّوس دنيـــــاني | وبعـــصـــاة شـــدياق روحـــاني
طـايـع الاســـــقف وسلـطـانـه | بشـــرف الكنيـــســـة والايمان...
اقـــتـــبل منهم إسم الكاشف | وســـيف العـــزّ عليـــه حـــالف
وفـي حـــيـــاته ليس خـــالف | ولا انجـهـر على إيامـه طغـيـان... (٧)

● ١٣ـ البطريرك الثالث عشر غريغوريوس الثاني(؟)

لقد ورد ذكر بطريرك يحمل إسم غريغوريوس في سلسلة البطاركة، كغيره من البطاركة دون أي إشارة اخرى توضح شهرته او سنة ولايته، ما حمل بعض المؤرخين على الاعتقاد أنه غريغوريوس الحالاتي الذي توّج الأب سمعان (٨). اما السلسلة التي تناقلها المؤرخون فقد اعطت البطريرك السادس والعشرين الحامل إسم غريغوريوس إسم غريغوريوس الحالاتي (١١٣٠ ـ ١١٤١). وهذا البطريرك، وربما الاصح سلفه غريغوريوس الأول هو الذي توّج الامير سمعان، إلاّ إذا كان المقصود بالأمير سمعان، هو سمعان آخر أتى بعد سمعان الاول. والغريب ان الدويهي الذي نشر له "تاريخ الطائفة المارونية" المعلم رشيد الشرتوني سنة ١٨٩٠ في الصفحة ٩٩ يشير نقلاً عن إبن القلاعي إلى تتويج الأمير سمعان على يد غريغوريوس الحالاتي الذي كان بطريركاً في القرن الثاني عشر. في حين أن الاب بطرس ضو في حاشية كتابه الجزء الثالث من "تاريخ الموارنة" صفحة ٢٥٤ ـ يعتبر أن الحوادث التي وصفها إبن القلاعي، عائدة للقرن الثامن فلا بُدَّ إذن أن يكون

البطريركي المقصود هو غير البطريرك الحالاتي.

البطريرك وتتويج الأمير سمعان

وتقول الرواية التي نقلها الدويهي عن ابن القلاعي انه "انطلق المقدّم سمعان ليزور يوسف امير مدينة جبيل، فلاقاه السيد البطريرك غريغوريوس بالقرب من المدينة ودعاه إلى ضيافته. وبعد تمام الوليمة، سار معه إلى المدينة فخرج الأمير وسار معه إلى المدينة (وهنا دلالة على أن مدينة البطريرك كانت قريبة من جبيل، مما استدعى الاعتقاد بأنها حالات وبالتالي البطريرك المقصود هو غريغوريوس الحالاتي)، فخرج الأمير (المقصود يوسف، ونلاحظ هنا تسميته حيناً بالملك وحيناً بالأمير) في خارج السور. وبعد أن قدّم واجب الاحترام للسيد البطريرك عانق سمعان. وسار الكل ماشين إلى دار الأمير. ثم أرسلوا فجمعوا أساقفة البلاد من عكار إلى حدود الشوف، وكان عددهم نحو اربعين أُسقفاً. وثبّتوا سمعان اميراً على العاصية المسمّاة اليوم كسروان، وحدودها من نهر بيروت إلى نهر ابراهيم. فباركوه، ودعوا له وانصرفوا. ثم إن أمير جبيل وهب الأمير سمعان عدةً من الخيل والجمال فودّعه الأمير سمعان..." (٩).

ونحن نرى أن البطريرك المقصود هو غريغوريوس الأول، وليس الحالاتي، لأن الامير يوسف قد حكم في بداية دخول العرب إلى لبنان، حسبما أشار معظم المؤرخين، إلاّ إذا كان هناك امير آخر باسم يوسف حكم جبيل في القرن الثاني عشر، وعاصر البطريرك الحالاتي.

الصراع على الحكم ونشوء الدويلات

وفي اواخر العصر العباسي، قبيل دخول الصليبيين إلى هذه البلاد، دخلت الدولة العباسية في عصر الانحطاط، وذوى العصر العربي الذهبي الذي كان في ايام هارون الرشيد وابنه المأمون. واخذت العشائر الاسلامية الآتية من آسيا الصغرى، وبلاد ايران خاصةً، من التركمان والاكراد، وهي في الاساس دخلت مرتزقة إلى صفوف الجيش العربي، ثم ما لبثت أن اغتنمت فرصة ضعف الدولة العباسية، وانغماس خلفائها بالتهتّك، فاستقلّت بمقاطعات عدة من المنطقة الواسعة

التي سيطر عليها العباسيون؛ فقام الفاطميون بحكم مصر، والسلاجقة الايوبيون بحكم الشام وبلاد ما بين النهرين، وغيرها من البلدان. وعاشت الارثوذكسية، هي نفسها، في هذه المناطق الخاضعة للعرب وللمرتزقة من المسلمين، إنقسامات شديدة أيضاً في صفوفها، بفعل البدع والمذاهب التي شغلت واغرقت بطاركتها وأساقفتها وشعوب المنطقة المسيحية، في مجادلات لاهوتية عقيمة أدّت إلى انقسام حاد بين كاثوليك وارثوذكسيين ويعاقبة. ولا يمكن وضع هذا الصراع، في خانة الخلاف الديني الصرف، بل هو في الحقيقة صراع بين الكنائس، وأحياناً بين الأساقفة على السلطة والنفوذ ممّا ادى بالنتيجة إلى فرز كنيستين، إحداهما شرقية ارثوذكسية تتمثّل بالحضارة والطقوس اليونانية، واخرى كاثوليكية شرقية متمسكّة بالحضارة الغربية والطقوس الكاثوليكية مع المحافظة على اللغة السريانية باعتبارها تمثّل تراثاً أصيلاً رفضت التخلي عنه واتبّاع الطقس اللاتيني الغربي، لتُبقي على شرقيتها وحضارتها الانطاكية التراثية باعتبارها القيّمة على هذه البطريركية منذ دخول العرب إلى هذه المنطقة. وفي حين تزعّم الفريق الأول اليعاقبة، تزعّم الموارنة الفريق الثاني. وقد ساهمت الحضارة الهلّينية التي هي مزيج من اليونانية والفينيقية في تزكية هذا الصراع واعطائه بعداً فلسفياً ولاهوتياً، اخفى أغراضه السلطوية الحقيقية. وقد أبرز تلك المحاورات والمواقف المتناقضة كتّاب الموارنة في الرسائل المتبادلة التي دارت بين اليعاقبة والموارنة، والتي نقلها مرهج بين نيرون الباني الماروني، وقيس الماروني، والأب نو الذي اكتشف مخطوط لندن، ومعظم المستشرقين الذين كتبوا عن هذه المرحلة. ومن أهمّ الموارنة الذين برزوا في تلك المرحلة وما بعدها، عدا من ذكرنا: تيوفيل الرّهاوي، وقيس الماروني ومرهج بن نمرون الباني وغيرهم.

١. العلاّمة الماروني تيوفيل الرّهاوي

تناول أبو الفرج المعروف بابن العبري في كتابه "تاريخ الدول" للعام ١٦٥ للهجرة، سيرة العلاّمة الماروني تيوفيل، أو ثيوفيلكتس الرّهاوي (يظهر أنه من الرُها في شمالي سوريا) الذي عاش في نهاية القرن الثامن في البلاط العباسي كمستشار خاص، ومنجّم للخليفة المهدي. ويعتبر الرهاوي من مشاهير علماء الفلك،

وعنه نقل السمعاني خبر اشتهار الرهاوي، العالم في العام ٧٧٠ مسيحية، الذي "كان على مذهب الموارنة الذين في جبل لبنان، من مذاهب النصارى... ولو صحّ زعم تيمتاوس القس القسطنطيني، أو ما كتب باسمه في نسخة كمبيفيسيوس، أن الموارنة ينبذون المجامع الرابع والخامس والسادس (أي كل المجامع المعترفة بطبيعتي المسيح)، فلو صحّ هذا الزعم، يقول السمعاني، ما ميّزهم قطّ أبو الفرج عن اليعاقبة، ولا جعلهم فرقة مستقلة عمّن سواهم من النصارى" (١٠). كما ذكر ابن العبري توافيلس الرّهاوي في كتابه السرياني المطبوع في باريس صفحة ١٢٧ بقوله: "قد اشتهر في هذا الزمان (أي زمان الخليفة المهدي) توفيلس بن توما الرّهاوي المنجّم الماهر الذي كان سابقاً لبدعة الموارنة، وله في التاريخ كتاب نفيس في السريانية، وأنْ طعن فيه على مستقيمي الايمان (الارثوذكس) وقرّعهم". و"مستقيمي الايمان" بنظر إبن العبري، كما هو معروف، هم اليعاقبة المعروفون بتأييدهم نظرية المونوتولية(١١). وقد توفي الرّهاوي سنة ٧٨٥، كما أشار السمعاني، مخلّفاً عدداً كبيراً من المؤلّفات السريانية المأخوذة عن اللغة اليونانية التي اعتمدها بعده كتّاب السريان إلاّ النساطرة.

إتهام الموارنة بالمونوتولية

وقد حرّف أصحاب البدع المسيحية المونوتولية كتب الموارنة، ولا سيما ما جاء على لسان مار مارون من تعاليم، ونسبوا إليهم معتقدات لم يعترفوا بها أبداً، بل عارضوها بشدّة، حتى أنهم، والقول للمطران الدبس، قد اسندوا إلى القديس يوحنا الدمشقي حشره كلمة "مارونيا" في نقده للقائلين بعبارة "يا من صليت لأجلنا"، وهي تهمة ألصقها بطرس القصار اليعقوبي بهم. وقد ردّ على هذه التهم المستشرق الأب نو (Nau) واظهر براءة الموارنة، وأثبت أن لفظة "مارونيا" تدلّ على قرية يعقوبية وليس على الموارنة (١٢). ويضيف المطران دبس أن العرب والروم والسريان في أيام القديس يوحنا الدمشقي "لم يكونوا يسمّون الموارنة موارنة، بل مردة، كما سمّاهم توافان، وشدرانس وزوناراس وغيرهم". كما حقق السمعاني في كتابه "الناموس"، وأكّد أن أحد خصوم الموارنة بدّل حرف الباء من كلمة "بارونيرمن" (أي نصنع كبطرس القصار اليعقوبي)،بحرف الميم، فصارت "مارونيرمن" (أي نصنع كالموارنة)،

لأن بطرس القصّار هذا، كان يزعم أن الثالوث الأقدس صلُب بجملته (أي الآب والابن والروح القدس، وليس الابن وحده)، وهذا ما جعله يُحرم ويُحَطّ عن كرسي البطريركية، والموارنة براء منه، ومن هذا القول الذي يُنسب إليهم (١٣). وقد عاد لكويان في كتابه "المشرق المسيحي" عن اعتماد ما قاله أعداء الموارنة بخصوص عقيدة التثليثات المذكورة، وأشار في نهاية سلسلة بطاركة الموارنة التي نظمّها، من البطريرك يوحنا مارون الأول إلى البطريرك يوسف ضرغام الخازن، إلى أنهم جميعاً كانوا كاثوليكيين، ولم "يقل في أيّ أحد منهم أنه ضلّ الايمان" (١٤).

٢ـ قيس الماروني

ذكر المؤرخ المسعودي المعروف في كتابه "التنبيه والاشراف" الصادر عام ١٨٩٤ أنه "لقيس الماروني كتاب حسنٌ في التاريخ، وابتداء الخليقة، والأنبياء، والكتب، والمدن، والامم، وملوك الروم وغيرهم، واخبارهم، وانتهى بتصنيفه إلى خلافة المكتفي. ولم أرَ للمارونية في هذا المعنى كتاباً مؤلّفاً غيره". وقد عاش قيس الماروني حتى اواخر القرن التاسع واوائل العاشر. وقد أتى على ذكره العلاّمة نو، واستشهد بمخطوط له باللغة السريانية من خمسة عشر صفحة وجده مسجلاً في لندن، كما أشرنا سابقاً، تحت رقم ١٧٢١٦ مخطوطات، ونشره عام ١٨٩٩ في باريس ضمن مجموعة من "الكتيّبات المارونية". ويعتقد المطران الدبس أن ما نشره الأب نو، هو "مقتطفات من هذا التاريخ، وليس الكتاب بكامله". اما المؤرخ رايت (Reight) ، فقد أشار إلى أن هذا الكتاب المنسوب إلى قيس الماروني في المتحف البريطاني، يدلّ على أن صاحبه أحد النسّاك او الرهبان الموارنة بسبب كثرة ما ذكره من الأديار والمناسك.

وهكذا أخذت تظهر في المجتمع الماروني بشائر نهضةٌ علمية وحضارية ستنمو مع الأيام، ليصبح لبنان بفضلها، منارة الشرق، كما سنرى في الجزء الثاني من دراستنا.

الهوامش

الفصل الاول

١ـ لبنان مهد الأساطير

(١) التوراة: الان شيد فصل ٣ عدد ٨

(٢) المزامير ١٠٣ عدد ١٦ ـ وحزقيال فصل ١٧ عدد ٣

(٣) الأب مارتين اليسوعي "تاريخ لبنان" ترجمة الشرتوني سنة ١٨٩٠ ـ دار مارون عبود صفحة ٨ نقلاً عن سفر التكوين.

(٤) مرجع سابق.

(٥) مرجع سابق نقلاً عن كوارزم... في (Cluarizmimus "Elucid, slib VII. c 3")

(٦) كوارزم مرجع سابق.

(٧) الأب مارتين ـ مرجع سابق ـ صفحة (٢) المرجع السابق صفحة ١٣٨.

(٨) دينان "بيبلوس" المقدّمة لكتابة: Dunand "Byblos son histoire" Sidon 1924 "Byblos ses ruines, ses légendes" Paris 1964.

(٩) Jean Mazelle "Avec les Phéniciens" Paris 1968 p. 44.

(١٠) الأب مارتين اليسوعي ـ مرجع سابق ـ صفحة ١٧٨ نقلاً عن كتّاب اليونان.

(١١) الأب مارثان او مرثينوس اليسوعي ـ مرجع سابق صفحة ١٨٠.

(١٢) مرجع سابق صفحة ١٨٢ نقلاً عن هوميروس.

(١٣) الأب اميل إده في "جبيل مهد الابجدية" صفحة ٦٩ و١٠٨ نقلاً عن فان برندن في مجلة Melto العدد الثاني سنة ١٩٦٨.

(١٤) سفر العدد فصل ١٣ عدد ٢٣.

(١٥) لانرمان "التاريخ القديم لشعوب المشرق" ـ الاب مورفي في "المباحث الدينية".

(١٦) يوسيفوس "تاريخ اليهود" ـ الكتاب الخامس ـ الفصل الأول.

(١٧) سفر التكوين ـ فصل ١٠ ـ عدد ١٢ وما بعده.

(١٨) سفر التكوين مرجع سابق.

(١٩) مرجع سابق.

(٢٠) سفر يشوع ـ فصل ٢١ عدد ١٢.

٢ـ الرومان والانتشار المسيحي

(١) سترابون في كتابه الجغرافي. Strabon "Chronique" vol. I. p. 146.

(٢) الأب لامنس "تسريح الابصار فيما يحتوي لبنان من الآثار" دار الرائد طبعة ثانية سنة ١٩٨٢ صفحة ٢٥.

(٣) لامنس ـ مرجع سابق.

(٤) مرجع سابق.

(٥) المطران يوسف الدبس "تاريخ سوريا الديني" المطبعة العمومية ـ بيروت سنة ١٩٠٥ ـ مجلد ٣ صفحة ٣٨٨. وما بعدها، نقلاً عن الأب فيكورو في "الموجز الكتابي" مجلّد ٣ عدد ٤٦ ـ ٤٨.

(٦) الاب لامنس ـ مرجع سابق ـ جزء اول سفحة ١٠٠.

(٧) متى ١٥: ٢١.

(٨) الاب دوران "رحلة المسيح إلى فينيقيا" المشرق ١١: ٨١ ـ ٩٢.

(٩) مرقس ٣ ـ ٧ ـ ٨.

(١٠) أعمال الرسل ١:٥.

(١١) كميل الخباز "الزؤان في الكتاب المقدّس" سنة ١٩٩٠ ـ صفحة ٢٠٧ نقلاً عن أعمال الرسل.

(١٢) اعمال الرسل ١: ٤ ـ ٨ و ٤:٤.

(١٣) سمير نوف "تاريخ الكنيسة المسيحية" ترجمة الكسندرس مطران حمص ـ مكتبة السائح سنة ١٩٦٤ صفحة ٢٠ وما بعدها.

(١٤) متى : ٢٧: ٤٦.

(١٥) سفر التكوين ١٤: ١٨ ـ ٢٠ ـ ٢٦.

(١٦) النبي هوشع ٢: ١٦ ـ ١٧.

٣. الصراع بين الوثنية والمسيحية

(١) الأب مارتين اليسوعي ـ مرجع سابق صفحة ٣٦٤ نقلاً عن سنكن يتن فقرة ١: ٧و٨.

(٢) مرجع سابق في الصفحات ٣٦٥ ـ ٣٦٦.

(٣) المطران الدبس ـ مرجع سابق ـ مجلد اول (فصل ٣ عدد ٩ من التوراة) صفحة ١٩ نقلاً عن

نسخة الآباء اليسوعيين المطبوعة في بيروت.

(٤) يوسف السودا "تاريخ لبنان الحضاري" دار النهار ١٩٧٢ صفحة ٤٩.

(٥) مرجع سابق.

(٦) ثاوفانوس "أعمال الآباء الهولنديين" حول القديس بطرس The ophances "Chronogra Phie" vol. 3 chap. 3. Ed. Mayne.

(٧) بياجيوس "تاريخ سوريا" مجلد ٣ ـ جزء ٢ ـ حول القديس بطرس.

(٨) ميخائيل الشبابي "تاريخ الكنيسة الانطاكية" مجلد ٣ جزء ٢ ـ المطبعة اللبنانية بعبدا سنة ١٩٠٦ صفحة ٨٨.

(٩) دوروناس اسقف صور وبياجيوس والآباء البولنديون في ٢٢ تشرين ثاني.

(١٠) جايمس برستد "العصور القديمة" تعريب داود قربان ـ المطبعة الاميركية سنة ١٩٨٣ صفحة ١٢١.

٤. النسّاك والقديسون الاوائل

(١) اميليان "مؤرخ وثني ومرافق للامبراطور يوليانوس" في كتابه الثالث والعشرين ـ الفصل الثاني.

(٢) ميخائيل الشبابي ـ مرجع سابق صفحة ١٠٧ ـ ١٠٨ ـ جزء ثاني.

(٣) الأب بطرس ضو "تاريخ الموارنة" ثمانية اجزاء ـ دار النهار سنة ١٩٧٢ ـ جزء اول صفحة ١٨.

(٤) جايمس برستد ـ مرجع سابق صفحة ٦١٩ نقلاً عن سترابون.

(٥) محمد كرد علي "خطط الشام" ثلاثة مجلّدات ـ مكتبة النوري سنة ١٩٨٣ ـ دمشق ـ جزء اول صفحة ٦٨.

(٦) المطران دريان "البراهين الراهنة" دار كنعان - ١٩٨٤ صفحة ١٧٧.

(٧) تاودوريطس: Théodoretde De Cyr "Histoire Religieuse" Eol. نقلاً عن رسائل يوحنا فم الذهب Mygne . Livre 5. p. 354. col. 1283 . 1496..

(٨) سوزيمان "التاريخ الكنسي" فصل ٦ عدد ٤٢.

(٩) يوسف سمعان السمعاني "المكتبة الشرقية "روما مجلدات ١٧١٩ - ١٧٢٨ والمطران دريان - مرجع سابق صفحة ١٧٨.

(١٠) ايرونيموس "ترجمة هيلاريون" عدد ١٤.

(١١) الأب لامنس "تسريح الابصار فيما يحتوي لبنان من الآثار" صفحة ١٠٩.

(١٢) البطريرك اسطفان الدويهي "تاريخ الموارنة" طبعة الشرتوني سنة ١٨٩٠ صفحة ٢٥.

(١٣) انيس فريحة "معجم اسماء المدن والقرى اللبنانية" مكتبة لبنان - طبعة سنة ١٩٧٢ صفحة ١٧٦.

(١٤) ثاوفانوس "أعمال القديسين البولنديين" تاريخ حزيران.

(١٥) تاودوريطس - مرجع سابق - الكتاب الخامس صفحة ٣٩٤.

(١٦) رفيق باسيل "قرية حردين" مجلة "شربل" الصادرة عن دير عنّايا عدد كانون الأول سنة ١٩٩٠.

(١٧) الأب لامنس - مرجع سابق صفحة ١١٥.

(١٨) كرم البستاني "اميرات لبنان" دار مارون عبود سنة ١٩٧٩ صفحة ١٠٥.

(١٩) الأب مارتين "تاريخ لبنان" مخطوط رقم ٢٣٨٩ - اليسوعية.

(٢٠) الأب كاران "الأرض المقدّسة" صفحة ٩٨.

(٢١) العلامة يوسف سمعان السمعاني "المكتبة الشرقية" - مرجع سابق - مجلّد اول صفحة ٢٤٦.

٥- الشعوب الآرامية والحضارة السريانية

(١) الأب مارتين اليسوعي - مرجع سابق صفحة ٦٥ نقلاً عن شاتوبريان في مقدمة "الدروس التاريخية".

(٢) أنيس فريحة - مرجع سابق صفحة ٧٠.

(٣) الخوري ميخائيل الشبابي - مرجع سابق صفحة ٦.

(٤) بنيامين التود "رحلة الى الشرق" صفحة ٥٤.

(٥) الشبابي - مرجع سابق - صفحة ١١.

(٦) الأب مارتين - مرجع سابق - صفحة ١٤٩.

(٧) يوسيفوس "تاريخ القوميات" ١: ٦.

(٨) De la Roque "voyage de Syrie et du mont Liban" Paris - 1722.

(٩) Dunand "Byblos, et son histoire" 1924 "Byblos, ses ruines..." Paris 196 Introduction.

(١٠) P. Martin "Voyage de Syrie et du Liban" Amesterdam 1723. P: 103.

(١١) طومسون ٧١٠ x ٧٠ Thomson "The Land and The book"

(١٢) موريس دينان - مرجع سابق.

(١٣) بيار روفايل "معهد روما" بيروت سنة ١٩٥٠ صفحة ٦٣. ورشاد الموسوي "معلّمو معلمي المعلم" بيروت ١٩٧٩ صفحة ٢٢٢.

(١٤) يوسف السمعاني - مرجع سابق - مجلّدات ١٧١٩ و ١٧٢٨.

(١٥) فيليب حتي " لبنان في التاريخ" صفحة ٤٩١ دار النهار سنة ١٩٧٢.

(١٦) الأب بطرس ضو "تاريخ الموارنة" جزء ثامن صفحة ٨٦ ـ ٨٧.

(١٧) خريستوفورس جيلاريوس "أخبار العالم القديم" سنة ١٧٠٦ مجلد ٢ كتاب ٣ راس ١٢.

(١٨) ابن العبري ـ التاريخ الديني ـ نشرة بروكوبيوس.

(١٩) تاودوريطس "أعمال الآباء البولنديين" ماين جزء ٨٠ صفحة ٣٢٧.

(٢٠) ميخائيل الشبابي ـ مرجع سابق ـ صفحة ١٦٤.

(٢١) ميخائيل الشبابي ـ مرجع سابق صفحة ١٦٤.

(٢٢) شرابون "كرونيكون" المجلّد السابع عشر.

(٢٣) الشبابي ـ مرجع سابق صفحة ١٨١.

(٢٤) يوسف السمعاني "المكتبة الشرقية" مجلد اول صفحة ١٧١.

(٢٥) نيقولاوس الميثونفسي "المجموعات" صفحة ١٨٧.

٦ـ البستان القورشي

(١) الأب بطرس ضو "تاريخ الموارنة" مرجع سابق ـ جزء اول ـ صفحة ٥٠ نقلاً تسالنكو. G. Tchalenko "Villages Antiques de la Syrie du Nord" Paris 1953 T. 1. p. 147.

(٢) المرجع السابق صفحة ٤٩.

(٣) الأب ضو ـ مرجع سابق ـ صفحة ٢٢٠ نقلاً عن: Butler "Paes" 1920. p. 263.

(٤) الأب ضو ـ مرجع سابق ـ صفحة ٢٥٢ نقلاً عن الأب ماشرن.

(٥) يحيى بن سعيد ونقل عنه Chabot "Corpus Script Orient" 1907. v. 7- p.165.

(٦) ياقوت الحموي "معجم البلدان" دار بيروت سنة ١٩٧٥ ومطبعة السعاده مصر سنة ١٩٠٦ صفحة ٣٥٢.

(٧) سُمّي هذا المجمع بالمجمع اللصوصي.

(٨) P. Mattern "Villes Mortes de la haute Syrie" Beyrouth 1944- p. 143.

(٩) المطران دبس "تاريخ سوريا" مرجع سابق مجلّد رابع صفحة ٣٥١.

(١٠) الأب ضو - مرجع سابق - صفحة ٨٤ نقلاً عن تاودوريطس في "التاريخ الديني".

(١١) Festugière "Antioche Paienne et Chrétienne" page 315.

(١٢) الأب ضو - الجزء الثامن من "تاريخ الموارنة" مرجع سابق صفحة ٢٢٠.

(١٣) المطران دبس "الجامع المفصّل في تاريخ الموارنة المؤصل" مجلد ٩ نشرة سنة ١٨٩٣ - ١٩٠٥. المطبعة العمومية بيروت صفحة ١١.

(١٤) الأب ضو - مرجع سابق - صفحة ١٢٨ نقلاً عن تاودوريطس - مرجع سابق صفحة ١٤٨٩ - ١٤٩٢.

(١٥) الأب بطرس ضو - مرجع سابق - صفحة ١٢٨.

(١٦) مرجع سابق صفحة ١٣٠.

(١٧) يوسف السمعاني "المكتبة الشرقية" مرجع سابق - مجلّد اول صفحة ١٩ و٢٥٥.

الفصل الثاني

١ـ القديس مارون وادياره وكنائسه

(١) Mayne "Patologia Greccae" Paris 1864 T. 89. C. 125. sq.

(٢) البطريرك الدويهي "تاريخ الموارنة" طبعة الشرتوني صفحة ١٧ ـ ٥٠ نقلاً عن تاودوريطس في "التاريخ الديني" طبعة ماين: "Religiosa Histo..." vol. 132. coll 1418-19, 1354, 1431, 1454, 1491.

(٣) الدويهي "الشرح المختصر" صفحة ٣٧ـ و"التاريخ الماروني" صفحة ١٩ ـ طبعة الشرتوني نقلاً عن الآباء اليونان ـ طبعة ماين مجلد ١٠٢ عمود ٦٣٠.

(٤) E. litman "Paris" Liv. IV sect. B Leyden - 1934.

(٥) تاودوريطس ـ مرجع سابق فصل ١٦ ـ ماين مجلّد ٨٢ ـ مكتبة الآباء الشرقيين.

(٦) الأب ضو ـ المجلد الاول من "تاريخ الموارنة" ـ مرجع سابق.

(٧) الأب ضو ـ مرجع سابق ـ مجلد أول صفحة ٢٢٧ وما بعد.

(٨) المطران يوسف الدبس "الجامع المفصّل" المجلد التاسع صفحة ٨.

(٩) الدبس ـ مجلد رابع ـ صفحة ٤٢٣.

(١٠) المطران الدبس ـ مرجع سابق ـ نقلاً عن الدويهي في "تاريخ الموارنة".

(١١) البطريرك بولس مسعد " الدرّ المنظوم" مطبعة دير طاميش سنة ١٨٦٣ صفحة ١٣٢.

(١٢) الدويهي "تاريخ الموارنة" صفحة ١٣٦.

(١٣) الاب افرام الديراني "المحاماة عن الموارنة وقديسيهم" سنة ١٨٩٩ صفحة ٢١٨.

(١٤) المطران اسطفان عواد "كوكب البرية" ١٩١٢ صفحة ١٦٥ و"يوحنا مارون" طبعة ١٩٧٠.

(١٥) مرجع سابق "يوحنا مارون" صفحة ٤٥.

(١٦) السمعاني نقلاً عن رسالة للبابا اغابيطس "المكتبة الشرقية" صفحة ٤٩٧ ـ المطران دبس مرجع سابق صفحة ٤٢١.

(١٧) الدبس مرجع سابق.

(١٨) بروكوبيوس حول ابنية يوستنيانوس ـ الكتاب الخامس ـ الفصل التاسع.

(١٩) G. Tchalenko "Villages Antiques de la Syrie du Nord"- Paris 1953, vol. 1 p. 417.

(٢٠) الأباتي بطرس فهد "بطاركة الموارنة وأساقفتهم" دار خاطر سنة ١٩٨٧.

(٢١) الأب ضو ـ جزء اول الصفحة ٥٧.

(٢٢) الدويهي ـ مرجع سابق حول "اديار سوريا الثانية".

(٢٣) ابو الفدا "المختصر في اخبار البشر" المطبعة الحسينية ـ القاهرة سنة ١٣٢٥.

(٢٤) البطريرك الدويهي "تاريخ الأزمنة" طبعة فهد سنة ١٩٨٣ سفحة ٢٠٨.

(٢٥) بول ماترن ـ مرجع سابق ـ صفحة ١٣١.

(٢٦) الأب ضو ـ مرجع سابق ـ مجلد ٣ ـ صفحة ٤٠٣ نقلاً عن إبن العديم "زبدة الحلب في تاريخ حلب" جزء اول ـ صفحة ١٧٥.

(٢٧) اتشالنكو "قرى سوريا الشمالية القديمة" صفحة ١٣٦.

(٢٨) انيس فريحة "معجم أسماء المدن والقرى اللبنانية" مكتبة لبنان ـ طبعة ثانية سنة ١٩٧٢ صفحة ١٣٨.

(٢٩) الأب يواكيم مبارك في كتابه "Patologie Antiochienne" ١٩٨٤ ـ صفحة ٥ ـ والأب

ضو مجلّد ٨ صفحة ٢٢٢.

(٣٠) رفيق باسيل في مقال له في مجلة "شربل" الصادرة عن دير عنّايا عدد كانون الاول ١٩٩٠ صفحة ٢٣.

(٣١) الأب بطرس بركات "تاريخ إهدن" سنة ١٩٨٤ صفحة ٤٧ او ما بعدها.

٢. المارونية بين البدع والمذاهب

(١) من ملّخص لمقال الأباتي بولس نعمان في "جاليات" سنة ١٩٨٥ صفحة ٧١ ـ ٧٢.

(٢) خريستموس بابا دوبولس "تاريخ كنيسة انطاكية" تعريب الاسقف استفانس حداد ـ منشورات دار النور سنة ١٩٨٤ صفحة ٥٧.

(٣) راجي عشقوتي "محنة المسيحيين في لبنان" سنة ١٩٩١ صفحة ٢٩.

(٤) مرجع سابق صفحة ٣٨.

(٥) بابا دوبولس ـ مرجع سابق صفحة ٢٩٨ وما بعد.

الفصل الثالث

١ـ بطاركة الشرق وابرشياتهم

(١) الأباتي بطرس فهد "بطاركة الموارنة وأساقفتهم" من القرن ٦٨٥ إلى القرن ١٥ ـ الجزء الاول صفحة ٥٧.

(٢) الأباتي بولس نعمان ـ مجلة "جذر وحياة" عام ١٩٧٥ صفحة ٢٠.

(٣) Robert Deuresse "Patriarcat d'Antioche" Paris 1945. p. 100

(٤) "المجمع اللبناني" طبعة ١٩٠٠ ترجمة المطران يوسف نجم صفحة ٣٥٦.

(٥) الأباتي فهد "بطاركة الموارنة..." مرجع سابق صفحة ٧ جزء اول نقلاً عن J. Maronitti nello Itoria, Quderni Universitari diouiseppe sarge 1977 Roma

(٦) خريستمس بابا دوبولس "تاريخ إنطاكية" ـ مرجع سابق صفحة ٧١٠.

(٧) F. R. Miclosich et Jos. Muller "Acta Patriarehatus constantinopol- itani" I- p. 465.

(٨) الأب ضو ـ جزء اول ـ مرجع سابق صفحة ٣٣١.

(٩) الأباتي فهد ـ مرجع سابق صفحة ٦٠.

(١٠) الأب ضو ـ مرجع سابق ـ صفحة ٣١٦.

(١١) نفس المرجع السابق.

(١٢) الخوري بطرس غالب "صديقة ومحامية" بيروت سنة ١٩٢٤ صفحة ٦٨ ـ ٧٤.

(١٣) ميتشو "تاريخ الحروب الصليبية" ١٩٢١ ـ صفحة ٤٢ Michauel

(١٤) المطران الدبس "الجامع المفصّل..." صفحة ٧٢.

(١٥) دنديني في "بعثة إلى لبنان" "Dindini "Mission au Liban الدبس ـ مرجع سابق ـ صفحة ١٣٣ ـ ١٣٤.

(١٦) الدبس ـ مرجع سابق.

(١٧) الأب ضو ـ مرجع سابق ـ صفحة ٢٣٠.

٢ـ مواطن الموارنة الاوائل في سوريا ولبنان

(١) هيرودوت ٧: ٨٩.

(٢) سنكن يتن ١: ١٠ ـ ٣٩.

(٣) الدكتور فيليب حتي "تاريخ لبنان" صفحة ٩٦ نقلاً عن المحبّي في تاريخه، مجلّد اول صفحة ٣٨٦.

(٤) الأب مارتين او مرتينوس اليسوعي "تاريخ لبنان" صفحة ٣٠٩ نقلاً عن سيشرون صفحة ١٣، وسترابون ٣: ٥٥، وهوميروس " الاوديسا" الكتاب ١٤ صفحة ٤٨٨ وغيرها.

(٥) مرجع سابق صفحة ٢٥٠ ـ ٢٥٩ "Dussaud "Histoire de la civilisation

(٦) مرجع سابق.

(٧) ديودورس الصقلي في الكتاب ١٩ ـ فصل ٥٨ .

(٨) بلينوس "الاعلام" حول كلمة لبنان.

(٩) إبن العبري "التاريخ المدني" صفحة ٢٨٢.

(١٠) ياقوت الحموي ـ مجلد ٢٠ صفحة ١١ ـ ومجلد ٤ صفحة ٣٧٤.

(١١) الأب مارتين ـ مرجع سابق صفحة ٢١٧ ـ ٢١٩.

٣. الاحزاب والتنظيمات العسكرية المارونية

(١) الستولستقي "التاريخ البيعي" كتاب ٣ فصل ٨.

(٢) بروكوبيوس ـ الكتاب السادس فصل ١٢.

(٣) ميخائيل الشبابي "الكنيسة الانطاكية المارونية السريانية" صفحة ٢٩٢ ـ جزء ٢.

(٤) البلاذري (احمد يحيى) "فتوح البلدان" القاهرة ١٩٥٧ ـ صفحة ١٩٠ ـ ١٩١.

(٥) الدويهي "تاريخ الموارنة" صفحة ٦٨٨ نقلاً عن "مخطوطات دمشق" لداود بن إبراهيم سنة ١٣٤٣ او الامير حيدر شهاب في "الغرر الحسان" طبعة سنة ١٩٠٠ صفحة ٩٧.

(٦) يوسف السودا "تاريخ لبنان الحضاري" ـ دار النهار للنشر سنة ١٩٧٩ طبعة ثانية صفحة ١٦٢ نقلاً عن البلاذري في "فتوح البلدان".

(٧) المجلة الاسبوعية الالمانية M. G. Z. D للعام ٨٧٥.

(٨) أسد رستم "آراء وأبحاث" بيروت سنة ١٩٦٧ صفحة ٣٦.

(٩) مرجع سابق صفحة ٣٧ وما بعد.

(١٠) الدكتور كمال الصليبي "منطلق تاريخ لبنان" بيروت سنة ١٩٧٩ صفحة ٤٢ ـ ٤٣.

(١١) مرجع سابق صفحة ٣٧.

(١٢) هنري ابو خاطر "من وحي الموارنة" بيروت سنة ١٩٧٧ صفحة ٥.

(١٣) المطران يوسف دريان "البراهين الراهنة" حاشية ٦٧ نقلاً عن البلاذري ـ دار كنعان سنة ١٩٨٤.

(١٤) الأب لامنس "تسريح الابصار..." مرجع سابق ـ المشرق ١٠٢ مجلّد ٥ صفحة ٨٢٦ وفي

طبعة سنة ١٩١٤ جزء ٢ صفحة ١٤١.(١٥) المشرق "المردة والموارنة" مجلد ٥ ج ٢٠ صفحة ٩١٥ مرجع سابق.

(١٦) مرجع سابق.

(١٧) احمد بيضون "الصراع على تاريخ لبنان" سنة ١٩٨٩ - منشورات الجامعة اللبنانية صفحة ١٢٥ - المطران دريان "البراهين الراهنة" صفحة ١٢.

(١٨) دريان صفحة ٦٣.

(١٩) نلدكه "المجلة الاسبوعية الالمانية " M. G. S. D.للعام ٨٧٥.

(٢٠) الأب ضو "تاريخ الموارنة" مرجع سابق صفحة ٢٨٣ و٣١٣.

(٢١) الأب لويس شيخو "مباحث علمية واجتماعية" جزء اول صفحة ٢٤٥.

(٢٢) يوسف السودا "تاريخ لبنان الحضاري" دار النهار سنة ١٩٧٢ صفحة ٣٥.

(٢٣) فيليب حتي "تاريخ لبنان" صفحة ٣٠٠ - ٣٠٢.

(٢٤) جواد بولس "تاريخ لبنان" بيروت ١٩٧٢ صفحة ٢٢٥ - ٢٢٨.

(٢٥) السمعاني "الناموس القانوني والمدني" مجلد ٤ باب ٥٠ صفحة ٦٢٠.

(٢٦) سترابون - الكتاب الاول - صفحة ١٢٥.

(٢٧) دريان صفحة ٩٤ نقلاً عن الدبس - مجلد اول صفحة ١١٨ نقلاً عن غوبرناس في مقال نشرته صحيفة "الحقيقة" تحت عنوان "المردائيتي والموارنة" في ١٦ تموز سنة ١٩٠٣.

(٢٨) البلاذري - مرجع سابق - سفحة ١٩٥.

(٢٩) إبن العبري "التاريخ السرياني" المنشور بالحرف الكلداني في باريس صفحة ١٠٩.

(٣٠) ماين Mayne "Patologea greccae" Paris 1864 ` Liv. 108 p. 722.

٤. الفتح العربي والعلاقات اللبنانية العربية

(١) سيمونوف ـ مرجع سابق "تاريخ الكنيسة المسيحية" مكتبة السائح سنة ١٩٦٤ تعريب الاسقف الكسندر جحا صفحة ١٩٥.

(٢) السيرة الحلبية١/١٥٥ ـ وسيرة ابن هشام ١/١٩٤ و١٧٤.

(٣) أبو موسى الحريري "قس ونبي" ١٩٧٩ ـ صفحة ٣٧ ـ ٣٩.

(٤) الدكتور علي الزين "العادات والتقاليد" طبعة ١٩٧٧ ومصطفى الرافعي "الاسلام نظام إنساني" ولمزيد من المعلومات يمكن مراجعة موسوعتنا "تاريخ لبنان عبر الاجيال" طبعة دار نوبيليس سنة ١٩٩١ مجلّد ٤ صفحة ٢٦.

(٥) الدكتور فيليب حتي "تاريخ لبنان" صفحة ٢٩١ وما بعد.

(٦) رامبو "المردة" صفحة ٢٢٢ ـ ٢٢٥ والأب ضو ـ مرجع سابق ـ نقلاً عن اليعقوبي في تاريخه صفحة ٢١٤.

(٧) محمد كرد علي "خطط الشام" دار العلم للملايين ـ طبعة سنة ١٩٨٣ ـ جزء اول صفحة ٤٦ ـ ٥١.

(٨) سميح الزين "تاريخ طرابلس" دار الاندلس سنة ١٩٦٩ صفحة ١٠٠ ـ ١٠١.

(٩) محمد كرد علي ـ مرجع سابق ـ صفحة ١٣١.

(١٠) الخوري بولس قرالي نقلاً عن جبرائيل بن القلاعي ـ المجلة البطريركية ـ السنة الخامسة ١٩٣٠ جزء ٢ تاريخ تشرين الاول صفحة ٥٢٢.

(١١) إبن عساكر "التاريخ الكبير" ـ مطبعة روضة الشام سنة ١٣٢ هـ صفحة ١٤٨.

(١٢) هنري أبو خاطر "من وحي تاريخ الموارنة" ـ مرجع سابق ـ صفحة ٢.

(١) زكي النقاش " أضواء توضيحية على تاريخ الموارنة" طبعة ١٩٧٠ ـ تقديم عمر فرّوخ صفحة ٣٢.

(١٤) احمد بيضون "الصراع على التاريخ اللبناني" ـ نقلاً عن زكي النقاش ـ مرجع سابق صفحة ١٦٨.

(١٥) النقاش ـ مرجع سابق صفحة ٢٤ ـ ٢٥.

(١٦) علي الزين "مع التاريخ العاملي" صيدا سنة ١٩٥٤ ـ و"للبحث عن تاريخنا في لبنان" بيروت سنة ١٩٧٩ صفحة ٤٧.

(١٧) احمد بيضون ـ مرجع سابق صفحة ١٧٤.

(١٨) الدكتور حكمت الحداد "لبنان الكبير" دار عبود سنة ١٩٨٧ صفحة ١٠٠ نقلاً عن الشيخ صبحي الصالح "حول الشروط العمرية" صفحة ٥ ـ ٦.

(١٩) الدكتور فيليب حتي "تاريخ لبنان" صفحة ٣١٣.

(٢٠) الأب ضو ـ مجلّد ٣ صفحة ٢٥٣ نقلاً عن حتي "في تاريخ لبنان" صفحة ٣٠٢ ـ ٣٠٣.

(٢١) الكونت فيليب دي طرازي "أصدق ما كان في تاريخ لبنان" بيروت سنة ١٩٤٨ جزء ٢ ـ الصفحات ٢٤ ـ ٢٥ ـ ٥١ ـ ٧٦، وما بعدها.

(٢٢) جريدة السفير ١٩٧٥/٩/١٨ من ضمن بيان صادر عن "مجلس العلماء في لبنان" تحت عنوان "الاسلام والعلمنة".

(٢٣) ابن العبري "التاريخ الكنسي" جزء اول صفحة ٤٧٠ ـ ٤٧٤.

(٢٤) سعيد بن بطريق "مجموعة الآباء اليونان" جزء ١١ صفحة ١٠٧٧.

(٢٥) ابن العبري ـ مرجع سابق ـ صفحة ٢١٩ ـ ٢٢٠.

(٢٦) المطران دريان "البراهين الراهنة" حاشية ٦٧ وفيها يشير الى تأخّر تاريخ ثاوفان سبع سنوات، مما يجعل تاريخ هذا العقد الحقيقي هو في العام ٦٧٦.

(٢٧) المطران دريان ـ مرجع سابق ـ نقلاً عن البلاذري في "تاريخ البلدان".

(٢٨) الأب لامنس "المشرق" ٢٦٥:٢ نقلاً عن لسان الدويهي.

(٢٩) هنري ابو خاطر "من وحي تاريخ الموارنة" بيروت ١٩٧٧ صفحة ٩٦.

(٣٠) الدكتور حكمت الحداد "لبنان الكبير" دار مارون عبود سنة ١٩٨٧ صفحة ١٠٠ نقلاً عن الدويهي في "الشرح المختصر - أصل الموارنة وثباتهم في الامانة" طبعة ١٩٧٤ - جزء اول صفحة ٩٤ - ٩٥ نقلاً عن جورج شدرانس في تاريخه العام "من بداية العالم الى العام ١٠٥٧".

(٣١) الدبس "الجامع المفصّل" صفحة ١٥٠ - ١٥١ نقلاً عن الأب نو "المشرق" عدد ١٠ سنة ١٨٩٩ صفحة ٤٥٧.

(٣٢) جواد بولس "تاريخ لبنان" طبعة سنة ١٩٧٢ صفحة ٢٩٩ نقلاً عن إبن عساكر في "تاريخ دمشق" مطبعة غوطة الشام سنة ١٣٢٩ هـ. صفحة ٢١٠ - ٢١٥.

(٣٣) الدبس - مرجع سابق - صفحة ٣٦، وهنري أبو خاطر، مرجع سابق صفحة ٩٧.

(٣٤) البطريرك رحماني "التاريخ السرياني" ١٩٠٤ صفحة ١٨٥.

(٣٥) الأب لامنس في P. Lamens "Mélange de la faculté Orientale" Beyrouth 1906 ` p. 16.

(٣٦) الأب ضو - جزء ٣ صفحة ٢٣٦.

(٣٧) Delaroiére "Voyage en Orient" P. 55.

الفصل الرابع

١ـ ملوك وامراء ومقدّمو لبنان عند دخول العرب

(١) المطران دريان ـ مرجع سابق صفحة ٦٢ وقد تداول هذه المخطوطة كل من الشدياق والدبس وضو ودريان وغيرهم.

(٢) طنوس الشدياق "نشرة الجامعة" صفحة ٣٤ وما بعدها.

(٣) الدويهي "تاريخ الموارنة" صفحة ٩٩ ـ الاب ضو مجلد ٣ صفحة ٢٥٤ ـ ٢٥٥ نقلاً عن إبن القلاعي.

(٤) الشبابي ـ مرجع سابق صفحة ٤٦٩ جزء ٢ ـ وما بعد.

(٥) الشبابي ـ مرجع سابق ـ صفحة ٤٨٠.

(٦) مرجع سابق.

(٧) الأب ضو ـ جزء ٣ صفحة ٢٥٤ نقلاً عن الدويهي "تاريخ الطائفة المارونية" طبعة الشرتوني صفحة ٩٩ وقد نقل بدوره عن ابن القلاعي في كتابه "حروب المقدّمين" ودون تجيدي تاريخ معيّن للاحتفال فبعضهم مثل ابن القلاعي ـ حدد جبرائيل في "القرن الثامن"، والأب ضو حول "القرن الثاني عشر".

(٨) جواد بولس "لبنان والبلدان المجاورة" طبعة ثانية سنة ١٩٧٣ صفحة ٢٨٨ نقلاً عن إبن خلدون.

٢ـ كفرحي المقرّ البطريركي الاول: يوحنا مارون وخلفاؤه

(١) الدكتور أنيس فريحه "معجم اسماء المدن والقرى اللبنانية" صفحة ١٤٨.

(٢) الأب لامنس "تسريح الأبصار فيما يحتوي لبنان من الآثار" جزء اول صفحة ١٢٨ ـ ١٣١.

(٣) الأب ضو ـ مجلد اول صفحة ٣٦٩ و٨٩.

(٤) الدويهي "تاريخ الموارنة" صفحة ٩ و١٠.

(٥) مرجع سابق صفة ٢٠٧.

(٦) الدويهي في "تاريخ الموارنة" صفحة ٦٥ نقلاً عن يعقوب البرادعي.

(٧) الدويهي ـ مرجع سابق صفحة ٣٥ و ٦٦ نقلاً عن عبد الله بن الطيّب في مخطوطة دمشق.

(٨) الأب ميخائيل الشبابي ـ مجلّد ٢ من "تاريخ الكنيسة الانطاكية السريانية المارونية" ٤٣٧ وما بعد.

(٩) الأب ضو ـ مجلّد اول صفحة ٣٥٦ وما بعد.

(١٠) Rey "Familles d'Outre mer "Paris 1869 p. 652- Dusssaud "Topographie..." Paris

(١١) الأب ضو ـ مرجع سابق صفحة ٤٣٨ نقلاً عن "الباكورة السليمانية".

(١٢) السمعاني "ترجمة القديس يوحنا مارون".

(١٣) ميخائيل مشاقه السوري "التاريخ الديني" الجزء الثاني صفحة ٤٩٢ ـ ٢٩٦.

(١٤) مرجع سابق ـ مجلد ٢ صفحة ٥١١.

(١٥) شخصياً افضلّ كتابة سمار جبيل بالصاد صمار جبيل باعتبار أن الصمار بالعبرية تعني الصخرة او القلعة، وإليها تنتسب البلدة التي تحمل هذا الاسم باعتبارها احد

حصون جبيل.

(١٦) Nau "Opusculus Maronites" Paris 1900

(١٧) نقلاً عن كتاب "الهدى" الذي وضعه عبد الله بن الطيّبي حوالي سنة ١٠٣٠ ـ الدويهي "تاريخ الموارنة" صفحة ٣٤٤ ـ تحقيق الأب فهد ـ حلب سنة ١٩٣٥ صفحة ٣٧.

(١٨) الأب ضو ـ مجلّد اول ـ صفحة ٣٥٣.

(١٩) الدويهي ـ مرجع سابق صفحة ٦٥.

(٢٠) الشبابي صفحة ٤٦٥ نقلاً عن الصوباوي.

(٢١) طنوس الشدياق "تاريخ الأعيان في جبل لبنان" نشرة دار مارون عبود سنة ١٩٩٣. جزء اول صفحة ٣٧ وجزء ثان صفحة ٧.

(٢٢) الدويهي "تاريخ الطائفة المارونية" طبعة الشرتوني صفحة ٥٣ ـ ٦٣ و"الشرح المختصر" صفحة ١٥٢ نقلاً عن كتاب كرتوني قديم محفوظ في المكتبة الفاتيكانية تحت الرقم ٤٢٤ قسم سرياني.

(٢٣) الدويهي "الشرح المختصر" مجلّد اول ـ طبعة فهد ـ صفحة ١١٦.

(٢٤) الخوراسقف يوسف داغر "بطاركة الموارنة" المطبعة الكاثوليكية سنة ١٩٥٧ صفحة ١٨ نقلاً عن التلمحري ديونيسيوس (٨١٨ ـ ٨٤٥) الذي ترجم مجلّداته الأربعة الفرنسي شابو والمؤرخ ميخائيل السرياني حفظه ونشره (١١٦٦ ـ ١١٩٩) ـ طبعة باريس سنة ١٩١٤ صفحة ٤٦٠ وعنه نقل ابن العبري المتوفي سنة ١٢٨٦.

(٢٥) لكويان "الشرق المسيحي" جزء ثان صفحة ٧٤٣.

(٢٦) شابو "مجلة المنارة" عام ١٩٣٥ ـ السنة السادسة ـ صفحة ١٤١.

(٢٧) الاباتي بولس نعمان في كتابه حول "الكسليك" الصادر سنة ١٩٧١ صفحة ٩ نقلاً عن تيدورس الصقلي في حديثه عن دير القديس مارون الكبير.

(٢٨) الدبس "الجامع المفصّل" صفحة ٧٠.

(٢٩) - De La Roque "Voyage de Syrie et du Liban" Amesterdam 1723 T.2. P. 232.

٣. معركة اميون ونشوء البطريركية الانطاكية المارونية والصراع الارثوذكسي

(١) محمد علي مكي "لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني" بيروت سنة ١٩٧٧ صفحة ٤٧ ـ احمد بيضون "الصراع على التاريخ اللبناني" ـ صفحة ١٧٩.

(٢) احمد بيضون صفحة ١٨٠ ومكّي صفحة ٤٢.

(٣) فؤاد قازان "لبنان في محيطه العربي من التكوين الجيولوجي حتى أيامنا" سنة ١٩٧٢ صفحة ١٣٠.

(٤) الأب بطرس ضو "تاريخ الموارنة" ـ جزء اول صفحة ٢٨٦ ـ ٣٠٥.

(٥) المطران الدبس "تاريخ سوريا" مجلد خامس صفحة ١١٩ نقلاً عن الدويهي والسمعاني وهريحرفي الكتاب الخمسين، وبولس الشماس في الكتاب ٦ فصل ١١.

(٦) الدويهي ـ مرجع سابق صفحة ٦٨.

(٧) السمعاني ـ مجلّد اول ـ المكتبة الشرقية ـ صفحة ٥٠٤ نقلاً عن الدويهي صفحة ٦٨ وما بعد.

(٨) البطريرك العاقوري يجعل الامير مسعود قائداً للموارنة، في حين يرى السمعاني والدويهي أن سمعان كان القائد اللبناني.

(٩) إبنون أبي بنوا ـ ويسميه: مُسمّاة على إسمه.

(١٠) السمعاني المرجع السابق المكتبة الشرقية صفحة ٥٠٧.

(١١) دبس مرجع سابق صفحة ٥٩.

(١٢) الدبس "الجامع المفصل" صفحة ٦٠.

(١٣) سعيد بن بطريق في تاريخه صفحة ١٠٠.

(١٤) الأب ضو ـ جزء اول ـ صفحة ٣٣٦ ـ ٣٣٨.

(١٥) مرجع سابق ـ جزء ثالث ـ صفحة ٨٠.

(١٦) مرجع سابق ـ جزء رابع ـ صفحة ٢٣٦.

(١٧) الدويهي "الشرح المختصر" صفحة ١٢٥ و"تاريخ الطائفة المارونية" طبعة الشرتوني صفحة ٩٠ ـ ٩١.

(١٨) الأباتي بطرس فهد "بطاركة الموارنة وأساقفتهم" جزء اول صفحة ١١٨ نقلاً عن ابراهيم اليازجي في المقال المنشور في مجلة "الضياء"، وأعادت نشر مجلة "الفصول" عدد ١٩٨٠/٣ صفحة ١٣٢.

(١٩) الدبس "تاريخ سوريا" مجلد خامس صفحة ١٤٣.

(٢٠) الشرتوني "مجلة المشرق" (١ـ١٥١) نقلاً عن الدويهي ـ المطران دريان "البراهين الراهنة" صفحة ٤٢.

(٢١) الخوراسقف داغر حاشية (٢) من "بطاركة الموارنة" صفحة ٢٠.

(٢٢) مرجع سابق صفحة ١٦ ـ ٢٠.

(٢٣) المطران الدبس ـ مجلد خامس ـ صفحة ١٦٣.

(٢٤) دبس "الجامع المفصّل" صفحة ١٣٣ ـ ١٣٤.

(٢٥) الأباتي فهد "بطاركة الموارنة وأساقفتهم" جزء اول صفحة ١٢٧.

(٢٦) الدبس ـ مجد ٥ ـ صفحة ٢٥٤.

(٢٧) السمعاني "المكتبة الشرقية" مجلّد اول صفحة ٤٩٠.

(٢٨) الدويهي في "سلسلته" نشرة الشرتوني حول قورش.

(٢٩) الخوراسقف داغر "بطاركة الموارنة" صفحة ٢٢.

الفصل الخامس

١ـ صراع الكاثوليك والارثوذكس الملكيين

واليعاقبة والموارنة

(١) متى جانر ـ مرجع سابق ـ صفحة ٥٠٨.

(٢) هنري ابو خاطر "من وحي الموارنة" صفحة ٨٨.

(٣) رسالة القديس بولس الرسول إلى أهل فيليبي ٦ـ١١.

(٤) بيار روفايل "دور روما في ارتداد الكنائس الشرقية" مطبعة خليفة سنة ١٩٣٥ صفحة ٨٥ ـ ٨٦.

(٥) Pierre Gabriel" L'Histoire de l'église Maronite Syrienne" V. 2. p. 51.

(٦) التلمحري في المقالة العاشرة ـ فصل ٢٢ من تاريخ إبن العبري.

(٧) مرجع سابق.

(٨) الدويهي ـ مرجع سابق صفحة ٩ و١٠ ـ والشبابي ـ مرجع سابق صفحة ٤٤٧.

(٩) السمعاني ـ الكتاب الثامن من مكتبة الناموسين ـ الدبس "الجامع المفصّل" صفحة ٦٨.

(١٠) نقولا زياده "التاريخ اللبناني الحديث" بيروت سنة ١٩٧٣ صفحة ١٣.

(١١) المسعودي "التنبيه والاشراف" دار التراث سنة ١٩٦٨ صفحة ١٣١.

٢. يانوح وبطاركتها

(١) د. انيس فريحه مرجع سابق. صفحة ١٧٨.

(٢) الاب ضو. الجزء الاول والصفحات ٨٩ و٢٦٩.

(٣) الدويهي في "تاريخ الاسلام" صفحة ٦٥ - ٦٦ - و ٣٤٧ نقلاً عن المخطوط الدمشقي لعبد الله بن الطيّب.

(٤) دريان - مرجع سابق صفحة ٤٢ - ٤٣.

(٥) الدبس مجلد ٥ صفحة ١٤٠.

(٦) الاب فهد - مرجع سابق صفحة ٩٤ نقلاً عن الأب ضو. مرجع سابق صفحة ٢٥٤.

(٧) لكويان - المشرق المسيحي - مجلّد ٣ صفحة ٤٩.

(٨) الخوراسقف داغر - مرجع سابق صفحة ٢٢ نقلاً عن السمعاني.

(٩) المطران دريان "البراهين الراهنة" حواشي صفحة ٤٢ و٤٣ نقلاً عن الدويهي.

(١٠) الدويهي "تاريخ الاسلام" والمطران الدبس نقلاً عن الدويهي صفحة ٤ - ٤٣ - مرجع سابق.

(١١) الخوراسقف داغر في "تاريخ الموارنة" نقلاً عن "المقالة السمعانية" للسمعاني.

(١٢) نشرة ماين (Mayne) تاريخ ثاوفان ضمن مجموعته (٤). "الآباء اليونان" في باريس سنة ١٨٦٣ - المجلد ١٠٨.

(١٣) الدبس - مجلّد ٥ - صفحة ٢٥٥.

(١٤) مرجع سابق "تاريخ الاسلام" للدويهي.

(١٥) ربما المقصود هو نهر الجوز حيث يقع دير كفتون قرب كفتون وليس نهر ابراهيم كما جاء في ذكره عند كثير من المؤرخين.

(١٦) الخوراسقف داغر "بطاركة الموارنة" صفحة ٢٢.

(١٧) الدويهي في "سلسلة البطاركة" صفحة ٩. وهذا الفصل الثاني حسب تعليق الأب فهد (مرجع سابق صفحة ١٤٧) هو الأكثر تطابقاً للواقع والتاريخ.

(١٨) الخوراسقف داغر - صفحة ٢٢ نقلاً عن الدويهي.

(١٩) الخوراسقف داغر - صفحة ٢٣.

(٢٠) الأب بطرس ضو - مجلّد ٣ - صفحة ٢٦٦.

٣. إسكان العرب والفرس في لبنان ونشوء الدويلات فيه

(١) طنوس الشدياق "أخبار الاعيان في جبل لبنان" جزء ثان صفحة ٤٩٧.

(٢) الأب ضو - مجلّد - صفحة ٣٢٧.

(٣) ريستلهوبر "تقاليد فرنسا في لبنان" ترجمة لويس عبود سنة ١٩٢١ صفحة ١٧.

(٤) كاللو Callot "Syrie dans l'encyclopédie Universalis" T.15 p.672.

(٥) د. سليم حسن هشيّ "الخزانة التاريخية" في الاسماعيلية والدروز - دار لحد خاطر سنة ١٩٨٥ صفحة ١٢٨.

(٦) مرجع سابق.

(٧) ابن القلاعي "حروب المقدّمين" المجلة البطريركية - السنة ٦ - ١٩٣١ - جزء ٣ (اذار) صفحة ١٦٤ - ١٦٥ - الاب بطرس ضو "تاريخ الموارنة" مجلّد ٣ - صفحة ٢٦٦.

(٨) الدويهي "تاريخ الموارنة" صفحة ٩٩.

(٩) الدويهي "تاريخ الموارنة" صفحة ٩٩ - نشرة الشرتوني.

(١٠) كمبيفيسيوس "المؤلفون" مجلّد ٢ - صفحة ٤٥٩ نقلاً عن القس تمتاوس القسطنطيني.

(١١) الدبس "الجامع المفصّل" صفحة ١٦٢ - ١٦٣.

(١٢) الدبس ـ صفحة ١٦٤ ـ مرجع سابق.

(١٣) السمعاني "الناموس" مجلّد ٥ صفحة ٤٩٥.

(١٤) دي لاروك نقلاً عن لكويان .De la Roque "Voyage en Syrie..." T.2 p. 129

مراجع اللغة العربية

١ـ الأب اميل اده "جبيل مهد الابجدية" نشرة سنة ١٩٧٣.

٢ـ البطريرك اسطفان الدويهي "تاريخ الموارنة" طبعة الشرتوني سنة ١٨٩٠، "الشرح المختصر".

٣ـ أنيس فريحة "معجم أسماء المدن والقرى اللبنانية" مكتبة لبنان سنة ١٩٧٢.

٤ـ ابن العبري "التاريخ الكنسي السرياني" نشرة بروكوبيوس.

٥ـ المطران اسطفان عواد "كوكب البرية" ١٩١٢. و"يوحنا مارون".

٦ـ ابو الفدا "المختصر في أخبار البشر" المطبعة الحسينية ـ القاهرة سنة ١٣٢٥.

٧ـ إبن العديم "زبدة الحلب في تاريخ حلب".

٨ـ أسد رستم "آراء وأبحاث" بيروت سنة ١٩٦٧.

٩ـ أحمد بيضون "الصراع على تاريخ لبنان" سنة ١٩٨٩. منشورات الجامعة اللبنانية.

١٠ـ إبن هشام "السيرة الحلبية".

١١ـ ابو موسى الحريري "قسّ ونبي" سنة ١٩٧٩.

١٢ـ إبن عساكر "التاريخ الكبير" مطبعة روضة الشام سنة ١٣٢هـ.

١٣ـ ابراهيم اليازجي في "الضياء" و"الفصول" سنة ١٩٨٠.

١٤ـ الاب افرام الديراني "المحاماة عن الموارنة وقديسيهم" سنة ١٨٩٩.

١٥ـ بياجيوس "تاريخ سوريا".

١٦ـ بنيامين التود "رحلة إلى الشرق".

١٧ـ بيار روفايل "معهد روما" بيروت سنة ١٩٥٠.

١٨ـ البطريرك بولس مسعد "الدر المنظوم" مطبعة دير طاميش سنة ١٨٦٣.

١٩ـ الأب بطرس فهد "بطاركة الموارنة وأساقفتهم" دار لحد خاطر.

٢٠ـ الأب بطرس ضو "تاريخ الموارنة" دار النهار سنة ١٩٧٧.

٢١ـ البلاذري (أحمد يحيى) "فتوح البلدان" القاهرة سنة ١٩٥٧.

٢٢ـ الأب بطرس بركات "تاريخ إهدن" سنة ١٩٨٤.

٢٣ـ الأباتي بولس نعمان "حاليات" سنة ١٩٨٥.

٢٤ـ الأب بطرس غالب "صديقة ومحامية" بيروت سنة ١٩٢٤.

٢٥ـ بلّينيوس في كتاب "الأعلام".

٢٦ـ الخوري بولس قرألي "الموارنة في لبنان" مطبعة المرسلين سنة ١٩٤٩ و"عودة النصارى إلى جرود كسروان" القاهرة سنة ١٨٩٠. و"المجلة البطريركية" سنة ١٩٣٠ ـ جزء ٢ ـ تشرين الاول.

٢٧ـ تاوفانوس "أعمال الآباء الهولنديين" نشرة الأب ماين.

٢٩ـ تاودوريطس في تاريخه حول القديسين في جبل قورش.

٣٠ـ التلمحري (ديونيسيوس).

٣١ـ جايمس برستد "العصور القديمة" تعريب داود قربان ـ المطبعة الاميركية سنة ١٩٨٣.

٣٢ـ جواد بولس "تاريخ لبنان" بيروت سنة ١٩٧٢ـ "لبنان والبلدان المجاورة" طبعة ثانية سنة ١٩٧٣.

٣٣ـ جبرائيل بن القلاعي "زجلية حروب المقدمين" ـ "تاريخ الموارنة" ـ اعداد المنارة.

٣٤ـ الأمير حيدر شهاب "الغرر الحسان" طبعة سنة ١٩٠٠.

٣٥ـ الدكتور طلعت الحداد "تاريخ لبنان الكبير" ـ دار عبود سنة ١٩٨٧.

٣٦ـ خريستوفورس جيلاريوس "أخبار العالم القديم" سنة ١٧٠٦.

٣٧ـ خريتستموس بابادوبولس "تاريخ كنيسة انطاكية" تعريب الاسقف استفانس حداد ـ منشورات دار النور سنة ١٩٨٤.

٣٨ـ دينان "بيبلوس".

٣٩ـ الأب دوران "رحلة المسيح إلى فينيقيا" ـ المشرق: ١١: ٨١ ـ ٩٢.

٤٠ـ ديدورس الصقلي في تاريخه "الكتاب الخامس" فصل ٥٨ والكتاب ١٩.

٤١ـ داود بن ابراهيم "المخطوط الدمشقي" سنة ١٣١٣.

٤٢ـ رفيق باسيل "قرية حردين" في "مجلة شربل" ـ دير عنايا ـ عدد كانون الاول سنة ١٩٩٠.

٤٣ـ راجي عشقوتي "محنة المسيحيين في لبنان" سنة ١٩٩١.

٤٤ـ رامبو "المردة".

٤٥ـ البطريرك رحماني "التاريخ السرياني" سنة ١٩٠٤.

٤٦ـ زكي النقاش "اضواء توضيحية على تاريخ الموارنة" طبعة سنة ١٩٧٠.

٤٧ـ سمرنوف "تاريخ الكنيسة المسيحية" ترجمة السنكورس مطران حمص ـ مكتبة السائح سنة ١٩٦٤.

٤٨ـ سنكن يتن: ١: ١٠ ـ ٣٩.

٤٩ـ الستولستقي "التاريخ البيعي" الكتاب ٣.

٥٠ـ سميح الزين "تاريخ طرابلس" دار الاندلس سنة ١٩٦٩.

٥١ـ جريدة "السفير" ١٩٧٥/٩/١٨ "الاسلام والعلمنة" لمجلس العلماء المسلمين في لبنان.

٥٢ـ سليم حسن هشي "الخزانة التاريخية في الاسماعيلية والدروز" ـ دار خاطر سنة ١٩٨٥.

٥٣ـ شدرانس "التاريخ العام: من بداية العالم إلى العام ١٠٥٧".

٥٤ـ طنوس الشدياق "أخبار الاعيان في جبل لبنان" نشرة منير وهيبة الخازن سنة ١٩٥٤ و"نشرة الجامعة".

٥٥ـ غوبارناس "المردائيتي والموارنة".

٥٦ـ الدكتور فيليب حتي "تاريخ لبنان" دار النهار سنة ١٩٧٢.

٥٧ـ الكونت فيليب دي طرازي "أصدق ما كان في تاريخ لبنان" بيروت سنة ١٩٤٨.

٥٨ـ فؤاد قازان "لبنان في محيطه العربي من التكوين الجيولوجي حتى أيامنا" سنة ١٩٧٢.

٥٩ـ كميل الخباز "الزؤان في الكتاب المقدّس" سنة ١٩٩٠.

٦٠ـ الأب كاران "الارض المقدّسة".

٦١ـ الدكتور كمال الصليبي "منطلق تاريخ لبنان" بيروت سنة ١٩٧٩.

٦٢ـ كميفيسيوس "المؤلّفون" مجلد ٢ ـ نقلاً عن القس تمتاوس القسطنطيني.

٦٣ـ لانرمان "التاريخ القديم لشعوب المشرق".

٦٤ـ الأب لامنس "تسريح الابصار فيما يحتوي لبنان من الآثار" دار الرائد ـ طبعة ٢ـ سنة ١٩٨٢.

٦٥- الأب لويس شيخو "مباحث علمية واجتماعية" الجزء الاول.

٦٦- الأب مارتين اليسوعي "تاريخ لبنان" ترجمة الشرتوني سنة ١٨٩٠ دار عبود.

٦٧- مجلة "ملتو" (MELTO) العدد ٢ سنة ١٩٦٨. والمجلة الالمانية M.Q.Z.D. للعام ٨٧٥.

٦٨- الأب مور "المباحث الدينية" سنة ١٨٩٣ عدد ٥ أيلول.

٦٩- الأب ميخائيل الشبابي "تاريخ الكنيسة الانطاكية السريانية" بعبدا - المطبعة اللبنانية سنة ١٩٠٦.

٧٠- أبو موسى الحريري "معلمو معلّمي العالم".

٧١- مصطفى الرافعي "الاسلام نظام إنساني".

٧٢- "موسوعة لبنان عبر الاجيال" سبعة أجزاء - عبد الله ابي عبد الله.

٧٣- محمد كرد علي "خطط الشام" دار العلم للملايين سنة ١٩٨٣.

٧٤- هيرودوت في تاريخه اليوناني ٨٩:٧.

٧٥- هوميروس في "الآلياذة" او "الاوديسا" كتاب ١٤.

٧٦- نقولا زياده "التاريخ اللبناني الحديث" بيروت سنة ١٩٧٣.

٧٧- هنري ابو خاطر "من وحي تاريخ الموارنة" بيروت سنة ١٩٧٧.

٧٨- يوسيفوس "تاريخ اليهود" الكتاب الخامس و"تاريخ القوميات".

٧٩- المطران يوسف الدبس "تاريخ سوريا الديني" المطبعة العمومية بيروت سنة ١٨٩٠ و"الجامع المفصّل في تاريخ الموارنة المؤصّل" سنة ١٨٩٣.

٨٠ - يوسف السودا "تاريخ لبنان الحضاري" دار النهار سنة ١٩٧٢.

٨١ - يوسف سمعان السمعاني "المكتبة الشرقية" روما مجلدات ١٧١٩ - ١٧٢٨.

٨٢ ـ ياقوت الحموي "معجم البلدان" دار بيروت سنة ١٩٧٥ ومطبعة السعاده مصر سنة ١٩٠٦.

٨٣ ـ الأب يواكيم مبارك "البطريركية الانطاكية" سنة ١٩٨٤.

٨٤ ـ الخوراسقف يوسف داغر "بطاركة الموارنة" المطبعة الكاثوليكية سنة ١٩٥٧.

٨٥ ـ المطران يوسف دريان "البراهين الراهنة في اصل المردة والجراجمة والموارنة" دار كنعان سنة ١٩٨٤.

٨٦ ـ صحف ـ مجلات "المنارة" ـ "المشرق" ـ "المجلة اللاهوتية" ـ "البطريركية" ونشرات مختلفة ـ وثائق ـ مخطوطات.

مراجع اللغة الفرنسية

1- Butler "Paes" 1920.

2- Chabot "Corfous seript, Orient" Paris 1907.

3- Callot "Syrie de l'encyclopédie Universalis" T. 15.

4- Dussaud "Topographie historique de la Syrie" Paris 1927.

5- De la Roque "Voyage en Syrie et du Mont Liban" Paris 1722.

6- Dunand "Byblos, Ses ruines, ses légendes" Paris 1964 et Roy "Byblos et son Histoire" Paris 1924.

7- Dindini "Mission au Liban".

8- Eusé de Cesaréa "life of Blessed Emperor Covotatin" London 1847.

9- Festugière "Antioche Paienne et Chrétienne".

10- Litman. E "PAES" Leyden 1934.

11- P. hameus "Mélange de la faculté Orientale" Seyr 1906.

12- Mayelle J. "Avec les Prémevies" Paris 1968.

13- Mattern P. "Villes Mortes de la Syrie" Beyrouth 1944.

14- Maroneitti J. "Nello Jtoria qudrine universitari di Ouisepipe Sarge" Roma 1977.

15- Mygue "Patologie Grecque" Paris 1964.

16- F. A. Mielosech er Jos. Muller "Acto Patriarchatus Coustantinopolitani" 1924.

17- P. Nau "Opusculus Maronites" Paris 1900.

18- Quarizminus "Elucid, Slib V11C. 3".

19- Rey "Familles d'Outre Mer" Paris 1869.

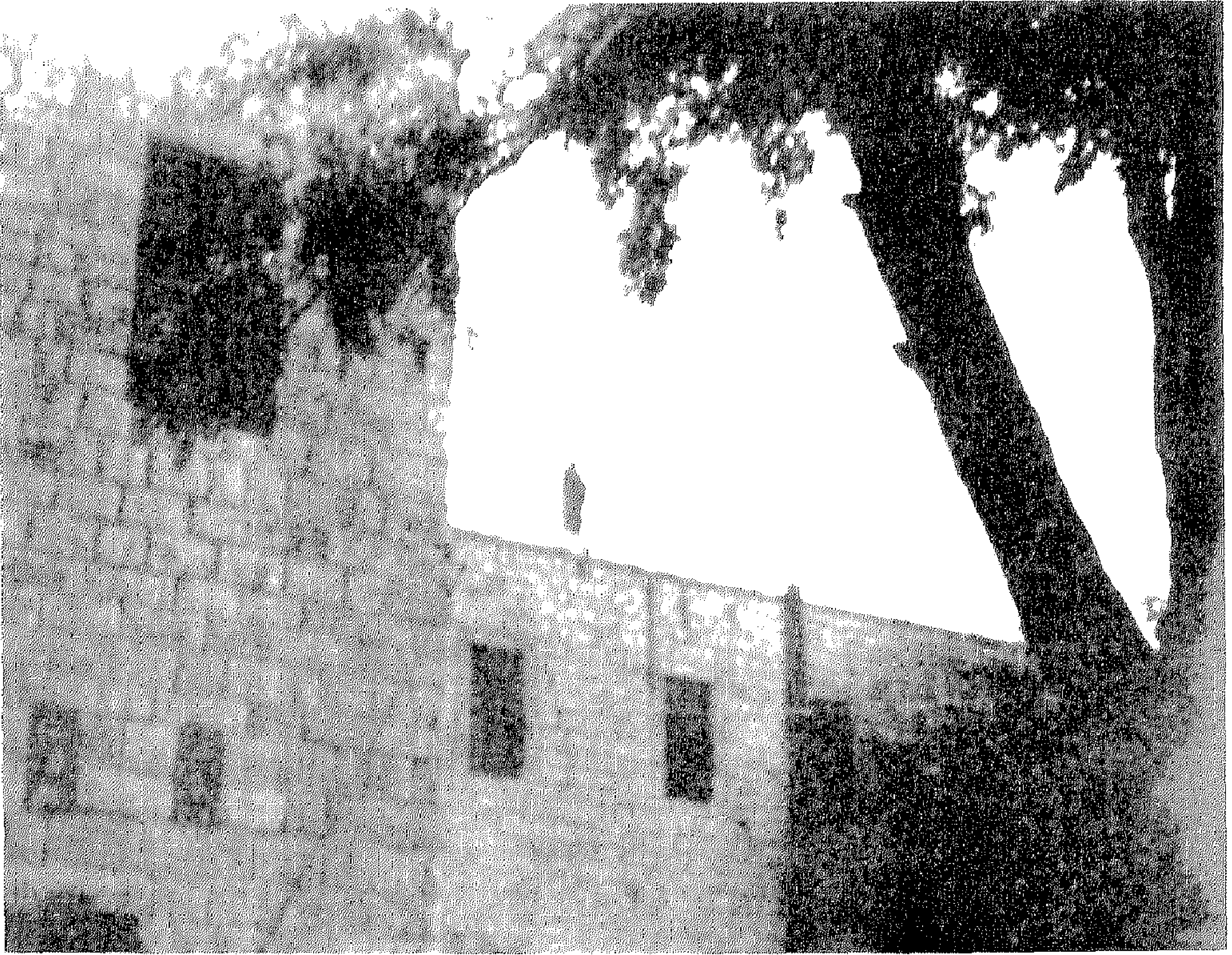
20- Riéstolhubert "Les Maronites" - Revue de deux mondes- Janu. 1915. et "Traditions françaises au Liban" Trad. par S. Abboud 1921.

21- Strabon "Chronique" Vol. I.

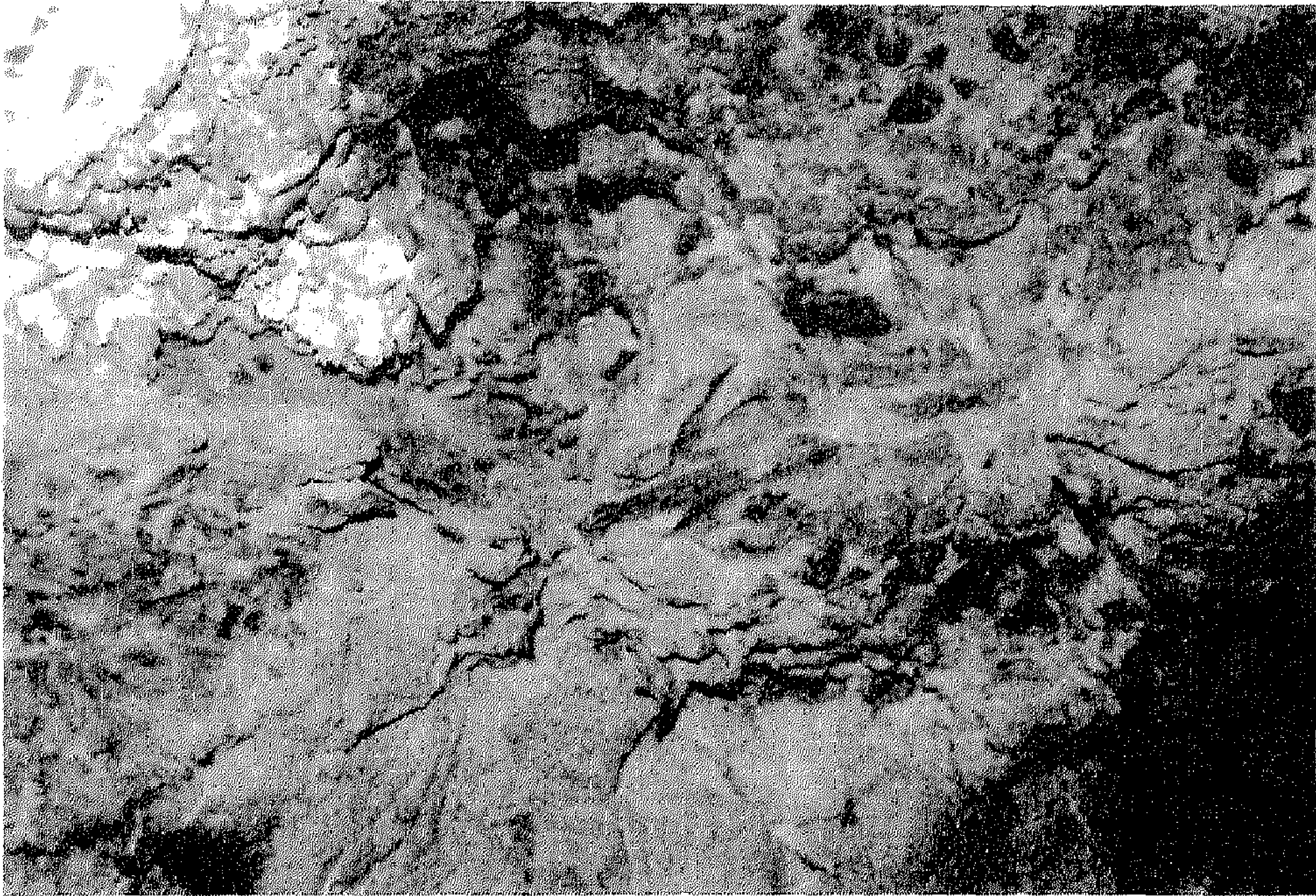
22- alhéoplanes "chronographie" Ed. Mayne.

23- alhéodoret de Cyr. "Histoire Religieuse" Ed. Mayne. coll. 1283-1496.

24- Tchuleuh'o. G "villages Antiques de la Syrie du Nord" Paris 1953.



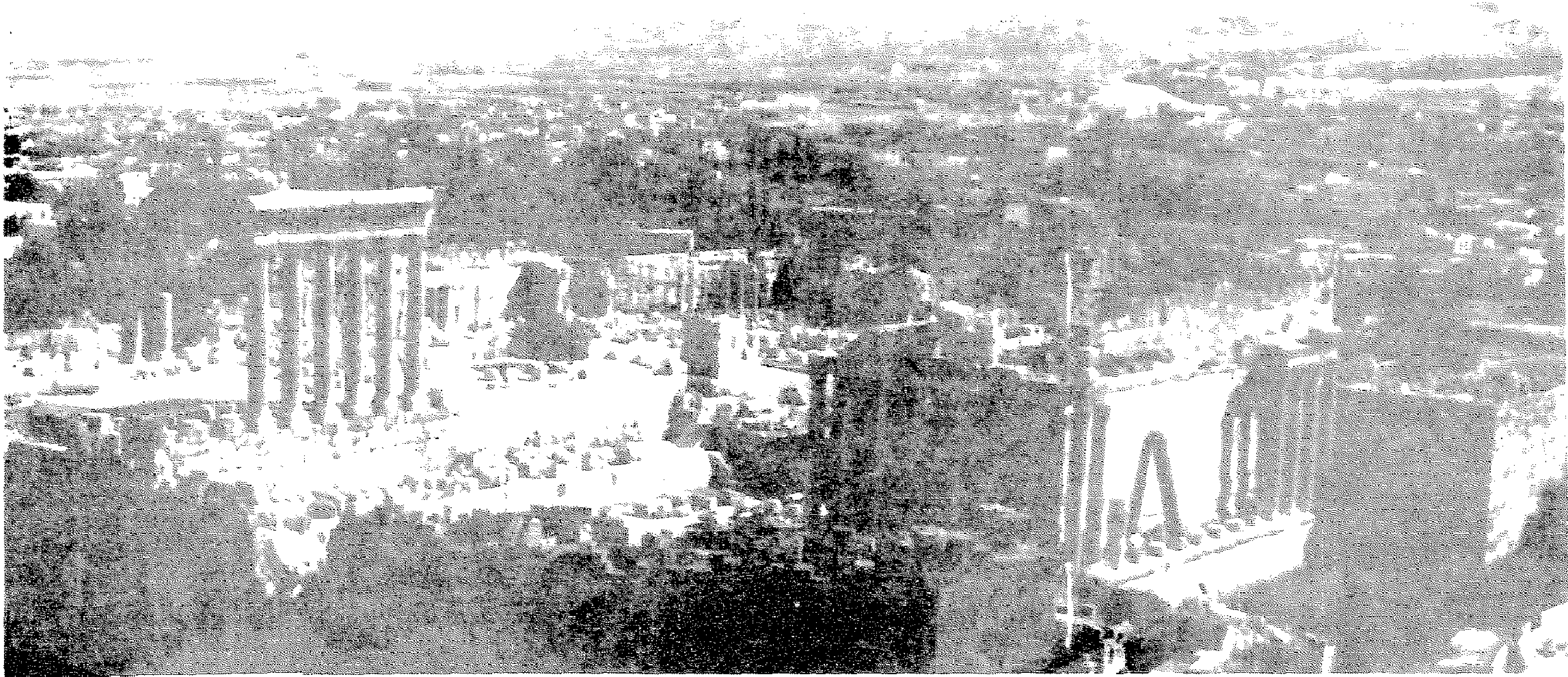
دير مار يوحنا مارون كفرحي.



مغارة مقدّسة في وادي قنوبين.



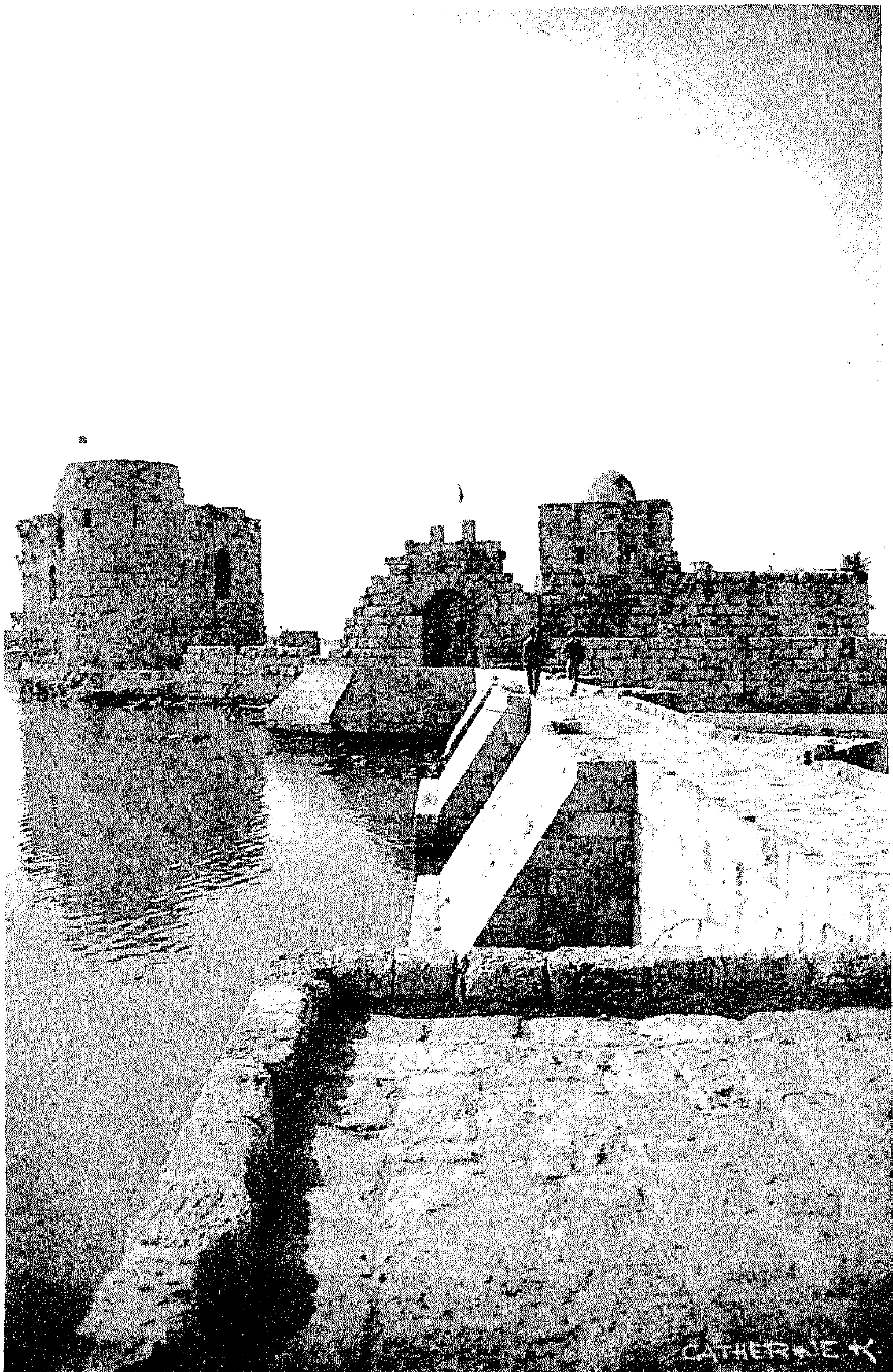
عين القبو قرب بسكنتا: كتابة يونانية فوق قنطرة العين من أثار أمراء المردة.



بعلبك وهياكلها.



قلعة جبيل الأثرية.



قلعة صيدا الأثرية.

النشر والتوزيع: دار ملفات ش. م. م.
فغال، جبيل، لبنان، ملك نديم جبر
ت: ٠٩/٩٤٢٣١٦ ـ ٠٣/٣٠٦٠٠٥